

مختارات من الأدب العالمي للشباب

مدام بوفاري

Madame Bovary

جوستاف فلوبير

إعداد وتقديم
وفيق صفوت مختار

دار الطائفة



فلوبيير، جوستاف

مدام بوفاري / Madame Bovary / جوستاف فلوبيير -

القاهرة: دار الطلائع، ٢٠١٨

٤٩٦ ص؛ ٢٠ سم (سلسلة من الأدب العالمي للشباب)

تدملك: ٤ ٨٣٢ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص الإنجليزية

أ - العنوان

٨١٣،٠١



٣٢ شارع أحمد فخري

- مدينة نصر - القاهرة

تليفون: ٢٣٥٤٦٣٩٢ (+ ٢٠٢)

فاكس: ٢٣٥٤٦٣٩٣ (+ ٢٠٢)

رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٥٨٧

الترقيم الدولي: 4 - 832 - 277 - 977 - 978

تصميم الغلاف الفنان: إبراهيم محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة للناسر

E-mail: info@altalae.com

Web site: www.altalae.com

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب
دون إذن كتابي سابق من الناسر، وأية استفسارات تطلب على عنوان
الناسر.

مقدمة

هذا هو الإصدار العاشر من سلسلة الأدب العالمي للشباب، والذي نُقدّمه ونحن علي ثقةٍ بأنّه سيكون بإذن الله تعالى عملاً متميزاً وفريداً في دقة اختياره، وطريقة عرضه.

لقد قمّت بالاطلاع علي أغلب الإصدارات العربيّة التي تناولت رواية "مدام بوفاري" للروائي الفرنسي الكبير "جوستاف فلوبير" بالترجمة، كي يتسنى تقديم الأجل والأحق بالقراءة الممتعة الشيقة. ولقد كانت الترجمات التي تمكنت من العثور عليها قليلة بعض الشيء، إلّا أنّها كانت ترجمات تتسم بالعدوبة والأسلوب الجيد في مجمله.

وكما هو مُعتاد في منهجنا الذي قد ارتضيناه منذ البداية فقد تخلّصت من الأحداث الغارقة في التفاصيل التي قد لا تخدم العمل الذي نُقدّمه. كما حاولت الابتعاد عن الكلمات الصّعبة التي جاءت في بعض الترجمات علي الرغم من قلّتها.

وبعد هذه المُعالجات الفنيّة والدراميّة للرواية أري أنّها أصبحت مُعدة للقراءة السهلة اليسيرة، في عدد صفحات ملائم للغاية، دون أن يؤدي الاختصار إلي أي خللٍ في مسار الأحداث، أو بنيّتها الدرامية.

حافظت بالطبع علي ما جاء في النّص الأصلي للرواية الذي كان مصدرِي الرّئيس في تقديم هذا العمل، والابتعاد تماماً عن النّصوص التي



جاءت منسوخة بشيءٍ من الاختصارات المُخلّة إخلالاً أضر بالعمل الأصلي للرواية.

وبهذا أكون قد انتهجت الفلسفة التي تتبناها في دار الطلائع للطبع والنشر والتوزيع بقيادة الكاتب والناشر الصديق "عبد اللطيف عاشور"، التي تُحتم علينا تقديم تلك الأعمال العالمية الفريدة علي أعلى مستوى من الكفاءة، والأمانة، والمصداقية، والشفافية، مع العرض الشيق الرشيق للأحداث، وكذلك الحفاظ علي المضمون الأصلي للرواية شكلاً ومضموناً، وفقاً للترجمات الأكثر رصانة ومصداقية.

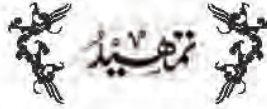
كما أود أن أنوه بأن كافة العناوين الرئيسة لفصول الرواية قد تم وضعها بمعرفتي الشخصية، وذلك لخلق نوع من الجاذبية والإثارة التي لا بد منها. كما حاولت في هذه الرواية تحديداً أن أعرج إلي تفسير بعض المصطلحات والمفاهيم التي وردت ضمن سياق الرواية.

وكما هو معتاد مع سائر الروايات التي صدرت من قبل فإنني أقدم تمهيداً يسبق فصول الرواية وأحداثها للكاتب أو الكاتبة أحاول فيه أن أسرد السيرة الذاتية من جهة، والسيرة الأدبية من جهة ثانية، مع تدعيمها بالصور التي تخدم الموضوع بما يُحقق للقراء متعة إضافية.

خالص الأمنيات بقراءةٍ ممتعةٍ شيقَةٍ.

وفيق صفوت مختار

القاهرة، في نوفمبر 2017.



الأديب الفرنسي الكبير "جوستاف فلوبير" Gustave Flaubert رائد الرواية الواقعية الحديثة، والذي يعتبر واحدًا من أكثر الروائيين شهرة في تاريخ الأدب العالمي. كان يراه الفرنسيون رجلاً غير عادي، وعبقريًا. كان طويل القامة، قوي البنية، عالي الجبين، بأنف يشي بالقوة، كت الشاربين، وحاجبين يحتضنان عينا طائر بحري زرقاوين، وقد مال في شيخوخته إلى البدانة.

لا نعرف غيره كرس نفسه لفنّ الأدب بمثل هذا النشاط العنيف الذي لا يخبو. ولم يكن الأمر معه كما هو بالنسبة لمعظم المؤلفين الآخرين الذين يرون أنّ الأدب وإن كان نشاطًا علي جانب كبير من الأهمية، إلاّ أنّه يسمح لهم بمزاولة أوجه نشاط أخرى تريح الذهن أو تنعش الجسد أو تثري التجربة. لم يكن فلوبير يعتقد أنّ العيش هو الغرض من الحياة، وإنما الغرض من الحياة في نظره هو الكتابة، ولو يوجد راهب في صومعته ضحي مختارًا بلذات الدنيا حبًا في الله أكثر ممّا ضحي "فلوبير" بثناء الحياة وتنوعها في سبيل إبداع عمل فني متميّز ومتفرد.

لقد اعتنق "فلوبير" حكمة الأديب الفرنسي "جورجس لويس ليكليرك" Georges Louis Leclerc، المشهور باسم "بوفون" (1788) Buffon (1707-)، التي تقول، إنّهُ لكي يجيد الإنسان الكتابة فعليه أن يجيد الإحساس والتفكير والحديث. وكان يتبع الرأي القائل بأنّه لا توجد طريقتان لقول الشيء، إنّما هناك طريقة واحدة، وأنّ اللفظ يجب أن يناسب الفكرة مثلما يناسب القفاز اليد.

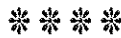


كان يرغب في كتابة نثر منطقي رشيق متنوع. وكان يتطلع إلى أن يجعله إيقاعاً رناناً وموسيقياً كالشعر، وأن يحتفظ له مع ذلك بمزايا النثر. وكان على استعداد لاستخدام كلمات الحياة اليومية والألفاظ السوقية إذا اقتضي الأمر، مادام يستطيع استخدامها بحيث يخلق شيئاً جميلاً.

ويعتبر "فلوبيير" مثلاً أعلى للكاتب الموضوعي، الذي يكتب بأسلوب دقيق، قوي في تصوير الطبيعة البشرية، واختيار اللفظ المناسب والعبارة الملائمة في كل ما يكتب.

لقد أرسى قواعد المدرسة الواقعية في الأدب، و تعتبر روايته "مدام بوفاري" Madame Bovary أول رواية واقعية، يقول "فلوبيير": "أرى الماضي خطأً، والمستقبل براعم لم تتفتح بعد. وإنما بينهما أعيش.. كل شيء مشوش، غامض. فلا القديم مات كلياً ولا الجديد ولد فعلاً".

هذا أديب ممن أسعدهم الحظ فلم يرتزقوا عن طريق أقلامهم، فقد كان له من الدخل ما يكفيهِ، ولهذا خصَّص نفسه لأدبه منذ سنَّه الباكرة، وعني بتجويد أدبه عناية نادرة بين الأدباء الذين تدفعهم ضرورات العيش في كثير من الأحيان أن يرسلوا إلى المطبعة بما لم يجدودوه.



وُلد "جوستاف فلوبيير" في الثاني عشر من شهر ديسمبر عام 1821، في مدينة "روان" Rouen (شمالي فرنسا) لعائلة بورجوازية من الطبقة الغنية. وكان الابن الثاني لأب يدعي "أشيل كليوفاس فلوبيير" (1846-1784) Achille Cléophas Flaubert الذي كان طبيباً جراحاً بدير مستشفى "أوتيل ديو" في تلك المدينة. أمًا والدته "أن جستين كارولين فليريو" (1872- 1793) Anne Justine Caroline Fleuriot ، فكانت تنسب من ناحية والدتها إلى أقدم الأسر في مقاطعة نورماندي.



وكانت شديدة الاعتداد بنفسها، وقد أورثت ابنها "فلووير" الاستعداد لاضطراب الأعصاب والميل إلى احتقار النَّاس العاديين، ومهما يكن من أمر فإنَّها كانت شديدة الحنو والمحبة والاعتناء بابنها، وكان هذا من أسباب إعراضه عن الزواج.

وقد عرف الصُّبي منذ طفولته رثابة الحياة الريفية حيث تذوق دون شك طعم الملاحظة الدقيقة. كما شب في "روان" حُرًّا طليقًا.

وفي شهر فبراير عام 1832، ألتحق بالمدرسة الثانوية الملكية في "روان" متأخرًا حيث تجاوز عُمره العاشرة، وكان ذلك سببًا في نزعة الخجل التي لازمته طوال حياته.

كانت دراسته الثانوية كئيبة. فقد كانت: "الحياة في مدرسة داخلية قاسية؛ المباني بدائية تفتقر للدفء؛ النظافة ولدت رغبة غير متحققة في أشياء كثيرة؛ الانضباط كان صارمًا؛ والتمردات الطلابية ليست أمرًا غريبًا".

لم يبذل "فلووير" في دراسته جهدًا ملحوظًا، وإن ظهر تعلقه بالأدب مبكرًا، ففي الحادية عشرة من عُمره اشترك مع بعض زملائه في تمثيل رواية من تأليفه.

ولم يغادر "فلووير" مسقط رأسه إلا في عام 1840، عندما جاء إلى باريس لدراسة القانون بناءً على رغبة والده. ولم يجد في العاصمة ما يلهيه، وكان برماً بدراسته. لكن ساعده على احتمال هذه السنوات القاتمة أنَّه كان يهرب من باريس، من وقتٍ لآخر، لكي يتمتع بحرارة الشمس وجمال المناظر الطبيعية. لكنه ما لبث أن تخلَّى عن دراسة القانون وتفرَّغ للأدب، وقد كان يتردَّد من الحين إلى الحين على مرسم "براديه" وهناك لقي في أحد الأيام الأديب الكبير "فيكتور هوجو" (1802 - 1885) Victor Hugo، وعرف



السيدة "لويز كولييه" Louise Colet (1810-1876) وهي سيدة باريسية أرستقراطية وكاتبة أيضاً، كانت تدير صالوناً أدبياً العاصمة الفرنسية، حيث اجتذب العلماء والأدباء ونخبة المجتمع. وكانت تناقش فيه القضايا السياسية والاجتماعية والاتجاهات الأدبية الحديثة. وكان "فلوبير" ممن يترددون على صالونها.



هكذا كان حال "فلوبير" عندما جاء باريس، لدراسة القانون، وقد سئم الحياة فيها، وكره ما يسمي "حياة الطلبة"، ولم يكن قد وضع خطة لحياته الأدبية بعد. وكان يقضي معظم أيامه وحيداً في شقته الصغيرة، لا يكاد يفتح كتاباً في القانون حتي يطوي صفحاته ويستلقي ساعات في فراشه مدخناً حائماً، فقد صار ممن يؤثرون الاسترسال مع الأفكار والقوص في التأمل العميق.

لم يكن "فلوبير" في طفولته أو شبابه كثير الأصدقاء، وقد وصفته سيدة عرفته في مطلع شبابه، فقالت: "كان جوستاف فلوبير في ذلك الوقت يبدو كأنه يوناني في مستقبل العمر، وكان طويل القامة نحيف الجسم رشيق الحركة كالرياضي المصارع، غير شاعر بمواهبه العقلية والجسدية، وغير حافل بتقاليد المجتمع.. وحينما قلت له إن التفوذ والشهرة من الأشياء المرغوبة والتي لها قيمتها، أصغي لحديثي في غير اكتراث وقد علا وجهه الابتسام، وكان يعجب بما هو جميل في الطبيعة والفضن، وقال إنه سيعيش من أجل ذلك دون أن يفكر في مصلحته الشخصية، ولم يحلم قط بالمجد أو المنفعة. وكان الذي يفيض على نفسه السرور أن يجد شيئاً يبدو في فرديته القوية، والذي ينقص طبيعته هو الاهتمام بالأشياء الخارجيّة النافعة، فإذا سمع قول الناس أن الدين والسياسة أو الشؤون العملية مشوقة مثل الأدب والفضن، فإنه يفتح عينيه عن التعجب والرتاء لحالة القائلين بذلك".

وبينما كان في يوم من أيام عام 1844، علي طريق جسر "الأسقف" أصيب بصدمة عصبية، الأمر الذي دفع والده إلي منعه من إكمال دراسته، وعاد به إلي "كرواسيه" Croisset قرب "روان" طلباً للراحة. وعلى إثر المرض الذي اشتد عليه، كانت نصيحة والد "فلوبير" لابنه الشاب حينها أن يتفرغ للأسفار الطويلة على أمل أن يتجاوز المرض وأن ينعش روحه بالغربة والاكتشاف، وذاك فعلاً ما حدث.

كانت سنة 1846 سنة حزن كبير، فقد توفي والده في شهر يناير، فدخل "فلوبير" في أزمة نفسية حادة تضاعفت بعدما توفيت أخته "كارولين" بعد ذلك في السنة التالية، هذه الصدمات النفسية بالإضافة إلى تدهور حالته الصحية حيث كان يعاني "فلوبير" من الأمراض التناسلية معظم حياته نتيجة علاقاته الجنسية مع البغايا.

أصبحت والدته تعيش في عزلة، فصمم علي مغادرة باريس التي كان لا يستريح إلي الإقامة بها، وترك دراسة القانون التي كان يكرهها وأثر أن يعيش في "كرواسيه" بمنزل يستطيع أن يري منه نهر السين والقوارب وهي تصعد فيه وتنحدر، وفي الضفة الثانية التلال المكسوة بالخضرة. وقد قضى في ذلك المكان أربعة وثلاثين عاماً حتي أدركه الموت.

وعلي الرغم من إضرابه عن الزواج، لكنّه أحب أكثر من مرة، فكانت أولي حبيباته فتاة إنجليزية تدعى "هنرييت كوليه" Henriette Collet وكان والدها ملحقاً بحرياً لبلاده في فرنسا. ثمّ أحب السيّدة "إليزا" زوجة السيّد "موريس شلزجر" التي كانت تكبره بتسع سنوات، وكان يصحبها مع زوجها وطفلهما في النزاهات والرحلات، إضافة للشاعرة السيّدة "لويز كوليه" Louise Colet التي اشتهرت بجمالها وشاعريتها، وكانت حينها في الثامنة والثلاثين من العمر وهو في الخامسة والعشرين، وقد تركته حينما اعتذر عن الزواج منها. وأخيراً حبيبته "جوليت دروييه" Juliet Darwier التي



أحبّها طوال حياته، والتي رسم ملامحها علي شخصية "إيما" Emma بطلّة روايته "مدام بوفاري".

وبعد سنة 1850 أصبحت حياة "فلوبير" مقصورة علي حوادث حياته الأدبيّة، وصار يقضي معظم العام في "كرواسيه" مقبلاً علي التّأليف، ولا يسمح لنفسه بالراحة إلاّ مدة أيام قلائل. وكان لا يذهب إلي "روين" إلاّ إذا كانت هناك بعض أعمال تقتضي ذلك. وحينما كان يزور "باريس" كان يجتمع بالكاتب والناقد الفرنسي "شارل أوجستان سانت - بوف" (1804 - 1869) Charles Augustin Sainte - Beuve، والشاعر والروائي "تيوفيل جوتييه" (1811 - 1872) Theophile Gutierrez. وغيرهما من الكُتّاب والأدباء.

مرّت الأعوام وتزوّجت ابنة أخته "كارولين" Caroline التي كانت تعيش مع أمّه ومعه في البيت، ثمّ رحلت أمّه عام 1872 فاشتدت ألامه، لذا قال متأثراً: "رأيت نفسي بعد خمسة عشر يوماً أنّ أمي المرأة الطيبة المسكينة هي الكائن الذي أحببت أكثر من غيره". بعدها غادر ضيعته إلى باريس التي عاش فيها نفس العزلة، وفي سنواته الأخيرة عاد إلى الضيعة حيث صار يقضي أكثر العام، ولا يذهب إلى باريس إلاّ نادراً وصار يضطر في الطعام والشراب والتدخين، فلقد تكاثرت عليه الهموم والأحزان، وكان بطبيعته ميالاً إلى الحزن والتشاؤم، وقد قوّي هذا الميل في نفسه تقدّم سنه، كذلك الأحداث السياسيّة غير المواتية، وما لقيته رواياته الأخيرة من قلة الرواج وسوء التقدير ممّا أدّى ندرة موارده الماليّة. يُضاف إلي ذلك تعرّضه لنوبات صرع غامضة كانت تهاجمه فتشكّل خطراً مستمراً علي حياته، كما فقد صداقة "مكسيم دي كامب" (1894 - Maxime Du Camp)، فحفت به العزلة الموحشة القاتلة. ولم تسعده هذه الفترة سوى رعاية نسيبته مدام "كومنفيل" Comneville وصداقة "جورج صاند" (1804 - 1876) George Sand التي ساندته وكتبت إليه رسائل

تشجيعية تتضمّن الكثير من التقدير والاعجاب، كما راقه تفتّح ملكات تلميذه "جي دي موباسان" (1850-1893) Guy de Maupassant، وكان قد علّمه العناية الشديدة بالأسلوب، ووجد فيه بحق خير متمم لرسالته ومقدر في الكتابة الفنية لطريقته وخطته.

تطرّق الإعياء حتي نخاع عظامه، وقد كتب يقول: "إنني همجي، فلي من الهمجي فتور العضلات، وتهذّل الأعصاب، ولي عيناه الخصران وقامته الطويلة، لكن لا ينقصني اندفاعه، وعناده وسرعة غضبه". وفي الحقيقة كان يعلم "فلوبيير" كيف يدافع عن حرّيته بطريقة عنيفة. لكنّه كان شديد الإخلاص أميناً علي العهد، رقيق الحاشية، ولم تكن دعاياته الصارخة التي لا ينضب معينها لتخدش عاطفة أحد مطلقاً.

في السّاعة الحادية عشرة من صباح يوم الثامن من شهر مايو عام 1880، دخلت عليه الخادمة حجرة مكتبه كي تُقدّم إليه الطعام فوجدته ملقى على الأريكة يتمتم بكلمات متقطعة غير مفهومة، فسارعت إلى إحضار الطبيب الذي لم يستطع أن يفعل شيئاً وبعد أقلّ من ساعة لفظ آخر أنفاسه الأخيرة. يُقال أنّها سكّنة قلبية. رحل وهو في الثامنة والخمسين من عُمره.

وكانت جنازته في اليوم الحادي عشر، وقد شيّعه زمرة من أصدقائه علي رأسهم "إميل زولا" (1840-1902) Émile Zola، و"موباسان"، ولم تلق علي قبره سوي كلمة وداع واحدة من "لابيير" أحد أصدقاء أسرته وصاحب مجلة كانت تصدر في "روان".



قرّر "فلوبيير" في عام 1830، مثل عدد لا يحصى من المراهقين البرجوازيين، بأن يصبح كاتباً، "دعونا نُسمّم أنفسنا بالحبر، طالما أنّنا نفتقر إلى رحيق الآلهة".



دأبت خادمة الأسرة على إشباع خيال "فلوبير" بالكثير من القصص والحكايات فلما التحق بالمدرسة بدأ ميله واضحاً إلى دراسة التاريخ، وشغف بقصصه.

كان "فلوبير" يكتب دون علم أبيه الطبيب الذي كان يريد أن يجعل ابنه جراحاً بارعاً مثله، لكنه صرح والده بعد حصوله على شهادة الثانوية بعدم رغبته في دراسة الطب، فاقترح الأب عليه أن يكون محامياً.

لم يلبث "فلوبير" أن ضاق بالقانون والجامعة وباريس، وصمم على أن يحترف الأدب، وانكب على قراءة كتاب "دون كيشوت" للكاتب المسرحي الإسباني "ميغيل دي سرفانتس" (1616-1547) Miguel de Cervantes، وقد صار هذا الكتاب المنيح الأول لفلسفته وتحت تأثيرها كتب عدداً من المسرحيات والروايات التي.



ألف "فلوبير" عدة مسرحيات وقام بتمثيل دور البطولة فيها مع أخته ببيتهم، لكن هذه المسرحيات لم تعجبه، فبدأ بكتابة القصص والموضوعات غير التمثيلية مثل "الشهوة والفضيلة"، و"رقصة الموت"، وكتب عدة أبحاث ومقالات عن "روما والقيصرية"، و"أدب رابليه"، و"أدب الشاعر كورني".

• فلوبير في شبابه •

وفي سنة 1834 حرّر في جريدة "فن وارتقاء"، حيث كان للأخبار المسرحية أهمية كبرى.

وخلال صيف 1836، التقى "موريس شلزنجر" وامراته "إليزا"، التي علق قلبه بحبها دون أمل. وكان هذا الحب نواة كتابه "التربية العاطفية" الذي صدر عام 1843. ثم ابتدأ كتابة "مذكرات مجنون" عام 1838 وفي السنة التالية كتب "فلوبير" كتابه "حلم الجحيم واليد الحديدية"،

وفي الوقت نفسه نشر في مجلة أدبيّة روائية أسماها: "الطنان"، مؤلّفه الأول، "درس طبيعي".

لقد ألزم نفسه بنظام وعادات صارمة حيث كان يستيقظ في العاشرة صباحاً ويبدأ بمطالعة الصحف والرسائل الواردة إليه، ثم يتناول غداءً خفيفاً في الحادية عشرة، ويقضي السّاعتين التاليتين متكاسلاً في الشرفة أو جالساً في جناحه يقرأ، وفي السّاعة الواحدة ينكب على الكتابة حتى السّاعة السّابعة مساءً، ثم يتناول عشاءه ويقوم بجولة في الحديقة ثم يعود بعدها ليستأنف الكتابة حتى ساعة متأخرة من الليل.

كان "فلوبير" يكتب مدة 14 ساعة في اليوم، يملأ سلة المهملات بالأوراق، ويستخلص جملة واحدة عرضية من بين ما كتبه!



بدأ "جوستاف فلوبير" رحلاته في عام 1840 في جبال البرانس وجزيرة "كورسيكا" Corsica وهي جزيرة فرنسيّة في البحر المتوسط، تقع غربي إيطاليا، وشمال جزيرة سردينيا Sardegna، وجنوب شرق فرنسا. وكان وصفه لجزيرة "كورسيكا" في الرسائل التي بعث بها لأصدقائه ينم على قدرته الفائقة على الوصف التي تجلّت بعد ذلك في مؤلفاته.

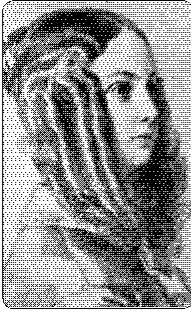
وفي 1849 قام بالرحلة إلى الشرق مع صديقه "مكسيم دي كامب"، وزار مالطة، ومصر، وسوريا، وفلسطين، والقسطنطينية، وأثينا، وجزء من بلاد اليونان. وفتن بما شاهد من مناظر، وعاش باقي أيام حياته يحلم بالعودة إلى تلك البلاد الحافلة بالأطلال والآثار التاريخيّة.

في زيارته لمصر، وصل "فلوبير" لميناء الإسكندرية. وقد كان في مهمة رسمية موفداً من وزارة الزراعة الفرنسيّة بغرض تسجيل تقارير عن طرق الفلاحة وحصاد المحاصيل في مصر. لكنّ في الحقيقة لم يكن "فلوبير"



مهتماً سوى بأمر واحد ووحيد؛ تسجيل كل كبيرة وصغيرة عن هذا الشرق؛
الغريب، الغامض، المثير للإعجاب والاستغراب.

بدأ رحلته مع صديقه "مكسيم" من الإسكندرية في اتجاه الجنوب مروراً
بأهرامات الجيزة. كانت تلك أول مرة يشهد فيها فلوبير الجمال والأهرام
والصحراء. كان مزهواً بكل تلك اللحظات التي كان يختبرها لأول مرة
بعدما رسمها في مخيلته سنوات طويلاً، حتى أنه لم يفوت فرصة تأريخ أول
لقاء له مع أرض مصر، إذ قال، "إنه شعور فريد وروحاني أن تلامس قدميك
أخيراً أرض مصر".



وقد أعجب "فلوبير" كل العجب بأهرامات الجيزة
وأبي الهول، وكتب في ذلك يقول: "بلغنا سفح التل الذي
تقوم فوقه الأهرامات في مساء الأربعاء يوم الجمعة
الموافق اليوم السابع من ديسمبر 1849، وأطلقت
العنان للجواد الذي كنت أمتطيه، وكذلك فعل مكسيم،
ووقفنا عند قدمي أبي الهول، ورؤية منظره الذي لا
يمكن وصفه طافت بذهني خواطر شتي، وحال لون
وجه صاحبي حتى صار في بياض صفحة الورقة التي

• لويز كولي •

أكتب عليها، وحينما أقبل المساء وغربت الشمس بدا أبو الهول والأهرامات
الثلاثة جميعاً وردية اللون كأنها غارقة في الضوء، ونظر إلينا هذا الوحش
الجبار العجوز نظرة جامدة مخيفة، وثن أنسي ما عشت الانطباع الغريب
الذي خلفه ذلك المتظر في نفسي، وقضينا ثلاث ليالٍ عند أقدام هذه
الأهرامات القديمة. والقول الصريح إنها رائعة، وكلما أطلت إليها النظر
كلما بدت لك أكبر وأضخم، وأحجارها تبدو علي مسافة عشرين خطوة مثل
أحجار رصف الطرق تقرب في الحقيقة من حجم الإنسان، وحينما تتسلقها
تزداد علواً مثلما يتسلق الإنسان جبلاً".

استكشاف مصر وجغرافيتها سيقود "فلوبير" إلى مدنٍ عديدةٍ أبرزها القاهرة، والإسكندرية، والمنيا، وأسيوط. "فلوبير" أعجب بالمصريين لكنّه بقي دائماً، للأسف، كأغلب المستشرقين حينها، محافظاً على تلك النظرة الدونية لكلّ ما هو شرقي. التقى بعددٍ من المسؤولين بصفته الدبلوماسية موفداً للدولة الفرنسية، وفي إحدى الليالي عندما كان "فلوبير" رفقة "سليمان باشا" (Soliman Pacha (1860-1788)، الذي عهد إليه "محمد علي باشا" بمهمة تكوين النواة الأولى للجيش المصري، لمح سيّدة فائقة الجمال أغرم بها "فلوبير" حد الهوس. إنّها الراقصة "كوتشوك هانم" (1850-1870)، والتي أصبحت شخصية رئيسة ورمز في رواية "فلوبير" الاستشراقية للشرق.

زارها "فلوبير" أثناء إقامته في مصر في رحلته إلى الشرق برفقة "مكسيم دي كامب". كانت "كوتشوك هانم" راقصة إغراء قيل إنّها مملوكة لـ "سليمان باشا"، أغرم بها "فلوبير" ووصفها بالتدقيق في رسائله التي كان يخطها من مصر إلى أصدقائه في فرنسا. في إحدى الرسائل لصديقه الشاعر "لويس بويي" ادعى "فلوبير" أنّه طارحها الغرام مراراً، وأنّها كانت تستحق كلّ لحظة أنفقتها معها، وفي سياقٍ آخر يصف "فلوبير" رقصة إباحية تسمّى "رقصة النحلة أو الدبور" كانت تجيدها "كوتشوك هانم" إذ تؤدي هذه الأخيرة دور نحلة تلسع "فلوبير" بكلّ إثارة وغواية.

صوّر "فلوبير"، مكتسباً نظرات والده الإكلينيكية الثاقبة، واقع الحياة المصرية خلال القرن التاسع عشر بشكل دقيق، لكنّ ما يُعاب على هذا التصوير الذي سجله "فلوبير" في مذكرات نشرت بعد عودته إلى فرنسا، أنّه تعامل مع هذه الحياة المصريّة وشخصها من "الغلاية" بنوع كبير من الاستعلاء والاحتقار، ربما أيقن "فلوبير" أنّ كونه رجلاً، أوروبياً، أشقر، ثرياً ومن دولة لها ماضٍ استعماري في مصر سيعطيه السطوة الكافية لكي يقوم بتقزيم الآخرين ويلبسهم جلباب التخلف. يقول "فلوبير"، عن مصر ما يلي:



"إنه بلد مضحك. بالأمس وبينما كنا في واحد من أرقى مقاهي القاهرة، كان معنا حمار ينهق ورجل يتبول في الزاوية. لم يستنكر أحد ذلك، لم يجد أحد ذلك غريباً".

ليواصل "فلوبير" كلامه النمطي عن الشرق وهذه المرأة عن المرأة الشرقية، إذ يقول ما يلي: "المرأة الشرقية لا تعدو شيئاً سوى ماكينة جنس، فهي لا تفرق بين رجل وآخر".

إن كتابات "فلوبير" وتجربته مع الشرق تطرّق لها بالنقد المفكر والمُنظر الأدبي - فلسطيني الأصل وأمريكي الجنسية - "إدوارد سعيد" (1935-2003) في كتابه الشهير "الاستشراق". حيث يؤكد أن كلّ ما قاله "فلوبير" يمكن فهمه إذا ما اعتبرنا حقيقة أنه نابع من دافع أيديولوجي محض مبرزاً أن أغلب المستشرقين الغربيين وقتها كانوا عملاء نشطين في السياسات الاستعمارية لدولهم وسعوا جاهدين إلى تبرير هذه السياسات. "إدوارد" تطرّق أيضاً للعلاقة التي جمعت "فلوبير" بـ "كوتشوك هانم" إذ يقول: "هي لم تتكلم عن نفسها أبداً، لم تُعبّر عن مشاعرها، حضورها أو تاريخها. هو، أي فلوبير، من تحدّث باسمها ومثلها.



ليطرح بعدها "إدوارد سعيد" السؤال عن الارتباط الدائم بين الشرق والجنس في المخيلة الغربية؛ قائلاً: "إنّ هذا الربط غير المفهوم لا يستند على أي أساس أو حجة وأن ما يحز في النفس هو أنّ فلوبير ليس أوّل من يقيم هذا الربط ولا أكثر من بالغ فيه".

• رواية مدام بوفاري •

إنَّها مُجدِّداً الفكرة الماركسيَّة ؛ "لا يمكنهم تمثيل أنفسهم، يجب أن يتمَّ تمثيلهم" التي حكمت علاقة "فلوبير" بالشرق. "فلوبير" الذي اختار عنوان روايته "مدام بوفاري"، وهو على ضفاف النيل، الذي نجح في إضفاء لمسة واقعية على شخص وقيمات رواياته بفضل ما عايشه من أحداث في الشرق ومصر خاصَّة، الذي زار الشرق وهو كاتب مغمور ليعود إلى فرنسا مُسلحاً بملذَّكرات صنعت له اسماً أدبيّاً، تنكَّر لكلِّ ذلك واختصر الشرق في كونه البلاد التي يفعل فيها ما يحلو له!!



ظهرت رواية "مدام بوفاري" Madame Bovary في مجلة "ريفو دو باري" La Revue de Paris من أوَّل أكتوبر 1856 إلى الخامس عشر من ديسمبر من نفس السَّنَة. والتي كان "فلوبير" قد بدأ كتاباتها في عام 1851.

لقد كانت هذه الرواية هي نصره الأدبي الكبير، التي درس فيها حياة الريف دراسة صَوَّرت الواقع في دقَّة تستثير الإعجاب وبأسلوب أخذ يستوقف المسامع.

لقد لاقت الرواية نجاحاً كبيراً بسبب جرأتها وصراحتها، وهو ما جرَّ علي "فلوبير" انتقادات وملاحظات لَمَّا حوته من بعض المشاهد الإباحيَّة.

لقد كتب "فلوبير" نصيحة مفيدة ضمن مراسلاته: "عش مثل برجوازي، وفكر مثل نصف إله. اتلَّ أحكامك بأعلى صوتك كي تختبر تجانسها وإيقاعها. لتتنقل وميض الإثارة الجنسيَّة إلى المشاهد الرومانسيَّة، عليك أوَّلاً أن تكتب نسخة إباحية وقحة ثُمَّ قم بتنقيحها". هذه العمليَّة، الأقرب إلى حرق البراندي قبالة حلوى عيد الميلاد، يبدو أنَّها أفلحت مع "مدام بوفاري". ففي يناير وفبراير 1857 شغل "فلوبير" بالقضيَّة التي اتهمته فيها السلطات بالخروج علي الأداب في "مدام بوفاري" وقد برأته المحكمة،



ولكن بعد أن أبدي القاضي ملاحظات شديدة حول قيمة الرواية من الناحية الأخلاقية.

بالتأكيد فإنَّ المُدَّعي العام لاحظ غياب أي شيءٍ "يشفّ أو يحجب" في أوصاف "فلوبير" التي تمَّ اعتبارها "فاحشة"، ومن المؤكّد أنه لاقى صعوبة في وضع إصبعه على أيّ فجورٍ واضح.

لقد استوحى "فلوبير" من أحداثٍ مختلفة ومن أشخاصٍ حقيقيين ليؤلّف هذه الرواية الواقعية. وقد كشف مؤلّفه هذا بنجاح الآلية الاستحواذية العائدة إلى الشهوة والجمال بأسلوبٍ جيد وصرّح. مستنداً في كلّ ذلك إلى توثيق قوي لإبراز هذه الخيانة الزوجية دون حذف أية حقائق أو تفاصيل.

بدا أنَّ الحوارات و الأوصاف والوقائع كانت ساذجةً أحياناً، لكنّها كانت من صلب الواقع المدقّق، تعطي انطباعاً حقيقياً. فقد كان لدي "فلوبير" موهبة الولوج أو الدخول في أحاسيس الشخصيات لإبراز مشاعرهم بطريقة أفضل: "عندما أكتب عن تسمّم إيما بوفاري أشعر في فمي بطعم الزرنيخ".

ولا شك أنَّ جمال هذا العمل الروائي يمتاز بالدقة، وذكاء الكاتب ونباهته، وحس الدعابة لديه، كلّ ذلك يجعل من "فلوبير" روائياً كبيراً وصل إلي درجة لا بأس بها من الكمال في الكتابة، بحيث يمكننا القول: إنّه من أبداع كتابة النثر الشعري، حتى إننا إذا أردنا أن نتكلم عن صناعة السينما مع ما تركه لنا "فلوبير" من الروايات الواقعية - أمكن أن نقول إنّ رواية "مدام بوفاري" رواية كلاسيكية رائعة مشوقة تصلح للإخراج السينمائي مراراً وتكراراً - إنّها رواية مؤثرة لمن يحب العبارات الشيقة والأسلوب المستساغ.



ولا نغالي إذا قلنا أنه قُدر لرواية "مدام بوفاري" أن تكون التحفة الرائعة في القصة الحديثة. فهي إنتاج يقوم علي الملاحظة الدقيقة المحكمة. وقد كُتبت في أسلوب رائع ومُجَرَّد من الزخرف، في الوقت نفسه، ولم يكن الأدب الواقعي لدي "فلوبير"، مطلقاً مُجَرَّد تصوير عادي للمظاهر السطحية. فقد درس كُل شخصية من الشخصيات دراسة وثيدة، ومهما كانت هذه الشخصيات غير ممتازة، فإنَّ كُل شخصية منها تبدو مُحَدَّدة تحديداً قوياً، وتختلف عن غيرها اختلافاً عميقاً.

ولا شك في أنَّ "إما بوفاري" بطلّة الرواية تعتبر أجمل شخصية نجح "فلوبير" في تصويرها؛ فهي تنبض بالحياة بصورة عجيبة، ومع ذلك، فإن تاريخ تدهورها، شيئاً فشيئاً، ينم لنا في الواقع عن تاريخ عدد كبير من النفوس. فالكتاب ينفذ إلي نموذج من الناس خلال تصويره لفرد واحد.

كانت "إما روو" Emma Rouault ابنة فلاح من "نورماندي"، وكانت ذات طبيعة خيالية لا تقنع أبداً. تريد التخلص من حياة الريف الرتيب. كانت تحلم أن تتزوَّج في منتصف الليل علي ضوء المشاعل، ولكن كان عليها أن تقنع بزواج بسيط ولما أرادت تزوّجت "شارل بوفاري" Charler Bovary، وهو طبيب من أطباء الأقاليم، لكنها لم تلبث أن وجدت أنَّ هذا الرَّجل الطيب كان رجلاً تافهاً، وضيق الأفق، ولا أمل في تغييره، وكادت تفقد صوابها بسبب الملل، وكان هذا الملل سبباً في أنَّها انسأقت، بكلِّ يسر، فوقعت ضحية سهلة لأوَّل رجل يزعم نفسه جميلاً، والذي بدا لها أنه يحقق مثلها الأعلى في الجمال.

وصادف أن دُعي الزوجان إلي حفل أقامه المركز "فوييسار" في قصره. وهناك دخلت "إيما" أخيراً في العالم الذي لم تكن شاهدته إلا من خلال قراءتها الرومانسية.

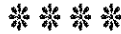
كانت ليلة لا تنسي! ولكن "إيما" لم تكن لتتحمل عودتها إلي الحياة البائسة في بيتها إلي جوار زوج ليس لديه رغبة من عيش.



وفي أثناء أيام طويلة من الملل، وقعت ضحية مرض عصابي، فقرّر زوجها "شارل" أن ينتقل بها إلى مدينة "أيونفيل" حيث تعرّفت هناك إلى شخصيات محلية: "هوميه" الصيدلي، "ليون" كاتب و موثق العقود، "رودولف" .. وبعد أسابيع من وضعها طفلة صغيرة، عشقت "رودولف" بجنون و أرادت أن تهرب معه، ولكنّه - بسبب - جنبه تخلي عنها واختفي.

وما علم زوجها أنّها سقطت مريضة من جديد و لازمت فراشها، فقد اصطحبها إلى المسرح في "روان" حيث عادت فالتقت "ليون"، الذي كان أحبّها فيما مضى، وسرعان ما أصبحت عشيقته.

بعد ذلك عاشت "إيما بوفاري" حياة كذب ونفاق و إنفاق وإسراف دون وعي، ما دفعها إلى الاستدانة بعد أن رھنت جميع أملاك زوجها، ولمّا وجدت نفسها في النهاية عاجزة عن سداد الدين انتحرت بتجرّعها الزنيخ.



وقد ظهرت رواية "سلامبو" Salammbo في عام 1862 بعد أن بذل "فلوبير" في كتابتها جهودًا أدبيّة ضخمة، وقام ببحوث تاريخيّة وأركيولوجيّة (علم الآثار). وهو هنا قد برع في وصفه وتصويره.

كان "فلوبير" يُصرّح: "لقد ضقت ذرعًا بالأشياء القبيحة والأوساط الرديئة.. فسأتجه إلى الحياة، عدة سنوات، في كتابة موضوع رائع بعيد عن العالم الحديث الذي سئمت منه كلّ السأم"، وكانت هذه الرواية هي هذا الموضوع.

لم تدفع "قرطاجة" أجور جنودها فحاصرها هؤلاء الجنود، وكان يقودهم "ماتو" الليبي، الذي كان يأمل أن يفتح المدينة، وأن يستحوذ علي "سلامبو" ابنة "هاملكار"، وكاهنة "تانيت" Tanit، وكان يهواها، لكنّ "ماتو" تسلل إلى المدينة بإرشاد عبد اعتقه هو "سبنديس" الإغريقي، فاختلس



الشعار الغامض الذي كان يحمي المدينة، وهو وشاح الإلهة المقدس، الذي كان قد عهد إلي "سلامبو" بالمحافظة عليه.

ولمّا أسرع "هاملكار" إلي نجدة قرطاجة لم يستطع السيطرة علي الموقف إلا بشق الأنفس. لكنّ لمّا عاد الوشاح المقدس إلي المدينة، بفضل إخلاص "سلامبو" التي لم تردّد في التسلّل بدورها إلي معسكر الثائرين، أصبح الحظ في جانب المدينة مرّة أخرى. وعبثًا حاول "سبنديس" إخضاع المحاصرين عطشًا، وذلك بقطع قنوات الماء التي تصل إلي المدينة، ذلك لأنّ الإله "مولش" Moloch رق قلبه، بعد أن قدّمت إليه القرابين من الأطفال، فأرسل أمطارًا غزيرة. واضطر جانب من الجنود المرتزقة أن يحتمي بأحد مضائق الجبال المُسمي بمضيق "الفأس" فماتوا جوعًا.

أمّا الجانب الآخر فقد هُزم هزيمة تامة، في حين ترك أمر "ماتو" للغوغاء تصنع به ما تشاء. وذلك في نفس اليوم الذي تزوّجت فيه "سلامبو" الزعيم الجزائري "نار هافاس" Narr Havas في حفل عظيم. ووقع "ماتو" أمامها جثة هامة، وماتت هي بدورها، فكان ذلك اعترافًا صامتًا بحُبّها لهذا الثائر الهمجي.



لقد وجد "فلوبيير" نوعًا من الرّاحة عندما غمر قصّته بأضواء إفريقيا الجميلة، ومع ذلك، فإنّه يطبق علي هذا الموضوع البراق منهجه الصارم، الذي استخدمه في "مدام بوفاري"، إذ حاول أن يكون تخيّل لهذه الحوادث الماضية معتمدًا علي اطلاع واسع، وأن يوجه خياله، ويحدّده، بكلّ وسيلة تساعد علي معرفة حياة قرطاجة معرفة مضبوطة، كزيارة الأماكن، وفحص آثار الفنّ القرطاجني، ودراسة النصوص القديمة والحديثة، والتحقّق من أشكال الحضارات المشابهة أو القريبة.

رواية سلامبو.



هذا إلى أنه كان يري نفسه ليس بعالم آثار، وإنما هو رجل فن في إنتاجه، فكان يسد فراغ جميع الفجوات التي لم يجد عنها شيئاً في كل ما اطلع عليه، وكان يبحث في خلال العصور التاريخية والأجناس عن كل ما يمكن أن يسد النقص في نصوصه: ففي موطن ما كان يقتبس بعض صفات الرجل السامي في عهد التوراة، وفي موطن آخر كان يستعين بـ "سانت تريزا" فيأخذ عنها بعض سماتها لتصوير "سلامبو" ذات النزعة الصوفية. فالشيء الجوهري في نظره هو أن يؤلف شيئاً متسقاً لا نشاز فيه، وقد حقق ما أراد.

وهذا الكتاب ذو الروعة الفنية يضاهي في قوته كتاب "مدام بوفاري". ومن الطبيعي أن يكون الجانب النفسي فيه أقل نفاذاً وأكثر اختصاراً. فقد كان جل الاهتمام موجه إلى المظاهر الخارجية التي تتمثل فيها تلك الانسانية القديمة أمام ناظرينا، كأشكال الأثاث أو القصور، وألوان العواطف أو الأفعال. وتبدو هذه الرواية مثقلة بعض الشيء بكثرة الأوصاف فيها. وقد كان فلوبيير علي حق عندما قال عنها: "إن القاعدة كبيرة جداً بالنسبة للتمثال". ومع ذلك، فإن هذه الرواية تفوق أية محاولة أمكن القيام بها في هذا النوع، وذلك بسبب سعة الصور الطريفة فيها، وعظيم تأثير لوحاتها الدراماتيكية.

"سلامبو" قصة شخصية "فلوبيير"، أليست الرواية نوعاً من السفر إلى الشرق؟ إنها الرغبة نفسها في تبديل المشهد والإتكار ذاته للعالم، "إني أشعر بحاجة ماسة إلى الخروج من العالم العصري، الذي أرهقني ويشير اشمئزازي. غير أن هذه الغربة هي عمل فني بحد ذاته. سأرحل إلى أيونفيل. لقد سئمت كل شيء، أبحث الآن عن قيثارة أخرى أعزف عليه أنغاماً جديدة. فلنشرح بالصرخات، والصرخات المدوية". إنها فيض من الشاعرية الغنائية الغريبة يندفع معها الأديب في إحياء عالم زائل. وهي أيضاً شغفه بالتبحر في العلم، وخصوصاً إجلاله للتاريخ الذي يستطيع أن يروي غليله بوساطته.

حين وصف "فلوبير" معركة ماكار قال: "أني مولع بالتاريخ، فالأموات يروقون لي أكثر من الأحياء! فمن أين تنبع هذه الاستمالة إلى الماضي؟". لا يستهوي التاريخ "فلوبير" إلا بقدر يستلزم غياباً، غربة، أو انكماشاً علي النفس. إن التاريخ يقلقه أحياناً، "يخيفني موضوع قرطاجة في بعض الأحيان بحيث أتي علي وشك العدول عنه"!!

تحمل هذه الرواية الطابع الشخصي حتي في العطف أيضاً، وكان باستطاعة "سانت بوف" أن يمتنع عن الإشارة إلي هذا المظهر من الرواية القابل لجلب خلافات جديدة علي "فلوبير" مع العدالة. غير أنه ليس مخطئاً، ففي "سلامبو" بالفعل أكثر من ظاهرة سادية، و"فلوبير" لا يكتف، إلا في الخفاء، السرور الذي يناله من القسوة والأهوال المذكورة في روايته. أعلن لـ"إرنست فايدو": "لقد توصلت إلي الألوان القاتمة. بدأنا نسير بين الأموات ونحرق الصبية. سيكون بودلير سعيداً بذلك! أهـي رغبة التصادم؟ نعم، هناك شيء من هذا. لنكن شرسين.. فلنكسب عرقاً علي هذا العصر الرقيق، ولنغرق البرجوازي في الكحول حتي يلتهب فمه ويزمجر من شدة الألم".



"سلامبو" تُقرأ ككتاب منتخبات أدبية تتناول الشراسة. بتر الأعضاء صور طبيعية فيها. ترمز فيلة المقاتلين القرطاجيين المتوحشة، وأشلء اللحم المتدلية من أنيابها، إلي الشراسة المسيطرة. وتمثل الأسود المتثابة بعد اكتفائها بما التهمته من اللحم البشري خمول الضمير. وتتجلي الضراوة الشهوانية بكل بشاعتها في نهاية الرواية عندما يسلم جلد "ماتو" حياً، من قبل سكان مجاين ثائرين، وحتى النساء يتركن القيد لقساوتهن الشهوانية.



"سلامبو" تزخر بمشاهد القتل والذبح والتعذيب المفصلة. لا يكفي الدم المراق والصراخ الخارق وروائح الأجساد التي تشتعل أو تتلف لملء الفراغ. لا يبتعد الضجر والجمود كثيرًا عن الإفراط في الأهوال. يتمنى البرابرة المحجوزون الموت جوعًا علي أن يقتاتوا من لحوم رفاقهم الذين ماتوا. وفي الفصل الذي يصف فيه "فلوبيير" نزاع الجيش استطاع أن يترك العنان لميله إلي علم الأمراض وطبائعها: "لني أقرأ الآن العلوم الفيزيولوجية والملاحظات الطبية علي أناس يُعانون من المجاعة.. تقابل صور الدمار والتوق إلي العدم هواجس الداء.. إنه لشيء غريب كم أنا ميال إلي العلوم الطبية.. لني أتوق إلي التشريح".

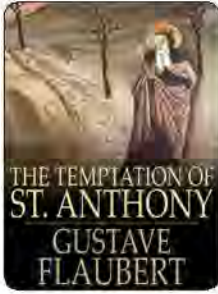
في المشهد الأول من "سلامبو" الذي يظهر فيه الإفراط في كُل شئ والعالم في نور خيالي، يثبت عنصر مألوف يقترن فيه الحرص والطمع والشراسة الحيوانية إلي رغبة جنسية مفترسة خفية، وتكاثر مذهل للأحداث (تعدد التقاليد وأنواع الطعام) لكي يؤدي أخيرًا إلي محاولة خرق المقدسات. إنه حلم المستحيل دائمًا! يقضي المرتزقة علي أسماك عائلة "باركا" المقدسة، فحُب الدمار هو أمنية عجز. ويلاحظ "فلوبيير" هنا أنه لا يوضح العلاقات الحميمة القائمة، فإن الجنود يرتوون ويشبعون، وهم مستندين علي مرافقهم في جلسة الأسود الهادئة بعد تمزيق فرائسها.. وكانوا يقلدون أصوات الحيوانات الضارية.. يا له من مزيج نادر وغريب للقسوة واللامبالاة بالجسد، وللأعمال العنيفة والسلوك المقدس! يتنافس النسبي والمطلق منذ البداية: إنه منطق لا يقبل حلًا. ومن هنا ينشأ الشعور، ولنقل المواقف، من خلال الرواية بأكملها. إننا نشهد حركات ضخمة وتنقلات عظيمة، ولا شيء يحدث رغم ذلك. يدرك "فلوبيير" بكل تأكيد هذه الأحلام حيث نريد أن نركض ونعدو، لكننا مرغمون علي الصمود في مكاننا.

في "سلامبو" لا يخفق العمل والحركة. كان الشاعر الفرنسي "شارل بودلير" (1867-1821) Charles Baudelaire متأثراً بالعظمة الملحمية للرواية، ويؤكد الفيلسوف والأديب الألماني الكبير "يوهان فولفجانج فون جوته" (1832-1749) Johann Wolfgang von Goethe أنه من الواجب مطالعة هذا العمل لا كرواية بل كقصيدة ملحمية، وقد تكلم "فلوبير" بنفسه بعد إتمام رواية "مدام بوفاري" عن هواجسه الملحمية. استهوته الملحمة كصنف ولون، وما انفكت تعمل علي استمالته.

كانت أمنيته الكبيرة أن يقرأ إلياذة الشاعر الملحمي الإغريقي "هوميروس" Homer الأصلية. تتجلى المواقف التقليدية للملحة في "سلامبو" إحصاءات وتنقلات هائلة للجيش، أو لأمة بأجمعها، مآثر عسكرية، صداقات حماسية، أعمال فردية تندرج في عمل جماعي شامل، دساتر ومكائيد.

ولعل من أهم الصور الملحمية في "سلامبو" وأكثرها إحياء لفضن "فلوبير" هي تلك التي تمزج بين الحركة والوصف، وتتحول الحادث إلي صورة. و"فلوبير" يؤدي هذا المزيج بين الحركة والسكون بإعجاب من طريق استخدامه الفعل الماضي بطريقة غريبة لوصف حركة معينة: "جذب هاملكار خنجرين كبيرين، ونصف منح، قدمه اليسرى إلي الأمام، عيناه متأججتان، كان يتحداهما، ثابتاً تحت الشمعدان الذهبي". وقد أحدثت الحركة، بخلاف عادات علم النحو، لا بالفعل الماضي بل باستعمال الفعل الناقص للوصف. إنه تبديل حرفي يشل تأثيره الحركة ويجمدها كتمثال أو نصب.





وظهرت رواية "التربيّة العاطفيّة" L'Éducation في عام 1869، والتي تعتبر واحدة من الروايات الأكثر تأثيراً في القرن التاسع عشر. والتي أشاد بها بعض الكُتّاب الكبار، أمثال "جورج صاند"، و"إميل زولا"، وكان قد انتقدها المؤلف بريطاني من أصل أمريكي "هنري جيمس" Henry James (1843-1916).

تصف الرواية حياة شاب يُدعى "فريدريك موريو" Frédéric Moreau الذي عاش خلال ثورة 1848 وتأسس الإمبراطورية الفرنسيّة الثانية، وحُبّه للمرأة الأكبر سناً. استناداً إلى "إيزا" زوجة السيّد "موريس شلزنجر" التي كانت علي علاقة عاطفية مع "فلوبير"، وكانت تكبره بتسع سنوات، وكان يصحبها مع زوجها وطفلها في التزهات والرحلات.

وقد كتب "فلوبير" عن هذا العمل في عام 1864، يقول: "أريد أن أكتب التاريخ الأخلاقي للرجال من جيلي، أو بشكل أدق، تاريخ مشاعرهم، إنّه كتاب عن الحب، والعاطفة". والرواية لم تلق إلا نجاحاً محدوداً.

وقد أصدر "فلوبير" رواية "إغراء القديس أنطونيوس" La Tentation de St. Antoine في عام 1874، الذي نشر فصولاً منها في صحيفة "جوتيه".

استوحى فلوبير القصة من لوحة موجودة في قصر بالبي Balbi في جنوة Genoa نسبت إلى بروجل الأكبر (1525-1569). Bruegel the Elder موضوعها يتمحور حول الإغراء العظيم الذي يواجهه القديس أنطونيوس في الصحراء المصرية.

كان من أهم شخصيات هذا العمل القديس أنطونيوس بطل الرواية الذي يؤمن أن العزلة هي أرقى شكل من أشكال العبادة والتقرب إلى الله كحال النساك والرهبان.

وهناك شخصية "أموناريا" إحدى صديقات شقيقته، حيث يواجه القديس أنطونيوس معركة شرسة بين رغبته لها، ورغبته في البقاء طاهراً وقديساً أمام الله. وهو يشعر بالذهول لأنه يشعر بأنه لا يستطيع السيطرة على شهوة جسده.

ولـ"فلوبير" بعد ذلك كتاب بعنوان: "ثلاث قصص" Trois Contes، صدر في عام 1877. هذا الكتاب الصغير في حجمه، والذي هو آخر مصنف قام بتأليفه، يعتبره البعض رائعة من روائعه العديدة، بل أكثر من ذلك، يعتبره بعض النقاد العمل الوحيد الذي حقق الكاتب خلاله نجاحاً لا يمكن أحداً أن يجادل فيه أويماري.

وإذا أخذنا في الاعتبار أهمية الروايات العظيمة السابقة علي هذا المؤلف، والأمال المعلقة عليها، فإن الحكم بأن هذا الكتاب رائعة من الروائع الخالدة لـ"فلوبير" هو حكم يحمل ظلماً وجوراً.

علي أنه ممّا لا شك فيه ولا جدال أن كتاب "ثلاث قصص"، رغم اختلاف الواحدة منها عن الأخرى، فيها خطوط مشتركة تميزها عن الأعمال الأدبية السابقة لـ"فلوبير" بشكل كبير.

هذا الابتكار وتلك الأصالة الأدبية اللذان يتمتعان بهما "فلوبير" يظهر بشكل أكثر بروزاً كلما اقتربت كل قصة من هذه القصص، بموضوعها وعصرها التي تقع فيه، من إحدى روايات "فلوبير" العظيمة التي سبقت هذا المصنف.

ثمّ أنه لأمر واضح أن القصة الأولى في هذه القصص الثلاث والتي تحمل عنوان "قلب طاهر أو بسيط"، تقترب بموضوعها المعاصر من رواية



"مدام بوفاري"، بينما الأسطورة وعنوانها: "القديس جرمان لوسيتالييه" تذكرنا برواية عنوانها "إغراء القديس أنطونيوس"، في حين أنَّ القصة الثالثة "هيروديا" ليست مقطوعة الصلة عن قصة "سلامبو".

وأخيراً صدر لـ "جوستاف فلووير" بعد موته المفاجئ كتاب "بوفار وبكيشيه" Bowvard et Pécuchet الذي لم يكن قد أكمله، وهو مجموعة صور نقدية للفنون والعلوم ولما في الحياة من صنوف العمل ووسائل اللهو وما إلى ذلك.



غلبت علي "فلووير" صفتان هما الحياء والكبرياء، والحياء بطبيعته يُعري بالكبرياء، كما أنَّ الكبرياء تزيد الحياء قوَّةً وغلبةً في النفس، وكان "فلووير" حيياً ومتكبِّراً إلى حدٍّ بعيد، فكان لا يحتمل المعارضة في المناقشة، وكان أصدقاؤه يعرفون ذلك ويتحاشون مخالفته خشية ثورة الغضب التي تتملَّكه وتُهدِّد حياته حينما يُعارضه أحد في ومذاهبه. وكان إلى ذلك شديد الاحتقار لأدب القرن التاسع عشر، كما يري أنَّ كلَّ ما لا يعنيه ليس له قيمة. وهذا المزيج من الحياء والكبرياء كان يجعله حريصاً علي أن يتحدَّث عن نفسه، ولكنه مع ذلك لم يكن يشعر بالارتياح في ذلك. وقد أفسدت سرعة غضبه ما بينه وبين صديقه الحميم "مكسيم دي كامب".

هذه الكبرياء المقرونة بالحياء وفقرط الحساسية جعلت "فلووير" يعيش في عزلة وتذمُّر دائم، فكان يحبس نفسه في صومعته في "كرواسيه" مضمراً الاحتقار للبشر، متطوياً علي أشجانه في إباء وصمت، ولا يسمح إلا لعدد

قليل من الأصدقاء بالاقتراب منه، ولم يسمح لأي امرأة أن تقتحم عليه عزلته لتؤنس وحشته برغم التوسل إليه للسماح بذلك، وقد عاش علي هذا النحو طيلة حياته، وقد أدرك منذ صباه أنه سيظل يعيش علي هذا النمط، ففي الثامنة عشرة من عمره كان يقول: "لا تحسبني متردداً في اختيار وظيفة، فأنا في الواقع لن أختار أية واحدة، لأنني شديد الاحتقار للناس إلي حد أنني لا أريد أن أسدي لهم خيراً أو أن أسبب لهم ضرراً".

وفي الخامسة والعشرين كتب يقول: "الجو أكدر، والنهر أصفر اللون، والأعشاب خضراء، ولا تكاد تظهر أوراق الشجر، إنها أخذة في الظهور، إنه الربيع أو أن الحب والسورور، ولكن قلبي ليس فيه ربيع.. ومن عجب الأمور أنني قد ولدت بمثل هذا الايمان القليل بالسعادة، وحينما كنت في أولى مراحل الشباب طالعتني صورة ما سألقي في الحياة من متاعب وهموم، لقد كانت تشبه رائحة المطعم الكريهة التي تنتشر من خلال النافذة، فقبل أن تمس الطعام بيدك تدرك أنه يسبب لك المرض".

وفي الثلاثين من عمره كتب يقول: "من يوم إلي يوم أشعر بأن نفوري من زملائي البشريزداد وهذا ما يسرني"، ويقول أيضاً: "أحب أن أري الإنسانية وكل ما يحترمه الانسان وقد هان شأنه واستخف به وسخر منه وكره وانتقص، وهذا سبب ما عندي من الاحترام القليل للانسان".

حساسيته هذه كانت تجعله سريع الغضب، وسرعة غضبه بدورها كانت تجعل الحزن غالباً علي طباعه، كما كان حزنه يحيله كارهاً لبني البشر، وكرهيته للبشر كانت تثير حقهه عليهم، ولذلك كان يمقت السذاجة والغباء ويحبهما في الوقت عينه، لأنه يجد فيهما مجالاً لإشباع هوايته في ازدراء البشر واستصغارهم، وهكذا كان "فلوبير" الكاتب الروائي الفنان الذي ينظر إلي الإنسانية نظرة خوف واشمئزاز وسخرية واستخفاف. وقد قضى حياته وهو يقول لنفسه ويعيد القول ويكرره إن الانسان صغير والفضن



عظيم، فهو يحتقر الإنسان، ولكنه في الوقت نفس يخدم الفن في حماسة وإخلاص وتفان.

و"فلوبير" كان ميالاً إلى الحزن، يستطيعه ويجد فيه متعة تبعته علي تحليله تحليلًا واقياً ليزداد تشبُّعاً به، وتقديرًا له، ومن أقواله في ذلك، "لم أر قط - طفلًا دون أن أذكر أنه سيصير شيخًا عجوزًا ضعيفًا، ولا رأيت مهذا إلا ذكرت القبر، وكلما نظرت إلي امرأة بدت لخاطري صورة هيكلها العظمي، ولهذا تحزنني المناظر المبهجة المفرحة، أما المشاهد المحزنة فهي لا تؤثر في نفسي كثيرًا".



وهذا الميل إلي تذوق الحزن واستكشاف الخفايا الغامضة واستطلاعها والتزوع إلي الشرق وأنواره الساحرة هي العناصر التي تتشكل منها النزعة الرومانسية، ولكنها ليست الأساس الذي تنهض عليه. إن أساس الرومانسية هو النشور من الواقع والرغبة الملحة في الضرار منه، ولذا تضيق الرومانسية بدقة الملاحظة، لأن الملاحظة تستدعي الخضوع للواقع، والاستعانة بالعقل في دراسته، وجعله نقطة البداية، ومحور التركيز والاهتمام، وهي تحرر نفسها من الواقع بوساطة التخيل والتعويل علي الحساسية الفردية.. فلوبير.

وبرغم العناصر الرومانسية التي كانت في نفس "فلوبير" فإنه كان يميل إلي مواجهة الواقع والتأمل فيه ودرسه. ففي السابعة عشرة من سني حياته كان يدون ملاحظاته عن الناس العاديين الذين يلقاهم، وعن مدرسيه وزملائه الطلبة، وقد نشأ قوي الملاحظة، نافذ البصر، قادرًا علي وصف الواقع، وكان معجبًا بكبار الشعراء الذين مثلوا النزعتين الرومانسية والواقعية مثل: المسرحي التراجيدي اليوناني "إسخيلوس" (525 - 456 bc)، والشاعر المسرحي الكبير

"وليم شكسبير" (1616-1564) William Shakespeare، والشاعر الانجليزي الذي يعتبر من رواد الشعر الرومانسي "جورج غوردون بايرون" (1824-1788) George Gordon Byron و"شاتوبريان"، والكاتب الفرنسي "فرانسوارابيليه" (1553 - 1483) François Rabelais، و"جوته" والكاتب والفيلسوف الفرنسي "فولتير" (1778 - 1694) Voltaire، أي أنه كان من جهةٍ يعجب بالذين أوتوا الخيال العظيم المحلق والذين وهبوا حس الملاحظة الدقيقة الحاسمة، وكان يحب أن يري الأشياء بدقة ووضوح بحيث لا تخفي عليه فيها خافية.

وكان في الوقت نفسه ميالاً إلي أن يتخيل المشاهد الضخمة، والمناظر الخلابة الضخمة، أي أن عقله كان موزعاً بين حب الاستطلاع للواقع والحاجة إلي انطلاق الخيال وخصوبته في آن معاً، وقد كانت مؤلفاته نتاج اجتماع هاتين النزعتين في نفسه، فبعد إصدار "مدام بوفاري" واقعية النزعة أخرج رواية "سلامبو" رومانسية النزعة. ويمكن الخلوص من ذلك كله إلي أنه كان في توالي مؤلفاته يرضي النزعتين الكامنتين في نفسه، وحين كان يؤلف ما يشبع خياله كان يعود بعد ذلك إلي تأليف ما يقنع نزعته الواقعية.



آمن "فلوبير" في أيام شبابه بالتيار الرومانسي وتأثر به مبدئياً معارضةً للقيم البورجوازية منتصراً بذلك للقيم الكونية التي تُعلي من شأن الآداب والفنون.

غلب عليه نفور عميق ومبكر من البشرية. لعل ذلك يعود لتأثير والده الجراح الشهير متفتح الذهن، أو لروح العصر التي كانت سائدة آنذاك، فالمغامرة النابليونية كانت قد انتهت؛ وشمس الرومانسية قد أفلت. وهذا ما يذكرنا بمقولة الشاعر والمسرحي الفرنسي "ألفريد دو



موسيه " (1810 - 1857) Alfred de Musset من كتابه "اعترافات
فتي العصر": "الشباب رأوا الأمواج ذات الزيد تنحسر بعيداً عنهم، وأولئك
المقاتلون المغطون بالزيت قد شعروا ببؤس لا يُطاق".

كان هذا العملاق الطيب يمقت الرّجل البرجوازي مقتاً شديداً، وكان
يقصد بالبرجوازي ذلك الرّجل الواقعي، محدود الأفق، الذي يجري وراء
الكسب المادي، والذي يُريد "الوصول"، ولكنّه يتظاهر بالازدراء الغبي
الفضّ تجاه هؤلاء الذين لا يعنون مثله بالكسب المادي، هذا إلي أن أمثال
هؤلاء قلّة نادرة في المجتمع الذي انحط إلي مرتبة الماديّة والنفعيّة،
هؤلاء القلة في نظر "فلوبير" هم: المفكرون والفنانون، الكائنات البشريّة
الوحيدة التي لها قيمتها في نظر، ذلك أنّه يري أنّ المعرفة هي الشيء
الوحيد الذي له أهميته.

وهو يؤمن بأنّ الفنّ ما هو إلّا إحدى طرق المعرفة، وأنّ الفنّ يظلّ هو
الطريق الوحيد الذي لا يخدع، أو يناور، ذلك أنّ المعتقدات تنهار، والمذاهب
الفلسفيّة يحل بعضها مكان بعض، أمّا الفنّ فهو الذي سيبقي وحده. وبفضل
حاسة الجمال، ينفذ الفنّ إلي أعماق الكون، بل يستطيع خلق عالم آخر،
وهو العمل الفني، ويصل المرء، في هذا العالم، إلي الحقيقة المطلقة، عن
طريق الجمال، وهو الشيء الوحيد الذي يدوم، ويدركه الناس علي مختلف
العصور والأزمان.



إنّ شهرة "فلوبير" بأنّه أستاذ للأسلوب تُطابق الواقع. ذلك أنّه أصبح
أستاذاً في هذه الناحية بفضل قوّة إرادته، إذ كان يُصحّح ويُعدّل كلّ جملة
كان يدونها، دون أن ينتابه الملل، ولذا فإنّ رواية "مدام بوفاري" استغرقت
منه ست سنوات متصلة من العمل، وتطلبت منه "سلامبو" خمس سنوات،
وكان قصارى ما يستطيعه هو أن يكتب عشرين صفحة في شهر، وذلك بالعمل

لمدة سبع ساعات يوميًا، أي بمعدل خمسة أيام لكل صفحة، فنجم عن ذلك أن اكتسب الأسلوب مسحة من الصلابة، بحيث يبدو أن كل شيء فيه قد أُعد مقدّمًا، بل هو كذلك بالفعل، لكننا نرى أيضًا أنه أسلوب كلاسيكي تمامًا، من حيث متانته، ووضوحه، وغازرة معانيه.

وكان الاتجاه الرومانتيكي لدى "فلوبير" هو الذي دفعه إلى الاستعاضة عن التعبير التجريدي بالمناظر الطبيعية ووصف الأشخاص والصور، وهي تبلغ من الوضوح عنده مرتبة لا يدانيه فيها أحد. فكان يتخير الكلمات دائمًا، ويوزع المقاطع بحيث تؤدي إلى الانسجام التام بين الجمل والموضوع الذي يصفه. ويبدو هنا أن الأسلوب الموسيقي المُعبر قد بلغ مرتبة عالية من الكمال.

إن ميول "فلوبير" تحدّد لنا خصائص أدبه: فهو يعجب بـ "هكتور هوجو"، والشاعر والناقد الفرنسي "نيكولا بوالو" (Nicolas Boileau (1711-1636)، والفيلسوف الفرنسي "شارل لوي دي سيكوندا" المعروف باسم "مونتيسكيو" (Montesquieu (1755-1689، والكاتب الفرنسي "شاتوبريان" (Chateaubriand (1848-1768، ومعنى ذلك أنه رومانتيكي كلاسيكي في آن واحد، أو نقول بعبارة أدق: إنه ليس رومانتيكيًا ولا كلاسيكيًا، فهو لم يعد رومانتيكيًا، ولا يستطيع أن يكون كلاسيكيًا، علي النحو الذي كان عليه الأدباء قبل ظهور الرومانتيكية. إذا، سوف يكون أشبه بمزيج تركيبى من الرومانتيكية والكلاسيكية، وهذا هو ما أطلق عليه بعضهم اسم "الأدب الطبيعي" رغم أن "فلوبير" كان يرفض هذا الاسم، ويسخر منه.

فكان مرتبطًا بالرومانتيكية من جهة تربيته. ذلك أنه ورث عن الرومانتيكية كراهية الرجل "البرجوازي"، والتعطش إلى ما يُوصف بالغربة والضخامة والطرافة. وكانت الرومانتيكية هي التي علّمته مهنة الكتابة، وكشفت له عن قيمة الكلمات من حيث قوّة التعبير، والموسيقى، وطرافة الوصف. وهي التي حدّدت ميله إلى محاولة بلوغ الكمال في دقة



التعبير - أو كان ذلك، في الأقل، هو تأثير الجيل الثاني للرومانتيكية في أسلوب "فلوبير" - لقد كان يتصبّب عرقاً من القلق عندما يختار نعتاً من النعوت، أو صفةً من الصفات، ولم تر منذ الشاعر الفرنسي "فرانسوا دو مالرب" (François de Malherbe (1628-1555). مثيلاً لـ "فلوبير" في اختيار مقاطع الكلمات.

لكنه يفترق عن الرومانتيكيين من هذه الناحية وهي: أنه أحس الحاجة إلي كبح جماح خياله، وارتضي أن يتلمذ علي تلك المدرسة الصّارمة، وهي الطبيعة. فأخذ ينسخ صور الطبيعة برفق، وأناة، ومثابرة، حتي يُعبّر عن طابعها الخاصّ الفريد في نوعه، ويبذل جهده كي يمحو نفسه من إنتاجه، أي لكيلا يترك فيه أثراً من آثاره، سوي تحكّمه في صنعته، فهو يريد أن تكون القصة موضوعيّة، وغير شخصيّة، وغير متأثرة بعاطفة. وقد كتب إلي "جورج صاند"، يقول: "أعتقد أنه لا يحق لكاتب القصة أن يُصرّح برأيه في أمور هذا العالم.. ولذا، فأني اقتصر علي عرض الأشياء علي النحو الذي تبدو لي عليه، وعلي التعبير عما يبدو أنه الحق، ولا أهمية لما يترتب علي ذلك.. وأني أريد أن أكون مُجرّداً من الحُب والكراهية والشفقة والغضب.. ألم يحن بعد الوقت لادخال العدالة إلي مجال الفن؟ لو فعلنا ذلك لبلغت الحيدة في التصوير إلي عظمة القانون ودقة العلم".

وهذا نصّ غاية الوضوح. وهكذا، لن تكون القصة بعد الآن مجالاً لاعتراف الفرد بأموره الخاصّة، أو مسرحاً لخياله في أكثر الأحيان، بل ستكون مرآة لروح إنسانيّة أو لوحة من الحياة. وبهذه النظريات يقترب "فلوبير" اقتراباً محسوساً من النظرة الكلاسيكيّة.

يري "فلوبير" أن الأديب، كالممثل، يجب أن يخاطب الجمهور رأساً. فلماذا يتكف أعماله بالمقدمات؟ هو يؤمن بحقيقة واحدة: أولوية الفنّ علي الحياة. وهو يُصرّح بأنّ الواقع ليس شرطاً أساسياً في الفنّ، بل إنّ مهمة

الكاتب هي أن يتوق نحو الأجل، ولذلك يجب الاهتمام بعنصرين أبديين: الشعر والإنشاء.



علي أن التفاصيل كما يقول لا تستدعي اهتمامه، لأنه يعتبر التفاصيل التقنية والمعلومات المحلية وأخيرًا الناحية التاريخية موضوعًا ثانويًا. فعندما كان يؤلف رواية "مدام بوفاري" اعترف، قائلاً: "أريد أن أنقل كل ما أري ولكن ليس علي حاله بل مختلفًا. فالإنشاء الصحيح هو أروع من الواقع، فكلمة "مختلفًا" هي الأهم في هذا الموضوع. ليس علينا أن ننقل الحقيقة ونظل عبيدًا لها، بل أن نمتلكها ونسيطر عليها. فتشويه الحقيقة

هو في الواقع سبيل إلي رفضها". وهكذا لا "فلوبير.. شامخًا رغم الوحدة والآلام.. يجد "فلوبير" بتشأومه لذته في الحياة اليومية إلا لكي يهرب منها، ليصبح الأدب في هذه الحال أداة للحرية وسبيلًا للنجاة.. يقول: "عندما لا أحمل كتابًا أو لا أرغب في أن أكتب.. يغمرني شعور كبير بالملل".

و"فلوبير" يستوحي معظم مؤلفاته من الواقع العادي، حتي أنه يخلق الدامة، إنها الكراهية المحببة إلي الحقيقة، ورغم ذلك لا يكف عن إظهار اشمئزازه واحتقاره لهذه الحقيقة الوضيعة التي تجذبه. لقد كتب إلي رئيس تحرير المجلة التي كانت تنشر روايته "مدام بوفاري" في حلقات، قائلاً: "لو أنك تعرفني حق المعرفة لكنت علمت مدي كراهيتي للحياة العادية.. يظنون أنني أعشق الواقع لكنني أكرهه".



علي أننا لا يمكن أن نعتبر تصرفه هذا بغضاً للواقع أو للمذهب الواقعي، إذ علينا أن نميز بين هاتين الناحيتين. إن "فلوبير" يقيم ثمة مساواة بينهما ما يُثير في ذاته توترًا دائمًا، فهو يتقيد من جهة بالمواضيع كما في كتابه (هي أثناء حكم نابليون الثالث)، و(البورجوازيون في القرن التاسع عشر)، ومن جهة ثانية يتحامل بشدة علي المواضيع الواقعية تاركًا لأهوائه العنان. إنه تناقض وتباعد ليس فقط في المعطيات الفنية بل في المتطلبات السيكلوجية أيضًا. فالقن يعني له الهروب من الحقيقة التي يجب الاعتراف بعبثها. وينبع كره "فلوبير" للواقع من طبعه التشاؤمي، لكن هذا التشاؤم هو نقطة انطلاق للبحث المتواصل عن المثل العليا.

"فلوبير" يعتقد أن جوهر الأدب يكمن في الشعر، وهو مقتنع تمامًا أن من واجب الكاتب أن يغوص في أعماق أسرار اللغة. والموهبة الأدبية تعني صراعًا قائمًا مع الكلمات، وشغف للقافية الرنانة، وسعيًا لخلق عبارات وإيقاعات محسوسة. وتربطه المضادات العنيفة وولعه بالألوان ارتباطًا وثيقًا بالرومانسية التي لم ينكرها مطلقًا، مشابهاً في ذلك "شارل بودلير" الذي يفتخر بحمله جذور الرومانسية.

وقد رغب "فلوبير" في أن يعتبر نفسه آخر الكُتّاب الغنائيين، هذه السلالة المباداة. والغنائية تعني في مفردياته الميل إلي الأوهام، والحنين إلي المحظورات، وقدرة فائقة للحماسة. إنه يهوي التأمل، فقد وصف "فيكتور هوجو" بالرجل العظيم. وحينما يذكر الشاعر الروماني "فرجيل" Virgil (70-19) bc يقول: "عندما ننظر إلي العظماء و إلي الكمال كم نحترق أنفسنا". ويقول أيضًا: "يُخيل إلي أنني إذا شاهدت شكسبير سأرتعد خوفًا".

إنَّ أهم ما يميز عبقرية "فلوبير" هو خياله. إنَّه خيال خليق بالمرض والجنون. فالمرض والألم والشعور بالفناء هي أهم أسس الفن. ثم يشله التشاؤم والكآبة ويبعده عن الإنتاج الوفير، فمن الألم تنبع أسمي معاني الحياة، وهو بحث ذاته سخاء وعطاء، وإذا ما فقد الإنسان فقد قيمته. ولذا فإنَّ نزعتة التشاؤمية لا تقعه عن الحركة والنشاط، بل هي تدفعه إلى الخلق الفني الرافي، يجد من الفن نفسه التأنه وشفاءها السريع. تزخر مراسلاته بكثير من الأمثلة، فقد كتب إلى "الفريد لوبوتان" Alfred Louboutin يقول: "اعمل.. اكسب.. اكتب مادمت قادرًا علي ذلك.. فنحن لا نشعر بثقل الحياة علي كاهلنا ما دمنا نؤلف". وبعد مرور ثلاثين عامًا وجه رسالة إلى الروائي الروسي "إيفان تورجنيف" (1883-1818) Ivan Turgenev جاء فيها: "لا يجب أن نهذا أبدًا، ففي هذه اللحظة بالذات نفكر بأنفسنا أكثر ونشعر بالمرض فعلاً. فماذا هناك أرقى من الفن؟ إنَّه السبيل الوحيد للخلاص.. للكمال والتحرر".

كان "فلوبير" يعمل ساعات طويلة متواصلة و يدعو الجميع إلى التمثل به، وإلى اللجوء إلى العمل والتأليف، فبالعمل المجدي تتحدى الحياة والملل والفناء. إنَّه تحد يصل إلى درجة الكبرياء. إنَّ رسائله تحمل ثمار أفكاره، يشملها إحساس غريب، إنَّها اللذة الأليمة التي يولدها الإبداع الفني. شرح لصديقه الكاتبة "لويز كوليه" بإسهاب معاني الفن السامية: "...حينما تجددين نفسك وحيدة في غرفتك، أو تنظرين إلى اللهب في الموقدة، تشعرين أنَّ لاشيء يدعمك ولا تعتمدين علي أحد، عندئذ تحت مغبة الوهن تُبعث فجأة إلهة الشعر من أعماقك، وتعرف لحناً حزيناً وفرحاً معاً يشبه لحن القتال، لحناً يتحدى الحياة".





• الكتابة عند فلوبير السبيل
• الوحيد للتحرر والخلاص •

وهناك فكرة غالبية علي تفكير "فلوبير"،
وهي أن الأدب يجب أن يكون "غير شخصي"
أي أنه يجب ألا يظهر المؤلف في مؤلفاته،
ويجب ألا يقحم مشاعره وأفكاره ومعتقداته،
ألا يجعل كتاباته تنم عن أفكاره وآرائه
وحالاته النفسية، وقد أكد هذه الفكرة
مئات المرات في الرسائل التي كان يبعث
بها إلي الأديبة "جورج صاند"، قال عن

روايته "مدام بوفاري": "موضوع الرواية وشخصياتها وتأثيراتها كل ذلك
خارج نفسي، واعتقد أن هذا ما يجب أن يكون، وما تكتبه لا تكتبه لنفسك،
وإنما تكتبه للآخرين، والفض لا شأن له بالفنان، فإذا كان لا يحب اللون
الأحمر أو اللون الأخضر أو اللون الأصفر فإن هذا مما يضر به، والألوان
جميلة، ولا بد من رسمها".

ويقول في رسالة أخرى: "ليس في إمكاننا أن نعرف هل شكسبير حزينًا
أو مسرورًا؟ وعلي الفنان أن يسلك بحيث يجعل الأجيال التالية تظن أنه لم
يعش قط، وكلما قلّت قدرتي علي تكوين فكرة عنه كلما بدا لي أنه أعظم
شأنًا، ولا أستطيع أن أتخيل شيئًا عن شخصية "هومبروس"، أو "رابيليه"،
وحيثما أفكر في "مايكل أنجلو" لا أري ظهر رجل مسن ضخم الجثة يعمل
في تحت تماثيله في الليل علي ضوء المشعل".

هذه الفكرة في حد ذاتها تؤكد الجانب الواقعي في "فلوبير"، لأن الفن
الواقعي قوامه الخضوع للموضوع ومحاولة النظر إليه في وضوح ودقة،
والمشاعر التي تهيج في نفس الإنسان في مواجهة الأشياء قد تجعله
يعمي عن حقيقتها وإنما يراها كما يود أن يراها، فالتجرد وعدم التأثر من

مستلزمات الواقعية، ونحن بطبيعة الحال لا بد أن نشعر، ولكن علينا ألا نطلق العنان لمشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا، لأنَّ التدخُّل من جانب مشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا يُغيِّر الصورة التي نحاول تصويرها، والضمان الواقعي حقًا لا تسيطر عليه نزعتُه الشخصيّة، وفنه نفسه يرغمه علي أن يكبح جماح شخصيته.

"فلوبيير" له قدرة عظيمة علي التغلُّل إلي دقائق التفصيلات التي تكوّن هذه الأنماط البشريّة العجيبة التي يتعرَّض لتصويرها، وذلك بالطبع مرّده إلي خيال بارع امتاز به، ومن خصائصه كذلك السخرية اللاذعة بأوضاع الحياة، سخرية اتسمت بصفات تجعله فريدًا بين الكتّاب الساخرين، فقد تجد من النَّاس مَنْ لا يعجبه "فلوبيير" لأنَّ أدبه يبعث علي النفور، وقد تجد منهم مَنْ لا يعجبه "فلوبيير" لأنَّ أدبه عسير الفهم غامض الأغراض، لكنك لن تجد ناقدًا واحدًا يُقدر الأدب لذاته لا لأغراضه ومراميه، لن تجد ناقدًا من هؤلاء ينكر علي "فلوبيير" مكانه في الصّف الأوّل من أدباء العالم.



• فلوبيير.. الساحر •

كان لـ "فلوبيير" مذهب خاص في الإنشاء الأدبي، تأثّر به مَنْ تبعه من الأدباء الناشئين، ومؤدي هذا المذهب في عبارة واحدة هو أنَّه "مذهب الكلمة الواحدة"، ومعني ذلك أنَّه لكي يُعبّر الأديب عن فكرته - بحيث ينقلها ناصعة قويّة إلي ذهن قارئه - لا بدّ له أن يحاول وأن

يجاهد مهما لاقى في سبيل ذلك من عناء، في سبيل الوصول إلي العبارة التي تفصح عن الفكرة بما لا يستطیع أن تقول عنها إنَّها تُعبّر عن الفكرة تعبيرًا قويًا سليمًا لا تشويه شائبة، وكلّ ما عداها من العبارات ناقصة بالقياس إلي كمالتها، أو مغلوطة بالقياس إلي صحّة تعبيرها، إذا.. فمهمة الأديب عن كلّ فكرة يريد أن يسوقها في إنشائه هي أن يتصيّد علي مهل هذه العبارة



الواحدة أو الكلمة الواحدة التي تطابق الفكرة تمام المطابقة، غير عابئ
بما لابد أن يلاقيه في سبيل ذلك من وقتٍ ومجهود.

لقد قال عنه المؤرخ الفرنسي ميشيل وينوك "Michelle Winock"، "الكمال
الحاد يقود حياة هادئة، ولكن كرجل عزّ نظيره فهو يُعتبر ساحراً".

وفيق صفوت مختار







التلميذ الجديد

The new student

كنا صباح أحد الأيام في غرفة الدراسة، عندما دخل علينا ناظر المدرسة يتبعه تلميذ جديد لا يرتدي الزي المدرسي، وخادم يحمل محفظة كبيرة، فاستيقظ مَنْ كان نائمًا، وانتصب كُلُّ منا واقفًا، وكأنَّه فوجئ علي حين غفلة برقيبٍ يطلّع علي عمله!

وأشار إلينا الناظر بالعودة إلي الجلوس، ثُمَّ التفت إلي المُدرِّس قائلاً، في صوتٍ خفيضٍ:

- سيّد روجيه.. هذا تلميذ جديد أوصيك به. لقد التحق بدروس السنّة الخامسة، ولكن إذا بدا تحصيله وسلوكه مرضيين فسوف ينقل إلي الصفوف العليا التي تناسب سنه.

وهناك في الزاوية الواقعة خلف الباب، حيث لا يكاد يُري، لاح التلميذ الجديد. كان عملاقاً ريفيّاً في نحو الخامسة عشرة من عُمره، أطول قامته منا جميعاً، وكان شعره منسقاً ومستويّاً فوق جبهته، كمغني القرية، وقد ظهر عليه التحفُّظ والارتباك. وبالرغم من أنَّه لم يكن عريض المنكبين، فإنَّ سترته الخضراء ذات الأزوار السوداء، كانت تحدّد من حركاته، وقد انحسر كما هما عن معصميه اللذين بدا أنَّهما ألفا العُري.. كما كانت قدماه - اللتان يكسوهما



جوربان أزرقان - تبرزان من بنطلون أصفر، تشده الحمالة شدًا قويًا.. وفي طرفيهما فردتا حذاء سَيِّئَا التلميع، تنتشر فيهما المسامير بكثرة ملحوظة.

وبدأ المُدرِّس اختبار التلاميذ فيما لديهم من دروس، فأخذ التلميذ الجديد ينصت إليهم بكلِّ جوارحه، وكأنَّه يصغي إلي موعظةٍ في الكنيسة، دون أن يجسر أو يجرؤ حتي علي أن يضع ساقًا علي ساق، أو أن يتكئ بمرفقيه علي المحفظة!.. وعندما دق الجرس في السَّاعة الثانية، اضطُر المُدرِّس إلي أن ينبهه كي يتخذ مكانه في الصف!

وكان من عاداتنا، إذا ما دخلنا غرفة الدرس، أن يلقي كُلٌّ من بَقْلَنَسُوتِه أرضًا، كي تتحرَّر أيدينا لأداء الصَّلَاة.. فكنا نقذف بها تحت المقاعد، بمُجرَّد بلوغنا عتبة الباب، وبَقُوَّة تجعلها ترتطم بالحائط فتثير كثيرًا من الغبار.. وكانت هذه الحركة من «الأصول المُربعة» التي نتباهى بها!

غير أنَّ التلميذ الجديد لم يلحظ هذه الحركة، أو لعله لمحها ولكنَّه لم يجرؤ علي القيام بها.. فانتَهت الصَّلَاة وقلَّسُوتِه لا تزال علي ركبتيه. وكانت في الحقيقة قلَّسُوتِه من طراز مُعقَّد، تجمع بين «الطاقية» ذات الوبر، والقُبعة المستديرة، وقلَّسُوتِه الفراء، والطاقية القطنيَّة.. وبالجملة، كانت من تلك القلائس المزرية التي يحمل قبحها الصامت من التعبيرات العميقة ما يحمله وجه الأبله!.. كانت بيضاوية، يرفع جوانبها هيكل مُضَلَّع في داخلها يُكسبها الشكل المنتفخ، وتبدأ بثلاث كريات صغيرة، تليها قطع من المخمل ومن فراء الأرانب علي شكل «المُعَيْن» الهندسي⁽¹⁾، يفصل بينها شريط أحمر.. ويعقب ذلك شيء يشبه الكيس، ينتهي بقطعةٍ من الورق المقوَّى مُتعدِّدة

(1) مُعَيْن: في الهندسة هو شكل رباعي الأضلاع، أضلاعه الأربعة ذات أطوال متساوية. أو هو شكل رباعي مكوَّن من مثلثين متساويي الساقين، لها قاعدة مشتركة، والقاعدة المشتركة محذوفة. ويمكن تعريفه على أنَّه متوازي أضلاع فيه ضلعان متجاوران متساويان. (المُعد).

الأضلاع، تكسوها رقعة مُطرَزة بأشرطةٍ مُعقَّدة الأشكال، ويتدلي منها حبل طويل رفيع جدًا، في نهايته صليب صغير من خيوط مُذهبة.. كانت قَلَنْسُوة من طراز جديد ذات حافة برّاقة!

وقال المُدرّس للفتي:

- قف!

فوقف. وسقطت القَلَنْسُوة عن ركبتيه، فأنفجر التلاميذ جميعًا ضاحكين، بينما انحنى هو فالتقطها، ولكن جاره أسقطها مرّة أخرى بضربةٍ من مرفقه، فعاد الفتى إلي التقاطها من جديد.

وكان المُدرّس حاضر النكتة، فقال له:

- تخلص يا فتى من خودتك!

وانطلق التلاميذ إذ ذاك في ثورةٍ من الضَّحك المجلجل، ما أربك الفتى المسكين، حتي لم يعد يدري أيحتفظ بقَلَنْسُوته في يده، أم يلقيها علي الأرض، أم يضعها علي رأسه.. وأخيرًا، جلس ووضعها علي ركبتيه.

وعاد المُدرّس يقول له:

- قف.. ما اسمك؟

وتمتم التلميذ الجديد باسم غير مفهوم، فهتف المدرس:

- أعد!

وكرّر التلميذ المقاطع ذاتها متممة طغت عليها قهقهة زملائه جميعًا.. فصاح المُدرّس:



- ارفع صوتك! ارفع صوتك!

واستجمع التلميذ الجديد كُلَّ عزيمته، وفغر فاهًا مترامي الأبعاد، وعبأ رثيته بالهواء ثُمَّ قذف باسم «شار بوفاري» وكأنه ينادي شخصًا!

وانفجر التلاميذ من جديد في ضجيجٍ صاخب، حاد، مضطرد... فأخذوا يصيحون، وينبحون، ويدقون الأرض بأقدامهم مُردِّدين:

- «شار بوفاري».. «شار بوفاري»!

في نعماتٍ مسترسلة، لم تكن تهدأ - بعد مشقةٍ بالغةٍ - إلا لتعود في ناحية من غرفة الدراسة، أو في صفٍ بأكمله من صفوف التلاميذ، تتخللها - هنا وهناك - ضحكة مكتومة، ككذيفةٍ لم تخدم بعد تمامًا ..

وأخيرًا، عاد الهدوء إلي غرفة الدراسة شيئًا فشيئًا، بعد وابل من الصخب، وتمكَّن المُدرِّس من التقاط اسم «شار بوفاري»، بعد أن طلب إلي صاحبه أن يوضحه كتابةً، وهجاءً، وتلاوةً! .. ثُمَّ أمر المسكين بأن يذهب فيجلس علي «مقعد الكسالى» تحت حافة المنضَّة مباشرة، فشرع صاحبتنا يتحرَّك. بيد أنه تردَّد قبل أن يبرح مكانه، فسأله المُدرِّس:

- عمَّ تبحث؟

وأجاب التلميذ الجديد، وهو يتلفت حوله بنظراتٍ قَلِقَةٍ:

- فَلَنَسُوءُ!..

ولم يتم كلمته، إذ انفجرت عاصفة الضحك من جديد، فصاح المُدرِّس في غضبٍ هادر:

- علي كُلّ منكم أن ينسخ خمسمئة بيت من الشعر.
وكانت صرخته أشبه بصيحة «نبتون»- إله البحار- التي أطلقها متوعدًا
الرياح إذ ثارت دون أمر منه، علي ما جاء في الأساطير!
وما لبث أن أضاف وهو يُجفّف عرق جبينه بمنديلٍ أخرجه من بين ثنابا
ردائه المهلهل:

- كفي! .. ألزموا الصّمت!

ثُمَّ التفت إلي التلميذ الجديد قائلاً:

- أمّا أنت، فعليك أن تنسخ لي عبارة «أنا مضحك» عشرين مرّة..

ثُمَّ أردف في صوت أكثر رقة:

- لسوف نجد قلنسوّتك، فإنَّ أحدًا لم يسرقها!

وعاد كُلّ شيء إلي هدوئه، وانحنت رؤوس التلاميذ فوق المناضد، بينما
ظلّ التلميذ الجديد ساعتين في جلسةٍ مثالية، وإن أخذت تنطلق - بين وقتٍ
وآخر- كرة من الورق الملوّث بالمِداد أو الحبر لتلطح وجهه، فكاد يمسح
المِداد بيده، ويستأنف جلسته دون حراك، وهو منكس البصر!

وفي غرفة الاستذكار- في المساء - أخرج من درجه الكمين الأسودين،
اللذين يلبسان لحفظ كمي السترة وقت العمل، ورتب أدواته البسيطة، وأنجز
في عناية كتابة العبارة التي فرضها عليه الأستاذ كعقابٍ، ثُمَّ عكف علي عمله
في إخلاصٍ، باحثًا في القاموس عن جميع الكلمات، غير مدّخر جهدًا.



ولا شكَّ أنَّ هذه الإرادة الطيبة هي التي حالت دون نقله إلي فرقَة دراسيةٍ أدني من التي أُلحق بها!.. ومع أنَّه كان مُلمًا بقواعد اللُّغة إلي حدٍّ ما، إلَّا أنَّه لم يؤت طلاقة التعبير، فقد كان قس أو كاهن قريبته هو الذي بدأ تلقينه اللاتينية، إذ أرجأ أهله إرساله إلي المدرسة أطول فترة ممكنة، اقتصادًا منهم للنفقات!

كان أبوه «شارل دنيس بارتلومي بوفاري» في السَّابق مساعد جراح في الجيش، تورط في بعض المسائل المتصلة بالتجنيد في سنة 1812، واضطر إلي ترك الخدمة. بيد أنَّه كان قد وفق في استغلال مواهبه الشخصية، فظفر بصِّدّاق - مهْر - قدره ستون ألفًا من الفرنكات، حملته إليه ابنة صاحب مصنع للقبعات عشقت وسامته!.. فقد كانت فارغ القوام، يحسن التهريج والشُّشنة⁽²⁾ بمهمازيه، وقد أرسل لحية متصلة بشاريه، واعتاد أن يزين أصابعه دائميًا بالخواتم، وأن يتخيَّر لملابسه الألوان الصارخة!

وكان له مظهر الرّجل الشجاع، مع خفة المندوب أو السفير كثير الترحال. وقد ظلّ - يعيش بعد الزواج - عامين أو ثلاثة علي ثروة زوجته، ينعم بالغذاء الطيب، ويستيقظ متأخرًا، ويدخن في غلايين كبيرة من الخرف، ويتدد علي المقاهي، ولا يعود إلي منزله في كُلِّ مساء إلَّا بعد أن تُغلق المقاهي أبوابها. حتي إذا مات والد زوجته، أحقّه وأغضبه أنَّ الرّجل لم يخلف ثروة تذكر، فحاول أن يدير المصنع من بعده، لكنَّه خسر بعض المال، فأثر الانسحاب إلي الريف حيث حاول أن يعمل في الإنتاج الزراعي.. غير أنَّه لم يكن أكثر

(2) الشُّشنة: الثوب الجديد ونحوه الذي إذا تحوَّك فيصدر صوتًا خفيًا. (المعد).

دراية بالزراعة منه بالصناعة .. فلم يلبث أن تبين أن من الخير له أن يتخلى عن استثمار ما بقي له من مال .

واستطاع أن يجد في إحدى القرى المتاخمة لمقاطعتي «كو»، و«بيكاردى»، مسكنًا - يشبه دور الفلاحين بقدر ما يشبه دور السادة - مُقابل منّي فرانك في العام، فاحتبس فيه نفسه منذ كان في الخامسة والأربعين من عُمره، وقد استبد به الغم، وأخذ ينهشه الندم، وراح يسب القدر، ويحسد البشر، ويعلن أنه قد سُم الناس أجمعين.. وقرّر أن يعيش في هدوء عيشة النُّسك!

وكانت زوجته في البداية متيمة في هواه، فأبدت له من مظاهر الاستكانة والخضوع ما زاده منها نفورًا، وتحملت أشد الآلام في بادئ الأمر، دون أن تشكو من جريه وراء عاهرات القرية، ليعود إليها في المساء وريح الخمر تفوح منه!.. فلما ثارت كبرياؤها، لم تملك سوى أن تكتم الغضب في صدرها، ولاذت بنوعٍ من الصمت الفلسفي لازمها حتي الموت!

وعندما أنجبت طفلًا، اضطرت إلي أن تعهد به إلي مرضعة.. حتي إذا عاد «الوليد» إلي أبيه، أسرفا في تدليله كما لو كان أميرًا، فكانت الأم تغذيه بالحلوى والمربي.. وكان الأب يتركه يرتع حافي القدمين، ويتعلل - متفلسفًا - بأن طفله غير قادر علي أن يظل عاريًا كصغار الحيوانات!

وكان الأب - علي العكس من اتجاهات الأم - يتخيل في ذهنه صورة لما ينبغي أن تكون عليه رجولة الطفل، فحاول - لتحقيقها - أن ينشئ ابنه نشأة



خشنةً علي غرار الطريقة «الإسبرطية»⁽³⁾.. فكان يرسل الطفل إلي الفراش دون نار تدفئ حجرته، ليقوي بنيته! وكان يعود علي تناول جرعات كبيرة من «الروم»⁽⁴⁾ ويلقنه السخريه من الطقوس الدينية! بيد أنَّ الطفل كان هادئًا بفطرته فلم يستجب لهذه التوجيهات الأبوية .

وكانت أمه تجره خلفها دائمًا، وتصنع له من الورق المقوي لُعبًا، وتروي له القصص، وتؤثره بأحاديثٍ لا نهاية لها، يمتزج فيها المرح والتهليل بالكآبة والمناجاة والتدليل. وفي تلك العزلة التي كانت تعيش فيها مع ولدها، صبَّت في مخيلة الطفل كُلَّ ما كان يخالجه نفسها من طموح مشتت، كانت تقطع في أن ترضي به كبرياءها المحطمة.. كانت تحلم له بأرفع المناصب، وتتصوَّره وقد كبر، وغدا وسيماً، حاضر البديهة، متربعا في أحد مناصب مصلحة الطرق والنجسور، أو في أحد مراكز القضاء. ومن ثمَّ تولت تعليمه القراءة، ولقنته أغنيتين، أو ثلاثًا، كانت تعزف له ألحانها علي آلة عزف قديمة لديها .

علي أنَّ السَّيِّد «بوفاري»، لم يكن يحفل كثيرًا بالثقافة، فلم ير في كُلِّ هذه الجهود شيئًا ذا قيمة.. كان كُلُّ ما يعنيه هو التفكير فيما إذا كان سيقدر لهما

(3) إسبرطة Sparta: مدينة يونانية قديمة. ظهرت على أنَّها كيان سياسي حوالي القرن العاشر قبل الميلاد. وكانت النزعة العسكرية مهيمنة عليها.

أما بشأن التربية في إسبرطة فكان كُلُّ طفل ذكر يُغسل بالنبيذ عندما يولد، طبقًا لمعتقداتهم، وهذا يجعل الأطفال أقوياء، ثُمَّ يُفحص المولود صحتًا من قِبَل مجلس الشيوخ الإسبارطي من قبيلته، ليروا ما إذا كان لائقًا بدنيًا وصحيًا ليُسمح له بالبقاء على قيد الحياة.

وفي حالة عدم اجتياز الطفل للاختبار، كان يُترك في مكان يُسمى «آبوثيتايا» apothetai بالقرب من جبل تيجيتيس ليموت في العراء. وإن وجدوه يُعاني من ضعف في الجسم أو من عاهةٍ أمروا برميهِ في حفرة عميقة. (المعد).

(4) نوعٌ من أنواع الخمر. (المعد).

يومًا أن يجدا ما يكفل لهما تعليم الطفل في مدارس الحكومة، أو ما يمكنهما من أن يتناحرا له مكتبًا أو متجرًا. وكان - فوق ذلك - يعتقد أنَّ الإنسان يستطيع أن ينجح في الحياة.. بالصدفة!

أمَّا السَّيِّدَةُ «بوفاري» فكانت تعض شفتيها حنقًا، وهي تري ابنها يتسكع في القرية.. إذ كان يحلو للطفل أن يتبع المزارعين في حرثهم، وأن يُطارِد الغربان بالحصى، وأن يقتطف الثوت من فوق الأشجار، ويرعي الديكة الرومية بقصبَةٍ طويلةٍ، ويتولَّى في أوقات الحصاد تقليب الحزم لتجف، ويرتع في الغابة، ويلعب «الحَجَلَّة» في فناء الكنيسة في الأيام المطيرة! وكان يتوسل إلي خادم الكنيسة ليتركه يقرع الأجراس في الأعياد الكبيرة، فيتعلَّق كُلِّ جسمه بالحبل الضخم، ويروح ينعم بالإحساس بنفسه محمولًا علي الهواء والحبل يتأرجح به!

وهكذا نشأ الصبي نشأةً طبيعيَّةً، تمامًا كشجرة البلوط⁽⁵⁾.. فأوتي ساعدين قويين، ولونًا بديعًا!

وحين بلغ الثانية عشرة من عُمره، ألحت أمُّه في أن يبدأ دراسته، فتعهده قس القرية، غير أنَّ الدروس كانت من القصر وعدم الانتظام بحيث لم يكن يُرجي منها نفع كبير.. فقد كان القس يلقنه الدروس في مخزن الكنيسة، كلَّما سنحت له فرصة عابرة بين صلاة تعמיד وصلاة جناز!.. وكان الطفل يتلقاها وهو واقف علي قدميه.. بل إنَّ القس كان يرسل في استدعاء تلميذه - في بعض الأيام - عقب فراغه من صلاة الغروب، إذ لم يكن لديه ما يدعوه إلي

(5) شجرة البلوط أو السنديان هي أشجار ضخمة ومعمرة قد تبلغ من العُمر ما بين 2000 - 500 سنة. وهناك أكثر من 600 نوع من أنواع البلوط تنمو كلها تقريبًا بصورة طبيعية في النصف الشمالي للكرة الأرضية. وتنتج أشجار البلوط، في الربيع، أزهارًا صغيرة خضراء مصفرة. (المعد).



الخروج.. فكانا يصعدان إلي حجرة القس، ويجلسان للدرس علي ضوء مصباح يحوم حوله الذباب وفراشات اللَّيل.. وكان الجوَّ الحار يغري الصبي بالنَّوم، كما يغفو القس ويداه فوق بطنه، فلا يلبث أن ينبعث الغطيط⁽⁶⁾ من فمه المفتوح!.. كذلك كان القس في أثناء عودته من تقديم البركة لأحد المرضي في قرية مجاورة يلتقي أحيانًا بـ«شارل» الصَّغير وهو يتسكع في الحقول، فيدعوه إليه، ويقضي ربع ساعة في وعظه تحت شجرة، ثُمَّ يتنهز الفرصة ليحمّله علي تصريف الفعل الذي كلفه باستذكاره.. وكثيرًا ما كان يقطع عليهما الدرس سقوط المطر، أو مرور أحد المعارف. وكان القس - بعد ذلك - يبدي رضاه عن الصبي.. بل إنّه كان يقول إنّ له ذاكرة قوية!

ولم يكن لـ«شارل» أن يكتفي بهذا القدر من الدراسة المتقطعة، إذ كانت أمّه عنيدة في إصرارها علي تعليمه.. ولم يشأ الوالد أن يقاوم، إذ غلبه الخزي، أو - بالأحرى - التعب. ولكنَّهما تربّثا عامًا آخر، ريثما يتاح للصبي أن يتناول «القرآن المقدس» الأوّل في حياته. وما إن انقضت ستة أشهر علي ذلك، حتي تقرّر نهائيًا إرساله إلي مدرسة «روان»، وصحبه أبوه بنفسه في أواخر شهر أكتوبر (تشرين الأوّل)، إبان موسم «القديس رومان».

(6) الغطيط: هو الصَّوت الَّذِي يَخْرُجُ مَعَ نَفْسِ النَّائِمِ وهو تَزْدِيدُهُ. (المُعد).



الطبيب وزوجته الأرملة

The doctor and his widow wife

لا يمكن لأحد منا أن يتذكّر الآن شيئاً عن «شارل بوفاري».. غير أنه كان عادي المزاج والطباع، يلعب في فترات الفراغ، ويستذكر في الغرفة المخصّصة لذلك، ويصغي بانتباه في غرفة الدرس، ويأكل في قاعة الطعام، وينام في «العنبر».. شأن أي تلميذ آخر!.. وكان ولي أمره في «روان» تاجر يبيع الحديد والخردة بالجملة، في شارع «جائثيري». وقد اعتاد أن يُسمح له بالخروج من المدرسة في يوم واحد من أيام الأحاد كلّ شهر، فكان يفد - بعد أن يغلق متجره - ليصحبه إلى النزهة ومشاهدة السفن الراسية في الميناء، ثمّ يعود به إلى المدرسة في الساعة السابعة، قبيل موعد العشاء. وفي مساء كلّ يوم خميس، كان الصبي يكتب لأُمّه خطاباً طويلاً بالمِداد الأحمر، يغلفه جيداً، ثمّ يستذكر دروس التاريخ، أو يقرأ في كتاب قديم - عن رحلة «آنا كاريسيس» يعثر به مهملاً في غرفة الدرس. كما كان يحلو له في أثناء أوقات الفراغ أن يتحدّث إلى الخادم الذي كان من أبناء الريف مثله!

وقد استطاع بفضل اجتهاده أن يحتفظ دائماً بترتيب متوسط بين تلاميذ صفه. بل إنّه وُفق مرّة إلى الحصول على جائزة في التاريخ الطبيعي. بيد أنّ والديه ما لبث أن انتزعاه من المدرسة، وهو لم يزل يعد في السّنة الثالثة،



ليحملاه علي دراسة الطب فقط، إذ كانا يؤمنان بقدرته علي أن يستكمل دراسته دون معونة من أحد!

ومن ثمَّ اختارت له أمه غرفة في الطابق الرابع من منزل يطل علي نهر «روبيك»، عند رجل من معارفها يشتغل بالصباغة، وبعد أن دبرت أمر إقامته، حصلت له علي بعض أثاث تمثِّل في منضدة ومقعدين، كما أحضرت له من دارها سريرًا قديمًا من خشب الكريز، وابتاعت قرص مدفأة من الحديد الزهر، وكمية من الأخشاب لتدفئة صغيرها المسكين!... ثمَّ رحلت في نهاية الأسبوع، بعد أن أزجت إليه مئآت الوصايا بأن يُحسن السلوك، بعد أن غدا طليقًا دون رقيب.

ولكنَّ «شارل» كاد يصعق، حين رأى برنامج الدراسة في لوحة الإعلان.. كانت هناك دروس في التشريح، ودروس في علم الأمراض «الباثولوجي» Pathology، ودروس أخرى في علم وظائف الأعضاء «الفسيولوجي» Physiology، ودروس في علم الصيدلة «الفارماكولوجي» Pharmacology، ودروس في الكيمياء.. وفي النبات.. وفي التشخيص، والعلاج.. عدا علم الصحَّة، وعلم الطب.. أسماء شتي كان يجهل اشتقاقاتها ومعانيها جميعًا، فبدت له حينها، كأبواب هياكل تكتنفها الظلمات!

وهو لم يفهم من هذه الدروس شيئًا!.. بل إنَّه لم يستطع - رغم إصغائه في انتباه تام - أن يفقه لها معني!.. وكانت لديه كراسات مُجلَّدة واطب علي تدوين دروسه فيها باجتهاد، ولم يتخلَّف يومًا عن الطواف بأسرة المرضي في المستشفى.. كما كان يؤدي واجباته اليومية علي نحو ما يفعل حصان

الطاحونة، إذ يدور في مكانه وهو معصوب العينين، لا يعرف عن نوع الحبوب التي يُسَخَّر لطحنها شيئاً!

وكانت أمّه ترسل له في كُلِّ أسبوع قطعة من اللحم المشوي، فكان يتناول منها غذاءه - إذا ما عاد من المستشفى - وهو جالس ينقر الحائط بحدائه.. ثُمَّ لا يلبث أن يعود إلي الدروس في قاعة الجراحات أو «عنابر» المستشفى، حتي إذا أفل النَّهار، عاد إلي غرفته سالِكاً الطريق الطويل عبر البلدة، فيتناول ما يُقدِّمه له صاحب المنزل من عشاءٍ هزيل، ثُمَّ يصعد إلي حجرته ليعكف علي الاستذكار أمام نار المدفأة، والبخار يتصاعد من ملابسه المبللة..

وفي أمسيات الصيف الجميلة، حين كانت الطرقات الحارة تقفر من المارة، وتلهو الخادومات بكرات من الفلين أمام الدور، كان «شارل» يفتح نافذته، ويتكئ بمرفقيه علي حافتها، ليطل علي النهر، الذي يجعل من هذا الحي من أحياء «روان» ما يشبه مدينة «بندقية»⁽⁷⁾ صغيرة، متواضعة. وكان النهر ينساب تحت بصره بين القناطر والأسوار، تنعكس علي صفحته الألوان الصفراء، والبنفسجية، والزرقاء.. وقد جثا العمال علي صفحته يغسلون أزرتهم بمائه ..

وأخذ جسمه ينحل، وقده يستطيل.. واكتسي وجهه وجوماً ساجياً أضفي عليه مسحة من الجاذبية!.. وبدت حماسته للدرس تفتّر، فكان من

(7) نسبة إلى مدينة البندقية Venezia، الإيطالية التي تُعد من أجمل مدن العالم. تُسمّى المدينة عبارة عن عدة جزر متصلة ببعضها عن طريق جسور، كما تطل على البحر الأدرياتيكي. كما تعتبر من أكثر المدن جمالاً في إيطاليا لما تتمتع به من مبانٍ تاريخية يعود أغلبها إلى عصر النهضة. (المُعد).



الطبيعي أن يتحلل من العهود التي قطعها علي نفسه.. وكان أن تقاعس يومًا عن المرور لتفقد المرضي بالمستشفى.. وفي اليوم التالي تخلف عن إحدى المحاضرات.. وشيئًا فشيئًا استساغ الكلّ حتي انتهى به الأمر إلي الانقطاع عن الدروس نهائيًا!.. وأدمن ارتياد المقاهي، وشغف يلعب الدومينو»..



«شارل» يدرس الطب .

وخيّل إليه أنّ في احتباس نفسه هكذا، كلّ مساء، في حانةٍ قذرة، حيث يقرع رخام المناضد بقطع الدومينو المصنوعة من عظام الخراف وقد حفرت فيها نقط سوداء.. خيّل إليه أنّ في هذا العمل مظهرًا للحُرّيّة، يرفع من تقديره لنفسه!.. كان هذا - في نظره - مقدمة للحياة الدنيا، وسبيلًا إلي اللذات المحظورة!.. فكان يشعر عندما يضع يده علي مقبض الباب - بعد عودته إلي غرفته في المساء - بنشوةٍ تكاد تشبه اللذة الحسيّة .

وتفتحت نفسه عن رغبات كثيرة كانت مكبوتة، فحفظ عن ظهر قلب بعض الأغنيات التي كان يستقبل بها الزائرات، وتعلّم كيف يمزج أنواع الكحول.. وأخيرًا عرف الحبّ ونسي الطب!

ويفضل تلبية الرغبات المحظورة، كان رسوبه في الامتحان شنيعًا، بينما كان والدها يترقبان عودته مُكلّلاً بالنجاح في دارهما ليحتفلا به!



عاد «شارل» يُجرّز أذيال الفشل، حتي إذا بلغ مدخل القرية، توقف وأرسل في طلب أمّه، وقصّ عليها ما أصابه. فالتصمت له الأعذار، وعزت أو أرجعت رسوبه إلي ظلم الممتحنين، وأولته بعض التشجيع، أخذه علي

عاتقها تدبير الأمور!..ولم يعلم السيّد «بوفاري» بالحقيقة إلّا بعد خمس سنوات..وكانت قد فقدت وقعها، فتقبّلها في تسليم، وإن لم يتصوّر أن من الممكن أن يكون في سلالته ابن فاشل!

علي أن «شارل» تحوّل إلي الجد مرة أخرى، فأقبل يراجع دروسه دون توان أو تكاسل، واستظهر جميع المواد، ففاز في الامتحان النهائي بدرجة لا بأس بها..وما كان أسعد أمّه يوم نجاحه!..فلقد أعدت في ذلك اليوم وليمة كبيرة!

والآن.. وبعد أن أصبح ابنها طبيباً.. تري أين يباشر مهنته؟.. أفي «توست»؟..لقد كان هناك طبيب طاعن في السن تتوقّع مدام «بوفاري» موته منذ أمد طويل، فلم يترث «شارل» حتي يودّع الشيخ الحياة، بل استقر في مواجته كخليفة له!

ولكن الأمر لم ينته بتربية الابن، وتعليمه الطب، واتخاذ «توست» مقراً يزاوّل فيه مهنته.. إذ كان لابدّ له من امرأة!.. ووجدت له أمّه الزوجة المنشودة..أرملة أحد محضري «دوبيك».. لها من العُمر خمس وأربعون سنة، ومن الدخل ألف ومائتا فرنك!

ومع أنّ مدام «دوبيك» هذه كانت دميمة، عجفاء كالوتد، تملأ البثور وجهها كما تنتشر البراعم في فصل الربيع، إلّا أنّ فرص اختيار الزوج كانت واسعة أمامها، ما حدا بالأُمّ «بوفاري» إلي أن تُجاهد كي تغلب علي الساعين للفوز بطلب يدها!..وبالفعل، استطاعت أن تحبط ألاعب قصاب كان رجال الدين يؤازرونه!



وكان «شارل» يخال أن الزواج سيمكّنه من تحسين حاله، فيغدو أكثر حُرِّيَّةً وقدرة علي التصرّف في شؤونه الشخصيّة والماليّة، غير أن زوجته لم تلبث أن غدت صاحبة الأمر والسلطان، حتي لقد كانت تملي عليه ما ينبغي أن يقول أمام الناس وما يجب أن يمتنع عن قوله!.. وفرضت عليه أن يصوم أيام الجمعة، وأن يرتدي من الثياب ما تُحبّ هي.. وأن يُلحّ في مُطالبة العملاء الذين لا يدفعون أتعابًا!.. بل إنَّها كانت تفتح خطاباتهِ، وتراقب حركاتهِ، وتسترق السمع خلال ثقب الباب، إذا ما حضرت بعض السيّدات إلي العيادة!

إلي كلّ هذا، كانت في حاجة إلي كوب من الكاكاو كلّ صباح، وإلي أنواع من الرعاية لا حصر لها.. وكانت دائمة الشكوى من أعصابها، وصدرها، ومفاصلها!.. يؤذيها وقع الأقدام.. وتثقل عليها الوحدة إذا غادرها.. فإذا سعي أحد إلي جوارها، ظنت أنّه لم يأت إلّا ليشهد احتضارها!.. وكانت إذا ما عاد «شارل» في المساء تخرج ذراعيها العجفاوين من تحت أغطية الفراش لتطوق رقبتَه.. وما أن يجلس علي حافة السرير، حتي تنطلق تبث همومها: فهو ينساها، ويُحبّ غيرها!.. ولقد تنبّوا لها بأنّها ستسفي!.. ثمّ تنتهي من فيض الهموم والهواجس إلي أن تسأله زجاجة من دواء يقوي صحتَها.. وقدراً أكبر من الحبّ!





الزيارة المفاجئة

The sudden visit

في إحدى الليالي، حوالي السَّاعة الحادية عشرة، استيقظ «شارل» وزوجته وخادمتها علي وقع حوافر جواد مسرع، لم يلبث أن توقَّف أمام باب دارهم. وفتحت الخادمة نافذة المخزن، وتبادلت حديثًا قصيرًا مع رجل كان يقف تحت النافذة.. وإذ أنبأها بأنَّه حضر لاستدعاء الطبيب، وأنَّه يحمل رسالة إليه، هبطت درجات السُّلم وهي ترتجف من البرد، وفتحت الأقفال ثُمَّ رفعت المزليج واحدًا تلو الآخر.

عقل الرَّجل جواده، وسار خلف الخادمة مقتحمًا المخدع دون انتظار، ثُمَّ أخرج من قَلَسَوْتِه الصوفية رسالة ملفوفة في طَيَّات قطعة من القماش، وقَدَّمها بأدبٍ إلي «شارل» الذي اتكأ بمرفقيه علي الوسادة ليقراها، بينما وقفت «نستازي» الخادمة، إلي جوار السرير تحمل المصباح.. ودفع الحياء زوجة الطبيب إلي أن تظل مولىة وجهها نحو الحائط، وظهرها إليهم..

تضمَّنت الرسالة - التي كانت مغلقة بخاتمٍ صغيرٍ من الشمع الأزرق - رجاءً ضارِعًا إلي السَّيِّد «بوفاري» كي يبادر فورًا إلي مزرعة «برتو» ليجبر ساقًا



مكسورة.. وكانت المسافة بين «توست»، و«برتو» تزيد علي ستة فراسخ⁽⁸⁾، في طريق زراعي تمرُّ بكلِّ من «لونجفيل»، و«سانتا فيكتور».. وكان اللَّيل حالكًا، والسَّيِّدة الزوجة تخشي أن يحلَّ بزوجها أي مكروه. لذلك استقر الرأي علي أن يعود الرسول، ثُمَّ يتبعه «شارل» بعد ثلاث ساعات - حين يشرق القمر - علي أن يوفد الرَّجل غلامًا للقائه فيرشده إلي المزرعة، ويرفع ما قد يكون في طريقه من حواجز.

وفي نحو السَّاعة الرَّابعة صباحًا، بدأ «شارل» رحلته إلي «برتو»، متدبِّرًا بمعطفه. ولم يكن قد تخلَّص تمامًا من سلطان الكَرِّي أو الثُّعاس ودفع السرير، فترك دابته تحمله في خطوات هادئة مُؤرِّجة.. حتي إذا توقفت من تلقاء نفسها عند الحفر المُحاطة بالأشواك - التي كان الفلاحون يحفرونها علي حدود المزارع - تنبه من إغفائه متفضًّا، وتذكَّر صاحب الساق المكسورة، فأخذ في استعراض جميع أنواع الكسور التي عرفها وخبر جبرها.

وما لبث المطر أن كفَّ عن السقوط، وأخذ النَّهار يدنو.. وعلي غصون أشجار التفاح العارية وقفت العصافير جامدة، وقد نفشت ريشها لريح الصباح الباردة.. وكان الريف يمتد علي مرمي البصر، ومجموعات الأشجار المحيطة بالمزارع تبدو كبقع بنفسجية داكنة وسط الفضاء الرمادي الشاسع الذي كان يختلط بظلمة السماء عند الأفق..

(8) الفرسخ: من مقاييس المسافة قديمًا. وأصل الكلمة فارسية معربة، وجمعها فراسخ. وتجمع أغلب المراجع على أنَّ الفرسخ يُعادل ما بين أربعة وستة كيلومترات في النظام الدولي الحالي. (المُعد).

وكان «شارل» يفتح عينيه بين الفينة والفينة، فلا يلبث النعاس أن يغلبه، ويستسلم لغفوةٍ حالمَةٍ يختلط فيها حاضره بذكرياته.. حتي لقد خال لنفسه شخصيتين في وقتٍ واحد: فهو طالب، وزوج معًا.. وهو نائب علي فراشه كما كان منذ هنيهة، ثم هو يخطر في قاعة الجراحات كما كان يفعل أيام الدراسة.. واختلطت في رأسه رائحة العقاقير بأريج الخضرة الندية، وبحفيف حلقات الستائر وهي تنزلق علي قضبان السرير، وزوجته تغط في نومٍ عميق!

وحين بلغ «فاسونفيل» لمح فتيً صغيرًا يجلس علي العشب، عند حافة حفرة ..

وهتف الغلام إذ رآه:

ـ أأنت الطبيب؟

فلما أجابه «شارل»، خلع الغلام نعليه وأمسك بهما بين يديه، وانطلق يعدو أمامه ليرشده إلي الطريق .

وأدرك الطبيب من دليله، في أثناء سيرهما، أنَّ ساق السيّد «روو» ـ الذي كان ولا بدّ من أثرياء المزارعين ـ قد كسرت مساء اليوم السّابق، وهو عائد من حفلٍ لذي أحد جيرانه، وأنّ زوجة هذا السيّد توفيت منذ عامين، وليس له إلّا ابنة تُساعده في شؤون المنزل .

وتخلّلت الطريق آثار عجالات أخذت تزداد عمقًا عندما اقتربا من «برتو» وما لبث الغلام أن اختفي خلال فتحة في سياج المزرعة، ليعود بعد هنيهة إلي الظهور عند نهاية السياج، فيفتح الباب.. وسار الحصان وحوافره تنزلق علي العشب المبتل.. وأحني «شارل» رأسه ليتجنّب الأغصان.. وحين دخل



الضيعة، أخذت كلاب الحراسة تنبح وتشد السلاسل التي تربطها إلي مأويها، فأجفل الجواد وارتجف في فرعٍ شديد ..

ولاحت عند عتبة باب المنزل سيّدة شابة في ثوبٍ من الصوف، فاستقبلت السيّد «بوفاري» وقادته إلي المطبخ، حيث كانت ثمة نار كبيرة يغلي فوقها طعام الفطور في قدور من جميع الأحجام.. وإلي أحد جانبي المدفأة، كانت ثمة ملابس مبتلة نشرت لتجف علي الوهج.. وبدأت المجرفة وقابضة الجمر والمنفاخ ضخمة الحجم، تلمع كالصُّلب المصقول، بينما رُصّت علي طول الجدار أدوات للطهو كثيرة العدد، انعكس عليها لهب الموقد، تخالطه طلّائع أشعة الشمس التي أخذت تنساب من خلال زجاج النوافذ.

وما لبث «شارل» أن صعد إلي الطابق الأوّل من الدار، ليري المريض، فوجده في فراشه ينضح بالعرق تحت الغطاء، وقد ألقى طاقيته القطنية جانبًا.. كان رجلًا بدينًا، قصيرًا في الخمسين من عُمره، أبيض البشرة، أزرق العينين، أصلع مقدم الرأس، ويزين أذنيه بقرطين!.. وعلي مقعدٍ قريب منه كانت ثمة قينة خمر أخذ يرفعها إلي فمه بين الفينة والفينة، ليشد من عزمه، ويرفع من روحه المعنوية!

ولم يكد الرّجل يري الطبيب حتي خفّف من هياجه.. وبدلًا من أن يمضي في سيل الشتائم التي كان يطلقها بسخاءٍ منذ اثنتي عشرة ساعة، تحوّل يئن أنينًا خافتًا..

كان الكسر بسيطًا، لم تصحبه أيّة مضاعفات.. بل إنّ «شارل» لم يكن يطمع في كسر أسهل منه!.. وتذكّر لفوره مسلك أساتذته بجوار أسرة

الجرحي، فأخذ يشجع المريض بكل ما يعرفه من الكلمات الطيبة..وبما تعلّمه عن الجراحين من مواساة لطيفة.

وأخذ أهل المريض يبحثون في المخزن حتي جمعوا حزمة من الأخشاب ليتخذوا منها جباثر، فتناول «شارل» واحدة منها شقها إلي قطع عكف علي صقلها بلوح مكسور من زجاج النوافذ، بينما كانت الخادمة تمزق بعض الملاءات ليتخذوا منها أربطة..والأنسة «إيما» - ابنة الرّجل - تحوّل وسادات صغيرة..وكانت قد أضاعت وقتًا طويلًا في البحث عن صندوق أدوات الحياكة، فلمّا استحثّها والدها لم تجبه ببنت شفة، وإنما أقبلت علي الحياكة..وكانت كلّما شكّت الإبرة أصابعها، ترفع هذه الأصابع إلي فمها وتمصّها!.. وأعجب «شارل» ببياض أظافرها اللامعة، دقيقة الأطراف.. كانت أكثر نضوجًا من العاج، وقد قصت علي شكل اللوز!.. علي أن يدها لم تكن - رغم ذلك - جميلة، ولعلّ بشرتها كانت أقلّ صفاء ممّا ينبغي، كما كانت بادية الجفاف عند مفاصل الأصابع..كانت يدًا مسرفة في الطول، يعوزها شيء من ليونة التّشي!..ولكن جمال الفتاة كان يتركز في عينيها العسليتين اللتين كانت أهديهما تضيئي عليهما صبغة السواد..واللتين كانت تنبعث منهما نظرات توحى للمرء بالصراحة المشوبة بالسداجة الجريئة!

عندما انتهت عملية التّجبير، دعا السيّد «روو» الطّبيب إلي بعض الطعام قبل رحيله، فهبط «شارل» إلي بهو الطابق الأرضي، حيث وجد المائدة مُعدّة لشخصين، إلي جوار سرير كبير ذي غطاء من قماش محلي برسوم تمثل أشخاصًا من الأتراك. وكان المكان يتضوّع بشذى زهر السوسن، وقد بدت بعض الملاءات النظيفة في صوان من خشب البلوط في مواجهة النافذة..



وفي الأركان، رُصت جوالات الحنطة⁽⁹⁾ التي ضاقت بها جنبات المخزن المجاور المتصل بالبهو بثلاث درجات حجرية..

وكان يزين البهو رأس لـ «منيرفا»⁽¹⁰⁾ رُسم بالقلم الأسود، وأُحيط بإطار مذهَّب كُتب تحته بالحروف القوطية: «إلي أبي العزيز».. وقد عُلفت الصورة إلي مسمارٍ في وسط الحائط الذي تساقط طلاؤه الأخضر بفعل الرطوبة.



جلست الفتاة إلي المائدة مع «شارل».. وجري الحديث عن المريض - أولاً - ثُمَّ عن الجوّ وموجات البرد القارس، والذئاب التي تجوس في الحقول خلال الليل، وكانت الأنسة «روو» لا تستطيع الإقامة في الريف، ولا سيما بعد أن غدت تضطلع وحدها - تقريبًا - برعاية شؤون المزرعة.. وكانت ترتجف في أثناء تناول الطعام، لفرط رطوبة الصالة، ما كشف قليلاً عن شفتيها المكتنزتين اللتين اعتادت أن تعضهما في أوقات الصَّمت ..

كانت رقيتها تظهر خلال ياقة مزدوجة، وضيقتاها السوداوان الناعمتان تبدوان - لفرط نعومتها - قطعة واحدة، تنشق إلي شعبتين - عند منتصف الرأس - بخط مستقيم يتبع استدارة الرأس، ثُمَّ تعود الشعبتان إلي الالتقاء خلف الرأس في كعكةٍ سمكةٍ تنحدر منها خصلتان نحو الصُّدغ⁽¹¹⁾، لا تكاد

(9) الحنطة: تُعرف أيضا باسم قمح دنكل، أو القمح المقشور، من فصيلة القمح سداسي الصيغة الصبغية. (المُعد).

(10) منيرفا Minerva: هي إلهة العقل والحكمة ورَّبة جميع المهارات والفنون والحرف اليدوية عند قدماء الرومان. (المُعد).

(11) الصُّدغ Temple: هو المنطقة الواقعة خلف العين وأمام الأذن في كُلِّ جانِب. يوجد تحت الجلد في هذه المنطقة عظم يدعى العظم الصُّدغي والذي يشكل أحد عظام الجمجمة. (المُعد).

أذنا الفتاة تينان خلالهما.. وكانت هذه أوّل مرّة يري الطبيب الشّاب فيها شعراً منسّقاً بهذا الشكل!.. أمّا وجنتا الفتاة فكانتا متوردتين..

وصعد «شارل» ليودع الأب.. «روو».. ثُمَّ هبط إلي البهو ثانية، فإذا الفتاة واقفة إلي النافذة، وقد أسندت إليها جبهتها، وأخذت تتأمّل الحديقة، حيث اقتلعت الريح العصي الخشبيّة التي كانت تسند شجيرات الفاصوليا..

وحين شعرت به خلفها، التفتت إليه متسائلة:

.. أتبحث عن شيء؟

فأجاب:

.. سوطي، من فضلك!

وراح يبحث فوق السرير، وخلف الأبواب، وتحت المقاعد.. غير أنّ السوط كان قد سقط علي الأرض بين الجدار والجوالات. وما لبثت «إيما» أن لمحته، فانحنّت فوق جوالات القمح لتلتقطه.. ودفعت الشهامة «شارل» إلي أن يسرع فيمدّ ذراعه ليلتقطه قبلها، فإذا به يحس بصدرة يمس ظهر الفتاة المنحنية أمامه.. وبادرت هي إلي الاعتدال وقد تضرّج وجهها وأحمر، ثُمَّ التفتت إليه من فوق كتفها وهي تناوله سوطه المصنوع من عصب الثور..

وبدلاً من أن يعود «شارل» إلي «برتو» بعد ثلاثة أيام كما وعد، جاء في اليوم التالي مباشرة، ثُمَّ أخذ يتردّد علي الضيعة مرّتين في الأسبوع بانتظام، عدا الزيارات غير المتوقعة التي كان يقوم بها من وقتٍ إلي آخر، وكأنّها محض مصادفات!





رغم كل شيء.. كانت تحبه

After all.. she loved him

سارت الأمور علي ما يرام، وشُفي المريض.. وعندما رَوَّى الأب «روو» بعد ستة وأربعين يومًا - يحاول السير وحده في بيته العتيق، أعتبر النَّاس الطبيب «بوفاري» عالمًا بارعًا في شؤون الطب، ولا سيما حين أخذ الأب يُردّد أنّه ما كان من الممكن أن يحظي بعلاج من أكبر أطباء «إيفتو»، أو «روان»، يفوق العلاج الذي حظي به علي يد الطبيب «بوفاري»!

علي أنّ «شارل» لم يُفكّر في أن يسأل نفسه عن سرّ المتعة التي يستشعرها في التردّد علي «برتو».. ولو أنّه حاول التّساؤل لما كان ثَمّة شك في أن يعزو هذا الإسراف إلي خطورة حال المريض، أو إلي الكسب الذي كان يرتقبه.

ولكن! أحمقًا كان هذا هو السبب في أنّ زيارته لتلك الضيعة كانت تبدو - خلال شواغل حياته - كأحداث غير عادية ذات جاذبية وفئة؟

كان في أيام تلك الزيارات المُتكرّرة يستيقظ مبكرًا، ويرحل في عجلة، مستحثًا دابته.. حتي إذا ترجل أمام الدار، مسح نعليه بالحشائش، ولبس قفازيه الأسودين قبل أن يلج.. وكان يحس بالنشوة، إذا ما بلغ الفناء، وشعر بباب السياج يدور بجوار كتفه ليسمح له بأن يدخل، وحين يسمع صياح الديكة فوق الجدار، ويرى الأولاد مقبلين لاستقباله!

وأحبّ الأب «روو» الذي كان يربت يده ويدعوه بمنقذه!.. كما أحبّ وقع خطوات «إيما» علي أرض المطبخ النظيفة.. كان كعباها العاليان يضيفان



طولاً إلي طولها.. وكان النعل الخشبي يرتفع - إذا ما سارت أمامه - ليصطك بجلد الحذاءين في صوتٍ مكتوم ..

وكانت الفتاة ترافقه دائماً عند انصرافه حتي بداية السلم الخارجي، ثم تظل واقفة ريثما يحضر جواده.. وكانا يظلان صامتتين - إذ يكونان عادةً قد تبادلتا تحية الوداع من قبل - والهواء الطلق يهب حولهما فيبعث ببعض خصلات الشعر الحائرة علي عنق الفتاة، ويهز طرفي حزام مريلتها علي رديفها فيرفرفان كما ترفرف الرايات.

وكانت زوجة «شارل» لا تغفل - في الفترات الأولى لتردده علي «برتو» - السؤال عن المريض.. بل إنها أفردت للسيد «روو» صفحة بيضاء، بديعة في مفكرة الحسابات التي كانت تحتفظ بها. غير أنها لم تكذ تعرف أن له ابنة حتي أخذت تتحري، فعلمت أن الأنسة «إيما» التي نشأت في رعاية راهبات «الأورسليين»، قد حظيت بما يسمونه «تربية راقية»، ومن ثم فهي علي دراية بالفنون والجغرافيا والرسم، كما تمتاز بالمهارة في التطريز والعزف علي البيانو.. وتلك كانت الطامة الكبرى!

وأخذت الزوجة تُردد لنفسها: «هذا إذاً مبعث كل هذا الإشراق الذي يتجلي علي وجهه كلما ذهب لزيارتها!.. وهو السبب في حرصه علي ارتداء الصديري الجديد، مجازفاً بتعريضه للمطر الذي قد يتلفه!.. آه.. هذه المرأة!.. هذه المرأة!». وكرهتها دون أن تراها.. بالغريزة!

وقد كانت في بداية الأمر تسري عن نفسها بتلميحات لم يفهما «شارل»، ثم بإشارات عارضة كان يتجاهلها خشية العاصفة، ثم - أخيراً - باستجوابات مباغتة لم يكن يدري كيف يجيب عليها.. «لماذا يتردد علي «برتو» ما دام السيد «روو» قد شفي، وما دام القوم لم يمنحوه بعد أتعاباً؟.. آه؟.. لا يد أن ذلك يرجع إلي وجود شخص هناك.. شخص يُحسن الحديث ويُحسن تنمية.. شخص لبقٍ حاضر البديهة.. وهذا هو ما يجتذبه.. إنه يتوق إلي فتيات المدن!

وتمضي في مساجلتها قائلة: «وهل ابنة الأب «روو» من فتيات المدن؟.. هذا غير معقول! لقد كان جدّهم راعي غنم.. ولهم ابن عم أوشك أن يُقدّم إلي المحاكمة لاشتراكه في نزاع مشين.. ففيم إذاً التعالي، وفيما إذا ارتداء التحرير للذهاب إلي الكنيسة في أيام الأحاد، وكأنّها كونتيّسة؟.. لولا محصول اللفت لعجز أبوها المسكين عن سداد ديونه في العام الماضي!». .

وسم «شارل» هذه النغمة البغيضة، فكف عن التردّد علي «برتو»، ولا سيما بعد أن حملته «هلويّز» - زوجته - علي أن يقسم بالكتاب المقدس علي ألا يعود إلي تلك الزيارات، وبعد أن غمرته بفيض من النحيب والقبلاّت في ثورة عاتية من الحبّ..!

بيد أنّ الرّغبة القويّة لم تلبث أن تمردت علي استكانته وخنوعه، وفي نوع من الرياء الساذج أخذ يؤول قسمه.. فحظر رؤيته الفتاة لا يُجرّده من الحقّ في أن يُحبّها.. ولا سيما أنّ زوجته عجفاء، كبيرة الأسنان، لا تتخلي قط - وفي جميع فصول السّنة - عن الشال الأسود الصّغير، الذي كانت أطرافه تتدلي بين لوحى كتفها.. وكان قدها محشورًا دائمًا في ثوبها وكأنّه مُعيّب في غمداً!.. ثمّ إن أثوابها كانت قصيرة، تكشف عن ساقيين معروقتين، وغاب قدماها في جوربين رماديين عقدت فوقهما سيور نعلها..

وكانت أمّ «شارل» تأتي لزيارتهما بين حين وآخر، ولكنّها لم تلبث أن أحسّت - بعد زمن - أنّ زوجة ابنها أخذت تستشيرها ضده، إذ أصبحت المرأتان كسكيتين تتحرانه بملاحظتهما وتأنبيهما.. فهو مخطئ إذ يلتهم كلّ هذا الطعام!.. ثمّ لماذا يُقدّم الشراب لكلّ وافداً!.. ولماذا يركب رأسه ويرفض بإصرار ارتداء «النفانلات»؟!



وحدث في مستهل الربيع، أن هرب أحد وكلاء الأعمال من «أنجوفيل»، حاملاً معه كلّ ما كان مودعاً في مكتبه من أموال، ومن بينها جلّ ثروة الأرملة



«دوبيك». علي أنَّ «هلويز» وإن ظلت تمتلك دارها الخاصّة في شارع «سان فرانسوا»، فضلًا عن حصّة في إحدى السفن تقدر بستة آلاف فرنك، إلّا أنَّ هذه الثروة المزعومة - التي كان لها دوي عال - لم يبد من آثارها في بيت الزوجية سوي بعض الأثاث والملابس الخاصّة..

ولم يكن بد من مناقشة هذا الأمر واستجلائه، بعد هرب وكيل الأعمال. فإذا بالمنزل قد استغرقه الرهن، وإذا مصير ما كان مودعًا لدي وكيل الأعمال قد بات لا يعلمه إلّا الله وحده، وإذا نصيبها في السفينة لا يعدو - في الحقيقة - ألف فرنك!.. إذا فقد كذبت السيّدة الفاضلة!.. وفي ثورة الغضب، هشم السيّد «بوفاري» الأب مقعدًا علي البلاط، واتهم زوجته بأنّها كانت السبب في شقاء ابنهما، إذ ربطته إلي تلك الفرس العجفاء التي لا يفضل سرجها جلدّها!.. وكان الأبوان قد وفدا علي «توست» لبحث هذا الموضوع، فدارت معارك ارتمت «هلويز» خلالها علي صدر زوجها وهي منهمة الدمع الساخن، تناشده أن يحميها من أبويه.. فلمّا أراد «شارل» أن يدافع عنها، غضب والداه ورحلا..

غير أنَّ الصّدمة كانت قد أحدثت أثرها.. فبينما كانت «هلويز» تنشر الغسيل في صحن الدار - بعد ثمانية أيام - أصابتها نوبة جعلتها تبصق دمًا.. وفيما كان «شارل» منهمكًا في إسدال الستار علي النافذة - في اليوم التالي - وظهره نحوها، هتفت: «آه يا إلهي»، وأرسلت زفرة غابت بعدها عن الوعي.. وماتت!.. ويا للعجب!

ولمّا انتهت كلّ مراسم الدفن، عاد «شارل» إلي المنزل.. ولم يجد أحدًا في الطابق الأرضي، فصعد إلي الطابق الأوّل، وولج غرفة النوم، حيث رأى ثوب زوجته الراحلة مُعلقًا بجانب الفراش، فأسند رأسه إلي مكتبه مستغرقًا في حُلم حزين حتي المساء.. فلقد كانت تُحبّه علي أيّة حال.. كانت تُحبّه!



ماذا لو تزوجت؟

What if I got married ?

وصل الأب «روو» ذات صباح يحمل إلي «شارل» أجر جبر ساقه: خمسة وسبعين فرنكاً من القطع فئة الأربعين سنتاً، وديكا روميًا! وكان قد علم بمصابه فراح يواسيه ما وسعه، قائلاً وهو يرت كفه:

- إنني أدرك مبلغ مصابك، فقد مرت بي التجربة نفسها.. لقد كنت أنطلق في الحقول - بعد أن فقدت زوجتي المسكينة - لأخلو إلي نفسي، فأجثو عند ساق إحدى الأشجار أبكي وأضرع إلي الله، وأناجيه بأقوالٍ سخيفة!.. وكنت إذا ما ذكرت أنّ سواي من الأزواج يضمون بين أذرعهم - في تلك اللحظة - زوجات لطيفات صالحات، أدق الأرض بعصاي في عنف!.. كنت شبه مجنون، حتي لقد أمسكت عن الطعام. وكان مُجَرَّد التفكير في الذهاب إلي المقهى يثير اشمزازي!.. لعلك لا تصدق!.. علي أنّ الأيام تتابعت، يطرد كل منها الآخر في رفق.. وأقبل ربيع في أعقاب شتاء، وخريف في ذيل صيف.. وما لبث كل شيء أن تضاعف رويدًا وفارقتي قطرة إثر قطرة.. أو بالأحرى، رسب في أعماقي، إذ لا بد من أن يبقى شيء في أغوار النفس، أو لا بد - كما يقولون - من أن يبقى فوق الصدر ثقل جائم!.. علي أننا يجب ألا نسلم أنفسنا لليأس، أو نطلب الموت، إذا ما مات أحد من أحبائنا، ما دام هذا مصيرنا جميعًا!.. فانفض الحزن عن نفسك يا سيّد «بوفاري» تجده يفارقك!.. وتعال لزيارتنا!.. أتعلم أن ابنتي تُفكر فيك بين وقتٍ وآخر،



وتتساءل: هكذا نسيني؟ ..ها هو ذا الربيع مقبل عمًّا قريب، وسنشركك معنا في اصطيد الأرناب لتسري عن نفسك قليلًا.

أخذ «شارل» بالنصيحة، فذهب لزيارة «برتو»، حيث وجد كل شيء علي ما كان عليه قبل خمسة أشهر.. واستطاع الأب «روو» أن يسير علي قدميه، فكان يغدو ويروح باعًا الحياة في المزرعة.. ورأي الرجل أنَّ من واجبه أن يبالغ في إكرام الطبيب إلي أقصى حد، نظرًا لنكته المحزنة، فطلب إليه ألا يرفع قبعته، وأخذ يتكلم إليه بصوت خفيض - وكأنه يتحدث إلي مريض - بل إنَّه أظهر غضبه لأنَّهم لم يعدوا للزائر شيئًا أكثر من المعتاد، كقدور القشدة والكمشري المطبوخة، وأخذ يروي له النواذر، فإذا بالحزين يتزاح عن نفسه ويضحك.. ثمَّ لا يلبث أن يذكر زوجته فيعود إلي وجومه وحزنه، وعندما قدَّمت لهما القهوة، لم يعد يفكر فيها!

وأخذ تفكيره فيها يتضائل كلَّما ازداد اعتياده علي الحياة بمفرده، بل إنَّ لذة الحرِّيَّة، التي عادت إليه حديثًا، جعلته أكثر احتمالًا لحياة الوحدة، فقد أصبح في وسعه أن يغير مواعيد طعامه، وأن يخرج ويدخل دون أن يضطر إلي تقديم حساب عن حركاته، وأن يمدَّ أطرافه علي طول السرير وعرضه إذا ما شعر بالتعب. وهكذا أخذ يعني بنفسه ويرفها، ويستمرئ ما كان يوجه إليه من عبارات التعزية!

ولقد عاد عليه موت زوجته - فوق كلِّ هذا - بنفع في مهنته ليس باليسير، إذ ظلَّ النَّاس شهرًا بعد وفاتها يرددون: «يا للشباب المُسكين!.. ويا لنكته..!» وذاع اسمه، فازداد الإقبال علي عيادته.. كما أصبح يذهب إلي «برتو» كلَّما شاء.. كان لديه أمل دون ما هدف واضح.. وفي نفسه سعادة غامضة!.. وأخذ يلاحظ، كلَّما سوي لحيته أمام المرأة أنَّ وجهه يزداد سماحة!



وفي يوم من الأيام وصل «شارل» إلي «برتو» حوالي السّاعة الثالثة، والقوم في الحقول، فذلف إلي المطبخ.. ولم يظن في البداية إلي أنّ «إيما» كانت هناك، إذ كانت النوافذ مغلقة. ومن خلال المصاريع، كانت الشمس تلقي علي الأرض خيطًا دقيقًا من أشعتها طويلاً، ينكسر علي زوايا قطع الأثاث، ويتذبذب علي السقف.. وكانت «إيما» تجلس بين النافذة والمدفأة، وهي منهمكة في الحياكة.. ولم تكن ترتدي وشاحها، فلاحظ «شارل» أنّ قطرات دقيقة من العرق تنتشر علي كتفيها العاريتين.

وعرضت عليه - كعادة أهل الريف - أن تأتية بشيء من الشراب، فتمنّع.. وألحّت، ثمّ دعتة أخيراً - ضاحكة - إلي أن يتناول معها كأسًا من الخمر.

و أحضرت من الصوان زجاجة شراب خفيف، وكأسين صغيرتين، ملأت إحدهما حتي الحافة، بينما لم تكد تصبّ في الأخرى شيئًا، وقدّمت إليه الأوّل، وبعد أن قرعتها بالثانية، رفعت هذه إلي شفيتها، ولمّا كانت الكأس شبه فارغة، فقد اضطرت إلي أن تطوح رأسها إلي الوراء، لترشف ما بها من قطرات.. وأخذت تضحك - وهي علي هذا الوضع، وشفتها ممدودتان إلي الأمام، ورقبتها مشدودة - إذ لم تكد تشعر بشيء من الشراب في فمها، بينما امتد لسانها من بين أسنانها الدقيقة ليلعق ما في الفم!

وعادت إلي الجلوس، مستأنفة عملها في رفو جوب أبض من القطن، وقد نكست رأسها، وكفّت عن الكلام. وظلّ «شارل» صامتًا هو الآخر.. وكان الهواء ينساب من أسفل الباب، حاملاً بعض الغبار، فأخذ يرقب تموّجاته، وهو لا يسمع سوي خفقات النبض في رأسه يختلط بنقطة دجاجة تضع بيضة في مكان ما بأقصى الفناء. وكانت «إيما» ترطب وجتيها - بين أن وآخر - بكفيها اللتين كانت تبردهما علي حديد المدفأة الخامدة.

وكانت منذ أوائل الموسم تعاني دوارًا، فسألت «شارل» عمّا إذا كان الاستحمام في البحر يفيدها.. ثمّ تطرّقت إلي الحديث عن الدير الذي تعلّمت فيه، فتحدث «شارل» بدوره عن مدرسته.. وهكذا اتصل الحديث



بينهما. وما لبثا أن صعدا إلي غرفتها، حيث أطلعته علي كراساتهما الموسيقية، والكتيبات التي نالتها كجوائز، والتيجان المجدولة من أوراق البلوط التي كانت تحفظ بها في قاع صوان.. كما حدثته عن أمها، وعن المقبرة.. بل لقد أرشدته - في الحديقة - إلي الحوض الذي كانت تجمع منه الزهور في يوم الجمعة الأول من كل شهر، لتضعها علي قبر أمها.. بيد أن البستاني الذي يعني بالحديقة، لم يكن ليفهم عن الأزهار شيئاً.. كذلك كان الخدم جميعاً.. أغبياء لا تجني من ورائهم إلا المتاعب!

وكم كانت تتمني أن تعيش في المدينة، ولو في الشتاء - علي الأقل - وإن كان نهار الصيف الطويل قد يجعل الريف أكثر مللاً في هذا الفصل منه في الشتاء.. وكان صوتها يتغير تبعاً لما تقول: فهو تارة صاف، وأخري حاد.. وقد يسري فيه فجأة خمول ينتهي به إلي ما يشبه الهمس حين تخاطب نفسها.. ثم إذا به بعد لحظة قد انقلب مرحاً.. وعيناها!.. كانتا تحدقان في براءة، ثم إذا بهما في نصف إغماضه، إذ يشرد فكر صاحبهما أو تغرق في السآمة!

وفي أثناء عودته في المساء أخذ «شارل» يستعيد عباراتها واحدة بعد واحدة، يحاول أن يتذكرها، وأن يربط بعضها ببعض، ليستكمل صورة واضحة للحياة التي كانت تحياها قبل أن يعرفها. غير أنه لم يستطع قط أن يتمثلها في صورة تغاير تلك التي رآها عليها في اللقاء الأول.. أو تلك التي تركها عليها في الوداع القريب.. وساءل نفسه عما قد تصير إليه إذا ما تزوجت.. ثم بمن تزوج؟.. وا أسفاه!.. إن الأب «روو» واسع الثراء.. وهي!.. كم هي جميلة!

وكان وجه «إيما» لا يلبث أن يعود ليستقر أمام عينيه في إصرار.. وأخذ يتردد في أذنيه صوت رتيب، في طنين مستمر ملح: «هب أنك تزوجت!.. نعم، ماذا لو تزوجت؟!».

الفصل السادس



نافذة الخبر السار!!

Good news window!!

في هذه الليلة لم يجد إلي التَّوم سبيلاً.. كان يحس بضيقٍ وطمأ.. وما لبث أن نهض ليشرب من الإبريق، وفتح النافذة، وراح يتطلَّع إلي السماء المليئة بالنجوم.. كان النسيم دافئاً.. وتناهي إليه من بعد نباح الكلاب.. ثُمَّ أدار رأسه في اتجاه «برتو» .

وخطر له أنه لن يخسر شيئاً علي أية حال، فمَنِّي نفسه بالتقدُّم لطلب يدها عندما تسنح له الفرصة.. غير أنَّ تهيُّبه وحيرته في اختيار العبارة المناسبة كانا يعتقلان لسانه كُلِّما واثته الفرصة التي ينتظر .

والحقُّ أنه لم يكن ليضير الأب «روو» أن يتخلص من ابنته التي لم تكن ذات نفع كبير في بيته.. وكان يلتمس لها - في قرارة نفسه - العذر، إذ كان يدرك أنَّها أذكي من أن تشتغل بالزراعة، تلك الحرفة التي لعنتها السماء، حتي أنَّ أحداً لم يصبح - باشتغاله بها - من أصحاب الملايين! لقد كان يخسر كُلَّ سنة، بدلاً من أن يجني من وراثتها ثراء.. فبالرغم من تفوقه في المساومة، وإلمامه بأساليب التجارة الماكرة، كانت الزراعة بمعناها الكامل - وبما تنطوي عليه من فنون إدارة المزارع - أقلَّ ملائمة له منها لبقية النَّاس.



وحين لاحظ أنَّ وجنتي «شارل» كانتا تتوردان كُلَّما اقترب من ابنته، توقَّع أن يطلب منه يدها يومًا ما، فأخذ يتدبر الأمر بأكمله مقدمًا.. كان يراه ضيقًا بعض الشيء، لا يتمثَّل فيه الصهر الذي كان يتمناه. غير أنَّه كان يعرف عنه حُسن السلوك، والاقتصاد.. وكان متعلِّمًا.. ويلوح أنَّه لن يساوم كثيرًا فيما يتعلَّق «بالمهر» الذي سيقدمه الأب لابنته!.. وإذ كان مضطَّرًا إلي أن يبيع اثنين وعشرين فدانًا من أرضه، ليتخلص من دين كبير عليه للبناء والنجار، ولإصلاح دولا ب المعصرة، فقد أسرَّ لنفسه قائلاً: «لسوف أعطيه «إيما» إذا طلب يدها»!



وفي عيد القديس ميخائيل ذهب «شارل» إلي «برتو» ليقضي ثلاثة أيام، وانقضي اليوم الأخير كسابقه، في تردُّد وإرجاء.. فلمَّا تأهب للرحيل، رافقه الأب بعض المسافة.. وسلكا طريقًا وعراً كثير الحفر، حتي إذا أوشك علي الافتراق، دار بخلد «شارل» أنَّ السَّاعة قد أُرْفت، إذ كان قد حدَّد لنفسه مهلة تنتهي عند السياج الخارجي للضيعة.. ولم يكذ يجاوره، حتي تتمم قائلاً:

- سيِّد «روو».. أريد أن أفاتحك في أمرٍ..

ووقف السيِّد، ولكنَّ «شارل» لزم الصَّمَت!

وقال الأب ضاحكًا في رفقٍ:

- حدثني بأمرِك.. أو تظن أنَّني لم أدرك كُلَّ شيء؟

فتمتم «شارل» قائلاً:

- أيها الأب «روو» .. أيها الأب «روو»!

وواصل المزارع حديثه قائلاً:

- إنني شخصيًا لا أتمني أفضل منك.. ولكن للفتاة رأيها، ولا بد من سؤالها.. فأبطئ في مشيتك ريثما أعود إلي البيت.. وليس من الضروري أن ترجع - إذا ما أجابت بالقبول - حتي لا يفطن النَّاس إلي شيء، وحتى لا يشتد بالفتاة الانفعال.. ولكن، لا تقس وتشتد علي أعصابك.. سأدفع مصراعي النافذة إلي الجدار، وأفتحهما علي وسعهما، إشارة بذلك.. وتستطيع أن تتبين هذه الإشارة من الخلف إذا ما انحنيت علي السياج.

وابتعد الأب.. وربط «شارل» جواده إلي شجرة، وهرع إلي الطريق الخلفي الضيق، وأخذ ينتظر.. وانقضي نصف ساعة.. وأحصى بعده تسع عشرة دقيقة.. وفجأة، سمع صوت ارتطام.. فقد فتح مصراعا النافذة.. وظلا يهتزran إثر اصطدامهما بالحائط!

ولم تحن السَّاعة التاسعة من صباح اليوم التَّالي، حتي كان في المزرعة! وتضرج وجه «إيما» حين دخل الدار، وإن حاولت أن تضحك قليلاً لتبدو متمالكة لنفسها. وقُبل «شارل» صهر المستقبل.. ثُمَّ اخذوا يتحدثون في المسائل المائيَّة، وإن كانت أمامهم فسحة من الزمن، إذ لم يروا أن يتم الزواج قبل أن ينتهي حِداد «شارل»، أي في ربيع العام التالي تقريباً.

ومضي الشتاء في ترقب ورجاء.. وشغلت الآنسة «روو» بجهازها الذي أرسل في طلب بعضه من «روان»، وحاكت لنفسها قَلَنُوات للنَّوم

علي نماذج استعارتها، وكانوا - خلال زيارات «شارل» للمزرعة - يتحدثون عن تداير العرس، ويتساءلون عن القاعة التي ستقام فيها وليمة الزفاف، ويحلمون بأصناف الطعام التي ستُقدَّم ويتناقشون في الصنف الذي ستفتتح به الوليمة!

وكانت «إيما» تفضل أن يتمّ الزفاف في منتصف الليل، علي ضوء المشاعل، بيد أنّ الأب «روو» لم يستسغ هذه الفكرة .
وهكذا أُقيمت وليمة العرس أخيرًا فحضرها ثلاثة وأربعون مدعوًا، التفتوا حول المائدة ست عشرة ساعة، ثمّ استأنفوا الوليمة في اليوم التالي، والأيام التي أعقبته ..





وليمة حفل الزفاف

Wedding Banquet

بدأ المدعوون يتوافدون منذ ساعة مبكرة، في عرباتٍ مثبائيةٍ، ومن القرى المجاورة أقبل شبابان في عربات نقل مكشوفة، اصطفوا عليها مستندين إلي حوافها الخارجيّة كي لا يسقطوا منها وهي تخب بهم مهتزة في عنفٍ.

وجاء مدعوون من قري تبعد عشرة فراسخ عن المزرعة، مثل: «جودرفيل»، و«نورمانفيل»، و«دوكاني».. إذ كان أهل العروسين قد دعوا جميع أقارب الأسرتين، ووصلوا ما انقطع بينهم وبين بعض الأصدقاء، وكتبوا إلي معارف لم يكونوا قد رأوهم منذ زمن بعيد!

وكانت فرقة السياط تسمع من وقتٍ إلي آخر خلف السياج، فيفتح الباب، لتنفذ منه عربة تسير حتي الدرجة الأولي من مُلَم المدخل، حيث تقف فجأة، ويخرج ركبها من كُلِّ جانب يُدَلِّكون ركبهم، ويمطون أذرعهم، وقد توجت السيّدات رؤوسهن بالقبعات الصّغيرة، وارتدين أزياء المدن، وكان الأطفال في ثياب شبيهة بثياب الرّجال، وقد لاح عليهم أنّهم كانوا يضيّقون بملابسهم الجديدة.. وإلي جوارهم سارت فتيات تتراوح أعمارهن بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة، وقد ارتدين ملابس حفلة «التناول» الأوّل، بعد أن أطيلت أطرافها لتصلح للمناسبة الراهنة..!



ولمّا لم يكن عدد السياس كافياً، فقد شَمَّر الرّجال عن سواعدهم،
وباشروا بأنفسهم حل الخيل من العربات، رغم ثيابهم التي تباينت تبعاً
لمراكزهم الاجتماعيّة.. وكُلّها من الملابس التي تعني بها الأسر فلا تخرجها
من الخزانات إلّا في المناسبات!.. وكان الرّجال الذين سيسجلون في ذيل
المائدة يرتدون «أقمصة المناسبات» ذات الياقة المسدلة علي الكتفين،
والثنيات الرفيعة في الظهر، وقد شُدَّت تحت الخصر بحزام مثبّت في
ثناياها.. كما شُدَّت فوق الصدور- بفعل النساء والكي- فبدت كألّها دروع!



كانت دار العمدة تقع علي مسافة أربعة كيلومترات من المزرعة، فذهبوا
إليها علي الأقدام.. وعادوا بالطريقة عينها بعد أن تمّ الاحتفال في الكنيسة.
وكان الموكب متماسكاً في بادئ الأمر، فبدا كأنّه شال موشي بالألوان،
يتموّج علي طول الطريق الضيق المتعرّج بين الحقول الخضراء.. ثمّ لم
يلبث أن استطال، وتجزأ إلي مجموعاتٍ شغلها الحديث عن اللحاق بغيرها.
أمّا العازف فكان يسبق الموكب بقيثارته التي حُلّيت بالأشرطة، يتبعه
العروسان، ثمّ الأهل، فالأصدقاء، دون ما ترتيب.. وفي المؤخرة، سار
الأطفال يلهون بقطف زهور الشوفان، أو يلعبون فيما بينهم دون أن يفتن
إليهم أحد.

وكان ثوب «إيما» مسرف الطول، فكان ذيله يتجرر خلفها، فتقف بين
وقتٍ وآخر لترفعه، ولتنزع عنه - بأصابعها الدقيقة المكسوة بالقفاز - ما علق
به من أعشاب خشنة وأشواك، بينما يقف «شارل» ساكناً في انتظارها!.. وكان
الأب «روو» يرتدي قبعته الحريرية الجديدة، ومعطفه الأسود الذي بلغ كماه

أظفار يديه، وقد تأبط ذراع السيِّدة «بوفاري» الأم... أمَّا السيِّد «بوفاري» الأب - الذي كان يحتقر في قرارة نفسه كُلَّ هؤلاء الناس، والذي لم يرتد سوي سترة طويلة ذات صف واحد من الأزرار، علي نمط الملابس العسكرية - فقد أخذ يُغازل ريفية شقراء أثرها بمداعباتٍ ماجنةٍ كانت وجنتها تتضر جان لها، دون أن تدري بماذا تجيب!.. في حين انصرف بقية الحضور إلي الحديث في شؤونهم، أو إلي التغامز خفية - بعضهم علي بعض - أو إلي استشارة المرح في أنفسهم تأهبًا للحفل المرتقب..

ومدَّت المائدة تحت مظلة العربات، وفي أركان المائدة، استقرت قوارير الخمر، بينما كانت زجاجات نبيذ التفاح الفائر تبعث زبدًا كثيفًا حول سداداتها. وأترعت الأقداح مقدمًا بالنبيذ إلي حوافها، وكانت القشدة الصفراء تترجرج في أطباقها الكبيرة لأقلَّ حركة تُصيب المائدة، وقد نقشت عليها الحروف الأولي من اسمي العروسين في زخرفة عربية جميلة.

وكانوا قد عهدوا بإعداد الحلوى والفطائر إلي صانع من «إيفتو» استقر بالبلدة حديثًا، فبذل عناية فائقة، حتي لقد أحضر بنفسه كتلة مزينة بالزخارف، انتزعت صيحات الإعجاب من الحاضرين.. إذ كانت لها قاعدة من الورق المقوّي تمثل معبدًا ذا أروقة وأعمدة تحف بها التماثيل.. وتناثرت في الفجوات نجوم صنّعت من الورق المُذهَّب.. وفي الطابق الثاني منها، صنع الرّجل برّجًا من فطير «سافوا» تُحيط بهت تحصينات صغيرة من الحلوى واللوز والزبيب وفصوص البرتقال.. وفوق سطح هذا الطابق، صنع من الحلوى ما يمثل حقلاً أخضر به صخور غارقة في بحيراتٍ من المربي، تعلو سطحها زوارق من قشر البندق.. وفي الحقل أرجوحة من الشيكولاتة



تعلق بها تمثال صغير للحُبِّ، وقد توج عمود الأرجوحة ببرعمين من الورد الطبيعي!

وظلَّ القوم يأكلون حتي المساء.. وكلَّما أتعبههم طول الجلوس، نهضوا يتمشون في الأفنية، أو يمارسون بعض الألعاب في المخزن.. ثُمَّ لا يلبثون أن يعودوا إلي المائدة!.. وغلب النَّوم بعضهم قبيل الختام، فتصاعد غطيظهم، بيد أنَّ النشاط لم يلبث أن سري فيهم من جديد حين تناولوا القهوة، فراحوا يرددون الأغاني، ويتبارون في ألعاب القوي وحمل الأثقال والحيل التي تعتمد علي المهارة اليدويَّة.. وتباري بعضهم في رفع العربات فوق أكتافهم.. وفي تبادل النكات، وتقبيل السيِّدات!!

وفي المساء، تأهبوا للرحيل، ولكنَّ شدَّ الخيول إلي العربات - بعد أن اتخمت بالشوفان⁽¹²⁾ - كان من أصعب العمليات، إذ راحت تركل، وتتمرَّد، وتكسر الأعنة، وأصحابها يسبون أو يضحكون.. وكنت تري طوال الليل - وفي ضوء القمر - عربات انطلقت علي طول الطريق، تعدو خيولها الجامحة، فتتهبط بها في الحفر حينًا، وتقفز بها فوق أكوام الأحجار حينًا آخر.. ثُمَّ إذا بها تتسلق المنحدرات، وقد أطلت من جنباتها النساء يتشبثن بالأعنة!

أما مَنْ بقي في «برتو» من ضيوف العُرس، فقد قضوا اللَّيل يشربون في المطبخ، بينما نام الأطفال تحت المقاعد.

(12) الشوفان: هو نبات عشبي حولي من الفصيلة النجيلية، ويُعد نوعًا من الحبوب، تُستخدم بذوره في تغذية الإنسان والحيوان خصوصًا الدواجن والخياد. ويُستخدم قشّه أحيانًا كمرقد للحيوانات. (المُعد).

أَمَّا السَّيِّدَةُ «بوفاري» - الأُم - فقد ظلت طيلة اليوم صامتة، إذ لم يحفل أحد باستشارتها بصدد ثوب العروس، أو إعداد الوليمة. وما لبثت أن آوت إلي فراشها في وقتٍ مبكر.. وبدلاً من أن يتبعها زوجها، أرسل في طلب عدد من السيجار من «سان فيكتور»، وبقي حتي الصباح يدخن، ويحتسي مزيجاً من الخمور لم يكن مألوفاً لدي أهل الريف، ما رفع من شأنه في أعينهم!

وما كان «شارل» يوماً حاضراً النكتة والفكاهة، ومن ثمَّ لم يتألق في حفل عرسه، بل إنَّه كان يرد في غباءٍ علي ما وجهه المدعوون إليه من غمزات وفكاهات ومجاملات ومداعبات منذ جمعتهم الوليمة ..

علي أنه لاح في اليوم التَّالي رجلاً آخر يناقض ذاك الذي كان في اللَّيلة السَّالفة، وكانما كان في اللَّيلة السَّابقة عذراء يلجمها الخجل!

أَمَّا العروس، فلم يظهر عليها ما ينم عمّا كان يحول في نفسها، حتي إنَّ أكثر الحاضرين فراسة لم يستطع أن يتكهّن بشيءٍ عن حالتها النفسيَّة، واكتفوا بأن راحوا ينعمون في التحديق في وجههما كُلِّهما مرَّت علي مقربةٍ منهم ..

علي أنَّ «شارل» لم يعمد إلي شيءٍ من التكلُّف، بل أخذ يدعوها بزوجته، ويخاطبها في غير كلفةٍ، ويسأل عنها كُلَّ إنسان، ويبحث عنها في كُلِّ مكان - دون ما حرج - كُلِّما افتقدها!.. وكثيراً ما كان يقتادها إلي الأفنية ودروب الحديقة.. وكان يشاهد عن كُتب وقد طَوَّق خصرها بذراعه، أو وهو يسير إلي جوارها.



رحل العروسين بعد الزفاف بيومين، إذ لم يكن «شارل» ليملك أن يغيب
عن مرضاه أمداً أطول ممّا غاب عنهم .

وصحبهما الأب «روو» في عربةٍ حتي «فاسونفيل» حيث قبّل ابنته مودعاً،
ثمّ عاد أدراجه .. ولم يكد يخطو مئة خطوة تقريباً حتي توقف، ثمّ التفت إلي
العربة، فلما رآها تبتعد وقد أخذت عجالاتها تثير الغبار من خلفها، أرسل
زفرة طويلة، وتذكّر عرسه، والأيام الخوالي ..

آه! .. لقد تلاشي كلّ ذلك في أدراج الزمان! .. ولو أنّ طفلهما الأوّل
عاش، لكان اليوم في الثلاثين من عُمره!

والتفت خلفه فلم ير شيئاً في الطريق .. وغشيتة كآبة موحشة، وقد خُيّل
إليه أنّ نفسه غدت كالبيت الخاوي المهجور .. وامتزجت الذكريات العذبة
بالذكريات الأليمة في رأسه الذي أثقله الشراب .. وأحس برغبة في أن يعرج
علي الكنيسة، بيد أنّه خشي أن تزداد شجونه، فيمّم وجهه صوب داره .

ووصل السيّد «شارل» وزوجته إلي «توست» في نحو السّاعة السّادسة،
فإذا الجيران في النوافذ يرتقبون الزوجة الجديدة لطبيهم .

وتقدّمت الخادمة العجوز فحيتهما، واعتذرت لأنّ العشاء لم يكن أعد
بعد، ثمّ سألت السيّدة أن تتفقّد منزلها، ريثما تُعدّ المائدة.





الفصل الثامن



طعم السعادة يهب من جديد

The taste of happiness barks again

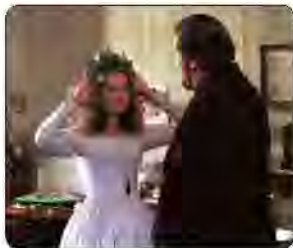
كان المنزل مبيّناً من الأجر⁽¹³⁾، وواجهته تطل علي الطريق.. وخلف الباب كان ثمة معطف ذو ياقة صغيرة، مُعلّقاً مع عنان جواد، وقلنسوة من الجلد الأسود.. وعلي الأرض، انزوي في أحد الأركان زوج أحذية الركوب ذات الرقاب الطويلة، يعلوه بعض الطين الجاف.. وإلي اليمين، امتدت الردهة الوحيدة التي كانوا يأكلون فيها ويجلسون.. وقد علقت إلي أحد الجدران، رديئة الطلاء، ورقة صفراء اللون، وفي طرفها الأعلى باقة من الزهر الباهت. وكانت الستائر القطنية البيضاء - المحلاة بشرائط حمراء - تتقاطع علي النوافذ، بينما كان يلمع علي حافة المدفأة الضيقة بندوق ساعة يعلوها رأس «أبقراط»⁽¹⁴⁾، وقد قام إلي جانبه شمعدانان من الفضة تحت مظلتين بيضاويتين.

(13) الأجر: مادة من مواد البناء تُستخدم في إنشاء الجدران والسقوف المنيّة وفي تليط الأرضيات وكسوة السقوف المائلة والجدران.(المعد).

(14) أبقراط: وُلد في عام 460 قبل الميلاد، وتوفي في عام 370 قبل الميلاد. لُقّب بـ «أبو الطب»، وهو أعظم أطباء عصره، وأوّل مدوّن لكتب الطب، وهو الذي خلّص الطب من آثار الفلسفة وظلمات الطقوس السحرية، وصاحب فكرة القسم الشهير الذي يقسمه الأطباء قبل مزاوله مهنة الطب.(المعد).



وفي الناحية الأخرى من المدخل، كان مكتب «شارل».. غرفة صغيرة عرضها ست خطوات تقريباً، تضم منضدة وثلاثة مقاعد، فضلاً عن مقعد خاص للمكتب.. واحتل الأرفف السّثة في مكتبه، من خشب القرو⁽¹⁵⁾، قاموس العلوم الطبيعيّة بأجزائه التي لم تفض صفحاتها بعد، رغم ما لحق بأغلفتها من تلفٍ، بسبب عمليات بيعها المتتالية!



وكانت رائحة الطعام تنساب من المطبخ مشربة خلال جدران غرفة المكتب في أثناء الكشف علي المرضي.. كما كان سُعال المرضي المنبعث داخل غرفة المكتب يسمع في المطبخ، فضلاً عن قصصهم بحذافيرها!

«إيما» و«باقة العروس الأولى».

وكانت تلي غرفة المكتب مباشرة، حجرة كبيرة، مهدمة، تطل علي الفناء الذي يضم الحظيرة، وكانت تحوي فرنًا، غير أنّها كانت تُستخدم كـمخزن للحطب، والأغذية، والمهملات، وقد امتلأت بقطع الحديد القديمة، والبراميل الفارغة، وآلات الزراعة المهملة، وأكداش من أشياء أخرى ظلمتها الأتربة، كان من المستحيل التكهّن بما تُستخدم فيه - أمّا الحديقة فكانت مستطيلة، يحدها جدران من الطين - حفت بهما أشجار المشمش - وتنتهي بسياج من الأشواك يفصل بينها وبين الحقول. وكانت تتوسطها «مزولة» - ساعة شمسية - من الإردواز⁽¹⁶⁾، أقيمت علي قاعدة حجرية..

(15) خشب «القرو» لونه داكن ومنه عدة أنواع: القرو الإنجليزي ولونه عاجي داكن ويُستخدم في نجارة الأبواب والشبابيك والسّلام وتجليد الحوائط، والقرو الأمريكي والذي يُعرف باسم القرو الأبيض، وأخيرًا القرو الإفريقي ولونه أحر وهو صلد وصعب التشغيل.

(16) الإردواز: هو من الصخور الرسوبية، تكوّن من الطين أو من الرماد البركاني عبر ملايين السنين، والنتيجة هي صخور مرققة كأوراق الشجر. يُستخدم كالأواح منتظمة لتغطية أسقف المنازل. (المعد).

وأربعة أحواض من نبات «النسرين»⁽¹⁷⁾ تحيط - في انتظام - بحوض خامس زرعت فيه نباتات أكثر نفعاً.. وتحت شجيرات «السرو»⁽¹⁸⁾، في الطرف الأقصى للحديقة، قام تمثال من الجص يمثل قساً يقرأ في كتاب الصلوات!

صعدت «إيما» إلي الطابق العلوي، فإذا بأولي حجراته تكاد تكون خالية من الأثاث تقريباً!.. أما الحجرة الثانية - وهي مخدع العروسين - فكانت تضم سريرًا من خشب «الأكاجو»⁽¹⁹⁾ داخل فجوة في الجدار أحاطت بها ستائر حمراء! وكان يزين خزانة الثياب صندوق من الصدف.. وإلي جوار النافذة مكتب عليه آنية بها باقة من زهور البرتقال الجافة ضمنتها أشرطة من الحرير الأبيض.. وكانت باقة عروس.. العروس الأولى!!

ولاحظ «شارل» اتجاه نظرات «إيما» إلي الزهور، فتناولها وذهب بها إلي المخزن.. وجلست «إيما» في مقعد مريح في أثناء ترتيب حاجياتها، وقد سرح خاطرها إلي باقة عرسها التي وضعت في صندوق من الورق المقوي.. وساءلت نفسها - وهي مسترسلة مع أحلامها - عمّا يمكن أن يحل بتلك الباقية.. لو أنها ماتت بدورها هي الأخرى!

(17) النسرين: أو ورد السياج، هو نوع من النباتات يتبع جنس الورد من الفصيلة الوردية. نشأ في آسيا وأوروبا. رائحة زهر النسرين تشبه رائحة التفاح. وهو نبات معمر ينبت بريًا في الجبال. وهي مقوسة إلى الأسفل و شائكة وأوراقها بيضاوية الشكل، وتزهو في شهر يونيو، وأزهارها مستديرة و مكورة من خمس وورقات بيضاء مئبرة بحمرة خفيفة (وردية و ثارها فيها بعد حراء، و بشكل الزيتون و حجمه)، و تحتوي ثارها على بذور صغيرة و شعيرات دقيقة شائكة. (المعد).

(18) السرو: هو جنس نباتي شجري. يصل ارتفاع شجرة السرو إلى 30 مترًا، وهي بطيئة النمو وخشبها عطري. (المعد).

(19) شجرة الكاجو: هي شجرة كبيرة ودائمة الخضرة، يكثر نموها في شال شرق البرازيل. (المعد).



أمضت «إيما» الأيام الأولى في تدبير التعديلات التي شاءت أن تجربها في البيت، فنزعت المظلات - «الأباجورات» - عن المشاعل وألصقت بها كساءً جديدًا من الورق، وأعادت طلاء السُّلَم، ووضعت حول السَّاعة الشمسية - في الحديقة - بعض المقاعد... بل إنَّها راحت تُفكِّر في الحصول علي نافورة وحوض تسبخ فيه الأسماك!

ولمَّا كان زوجها يعلم أنَّها تُحبُّ النزهة في العربات، فقد وُفِّقَ إلي عربيَّة مستعملة، زوَّدها بمصابيح جديدة، ومقاعد من الجلد. وأُسي «شارل» هانئ البال، لا يحمل همًّا.. حياته وجبات يتناولها مع «إيما».. ونزهات مسائيَّة برفقتها في الطريق العام. وكان يستشعر متعة في العبث بصفائرها، وفي رؤية قبعاتها الخصوصية معلقة إلي مزلاج النافذة.. وفي كثير من الأمور الشبيهة، التي لم يخطر له يومًا ببال أنَّها يمكن أن تكون مبعث سرور!



وكان، إذا ما استيقظ في الصباح وظلَّ مستلقًا إلي جوارها علي السرير، يتأمَّل ضوء الشمس وهو يتخلَّل زغب وجنتيها البضتين اللتين كان طرفا قلنسوة النوم ينسدلان إلي منتصفيهما..

وكان إذا حدَّق في عينيها عن «إيما» و«شارل» وبدايات السعادة الزوجية . قرب، خالهما أكثر اتساعًا.. ولا سيما حين تفتح أجفانها وتطبقها مرَّات متتابعة، ريثما تألف عيناها الضوء عند اليقظة!.. وكانتا تبدوان سوداوين في الظلال، وزرقاوين قاتمتين في ضوء النَّهار.. بل لقد يخالهما تتألفان من طبقاتٍ متباينةٍ من ألوانٍ تبدو كثيفة في أغوار الحديقة، ثُمَّ تشف شيئًا فشيئًا كُلِّمَا اقتربت من السطح!

وكان إذا ما نهض وتهيأ للخروج، وقفت «إيما» عند النافذة تودعه، ثم تظل مستندة إلي حافتها بين آيتين من زهور «الجيرانيوم»⁽²⁰⁾، وهي في ثوب فضفاض.. وبينما ينهمك - وهو في الفناء - في تثبيت مهمازيه⁽²¹⁾، رافعاً قدميه تباعاً إلي حافة السور، كانت تأخذ في الحديث إليه من أعلي، وهي تلتقط بضمها نتفاً من الزهر أو من العشب الأخضر، ثم تنفثها نحوه، فتتطاير في الهواء مرفرفة في حركة نصف دائرية كالعصفور، حتي تعلق بالشعر الأشعث المنتشر فوق عنق الفرس العجوز البيضاء التي تقف لدي الباب بلا حراك.. وما إن يعتلي «شارل» صهوة الجواد، حتي يرسل إليها قبلة في الهواء، فتدرد بإيماءة، ثم تغلق النافذة، بينما يشرع هو في رحلته، فينطلق في محاذاة الجسر الذي ينسبط أمامه كشريط من غبار لا نهاية له، ويمضي في دروب بين الأشجار الوارفة، وأزقة ضيقة يرتفع القمح علي جوانبها إلي الركبة.. والشمس تستلقي علي منكبيه، وهواء الصباح يملأ فتحتي أنفه.. وقد أفعم فؤاده بما ناله في ليله من لذات.. وسرت الطمأنينة إلي نفسه، والراحة إلي جسده!

وكان يواصل رحلته وهو يجتر سعادته في تذوق من يتلذظ⁽²²⁾ بعد الغداء ممّا خلفه «عش الغراب»⁽²³⁾ في فمه من طعام..! متي كانت الحياة رقيقة به

(20) زهور الجيرانيوم أو «الغودتسيا»، هي زهرة شتوية موطنها الأصلي أمريكا الشمالية، لكنها انتشرت في جميع أنحاء العالم، خاصة لقدرتها على النمو في ظروف الطقس البارد. وهي زهرة جميلة، تعطي أزهاراً بثلاثة ألوان هي الوردي والبنفسجي والأبيض. (المعد).

(21) المهماز : عبارة عن حديدة تكون في عقب الراكب، ينخس بها بطن الدابة، حتى تسرع في المشي. (المعد).

(22) التلذّظ: الأخذ باللسان ما يبقى في الفم بعد الأكل، أو يعني تذوق بقية الطعام في الفم. وكذلك فتح الشخص لشفه أثناء مضغ الطعام وأغلقها بصورة مزعجة. (المعد).

(23) عيش الغراب، أو المشروم Mushroom، هو فطر مشر ينمو فوق الأرض. وهو ينمو بكثرة في الغابات ومناطق الأعشاب. (المعد).



كما هي الآن؟.. أفي أيام الدراسة، حين كان محبوبًا بين جدران المدرسة وحيدًا وسط زملاء يفوقونه ثروةً واستيعابًا للدرس، ويسخرون من لهجته الريفية ومن ملابسه، ويُعيّرونه بأنَّ أحدًا لا يزوره كما كانت أمهاتهم يفدن لرؤيتهم - في حجرة الاستقبال بالمدرسة - وقد حملن لهم الفطائر؟!.. أم في فترة دراسة الطب، عندما لم تكن حافظته تضم من النقود ما يمكنه من صحبة تلك العاملة الصغيرة التي كان من الممكن أن تغدو عشيقته؟!.. أم في الشهور الأربعة عشر التي عاشها زوجًا لتلك الأرملة التي كانت قدمها تستحيلان - في السرير - إلي قطعيتين من الثلج؟!

ما أبعد كُلِّ هذا عن حاضره، وقد أصبح يمتلك - ما عاش - هذه المرأة الجميلة التي يهيم بها!.. لقد أصبح العالم في نظره لا يتجاوز محيط منامتها أو قلَّنسواتها الحريرية!

وكان يلوم نفسه إذ يُخَيَّل إليه أنَّه لا يُحِبُّها كما يجب!.. وما كان ليطبق عنها بُعدًا، فيتعجل العودة، ويصعد سلَّم الدار بقلب خافق، ثمَّ يتسلل إلي حجرتها في هدوءٍ ليفاجئها وهي تتزين، فيطبع علي ظهرها قبلة قبل أن تحس بوجوده.. فتصرخ جرة!

ولم يكن يقوي علي كبح يديه عن أن تتحسسا دومًا مشطها وخواتمها وشالها.. وكان يطبع علي وجنتيها قُبَلات كبيرة أحيانًا، بملء فمه، أو يغطي ذراعيها بقُبَلات خفيفة من أطراف أصابعها حتي كتفيها، وهي تدفعه في مزيج من الضيق والابتسام، كما نفعل بالطفل إذ يتشبث بنا!

والواقع أنَّ «إيما» كانت تعتقد قبل الزواج أنَّها قد وقعت في الحبِّ، فلمَّا لم تحصل علي ما كانت تخاله مترتبًا علي هذا الحبِّ من سعادةٍ، توهمت أنَّها كانت علي خطأ، وأخذت تسأل نفسها كثيرًا عمَّا تعنيه عبارات النشوة والعاطفة والهيام التي كانت تقرأها في الكتب فتبهر أنفاسها وتثير إحساسها!



في دير الراهبات

In the convent of the nuns

كانت «إيما» قد قرأت رواية «بول وفرجينى»⁽²⁴⁾، فحلمت بالبيت الصَّغير المُقام علي أعواد الغاب، وبالعبد «دومينجو»، والكلب الأمين.. كما أحست - بوجه خاص - بتلك الصداقة الرقيقة التي نلمسها في أخ صغير يسعي ليجتلب لنا فاكهة وردية من أشجار ضخمة يفوق ارتفاعها أبراج الكنائس.. أو يعدو علي الرمال حافيًا وقد حمل إلينا عش عصفور!

ولما بلغت الثالثة عشرة من عُمرها، اصطحبها أبوها إلي المدينة ليلحقها بالدير فنزلوا في فندق بحى «سان جرفيه»، حيث قدّم لها العشاء في صحاف موساه برسوم تمثل حياة «مدموزيل دي لافالير».. وكانت التفصيلات الخرافيّة - التي تناهت إلي أذنيها خلال صليل السكاكين عن حياة تلك

(24) «بول وفرجينى» Paul et Virginie رواية كتبها الروائي الفرنسي «رواجاك أونري برناردن دي سان بيير» Jacques-Henri Bernardin de Saint-Pierre المولود في 19 يناير 1737، والمتوفى في عام 1814. والذي انتخب ليكون عضواً بأكاديمية اللغة الفرنسية في عام 1803. ومن المعروف أنّ رواية «بول وفرجينى» تُرجحها إلي اللغة العربيّة الأديب المصري «مصطفى لطفى المنفلوطي»، وجعلها بعنوان «الفضيلة»، وتسرد هذه القصّة عدة أحداث لعلّ من أهمها الحبّ العذري لـ «بول»، و«فرجينى» لبعضهما، والكفاح الرهيب من أجل بقاء وديمومة هذا الحبّ خالداً للأبد في قلوبهم النديّة. (المعد).



الآنسة - تنطوي علي تمجيد البلاط الملكي، وإظهاره في إطارٍ من التدين،
ورقة المشاعر، وأبهة المنظر!

ولم تستشعر سأمًا من حياتها بالدير- في الأيام الأولي- بل إنَّها استطابت
صحبة الراهبات الطيبات، اللاتي كن يعملن علي التسرية عنها باصطحابها
إلي الكنيسة المتصلة بغرفة الطعام بأروقةٍ طويلة.. ولم تكن تلعب في أوقات
الفراغ إلا نادرًا، إذ كانت تحرص علي استذكار مبادئ الدين عن ظهر قلب،
حتي غدت تنفرد دائمًا بالإجابة علي الأسئلة الصَّعبة الدقيقة التي كان القس
يوجهها إلي الفتيات في الكنيسة!

علي هذا النحو عاشت في جوِّ حجرات الدراسة الدفيء لا تجاوزه، وبين
أولئك السيِّدات ناصعات البياض، ذوات المسابح التي تتدلي منها الصلبان
النحاسية.. وفي رفيقٍ ولين، أخذت تستسلم لذلك الاسترخاء التصوفي
الذي ينبعث من عطور المذبح، وأحواض مياه التبرُّك، وأضواء الشموع!..
وكانت تشغل عن تتبع القداس بتأمُّل الصور الدينية المحاطة بإطار سماوي
اللون، في كتاب الدين.. فأحبت «الحمل المتألم»، و«القلب المقدس» الذي
تخرقه السهام، والمسيح المُعذَّب الذي يسقط، وهو سائر، تحت الصليب.
وكانت تحاول أن تصوم عن الطعام يوميًا بأكمله لتروض روحها.. وتجهد
رأسها في ابتداء ألوان من النذر لتعمل علي تحقيقها!

وكانت حين تذهب إلي «كرسي الاعتراف» تبدع خطايا صغيرة تزعمها
لكي تطيل في فترة ركوعها في الظلال، فتصغي إلي همس القس، ويدها
مضمومتان، ووجهها أمام السياج المحيط بالكرسي!! وكانت الأوصاف

المجازية التي تتناول «الخطيب»، و«الزوج»، و«العاشق الإلهي»، و«الزواج الأبدى»، والتي كانت تتردد في المواعظ، تثير في أعماقها نشوة غريبة!

وفي المساء، كانت الفتيات يقرأن في قاعة الاستذكار - قبل الصلاة - نصوصاً دينيةً، كن يخرنهن في أيام الأسبوع من بعض ملخصات التاريخ المقدس، أو من محاضرات الراعي «فراياسينوس».. أمّا في أيام الأحاد، فكن يقرأن فقرات من «عبقرية المسيحية» علي سبيل الترويح.. وكن كانت تنصت في البداية للمراثي الربانية المفعمة بالكآبة والشجن العاطفي، والتي كانت أصداؤها تتردد بين الأرض والسماء!

ولو أنّها عاشت طفولتها في جوف حانوت بحري تجاري، لتفتحت نفسها لنغمات الطبيعة الخلابة، التي لا تسري إلينا عادةً إلا إذا ترجمها لنا الكتاب.. ولكنّها عاشت تلك الطفولة في الريف، فاعتادت ثغاء القطعان، وثورة المحارث!.. ولمّا كانت قد ألفت المناظر الهادئة، فقد أخذت تتجه إلي نقيضها.. إلي المناظر المشيرة!.. ومن ثمّ لم تعد تُحب قي البحر إلا أنواءه، ولا تعجب بالخضرة إلا منتشرة وسط الخرائب.. كان لابدّ لها من الحصول علي منفعة شخصية من الأشياء، فلم تكن تري نفعاً لما لا تجد فيه غذاء مباشر لقلبها، إذ كان مزاجها حسياً عاطفياً، أكثر منه فنياً.. وبعبارة واحدة: كانت تبحث عن العاطفة أكثر ممّا تبحث عن المنظر!

في تلك الفترة كانت تفد علي الدير امرأة عانس تقضي أسبوعاً من كلّ شهر، تعني خلاله بكلّ ما يتعلّق بالملابس والأعطية. ولمّا كان المطران يرعاها لانتمائها إلي أسرة عريقة من أسر النبلاء التي حطمتها الثورة، لذلك



كانت تتناول الطعام في القاعة المخصصة لذلك مع الراهبات.. ثمَّ تجاذبهن الحديث قبل أن تصعد إلي عملها. وكثيرًا ما كانت التلميذات يتسللن من

قاعة الاستذكار إلي حيث تعمل، إذ كانت تُردّد في همسٍ - وهي تُحرّك إبرتها في القماش - بعض أغنيات غرامية من القرن الماضي، تحفظها عن ظهر قلب!.. وكانت تقص النوادر، وتروي الأنباء، وتقضي الحاجات من المدينة، وتُعير التلميذات الكبيرات - سرًّا - روايات كانت تحتفظ بها دائمًا في جيب مريلتها.. ولا تكف عن «التهام» فصول طويلة منها، بين فترات عملها!.. وما كان أمثال هذه الروايات ليدور إلا عن الحُبِّ والمُحبين، ونساء مُعذبات يغمي عليهن في خلواتٍ منعزلة، وسياس خيول يقتلون في كُلِّ رحلة، وخيل تنفق وتموت في كُلِّ صفحة، وغابات مظلمة، وشجون تفعم القلوب وتدميها، وعهود، وزفرات، ودموع، وقُبلات، وزوارق في ضوء القمر، ولباليل في الخمائل، وسادة في شجاعة الأسود ووداعة الحملان، أوتوا من الشهامة قدرًا لا مثيل قدرًا له.. محفظين بأناقتهم دائمًا.. ويكون، فتسيل دموعهم كالمطر!



وعلي هذا ظلت «إيما» خلال أشهر ستة من عامها السادس عشر، تنفض بأصابعها الغبار عن تلك الروايات العتيقة. ثمَّ أرشدها «والتر سكوت»⁽²⁵⁾ - بعد ذلك -

• «إيما» المولعة بقراءة الروايات •

(25) «والتر سكوت» 1832 (Walter Scott 1771-)، هو روائي وكاتب مسرحي وشاعر اسكتلندي. وأُطلق عليه لقب «أبو الرواية الحديثة». كما مُنح لقب سير (المعد).

إلي التاريخ، فراحت تحلم بالأثاث والرياش وقاعات الحرس، والشعراء البوهيميين⁽²⁶⁾ الذين يغنون أشعارهم علي القيثارة، وكانت تتمني لو أنّها عاشت في أحد تلك القصور القديمة التي كانت تقرأ عنها كأولئك النيلات اللائي كنّ يقضين أيامهن تحت الأقواس ذات الطراز القوطي، وقد أسندن ذقونهن إلي راحات أيديهن، وسرحن البصر يرقبن مقدم فارس ذي ريشة بيضاء يعدو بين الحقول علي صهوة جواد أسود!

وأنزلت «إيما» الملكة الإنجليزية «ماري ستيوارت»⁽²⁷⁾ من نفسها منزلة القداسة، وأكبرت - في حماسة - النساء الشهيرات، المنكوبات: فكانت «جان دارك»⁽²⁸⁾، و«هيلوز»، و«آنيسس سوريل»، و«فيرونيير» الفاتنة، و«كليمانس هيزور». كل أولئك كنّ - في نظرها - كواكب في ظلمات التاريخ

(26) البوهيمي la Boheme في الأساس هو أحد مواطني منطقة بوهيميا التشيكية لوصف أولئك المهاجرين العجبر الذين جاؤوا من رومانيا مارين بمنطقة بوهيميا، إلّا أنّ المصطلح انتشر بمعنى آخر في فرنسا، أولاً في القرن التاسع عشر الميلادي، حيث أصبح يدل على أي كاتب أو فنان يميل إلى اتخاذ سلوك أو العيش بنمط حياتي غير مألوف، سواء كان هذا سلوكاً واعياً أو غير واعياً منه. ومن ثمّ فنمط الحياة العجبرية آنذاك كان بمثابة الشرارة الأولى لبداية ما يعرف بـ «البوهيمية» في الأدب والفنّ في فرنسا وأوروبا. (المعد).

(27) «ماري ستيوارت» Mary Stewart هي ملكة اسكتلندا، وُلدت في 8 ديسمبر 1542، وتوفيت في 8 فبراير 1587. (المعد).

(28) «جان دارك» Jeanne d'Arc، ملقبة بـ «عذراء أورليان» La Pucelle d'Orléans، ولدت لعائلة من الفلاحين في الوسط الشرقي من فرنسا عام 1412، وتوفيت في 30 مايو 1431، وتعدّ بطلة قومية فرنسية وقديسة في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. قادت الجيش الفرنسي إلى عدة انتصارات مهمة خلال حرب المئة عام، ممهدةً بذلك الطريق لتتويج شارل السابع ملكاً على البلاد. قُبض عليها بعد ذلك وأُرسلت إلى الإنجليز مقابل المال، وحوكمت بتهمة «العصيان والزندقة»، ثمّ أعدمتم حرقاً بتهمة الهرطقة عندما كانت تبلغ 19 عامًا. (المعد).



اللانهاية!.. وكانت تبرز لها من جوف الظلمات صور أخرى غامضة، مبهمة، لا رابط بينها، تمثل «سان لويس» وشجرة البلوط التي كان يجلس تحتها، واحتضار «بايار»، وفظائع «لويس الحادي عشر»⁽²⁹⁾، ولمحات من «سان بارتلمي»، وغطرسة «كونت بيارين».. ثم - ودائمًا - ذكرى الصحف التي نقشَت عليها صور تمجد «لويس الرابع عشر»⁽³⁰⁾!

ولم يكن في الأغنيات - التي كانت تغنيها في أثناء دروس الموسيقى - سوي ملائكة صغار، بأجنحة ذهبية، وعذارى مقدسات، وقنوات يسبح فيها الجندول.. أغان ساذجة كانت تُلمح - خلال أسلوبها الركيك وموسيقاها الضعيفة - صورًا متلاحقة للحقائق الحسية. وكانت بعض الرميلات يحملن إليّ الدير ما يُهدي إليهن في عيد رأس السنة من كتب أنيقة، كان إخفاؤها مشكلة عويصة بالنسبة إليهن!

علي أنّهن كنّ يقرأنها في «عبر التّوم»، فكانت «إيما» تُقلّب بين يديها - في رفقٍ - تلك الكتب المغلفة بالحبر، ثمّ تقف ببصرها عند أسماء المؤلّفين

(29) «لويس الحادي عشر» Louis XI، هو ملك فرنسا، ولد في 3 يوليو 1423، وتوفي في 30 أغسطس 1483، وقد حكم من 1461 إلى 1483، وكان يلقب بالملك العاقل، أو الحكيم، أو الداهية، أو الملك العنكبوت. وتعتبر فترة حكمه مليئة بالمكائد والدسائس السياسية التي أكسبته العديد من الأعداء. (المعد).

(30) «لويس الرابع عشر» Louis XIV، ولد في عام 1638، وتوفي في عام 1715. ملك فرنسا منذ عام 1643 حتى وفاته. وهو أحد أبرز ملوك البوربون، تولى الحكم وهو بسن الخامسة إلاّ أنّه لم يكن يملك السيطرة الفعلية حتى توفي رئيس الوزراء «الكاردينال مازارين» في عام 1661. كان يلقب بـ«الملك الشمس»، وذلك لاهتمامه بالأدب والفن. وهو الذي قام ببناء قصر فرساي في فرنسا. (المعد).

المجهولين الذين كان يسبق توقعاتهم - في نهايات القصص - لقب «كونت»، أو «فيكونت»⁽³¹⁾.. وكانت تعتبرها رجفة حين تنفخ في رفق لترفع الورق الشفاف عن الصور، فلا يلبث أن يتشني ثم يتزلق مستويًا علي الصفحات!

وكان بين الصور، منظر يمثل سور شرفة وقف خلفه شاب في معطف قصير يضم بين ذراعيه فتاة في ثوب أبيض، ثبتت إلي حزامها كيس الصدقات.. كما كانت هناك صور بعض الإنجليزيات المجهولات، ذوات الشعور الشقراء، اللاتي يرمقنك من تحت قبعات الخوص المستديرة، بأعين واسعة صافية.. وقد اضطجع بعضهن في عربات تنساب وسط الحدائق، يقود خيولها سياس في سراويل بيضاء، وتجري أمامها كلاب الصيد الرشيقة.. بينما استلقت أخريات علي الأرائك مستغرقات في الأحلام، وإلي جوارهن رسائل غرام مفتوحة، وقد سرحت أبصارهن نحو القمر الذي يطل خلال نافذة أخفت نصفها ستارة سوداء!.. كما كانت بعض الصور تمثل فتيات ساذجات يطعمن اليمام خلال قضبان أفقاص من الطراز القوطي، وقد سال الدمع علي وجناتهن.. وأخريات يتسمن وقد ملن برؤوسهن علي أكتافهن،

(31) لقب «الكونت» يُطلق على النبلاء أو الشخصيات ذات الثراء والمركز الاجتماعي المرموق في البلدان الأوروبية في العصور الوسطى، حيث استعمل هذا اللقب منذ أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية باشتقاقه من مصطلح: Comes، أو باللاتينية: comitis، ويعني «الرفقة الإمبراطورية»، أو «الحاشية».

أما لقب «الفيكونت» فهو الدرجة الرابعة في سلم النبلاء. والكلمة تعني الرجل الذي يحتل مكانة الكونت. (المعد).



وأخذن يثرن أوراق زهر المرغريت⁽³²⁾ بأصابعهن المديبة التي تشبه أظفار الصقور!!

وكان المصباح المعلق إلي الحائط فوق رأس «إيما» يضيء كل هذه اللوحات التي تمثل مناظر الدنيا، فتتابع أمام بصرها، و«عبر التوم» غارق في صمت، يُعكره في بعض الأحيان ضجيج يتناهي من بعيد، منبعثًا من عربة تذرع الطريق، بعد أن اقترب الليل!

وقد بكت «إيما» كثيرًا في الأيام الأولى لوفاة أمها، وأوصت بصنع لوحة حزينة مطرزة بخصلة من شعر «الفقيدة». وأرسلت خطابًا إلي «برتو» مليًا بأفكار قاتمة عن الحياة، طلبت فيه أن تدفن - إذا ما حان أجلها - في المقبرة التي ضمت أمها. وجزع أبوها إذ ظنها مريضة فبادر بزيارتها.. وأحست «إيما» في أعماقها بالارتياح، إذ رأت نفسها تقفز فجأة إلي ذلك اللون الباهت من الحياة المثالية النادرة، التي لا تتطلع إليها النفوس التافهة!

وهكذا، ألفت نفسها تنزلق إلي ألوان الخيال «اللامارتينية» - أي التي كانت تسود مؤلفات «لامارتين»⁽³³⁾ - فتنصت إلي القيثارات علي البحيرات،

(32) زهور المرغريت: نبات حولي شتوي قصير الارتفاع، موطنه الأصلي أوروبا، وهناك أنواع مرغريت معمرة، ينمو النبات على شكل رابية وله أوراق رحيمة الشكل خضراء اللون داكنة، زهرته بيضاء ومركزها أصفر اللون عديدة تتوضع على شكل كتل من الزهور تصلح للقطف. يفضل النبات المواقع المشمسة، ويتحمل انخفاض الحرارة. (المعد).

(33) ألفونس دي لامارتين Alphonse de Lamartine، ولد في 21 أكتوبر 1790، وتوفي في 28 فبراير 1869. شاعر وسياسي فرنسي. يُعد أحد أكبر شعراء المدرسة الرومانسية الفرنسية. خاض غمار السياسة، فتولى رئاسة الحكومة المؤقتة، بعد ثورة 1848. من أشهر أعماله «تأملات شعرية» (1820)، و«جوسلين» (1836)، و«سقوط ملك» (1838). ومن أشهر قصائده قصيدة «البحيرة» التي ترجمها للعربية «نقولا فياض». (المعد).

وأناشيد البجع المحتضر، وإلي صوت سقوط الأوراق الذابلة، ورفرفة
العذارى الطاهرات الصاعدات إلي السماء، وإلي صوت السماء يتردد في
الوديان!!

وما لبثت أن ملت كُلّ هذا، ولكنّها لم تشأ في البداية أن تعترف بالملل،
بل استمرت في هذه الخيالات - بحكم العادة، في أوّل الأمر، ثُمَّ بدافع من
الزهو بعد ذلك! - ولكنّها وجدت السكينة تغمرها في النهاية، فلا الفؤاد
حزين، ولا تجاعيد في الجبين!

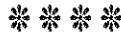
وكانت دهشة الراهبات - اللاتي أحسن الظن باستعدادها - بالغة، إذ
لاحظن أنّ الآنسة «روو» قد أخذت تفلت من رعايتهن.. والواقع أنّهن كن
قد أكثرن عليها بالطقوس والخلوات والمواعظ، وأسرفن في تلقينها التبجيل
الواجب نحو القديسين والشهداء، وفي إزجاء النصائح التي تستهدف
إخضاع الجسد وخلص الروح، حتي أصبحت الفتاة كالفرس التي تسحب
بالعنان.. ثُمَّ قدّر لها أن تقف وأن يخرج العنان من بين أسنانها!

وما ذلك إلّا لأنّ تلك الروح الإيجابية التي نمت في جوانحها وسط هذا
النشاط الديني.. تلك الروح التي أحبت الكنيسة من أجل زهورها، والأغاني
بسبب كلماتها العاطفية، والأدب من أجل مثيراته الحسية.. هذه الروح لم
تلبث أن تمرّدت علي أسرار الإيمان، كما تمرّدت علي ذلك النظام الذي كان
يتعارض مع مزاجها.. حتي إنّ أحداً لم يأسف لرحيلها حين سحبها أبوها من
الدير. بل إن الرئيسة شكّت من أنّها غدت في الأيام الأخيرة قليلة الاحترام
لراهبات الدير!



ووجدت «إيما» - في الفترة الأولى التي تلت عودتها إلي البيت - لذة في أن تصدر الأوامر إلي الخدم. بيد أنها لم تلبث أن أبغضت الريف، وحتت إلي الدير مرة أخرى!

وعندما وفد «شارل» إلي «برتو» لأول مرة، أحست بخيبة أمل، إذ لم يسفر ظهوره عن جديد تتعلمه أو تحس به!.. بيد أن شوقها الملهم إلي شيء جديد، والقلق الذي ساورها لتغيير ظروفها - أو لعله الاضطراب الذي بعثه ظهور هذا الرجل - كانا كافيين لكي يحملها علي أن توقن بأنها قد أصابت أخيراً تلك العاطفة الخارقة، التي كانت تتراءى لها - حتي ذاك الحين - كعصفور كبير ذي ريش وردي، يُحلق ببهاء في سماوات الشعر.. عاطفة الحب!.. وما استطاعت حينذاك أن تتصور أن تلك السكينة الناعمة التي كانت تعيش فيها هي.. السعادة التي كانت تحلم بها من قبل!





الفصل العاشر



حب بلا أحاسيس!

Love without feelings



• «إيما» تكتشف أن حبها
لـ «شارل» خال من الحرارة.

كانت «إيما» رغم ذلك تخال أحياناً أنَّ
الأيام المقبلة ستكون أجمل أيام حياتها..
أيام شهر العسل، كما يسمونه! . بيد أنَّها
كانت تري لزماً - لكي تتذوق حلاوة ذلك
«العسل» كاملة - أن ترحل إلي البلاد ذات
الأسماء الرنانة، التي تتسم فيها فترة ما بعد
الزواج بلذة الدعة والاسترخاء.. والتي
يصعد المرء فيها - علي مهلٍ - طرقاً وعرة،
في عربات ذات سناثر زرقاء، وهو ينصت
إلي أنشودة السائس ترددها قمم الجبال،

ويختلط بها رنين الأجراس الملتفة حول أعناق الماعز، وخيرير الماء
المتساقط.. ومع غروب الشمس، يتنسم المرء - عند حواف الخلجان - عبير
أشجار الليمون، حتي إذا أرخي الليل سدوله خلال العروسان إلي أنفسهما
في الشرفة يحدقان في النجوم وقد اشتبكت أصابعهما، وأخذاً يرسمان
الخطط للمستقبل!!



بل لقد حُيِّلَ إليها أنَّ في الدنيا بقاءً تنبت السَّعادة، كما لو كانت السَّعادة شجرة لا تنبت إلا في تربة مُعيَّنة لا نمو لها في غيرها! ولطالما ساءلت نفسها: «لماذا لم يقدر لها أن تتكئ علي حافة شرفة منزل خشبي فوق جبال سويسرا، أو أن تحبس شجونها في كوخ باسكتلندا، مع زوج يرتدي حلة من المخمل الأسود، وحذاءين طريين، وقبعة مُدبَّبة، وأكمامًا منشأة؟!

لكم تمنيت لو تفضي لأحد بهذه الخواطر جميعًا.. ولكن كيف السبيل إلي الإفصاح عن ذلك الضيق الذي يتعذر التعبير عنه، والذي تبدَّل صورته كالسحاب، ويعصف بنفسها كالرياح؟.. وهكذا، كانت تعوزها الألفاظ، كما أعوزتها الفرصة والجرأة!

ومع ذلك.. آه، لو أراد «شارل».. لو خطر بباله.. لو التقت نظراته مرَّة بخواطرها.. إذًا، لتفتح قلبها - فيما تظن - عن فيض مفاجئ، كما تتساقط الثمار الناضجة عن الأشجار بمُجرَّد أن تمسها الأيدي! بيد أنَّ الأمر كان يجري علي النقيض من ذلك.. فكلُّما ازدادت الألفة بينهما كلُّما ازداد شعورها بانطواء روحي، واتسعت الهوة التي تفصله عنها!

كان حديث «شارل» سطحيًا.. كسطح إفريز الطريق أو رصيفه، تمرَّ عليه آراء النَّاس في لباسها العادي، فلا تثير فيه انفعالًا، أو ضحكًا، أو خيالًا!.. فهو لم يحس بحُبِّ الاستطلاع - كما كان يقول - يدفعه لأن يذهب إلي المسرح لمشاهدة الممثلين الباريسيين، أيام كان يقيم في «روان».. ولا كان يعرف السباحة، ولا استخدام السلاح، ولا إطلاق الرصاص.. وعجز مرَّة عن أن يُفسَّر لها عبارة من مصطلحات الفروسيَّة، صادفتها في إحدى الروايات التي قرأتها!

ألم يكن من الواجب أن يسير الأمر علي العكس من ذلك، فيعرف الرَّجل كلَّ شيء.. أن يكون مبرِّزًا ومميزًا في كثير من نواحي النشاط ليدرب زوجته عليها.. أن يُبصِّر المرأة بخبايا العواطف ومتع الحياة.. وبكلِّ الأسرار؟!!

لقد كان «شارل» علي العكس من هذا كُلِّه، فلا هو عرَّفها بشيء، ولا كان يعرف شيئًا.. بل إنَّه لم يكن يطمح إلي شيء!!

كان يظنها سعيدة، وهي في الواقع تنقم عليه هذا السكوت الخامل، وذلك الركود المطمئن.. بل تنقم عليه إن حظي بتلك السَّعادة التي أتاحتها له!

وكان يحلو لها أحيانًا أن ترسم، فكان «شارل» يجد تسلية ممتعة في أن يقف جامدًا يتأملها وهي عاكفة علي لوحتها، أو وهي تمعن النظر إلي الرسم وقد ضاقت حديقها إمعانًا في الدقة، أو هي تعبت بقطعة من بُباب الخبز تُكوِّرها بين أصابعها.. أمَّا إذا عزفت علي «البيانو» فكان إعجابه يزداد كُلِّما ازدادت حركات أناملها سرعة!.. كانت توقع النغمات في ثقة، وتجري أصابعها علي المفاتيح من أعلي إلي أسفل دون توقف، فتتقر أوتار الآلة القديمة، حتي ليصل صوتها إلي أفصي القرية إذا كانت النافذة مفتوحة.. وكثيرًا ما يحدث أن يكون مُحضر القرية مازًا في الطريق، فيتوقف عن السير ويأخذ في الإصغاء وهو عاري الرأس، وأوراقه تحت إبطه!



وكانت «إيما» - من ناحيةٍ أخرى - تحسن تدبير المنزل، وتكتب للمرضي رسائل لبقة تذكُرهم فيها بأتعاب الاستشارات الطبيَّة، دون أن يشتمَّوا منها



رائحة المطالبة!.. وعندما يصادف وجود ضيف من الجيران علي مائدة الغداء - في أيام الأحاد - كانت تنتهز الفرصة لتعرض لبعض ملامح الأناقة في تقديم أصناف الطعام.. كأن ترص أهرامات من البرقوق علي ورق العنب، أو تصوغ الحلوى في قوالب تصبها علي الأطباق.. بل إنها أخذت تعرب عن رغبتها في شراء آنية ثملاً بالماء لتغمس فيها الأصابع بعد تناول الحلوى!.. وكان كُـلّ هذا مدعاة إلي رفع شأن أسرة «بوفاري» في أنظار النَّاس!

وانتهي الأمر بـ«شارل» إلي أن ازداد تقديره لنفسه، إذ وفق إلي مثل هذه الزوجة!.. وكان يطلع زائريه مزهوًا علي لوحتين صغيرتين رسمتهما «إيما» بالفحم، وصنع لهما إطارين عريضين، وعلقهما إلي الحائط بشريطين أخضرين.. وكثيرًا ما أصبح يُري واقفًا أمام باب منزله - بعد مبارحة الكنيسة - وفي قدميه خُفَّان بديعا التطريز يختال بهما فخورًا!

وكان يعود إلي المنزل في بعض الأحيان متأخرًا - في السَّاعة العاشرة، وربما في منتصف اللَّيل - فيطلب الطعام، بينما تكون الخادمة قد أوت إلي فراشها، وعند ذاك كانت «إيما» تتولي إعداد المائدة له، فيخلع سترته لكي يتناول عشاءه في ارتياح، وينطلق في سرد أسماء جميع مَنْ قابل من النَّاس، وما زار من قري، وما وصف لمرضاه من عقاقير.. تُـمَّ يأتي - وهو راض عن نفسه - علي ما تبقي أمامه من «الحساء»، ويعقب أو يختتم بقطعة من الجبن، تُـمَّ يأخذ في قضم تفاحة، وفي إفراغ إبريق النبيذ في جوفه.. ولا يلبث أن يذهب إلي السرير فينطرح عليه، ويمضي في نوم عميق بزفير وشهيق!

وكان قد عدل عن الفلسفة القطنية التي اعتاد لبسها في السرير، وألف أن يلف حول رأسه وشاحًا لا يكاد يستقر علي أذنيه، فيصحو في الصباح

وشعره متهدل، مبعثر علي وجهه، وقد علق به بعض حشوات الوسادة التي تكون أشرطتها قد انحلت في أثناء نومه.. كذلك كان يرتدي في النهار نعلين كبيرين، لكلٍّ منهما رقبة عالية، تعلو سطحها ثنيتان سميكتان تنحرفان نحو كعبي القدمين.. أمّا وجه الحذاء فكانا دائماً مستويًا، وكأنّه مشدود علي خشب. وكان يُردّد دائماً: «هذا هو النوع المناسب للريف»!

وكانت أمّه تؤيده في هذا الاقتصاد، إذا ما جاءت لزيارته - كُلّما وقعت في خلاف مع زوجها - كما كانت تفعل أيام الزوجة الأولى!.. وكانت تبدو برمة بالزوجة الجديدة أيضًا، إذ كانت تري أساليبها مدعاة لإسرافٍ يفوق مستوي ثرائهم.. فالخشب والسكر والشموع تستهلك بكميات تعادل ما يستهلك في البيوت الكبيرة.. وكمية الجمر التي كانت تحرق في المطبخ تكفي لظهو عشرين صنفًا من الطعام!.. وكانت تعتمد إلي ترتيب «بياضات» زوجة ابنها في الصوان، وتعلّمها كيف تحاسب الجزار إذا ما أحضر اللحم، فكانت «إيما» تتقبّل بصبرٍ ما تجود به الأمّ من دروس!.. وكانت كلمتا: «ابنتي»، و«أمّي» تتبادلان طوال النهار، مصحوبتين برعشة في الشفاه، إذ كانت السيّدتان تلفظان أعذب كلمتين، بلهجةٍ تهتز بالغضب!!

كانت الأمّ العجوز تشعر في عهد مدام «دويك» الراحلة بأنّها ما زالت الأثيرة المفضلة لدي ابنها.. أمّا الآن، فقد بدا لها حُبّ «شارل» لـ «إيما» بمثابة فرار من حنانها، أو انتقاص لما كان لها.. فأخذت ترقب سعادة ابنها في صمتٍ كثيبٍ، كإنسان أفلس فراح ينظر خلال زجاج النوافذ إلي أغراب احتلوا داره القديمة.. وكانت تروي له مشقاتها وتضحياتها - علي سبيل



الذكري - وتقارنها بإهمال «إيما» عسي أن يستتج أن ليس من الحكمة أن يعشق السيِّدة الشابة علي هذا النحو الذي يملك عليه كُلُّ عواطفه!

ولم يكن «شارل» يدري كيف يتصرَّف.. فهو يحترم أمه، كما يُحبُّ زوجته حُبًّا لا حدَّ له.. وكان يعتبر أمه معصومة من الخطأ، ولكنه - مع ذلك - لم يكن يري في مسلك زوجته مدعاة للوم!.. وكان يستجمع جرأته - بعد أن ترحل مدام بوفاري - فيردُّد في استحياء - بألفاظ أمه نفسها - بعضًا من أهون المآخذ التي يكون قد سمعها منها.. ولكن «إيما» كانت - بكلمة واحدة - تقنعه بأنَّه علي خطأ، وترسله إلي مرضاه!.. ومع ذلك فقد ظلت تحاول أن تقنع نفسها بأنَّها تُحبُّه وفقًا للنظريات التي كانت تؤمن بها!..

كانت تُردِّد علي مسمعه - في الحديقة، وفي ضوء القمر - ما كانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب، وتغني له - وهي تنهد - بعض الألحان الشعبية.. غير أنَّها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف، كما أنَّ «شارل» لم يكن يبدو أكثر حُبًّا ولا انفعاليًّا ممَّا كان عليه قبل الشعر والغناء!

وهكذا لم تلبث - بعد أن قدحت زناد قلبها فلم تنبعث منه شرارة - أن انسأقت إلي إقناع نفسها بأنَّ حُبَّ «شارل» خالٍ من الحرارة!.. فهو يُقبلها في «مواعيد» مُعيَّنة، وكأنَّه يُمارس عادة من العادات!.. أو كأنَّه يتناول حلوي مرتقبة بعد عشاء رتيب!



حدث غير عادي!

An unusual event!

وفي يوم حدث أن عالج الطبيب أحد الحُراس من التهاب رئوي، فأهدي الحارس زوجته كلبة إيطالية صغيرة أخذت تصحبها في نزهاتها، إذ كانت تخرج أحياناً كي تخلو إلي نفسها، وحتى تريح بصرها بعض الشيء من النظر إلي تلك الحديقة العتيقة، والطريق المثربة!.. كانت تمضي حتي غاية الزان عند «بنفيل»، علي مقربة من البناء المهجور الذي تُولف جدرانهُ زاوية عند منعطف الطريق المفضية إلي الحقول.. وهناك وسط الأعشاب النامية في الخندق، وأعواد البوص ذات الأوراق الحادة، كانت تتأمل ما حولها لتبين ما إذا كان قد ألم بالمكان أي تغَيّر عمّا كان عليه في آخر مرّة وطئته.. فكانت تري زهور القرنفل في منابتها نفسها، والنباتات الشوكية تُحيط بالأحجار الكبيرة، والطحالب علي طول النوافذ الثلاث - في المبنى المهجور - التي كانت مصاريعها مقفلة باستمرار، يتسرب عبرها الثراب ليتراكم علي قضبانها الحديدية التي علاها الصداً.

وكانت أفكارها لا تبرح أن تهيم بلا غاية، مثل كلبتها التي كانت تجري في حلقاتٍ خلال الحقول، وترسل نباحها خلف الفراشات الصفراء، وتُطارِد الجردان أو تعضعض الخشخاش النامي علي حافة حقل القمح. ثمَّ

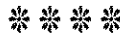


تأخذ أفكارها في التركيز شيئًا فشيئًا، فتردد لنفسها وهي تفتersh الحشائش التي كانت تعبت بها بطرف مظلتها: يا إلهي!.. لماذا تزوجت؟!

وكانت تسأل نفسها أيضًا: «أولم تجد المصادفات طريقًا آخر تدفعها فيه لتلتقي برجل آخر؟.. ثُمَّ تمضي في تخيل الأحداث التي كانت تترتب علي ذلك.. الأحداث التي لم تقع، والحياة التي تغاير حياتها الحالية، والزوج الذي لم تعرفه.. فلا مرأى في أنَّ الأزواج ليسوا جميعًا مثل زوجها!.. كان من الممكن أن يكون زوجها جميلًا، مرحًا، أنيقًا، جذابًا، مثل أولئك الأزواج الذين ولا بدّ قد حظيت بهم زميلاتهن في الدير!.. تري ماذا تفعل أولئك الزميلات الآن في المدينة، وسط ضجيج الشوارع، وأضواء المسارح، وصخب المراقص؟.. إنَّهن ولا ريب يحظين بحياةٍ يفتح بها القلب، وتتعش الحواس.. أمّا هي، فإنَّ حياتها باردة كالمخزن الرطب الذي أوتي نافذة شمالية!

والملل؟!.. ذلك العنكبوت الصامت الذي كان يغزل نسيجه في الظلال، في كُلِّ ركن من أركان قلبها!

وتذكرت أيام توزيع الجوائز - في أثناء الدراسة - حين كانت تصعد إلى المصة لتسلم نصيبها من التيجان الصغيرة، وقد بدت بديعة بشعرها المجدول، وثوبها الأسود.. وكان السادة ينحنون ليسمعوها عبارات التهنئة، إذا ما عادت إلى مكانها.. ويطلون من نوافذ العربات التي تملأ صحن الدير ليودعوها عند انصرافها!.. كما كان مُدرّس الموسيقى يحييها إذ يمرّ بها حاملًا قيثارته.. أواه!.. لكم أصبح كُلُّ هذا بعيدًا.. آه، بعيدًا جدًّا!



وكانت تُنادي كلبتها «جالي» فتضعها علي ركبتيها، وتمرّ بأصابعها فوق رأسها الصَّغير، وتهمس لها: «هيا.. قُبلي سيِّدتك! قبليها يا من لا تتقل الهموم قلبها!». .

وكان ضوء النَّهار ينبعث خلال أوراق الشجر، مستعيرًا لونها الأخضر، فينعكس علي العشب القصير الذي يثُن في رفقٍ تحت قدميها.. ولا تلبث الشمس أن تجنح إلي المغيب، فتحمر السماء، وتبدو جذوع الأشجار النامية بانتظام في خطٍ مستقيم، كأنها أعمدة قائمة علي صفحة من الذهب.. وتسري الرهبة إلي نفس «إيما» فتنادي كلبتها «جالي» وتسرع إلي «توست».. ثُمَّ تستلقي علي مقعدٍ مريح، وتظل صامتة بقية الليل!



وقد اعترض حياتها - في أواخر سبتمبر (آيول) - حدث غير عادي، إذ دُعيت إلي «فويسار» لزيارة مركز «أندفيليه»!.. ولَمَّا كان المركز قد تولي الوزارة من قبل - عند عودة الملكية - فإنَّه أخذ يتطلَّع للعودة إلي الحياة السياسيَّة، ويلمح بالتمهيد لترشيح نفسه لمجلس النواب.. فكان في الشتاء يوزَّع الحطب، وكان في مجلس المقاطعة يطالب متحمسًا بإصلاح الطرق في دائرته.. فلَمَّا جاء الصيف بحرر اللافح، أُصيب بدمل في فمه، استطاع «شارل» أن يريحه منه - بما يشبه المعجزة - في الوقت المناسب!

وعندما عاد المندوب الذي أرسله المركز إلي «تويست» ليدفع أتعاب الطبيب، ذكر لسيِّده أنَّ في حديقة الطبيب نوعًا ممتازًا من «الكريز» الذي كان نمو بذوره متعذرًا في حدائق «فويسار». فطلب المركز بعض «العُقل».. وعني بأن يذهب بنفسه إلي الطبيب ليُشكره.. وهناك وقع بصره



علي «إيما» فلاحظ قوامها الأهيف، واسترعي انتباهه أنها لا تنحني بالتحية
كالفلاحات.. ولم ير أي مغالاة في التواضع، أو أي خرق للتقاليد، في دعوة
الزوجين الشابين إلي قصره!

وفي السّاعة الثالثة من أحد أيام الأربعاء، رحل السيّد والسّيّدة «بوفاري»
إلي «فوبيسار» في عربةٍ شدت إلي سطحها حقيبة كبيرة.. ووضع أمام
مقعدها صندوق للقبعات، فضلاً عن أن «شارل» حمل علي فخذه صندوقاً
من الورق المقوي. ووصلا عند هبوط اللّيل، عندما كانت مصابيح الحدائق
تضاء لتنير الطريق للعربات الوافدة .





في قصر الماركيز

At the Marquis Palace

....



كان قصر الماركيز مبنياً علي الطراز الإيطالي الحديث، يمتد منه جناحان، وله ثلاثة مداخل تفضي إلي شرفات ذات درجات.. وأمام السُّلم الأوسط وقفت عربة «شارل»

«إيما» تتأمل بصمت قصر الماركيز. فظهر الخدم.. وتقدّم الماركيز فأغار زوجة الطبيب ذراعه وقادها إلي البهو، الذي رصفت أرضيته ببلاط من الرخام، وارتفع سقفه إلي علو شاهق، فكان يتردد لوقع الأقدام والأصوات فيه صدي كالذي يتردد في الكنائس. وفي أقصى البهو كان يوجد سُلّم مستقيم.. وإلي اليسار كانت ثمة شرفة تطل علي الحديقة، وتؤدي إلي قاعة «البلياردو» التي كانت أصوات ارتطام الكرات العاجية تنبعث خلال بابها.

وبينما كانت «إيما» في طريقها إلي قاعة الاستقبال، وقع بصرها علي رجال تبدو عليهم سيماء الوقار والعظمة، وقد استقرت ذقونهم فوق أريطة رقايبهم العالية.. وكانوا جميعاً يحملون الأوسمة، ويتسمون في صمتٍ وهم منكبون علي مائدة «البلياردو».. وفوق الخشب الداكن الذي يكسو



الجدران، كانت ثمة إطارات مُذهبة، نُقشت علي حوافها السفلي أسماء بحروفٍ سوداء، فرأت «إيما» منها: «جان أنطوان دو أندفيليه دي إيفريونفيل، كونت دي «فويسار»، وبارون دي فريناي، الذي قتل في موقعة «كوترا» في 20 أكتوبر (تشرين الثاني) سنة 1587.

وقرأت تحت إطار آخر «جان أنطوان هنري جي دو أند فيليه دي فويسار»، أميرال (فريق أول) فرنساء، وحامل وسام فروسية القديس ميشيل، الذي جرح في موقعة «هوج سان فاست» في 29 مايو (أيار) سنة 1692، ومات في «فويسار» في 23 يناير (كانون الثاني) سنة 1693.. أمّا بقية الأسماء، فلم يسهل علي «إيما» تبيينها، إذ كانت أضواء المصابيح المنعكسة من مائدة البلياردو الخضراء تلقي ظلالاً فاتمة حول النقاعة، وعلي اللوحات الأفقية، فتظهر التشققات التي كانت تتخلل سطحها كخطوطٍ دقيقة.. ومن خلال المربعات الكبيرة السوداء، المُحاطة بإطاراتٍ من ذهب، كانت تبدو هنا وهناك أجزاء أكثر وضوحاً في اللوحة: جبهة شاحبة، أو عَيْنان حادتان، أو شعر مستعار يتهدل علي الكتفين فوق ملابس حمراء..

وفتح المركز باب الصالون، فنهضت إحدى السيّدات - وهي المركيزة نفسها - واستقبلت «إيما» وأجلستها في مقعدٍ إلي جوارها، ثم أخذت تؤثرها بحديث ودي، كما لو كانت تعرفها من زمن بعيد!.. كانت سيّدة في نحو الأربعين، أوتيت كتفين بديعتين، وأنفاً حاداً، وصوتاً ليناً.. وكانت تطرح فوق شعرها الكستنائي - في ذلك المساء - شالاً من «الدانتيل»، ينسدل علي ظهرها في شكل مثلث.. وإلي جوارها، كانت تجلس شابة، في مقعدٍ عالي الظهر، ورجال حُلّيت عري ستراتهم بورودٍ صغيرة، وقد أخذوا في الحديث مع السيّدات حول المدفأة.



أُعد طعام العشاء في السّاعة السّابعة، فجلس الرّجال - وكانوا أكثر عددًا من السيّدات - حول المائدة الأوّلي في قاعة الطعام، بينما جلست السيّدات حول المائدة الثانية التي كان يترأسها المركز والمركيزة.

وجلس في أقصى المائدة - وحيدًا بين السيّدات - شيخ انحني علي طبقه المليء وقد ربط منشفته إلي صدره كالطفل، وأخذت قطرات «الصلصة» تتساقط من فمه وهو يأكل.. وكانت عيناه محقتين بلون الدّم.. ذلك كان والد زوجة المركز: «دوق فردير» المسن، الذي كان ذا حظوة لدى «كونت دارتوا» فيما مضى، أيام نزاهات الصيد في «فودري» «عند المركز» دي كونفيا.. والذي قيل إنّه كان عشيقًا للملكة «ماري أنطوانيت»⁽³⁴⁾ إلي جانب عشيقها الآخرين «دي كويني»، و«دي لوزون»!

(34) «ماري أنطوانيت»، واسمها الحقيقي «ماريا أنطونيا جوزيفينا جوانا» Maria Antonia Josephina Johanna، ولدت في الثاني من نوفمبر 1755 بالنمسا، وتوفيت في 16 أكتوبر 1793 بميدان الكونكورد (ميدان الثورة) بالعاصمة الفرنسيّة «باريس»، مقطوعة الرأس بالمقصلة، هي وزوجها الملك «لويس السّادس» عشر ملك فرنسا. كانت الملكة الصّغيرة جميلة وذكية ومتهورة، وقد ملّت الشكليات الرسمية لحياة البلاط، لذا اتجهت إلى الترويح عن نفسها بالملذّات، مثل: الحفلات الفاخرة والتمثيليات المسرحية وسباق الخيول والمقامرة. كان ينقص ماري التعليم الجيد، ولم تكن تعطى الأمور الجادة إلّا القليل من الاهتمام، ولم تتردد في عزل وزراء فرنسا الذين هدّدت جهودهم ملذّاتها عن طريق خفض النفقات الملكية.

أصبحت «ماري» مكروهة جدًّا، وقد تمّ تأنيبها على فساد البلاط الفرنسي، حيث كانت تسرف في إغداق الأموال على محاسيب البلاط، ولم تعط أي اهتمام للأزمة الماليّة بفرنسا. ومع بداية الثورة الفرنسيّة، وقد فقد زوجها - ضعيف الإرادة - حكمه للبلاط تدريجيًّا، واجهت المخاطر بشجاعة، وحاولت أن تقوّي من إرادة الملك لويس، ولكنها زادت من غضب الشعب بسبب معارضتها العنيدة إلي التغيرات الثورية. (المعد).



وكان الدوق قد عاش حياة غريذة صاحبة، حفلت بالمبارزات والمراهقات، وبالنساء اللواتي كان يغويهن.. وقد بدد ثروته وأزعج أسرته كُلّها!



وكانت الكؤوس تترع بالشمبانيا المثلجة، التي كانت ترسل في جسد «إيما» كُلّه رعدة، كُلّما مست شفتيها!! لم تكن قد رأت الرمان في حياتها من قبل، ولا أكلت الأناناس!.. «إيما» ما زالت منبهرة، و«شارل» صامتاً. بل إن مسحوق السكر الناعم بدا لها أنصع بياضاً وأكثر نعومة منه في أي مكان آخر!

وما لبثت السيّدات أن صعدن إلي حجراتهن الخاصّة ليتخذن أهبتهن للحفلة الراقصة.. فعنيت «إيما» بزيئتها في دقة الممثلة التي تستعد لليلة ظهورها الأوّل، ونسقت شعرها وفقاً لنصائح المزيّن، وأخذت ترتدي ثوبها الصوفي الخفيف الذي كان مبسوطاً علي السرير، بينما كان «شارل» يشد بنطلونه إلي وسطه..

وقطع «شارل» الصّمت قائلاً:

- لسوف يضايقتني السير الجلدي - الذي يشد الحذاءين إلي البنطلون - في أثناء الرقص .

فهتفت في استنكار:

- الرقص؟!!

ولمّا أجاب: «نعم»، قالت:

- هل طاش عقلك؟.. لسوف يسخرون منك!.. ألزم مقعدك!

كُئِمُّ أردفت:

- إنَّ هذا أليق بمكانتك كطييب!!

ولزم «شارل» الصَّمت، وراح يزرع الغرفة جيئةً وذهابًا ريشما تفرغ «إيما» من ارتداء ثيابها.. كان يراها من الخلف - علي صفحة المرأة - بين مشعلين، وقد لاحت عيناها أشد سوادًا ممَّا عهدهما.. وخصلات شعرها المنسدلة في تموج علي أذنيها تلمع ببريقٍ أزرق، وقد ثبتت في لفافة شعرها المكور في مؤخرة رأسها وردة اصطناعية علي ساقٍ متأرجحة، تناثرت علي أوراقتها قطرات من الماء! أمَّا ثوبها، فكان ذا لون أصفر شاحب، تحليه ثلاث باقات من وردٍ اصطناعي أحيط بالخضرة..

وتقدَّم «شارل» فطبع علي كتفيها قبلة. فما كان إلَّا أن هتفت:

- أبتعد عني لئلا تتلف اتساق ملابسي!

وسمعت «إيما» أنغام قيثارة، ودوي بوق، فهبطت السُّلَم وهي تمسك نفسها بعناءٍ عن الجري.. وكانت حلقات الرقص الرباعي قد بدأت، وأخذ المدعوون يتدافعون، فجلست في مقعدٍ مستطيلٍ إلي جوار الباب.. حتي إذا انتهت الرقصة، خلت الحلبة إلَّا من رجال أخذوا يتحدثون وهم وقوف، والخدم يروحون ويغدون في زيهم الرسمي وقد حملوا الصحف الكبيرة.. وعلي طول الصف الذي ضم النساء كانت المراوح تهتز، وباقات الورود تحجب جانبًا من الوجوه الباسمة والعطرة، وقينيات العطر ذات الأعطية



الذهبية تدار في الأيدي التي شفت قفازاتها البيضاء عن أناملها، وضغطت علي معاصمها.

وخفق قلب «إيما» قليلاً عندما تقدّمت تتخير لنفسها مكاناً في الصف، انتظاراً لحركة قوس عزف القيثارة، إيدانا ببدء الرقص، وقد أمسك زميلها بأطراف أناملها.. وما إن إنسابت الأنغام حتي زایلها الانفعال، فتحرّكت إلي الأمام علي إيقاع الموسيقى وهي تهز رقبتها هزاً خفيفاً.. وأخذت ترتسم علي شفيتها ابتسامة، تزداد اتساعاً كلّما أبدع عازف القيثارة، حين ينفرد بالعزف أحياناً وتكف الآلات الأخرى عن مشاركته!.. كانت نغماته رقيقة، هادئة، حتي ليتمكن معها سماع رنين الجنيّات الذهبية علي الجوخ الأخضر فوق موائد الميسر أو القمار في الغرفة المجاورة.. ثمّ لا تلبث الفرقة الموسيقية أن تعود إلي العزف المشترك فجأة، ويرسل البوق أنغامه الرنانة، فتدق الأقدام في إيقاع، وترفرف أطراف الأثواب الواسعة وتتلامس، بينما تتشابك الأيدي ثمّ تفترق.. والعيون التي تغض عنك لا تلبث أن تعود إلي التحديق في عينيك!

كان ثمّة خمسة عشر رجلاً تقريباً، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والأربعين، ينتشرون بين الراقصين، أو يتبادلون الأحاديث عند الأبواب، وقد امتازوا عن الباقين - علي تباين أعمارهم وزيناتهم وأشكال وجوههم - بسيماة عراقاة الأصل!.. وبينما كانت أمارات الشباب تبدو علي منّ ناهز منهم الشيخوخة، كانت وجوه الشبان منهم تتسم بمسحة من نضوج.. أمّا نظراتهم غير المكترثة، فكانت تنطق بهدوء حدة الشهوات التي تجد كلّ يوم رياً وإشباعاً!.. ومن خلال حركاتهم الرشيقة، كان ينبثق ذلك

الاعتداد الذي يولده اعتياد السيطرة علي ما في اليد من أشياء، كما هو الحال في رياضة الخيل الأصيلة.. ومصاحبة الغواني!

وعلي بعد ثلاث خطوات من «إيما» أخذ أحد فرسان حلبة الرقص - وكان في ثياب زرقاء - يتحدث عن إيطاليا، إلي شابة شاحبة اللون تتحلي باللاّليء.. وزاحا يُعبّران عن إعجابهما بضخامة أعمدة كنيسة القديس بطرس، وبركان فيزوف، وورود جنوا، و الكولوسيوم⁽³⁵⁾ في ضوء القمر!!

وبالأذن الثانية، أخذت «إيما» تنصت إلي حديث زاهر بالفاظٍ لم تكن تفقهها.. إذ أحاطت جماعة بشابٍ يافع كان جواده قد فاز في سباق الأسبوع الماضي، وكسب ألفي جنيه في مباراة للقفز فوق حفرة في إنجلترا، وكان بعض أفراد الجماعة يشكون من ازدياد أوزان بعض خيولهم، بينما كان فريق آخر يشكو من أخطاء مطبعية حرّفت أسماء جيادهم في الصحف!



وهذا صخب الرّقص، وأخذت أضواء المصابيح تخفت، والجمع ينصرف إلي قاعة «البلياردو».. وصعد خادم فوق مقعد فكسر لوحين من الزجاج.. وإذ أدارت مدام «بوفاري» رأسها نحو الصّوت، لمحت خلال

(35) الكولوسيوم، هو مُدرج روماني عملاق يقع في وسط مدينة روما، تمّ تشييده إلى شرق المنتدى الروماني، ويرجع تاريخ بنائه إلى عهد الإمبراطورية الرومانية في القرن الأوّل فيما بين عامي 70 و 72 بعد الميلاد تحت حكم الإمبراطور «فلافيو فسبازيان»، وتمّ الانتهاء منه بشكل نهائي عام 80 في عهد «تيتوس»، وهو يُعتبر واحدًا من أعظم الأعمال المعمارية والهندسيّة الرومانيّة. وطُبعت صورة الكولوسيوم على قطعة الخمس سنتات من النسخة الإيطاليّة. (المُعد).



النافذة وجوه الفلاحين في الحديقة تتطلع إلي ما يجري بداخل القصر، فتذكرت «برتو»، وعادت إلي مخيلتها صور المزرعة، والبحيرة، وأبيها تحت أشجار التفاح مرتدياً قميصه! بل إنَّها رأَتْ نفسها - كما كانت في الماضي - تنتزع القشدة بأصابعها من قدور اللبن!.. غير أنَّ حياتها الماضية - التي كانت واضحة المعالم حتي تلك اللَّحظة - سرعان ما تلاشت عن آخرها في بريق ساعتها الراهنة، حتي كادت ترتاب في أنَّها عاشتها يوماً!.. ولم تعد تعيش إلَّا في حلبة الرقص، بينما كانت الظلال تلف ما عداها.. وأخذت تتناول المثلجات في كأس مُطعمة بالذهب أمسكتها بيسرها، وراحت تسبل أجفانها وهي ترفع المعلقة إلي فمها!

وكانت إلي جوارها سيِّدة تركت مروحتها تسقط، ثُمَّ قالت لأحد الراقصين وهو يمر بها:

- هل لك يا سيِّدي أن تنفضل بالتقاط مروحتي التي سقطت وراء هذه الأريكة..

وانحني السيِّد.. وفيما كان يلتقط المروحة، لمحت «إيما» السيِّدة تلقي في قبعته بشيءٍ أبيض مطوي علي شكل مثلث، وما لبث السيِّد أن قدَّم المروحة باحترام إلي السيِّدة، فشكرته بهزةٍ من رأسها، وتحولت تستنشق عبير باقة من الزهور كانت تحملها!

وبعد وجبة العشاء أخذت العربات ترحل تباعاً، وأضواء مصابيحها تبدو - من خلف الستار الحريري - مترنحة في جوف الظلام. وبدأت المقاعد تخلو.. غير أن بعض المقامرين تخلفوا.. وراح الموسيقيون يعلقون أطراف أصابعهم ليربطوا آلاتهم.. واستسلم «شارل» إلي شبه إغفاءة وقد أسند ظهره إلي أحد الأبواب.



وفي السَّاعة الثالثة بعد منتصف
الليل، بدأ الرقص من جديد، ولم
تكن «إيما» علي دراية برقص
«الفالس»⁽³⁶⁾، بينما راحت بقية
الحاضرين - حتي الآنسة «دو

أندفيليه»، والمركيزة نفسها - «إيما» و«الفيكونت» يرقصان وجهًا لوجه .
يرقصنها.. ولم يكن قد بقي غير اثني عشر شخصًا تقريبًا هم نزلاء القصر .
علي أنَّ أحد راقصي «الفالس» - وكان شابًا يرتدي صديريًا واسع الفتحة
يلتصق بصدرة كالقالب، ويدعوه القوم بلقب «الفيكونت» - تقدَّم من مدام
«بوفاري» يدعوها لمراقصته، مؤكِّدًا لها أنَّه سيرشدها فلا تلبث أن تتقن
الرقصة!



وشرع يرقصان في بطءٍ، ثمَّ ازدادت السرعة، وأخذَا يدوران فيدور معها
كُلَّ ما حولها من مصابيح، وأثاث، وجدران، وأرض!.. وعندما مرَّ علي مقربةٍ
من الباب، التفَّ ذيل ثوبها حول بطلونه، فتداخلت أرجلهما، وخفض بصره
نحوها، ورفعت هي بصرها نحوه، وعلي الفور أحست يديب مخدر يسري

(36) الفالس Waltz، هو قالب إيقاعي والذي تحوَّل فيما بعد إلى نوع رقص، بدأ في النمسا
وألمانيا، ومنها انتشر في أنحاء كثيرة من العالم، خصوصًا بعد أن نظم الموسيقار النمساوي
«يوهان شتراوس» الابن لمقطوعته «الدانوب الأزرق» عام 1866. يُشير تاريخ الموسيقى
بأنَّه قد شاع استخدام إيقاع يوازي الفالس وزنًا، والذي يدعى «السرند» في الموسيقى
الأندلسية، أمثال: «يا من لعبت». (المُعد).



في أعصابها!.. وتوقفا عن الرقص لحظةً، ثُمَّ استأنفاه.. وإذا «الفيكونت» يقود «إيما» بحركة رشيقَةٍ إلي نهاية البهو، حيث اختفي معها. وكانت قد أوشكت أن تسقط لاهثة الأنفاس، فأسندت رأسها هنيهة إلي صدره.. ثُمَّ عاودا الدوران في حركةٍ أهدأ من ذي قبل، حتي عاد «الفيكونت» بها إلي مكانهما الأول، فتهاكت علي مقعد بجوار الحائط، وغطت عينيها براحتيها!

وعندما فتحت عينيها من جديد، رأت سيّدة تجلس علي مقعد في منتصف الصالون، وقد انحني أمامها ثلاثة من الراقصين يتنافسون علي الفوز بها شريكة في الرقص، ولم تلبث السيّدة أن اختارت «الفيكونت» وعادت القيّشارة إلي العزف.. واتجهت الأنظار إلي الراقصين اللذين أخذوا يروحان ويجيئان، وجسم السيّدة ثابت في استقامته، وذقنها منكسة إلي أسفل، كذلك كان «الفيكونت» مشدود القامة، مقوس الذراع، وقد رفع رأسه.. ولم يكن ثمة شك في أنّ السيّدة تجيد «الغالس».. وقد استمر في الرقص وقتًا طويلًا حتي أنهكا الموسيقيين وبقيّة الراقصين!



انتهى الرقص.. ودار الحديث لبضع دقائق، ثُمَّ تبادل القوم تحيات الوداع أو بالأحرى - تحيات الصباح - ثُمَّ انصرف نزلاء القصر إلي مخادعهم..

وصعد «شارل» السلم وهو يجر نفسه جرًّا، وقد كادت ساقاه تعجزان عن حمله، بعد أن ظل واقفًا خمس ساعات متوالية يُشاهد لعب الورق دون أن يفقه منه شيئًا!.. وتنفس الصعداء حين حرّر قدميه من نعليه!

أمّا «إيما» فقد غطت كتفيها بالشال، وفتحت النافذة علي حافتها.. كان الليل حالكًا، والمطر يتساقط رذاذًا.. وأخذت «إيما» تستنشق - في نهم -

الهواء الرطب الذي بعث في كيانها انتعاشًا.. وكانت موسيقي الرقص لا تزال تطن في أذنيها.. وجهدت لتظل ساهرة، كي تُمكن خيالها من أن ينعم، أطول وقت ممكن، بالحياة المترفة التي لم يكن بد من مغادرتها عمّا قليل!

وبزغ الفجر، فرمقت نوافذ القصر بنظراتٍ طويلةٍ، محاولة أن تصوّر ما كان يجري في مخادع أولئك الذين لفتوا نظرها في الليلة الماضية، وكأنّها تود لو عرفت حياتهم، وتسلبت إليها!.. ثمّ فطنت إلي أنّها كانت ترتعش من البرد، فخلعت ثيابها، واندست تحت الأغطية إلي جوار «شارل».. الذي كان قد استغرق في النوم!

وفي اليوم التالي، حضر الغداء عدد كبير، ولكنّ جلوسهم إلي المائدة لم يتجاوز عشر دقائق.. وأدهش الطبيب أن لم تُقدّم خلال الوجبة أية خمور.. وما لبثت الأنسة «دو أندفيليه» أن جمعت قطعًا من الخبز في سلةٍ لتحملها إلي البجع في بركة الماء.. بينما انصرف القوم للنزهة في البيوت الزجاجية التي أعدت لإنماء نباتات المناطق الحارة!..

وقاد المركيز زوجة الطبيب الشابة إلي حظائر الخيل، علي سبيل التسلية وتمضية الوقت.. وكانت ثمة لافتات من الخزف، فوق المذاود الشبيهة بالسلاسل، تحمل أسماء الخيول بحروفٍ سوداء.. وكانت كلّ دابة تتحرّك في مأواها، وتقعقع بلسانها، عندما يمرّ أحد علي مقربةٍ منها.. وبدت أخشاب أرض الحظائر لامعة كأنّها أرضية صالون.. وكانت أطقم العربات مصفوفة في الوسط فوق عمودين ملتفين، بينما رتبت الأعنة والسياط والسلاسل في خط مستقيم علي طول الحائط..



وفي تلك الأثناء، ذهب «شارل» يرجو خادماً أن يُعِدَّ عربته التي كانت قد اقتيدت إلي الداخل.. حتي إذا حملت إليها الحقائق، قدَّم الزوجان «بوفاري» تحياتهما إلي المركيز والمركيزة، ثُمَّ استقلا العربة عائدين إلي «توست».



راحت «إيما» ترقب في صمتِ العجلات وهي تدور، بينما كان «شارل» يقود العربة وقد جلس علي حافة المقعد منفرج السَّاقين، والجواد الصَّغير يخب بين ذراعي العربة الخشبيتين، والعنان المرتخي يضرب عجز الحصان فيبتل بالزبد، بينما كان الصندوق الذي ربط خلف العربة يرتطم بجدارها في ضرباتٍ منتظمةٍ..

وعندما وصلا إلي مرتفعات «تيبورفيل»، مرَّ أمامهما فجأة عدد من الفرسان يتضحكون ولفافات السجائر في أفواههم.. وخيَّل لـ «إيما» أنَّها تعرَّفت بينهم علي «الفيكونت» فالتفتت، غير أنَّها لم ترَّ في الأفق سوي رؤوس تتحرَّك في ارتفاعٍ وانخفاضٍ، مع حركات الخيل في عدوها وخببها..

وما إن قطعنا نصف المسافة حتي اضطرا إلي التوقف، كي يصلا بالجبال ما انقطع من «السير» الذي يربط الجواد إلي العربة.. وفيما كان «شارل» يلقي نظرة أخيرة علي الطاقم بعد أن أصلحه، لمح بين قوائم الجواد.. علي الأرض - حافظة سيجار من الحرير الأخضر المُطرز، يتوسطها شعار ينم عن أنَّها لشخص من ذوي الألقاب فقال:

- إنَّ بها سيجارين سادخينهما بعد العشاء الليلة .

فسألته «إيما» :

- إذا فأنت تدخن!



قال:

- أحياناً.. عندما تسنح لي فرصة .

ووضع «غنيمته» في جيبه، ثُمَّ هوي بسوطه علي ظهر الجواد الذي اندفع بالعربة..

ولم يجد العشاء مُعداً حين بلغا دارهما، فاحتدت «إيما»، ولمّا أجابتها الخادمة «نستازي» في قحّة.. صاحت بها:

- أخرجي من هنا!.. هذه وقاحة مشينة!.. أنتِ مطرودة من هنا!

وتحوّلت تعد العشاء بنفسها.. وكان يتكوّن من حساءٍ من البصل، وقطعة من لحم العجول.. وجلس «شارل» أمام «إيما» يفرك يديه، ويقول في غبطة:
- ما أمتع أن يعود المرء إلي داره!

وتناهي إليهما صوت «نستازي» وهي تبكي.. وكان «شارل» ينزل الفتاة المسكينة من نفسه منزلة طيبة، إذ شاطرته الأمسيات الطويلة التي مرّت به أيام حزنه، كما كانت أوّل مَنْ عرفه من أهل المنطقة، حين بدأ يمارس مهنته فيها.. فلم يلبث أن سأل زوجته:

- أحقّاً طردتها؟!

وردت «إيما» في حنق:

- أجل.. مَنْ يمنعني من ذلك؟!

وبعد العشاء، التمسا الدفء في المطبخ، حيث أخذ «شارل» يدخن وهو يمسّ شفّتيه ويصقّ في كلّ لحظة، ويضطجع في استمراء عند كل نفثة دخان!.. فما لبثت «إيما» أن قالت له في استهجانٍ:

- لسوف تؤذي نفسك!

..ومن ثمَّ وضع السيجار جانبًا، ثمَّ جري إلي المضخة ينشد كوبًا من الماء البارد.. وإذ ذاك تناولت «إيما» حافظة السيجار فقذفت بها في قاع الصوان..



وبدا لها اليوم التالي طويلًا، فأخذت تتمشي في حديقتهَا الصَّغيرة جيئةً وذهابًا، متوقفة من حين إلي آخر أمام الأحواض أو عرائش الكروم أو تمثال القش المصنوع من الجص، تتأمل في دهشة هذه الأشياء القديمة التي ألفتها وعرفتها من قبل.. لكم لاحت لها ليلة الرِّقص بعيدة!.. تري مَنْ ذا الذي أقام هذا الحاجز الكبير بين صباح أمسها ومساء يومها؟!.. لقد تركت رحلتها إلي «فويسار» ثغرة في حياتها كتلك الثغرات الواسعة التي تخلفها العاصفة في الجبال أحيانًا، في ليلةٍ واحدة!

علي أنَّها تقبَّلت الواقع في استسلام، وطوت في وجوم ثيابها الجميلة داخل الصوان، وبينها حذاءها الحريريَّان، وقد اصفر نعلاهما من أثر الشمع الذي كانت تنزلق عليه فوق أرض حلبة الرِّقص!.. تمامًا كما انطبع في قلبها - بعد احتكاكه بالثراء - أثر لا يزول!

وهكذا غدت ذكرى تلك الليلة الرَّاقصة شغلها الشاغل، فكانت - حين تستيقظ في صباح الأربعاء من كُلِّ أسبوع - تهمس لنفسها: «آه!..! لقد انقضي عليها أسبوع.. مضى أسبوعان.. مرَّت ثلاثة أسابيع.. منذ كنت هناك!..! ..

وشيئًا فشيئًا، أخذت معالم الحفلة تختلط وتتداخل في ذاكرتها، فنسيت ألحان الرِّقص، ولم تعد تذكر الملابس والحجرات في وضوح.. فقد ذهبت بعض التفاصيل.. وبقيت لها الحسرات!!



أحلام.. باريس!

Dreams .. Paris!

كثيرًا ما كانت «إيما» تسعى إلي الصوان - إذا ما غادر «شارل» المنزل - فتخرج حافظة السيجار الحريرية الخضراء من ثنابا الثياب التي دسستها بينها، وتروح تتأملها، وتفتحها.. بل إنَّها كانت تستنشق رائحة بطانتها التي جمعت بين العطر والتبغ!.. تري لَمَنْ كانت تلك الحافظة؟!.. أتراها كانت للفيكونت؟!.. لعلَّها هدية من عشيقته نسجتها وطرزتها له علي إطار من خشب الورد، لتكون تحفة صغيرة يحتفظ بها بعيدًا عن أعين الفضوليين جميعًا!.. ولعل الحائكة الحاملة شغلت بصنعها ساعات طويلاً، كانت خصل من شعرها تهدل خلالها علي النسيج.. ولا بدَّ أنَّ نسمة من الحُبِّ سرت بين خيوط الرقعة، والفتاة تثبت مع كُلِّ غرزة من إبرتها أملاً أو ذكري! كأن الخيوط الحريرية في امتدادها وتقاطعها، انعكاس لما كان في فؤادها من هيام صامت!.. حتي إذا فرغت منها في النهاية، حملها «الفيكونت»!.. تري فيمَ كان يدور الحديث حين كان يضع هذه الحافظة فوق المدفأة ذات الإطار العريض، بين أصص الزهور وساعات «يمبادور» البندولية؟!!





وكانت «إيما» ترتد من هذا الحلم إلى التفكير في نفسها.. ها هي ذي في «توست»، و«الفيكونت» في باريس.. بعيداً.. تري كيف هي باريس؟.. يا للاسم العظيم!.. وراحت تردده لنفسها هامة

وهي تستشعر متعة في تكراره!.. كان يرن في أذنيها رنين ناقوس الكنيسة.. بل بدا كما لو كان يبعث شعاعاً يترامي حتي يصل إلي البطاقات الصغيرة الملتصقة علي غلب الدهان والمساحيق!

وكان صيادو السمك يمرون في الليل تحت نوافذ الدار، وهم يرددون أناشيدهم، فكانت تستيقظ من نومها، وتصغي إلي فرقة العجلات الحديدية حتي يتلاشي ضجيجها في النهاية، بعد أن تبارح العربات البلدة.. وعندئذ تحدث نفسها قائلة: «لسوف يصلون إليها غداً»!

وابتاعت خريطة لباريس، فكانت تتابع بأصابعها معالمها، وتقوم بجولات وهمية في أحيائها: تسير في الشوارع الكبيرة، وتقف عند الأماكن التي تتقاطع عندها خطوط الشوارع أمام المربعات البيضاء التي تمثل المنازل.. حتي إذا تعبت عيناها، أطبقت أجفانهما.. وإذ ذاك، كانت تري علي صفحة الظلام صور المشاعل والرياح تعبث بألستها، وأبواب العربات تفتح في صخب أمام أبهاء المسارح!

واشتركت في صحيفة «لاكوريي» - النسوية - ومجلة «سيلف» الاجتماعية، وأخذت تلتهم ما كان ينشر فيهما، دون أن تغفل كلمة من أبناء

حفلات العرض الأول للمسرحيات، وحفلات السباق والسهرات.. وكانت تهتم بظهور مغنية جديدة، أو بافتتاح متجر!..

وأخذت تتعرّف كذلك علي الأزياء الحديثة، وتحفظ عناوين أمهر الحائكين والحائكات، والأيام التي اعتاد المجتمع الباريسي أن يخرج فيها للنزهة في الغابة، أو للسهر في الأوبرا!.. وقرأت لـ«بلزاك»⁽³⁷⁾، و«جورج صائد»⁽³⁸⁾ وهي تشد اشبعًا وهميًا لمطامعها الشخصية!.. وبلغ من شغفها هذا أن كانت تحمل كتابها معها إلي المائدة وتقلب صفحاته، بينما يكون «شارل» منهمكًا في الأكل والحديث.. وكانت ذكري «الفيكونت» لا تفتأ تعاودها في أثناء قراءتها، فتقارن بينها وبين الشخصيات التي تصادفها في الروايات. علي أن الدائرة التي كانت تُحيط بشخصيته راحت تتسع شيئًا

(37) «أونوريه دي بلزاك» Honoré de Balzac ولد في 20 مايو عام 1799، وتوفي في 18 أغسطس عام 1850. كان من رواد الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر في الفترة التي أعقبت سقوط «نابليون بونابرت». من أشهر أعماله الأدبية: «أوجيني جرانديه» (1833)، «الأب جوريو» (1835)، «الأوهام الضائعة» (1843-1837)، «العمة بيت» (1846)، «مباهج ومآسي العشيقات» (1847). (المعد).

(38) «جورج صائد» George Sand، هو الاسم المستعار لـ«أمانتين أورو لوسيل دويين» Amantine Aurore Lucile Dupin. روائية فرنسية، من أسرة أرستقراطية. لم توفّق في الزواج فطلبت الطلاق بعد أن أنجبت طفلين أخذتهما معها إلى باريس، حيث أقامت. وبدأت تكتب قصصها التي اعتمدت على ما تكسبه منها في تربية ولديها. وأول قصتين لها: «السيدة الأولى» (1831)، و«وردي وأبيض»، كتبتها بالاشتراك مع عشيقها «جول صاندو». كتبت وحدها: «المستنقع المسحور» (1846)، و«قارعو الأجراس» (1853)، وهما من أروع ما كتبت. ومن قصصها المعروفة أيضًا: «إنديانا» (1832)، و«أحاديث جدتي» (1881). (المعد).



فشيئًا.. وأخذت هالة الرواء، التي أحاطته بها، تفارقه رويدًا رويدًا لتمتد إلي مسافات أبعد، حيث تضيء أحلامًا أخرى!

وهكذا باتت «إيما» تري باريس أكثر اتساعًا، وقد راحت تتألق أمام عينيها في جوٍّ قرمزي!



لكنَّ ألوان الحياة الصاخبة في هذا الخضم، كانت - عند «إيما» - مقسمة إلي أجزاء، ومرتبعة في لوحات متباينة.. ولم تكن «إيما» تتبين من العوالم التي تضمها باريس سوي اثنين أو ثلاثة تطغي علي ما عداها، كما لو كانت الإنسانية برمتها تتمثل فيها وحدها: دنيا السفراء، يخطرون فيها فوق أرض لامعة، في صالونات كُسيّت جدرانها بالمرآيا، ويجلسون حول موائد بيضاوية مغطاة بمفارش من المخمل المزركش بالقصَب!.. وفي هذا العالم أثواب ذات ذيول جرامة، وأسرار خطيرة، ومآسٍ تختفي وراء الابتسامات!.. وبلي ذلك، عالم الدوقات.. حيث تكتسي الوجوه شحوبًا، ويستيقظ الرجال الساعة الرابعة!.. وترتدي النساء أثوابًا وشيت ذيولها بالنقوش المُطرزة.. أمّا ما عدا هذه من عوالم، فقد كان في نظر «إيما» ضائعًا، تائهاً، لا مكان له ولا وجود!

وكانت «إيما» من أولئك اللاتي يزهدن في أقرب الأشياء إليهن.. فكلّما قربت الأشياء منها، ازدادت نفسها عنها نفورًا.. فكلّ ما يُحيط بها مباشرة:



من ريف ممل، وبورجوازية⁽³⁹⁾ ضئيلة حمقاء، وحياة مزرية، ..كُلُّ هذه كانت تلوح لها أشياء شاذة، ومصادفات خاصة «تورطت» فيها.. بينما كان يمتد خلفها جميعاً.. وإلي ما لا نهاية.. عالم اللذات والانفعالات!

واختلطت في أحاسيسها من ثم لذات البذخ المادية بمسرات القلب، ورقى العادات برقة المشاعر.. أفلا يحتاج الحبّ - كما تحتاج نباتات الهند - إلي تربة خصبة ودرجة حرارة مُعَيَّنة؟.. فالزفرات في ضوء القمر، والعناق الطويل، والدموع التي تنهمر علي الأيدي المستسلمة، وحُمَيّ الجسد، ورقة الحنان..كُلُّ هذه أمور لا انفصال لها عن شرفات القصور الكبيرة المليئة بأوقات الفراغ، ولا عن المخادع ذات الستائر الحريرية، والأبسطة السمكية، وأصص الزهور، والأُسرة المُقامة علي منصات مرتفعة عن سطح الأرض، وبريق الأحجار الكريمة.

(39) البرجوازية Bourgeoisie، هي مصطلح فرنسي مشتق من كلمة bourgeois. وقد كانت البرجوازية طبقة «رسمية» في المجتمع الفرنسي، ويصنّف المتمون إليها وفقاً لمدة إقامتهم في المجتمع، والمصدر الذي يحصلون به على الدخل. يبدو المصطلح الفرنسي مشتقاً من الكلمة الإيطالية borghesia التي تعني قرية، والتي اشتقت بدورها من الكلمة اليونانية pyrgos. وهي تستخدم بمعنى الرّجل الحرّ الذي يتمنّع بحق المواطنة في المدينة التي ينتمي إليها. تطوّرت الكلمة بعد ذلك فيما بعد ليدل معناها على طبقة التجار. وحتى حلول القرن التاسع عشر كانت تدل بصفة أساسية على الطبقة الوسطى، وهي تلك الطبقة التي تقع في المنطقة الوسطى بين طبقة النبلاء وطبقة «البروليتاريا» أو طبقة العبيد. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأت ثروة وسطوة طبقة النبلاء في الانحدار، وعندها صعدت الطبقة الوسطى لتصبح طبقة حاكمة جديدة. (المعد).





في انتظار ما لا يجي!!

Waiting for what does not come

كان السائس يفد كلَّ صباح ليعني بالفرس، فيعبر المدخل في حذاءيه الخشبيين الكبيرين وسترته التي تتخللها الثقوب، وسرواله القصير الذي لم تكن ثمة حيلة سوي الاكتفاء به!.. فإذا انتهى من عمله، انصرف إلي حيث لا رجعة له بقية النَّهار، إذ إنَّ «شارل» كان يتولي بنفسه - عند عودته - إيواء الفرس في الحظيرة، ورفع سرجها عنها، بينما تحمل إليها الخادمة حزمة من القش ترميها في المذود كيّفما اتفق!

وكانت «نستازي» المطرودة قد غادرت «توست» أخيرًا، وهي تزرف الدمع الشديد، فاستعاضت «إيما» عنها بفثاة في الرَّابِعة عشرة، بتيمة، مليحة القسمات، حظرت عليها لبس «الطّاقية» القطنيّة، وعَلَّمَتها كيف تخاطبها في احترام، ودرّبتها علي أن تحمل كوب الماء في طبق، وأن تطرق الباب قبل الدخول، وأن تكوي الثياب وتكسوها بالنشاء، وأن تساعد على ارتداء ثيابها.. كلَّ ذلك لأنَّها أرادت أن تجعل منها وصيفة لها!

واعتادت الخادمة الجديدة أن تطيع في غير تدمير حتي لا تُطرد!.. وإذا كانت السيِّدة قد ألفت أن تترك المفتاح في خزانة المطبخ، فإنَّ «فيليسيّة» - الخادمة - كانت في كلِّ مساء تأخذ قطعة صغيرة من السكر لتأكلها، حين



تخلو إلي نفسها في فراشها، بعد أن تؤدي الصَّلَاة! أمّا في الفترات التي كانت السيّدة تلزم فيها مخدعها في الطابق العلوي - بعد ظهر كلّ يوم - فكانت الفتاة تسعي أحياناً إلي السياس الموجودين في المبني المواجه للمنزل فتجاذبهم أطراف الحديث!

وابتاعت «إيما» أوراقاً للكتابة، وأوراق نشاف، وريشة، ومظاريف وورقاً للرسائل، وإن لم يكن ثمة مَنْ تكتب إليه!.. وكانت تنفض الغبار عن الرف، وتطلّع في المرآة، ثُمَّ تتناول كتاباً فلا تلبث أن تراودها الأحلام بين سطوره فتشغل عنه ويسقط بين ركبتيها!.. وأخذت تتوق إلي القيام برحلات، أو إلي العودة للدير كي تعيش فيه!.. كانت تمنّي المتناقضات في آنٍ واحد.. أن تموت.. وأن تعيش في باريس!

أمّا «شارل» فكان ينطلق علي جواده خلال الطرق الفرعية - المفضية إلي المزارع والقرى - تحت المطر والجليد، يأكل «العجة» علي موائد الريف، ويدس يديه في الأسرة الرطبة التي يرقد فيها المرضي، ويتلقي علي وجهه رشاش الدم الدافئ المنبثق من مرض نزيف الأنف، ويسمع الحشرات، ويفحص البطون، ويرفع الثياب القذرة عن أجساد المعلولين!.. لكنّه كان يجد في كلّ مساء ناراّ مستعرة، ومائدة مُعدة، وأثاثاً مريحاً، وزوجة في أبداع زينة، تتضوع بأريج عطر كان يحار في التكهن بمكانه: أهو قميصها، أم بشرتها؟!!

وكانت تفتنه بمبتكراتها، التي كانت تتمثّل حيناً في مظلات جديدة من الورق تصنعها لتضعها فوق الشمعدانات، وتتمثّل حيناً آخر في إمكانية تغيير

موضعها في ثوبها، أو في اسم مبتكر للون بسيط من الطعام أخفقت الخادمة في صنعه، فلا يصد إخفاؤها «شارل» عن التهام الصنف حتي يأتي عليه كُله!

ورأت «إيما» في «روان» سيّدت يحطن ساعاتهن بعقود من الحلبي الزائفة، فابتاعت حليًا زائفة!.. ورأت أن تزين رف مدفاتها بأيّتي زهور كبيرتين من الزجاج الأزرق، لم تلبث أن ضمت إليهما صندوقًا من العاج لأدوات الحياكة، و«كُتبانًا» من العقيق!.. وكان «شارل» كُلمًا ازداد عجزًا عن فهم كنه أسباب تلك الأناقة كُلمًا ازداد انصياعًا لسحرها، إذ كانت تضفي علي حواسه لذة، وعلي داره رواء.. وكأنّها غبار ذهبي يُنثر علي طول طريق حياته الضيق!

وغدت صحّته طيبة، ووجهه مشرقًا، وشهرته مستقرة منيعة!.. الريفيون يحبونه لأنّه لم يكن متغطرسًا، بل كان يداعب أطفالهم!.. ولم يكن يغشي الحانات أو يرتادها.. وكان في خلقه - فوق ذلك - ما يوحي بالثقة والطمأنينة.. وقد نجح - بوجه خاص - في علاج نزلات البرد والأمراض الصدرية!.. والواقع أنّ «شارل» كان يخشي دائمًا أن يقتل مرضاه، ولذلك لم يكن يوصي لهم إلّا بالعقاقير المهدئة للألم!.. وكان يوصي - بين حين وآخر - باستخدام العلق «الدود» الذي يمتص الدّم الفاسد، وكان يسرف في فصدهم بالعلق في سخاء، وكأنّهم حياد!.. أمّا في اقتلاع الأضراس، فقد كانت له قبضة حديدية!



ورأي كي يظل علي دراية بما يستحدث في الطبّ، أن يشترك في مجلة «الخلية الطيِّبة» بعد أن تسلم إعلانًا عنها. وكان يقرأ فيها بعض الوقت عقب



العشاء، ولكن دفع الغرفة، والاسترخاء الذي يدب في الجسم في أثناء عملية الهضم، كانا يسلمانه للنوم بعد خمس دقائق.. فيظل مسترخياً، وذقنه معتمدة علي يديه، وشعره متهدل - كالعرف - حتي أسفل المصباح، و «إيما» ترقبه، ثم تهز كتفيها!.. لماذا لم تحظ بزواج ولو من أولئك الذين يقضون الليل بين الكتب، ويحملون في النهاية - إذا ما بلغوا الستين، سن «الروماتيزم» - وساماً علي شكل الصليب، فوق بزاتهم السوداء؟.. لكم كانت تشتهي أن يغدو اسم «بوفاري» ذائعاً، وأن تراه معروضاً عند باعة الكتب، تردده الصحافة، وتعرفه فرنسا بأسرها!

بيد أن «شارل» لم يكن يعرف الطموح أبداً!

ولقد حدث أن أهانه يوماً طبيب من «إيف تو» - أجمع معه للتشاور - أمام فراش مريض، وعلي مسمع من أقاربه المحيطين بهما، فلمَّا روي الحادث لـ «إيما» في المساء، ثارت في حنق علي ذلك الزميل إلي درجة جعلت «شارل» يتأثر بالفعل، ويقبلها في جبينها وهو داعم العينين.. ولكنها كانت تغلي لفرط إحساسها بالخزي لما ناله، حتي لقد ودت لو تضربه!.. ولكنها لم تملك إلا أن تسير إلي الردهة فتفتح النافذة لتعب الهواء العليل حتي تهدأ ثورتها.. وأخذت تعض شفتيها وتردد في صوت خفيض: «يا له من رجل مسكين!.. يا له من رجل مسكين»!

والواقع أن ثورتها كانت ضد زوجها بالذات.. فقد أخذت حركاته وتصرفاته تغلظ بتقدم السن.. كان يلهو - عند تناول الحلوى - بتقطيع سدادات الزجاجات الفارغة.. وكان يلحق أسنانه بلسانه بعد الأكل.. كما

كان يرشف الحساء بصوتٍ مزعجٍ منكر.. ولمّا كانت البدانة قد أصابته، فإن وجنتيه المتفتحتين دفعتا بعينيه الصّغيرتين إليّ أعليّ نحو الصّدغين!

وكانت مع هذا كلّهُ لا تني تنتظر في أعماق نفسها حدثًا ما!.. كانت، كالملّاح التائه، تسرح بصرها القانط في وحشة حياتها، بحثًا عن شرّاع أبيض في ضباب الأفق البعيد!.. وما كانت تدري كنه ذلك الحدث، ولا أيّ ريح ستسوقه إليها، ولا إليّ أيّ شاطئ سيدفعها.. وهل هو زورق، أو سفينة ذات ثلاثة طوابق.. وهل يكون مفعّمًا بالأسى، أو طافحًا بالهناءة!.. ولكنّها كانت إذا استيقظت في كلّ صباح تمنّت لو يواتيها في يومها .

وجاء الربيع مرّةً أخرى، فغشيتها انقباضات من موجات الحر الأوّلي التي تهب حين تزهر أشجار الكمثري حتي إذا بدا شهر يوليو (تموز)، أخذت تعد الأسابيع علي أصابعها في ارتقاب شهر أكتوبر (تشرين الأوّل)، علي أمل أن يقيم المريكز «دو أندفيليه» حفلًا راقصًا آخر في «فويسار»!.. بيد أنّ شهر سبتمبر (أيلول) انصرم دون خطابات أو دعوات!

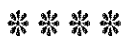


وشعرت مرّةً ثانية.. بعد انقضاء المرارة التي خلفناها خيبة الرجاء.. بفراغٍ في فؤادها.. وبدأت من جديد سلسلة الأيام الرتيبة الرهيبة، التي لا تتغير، ولا تأتي بجديد!.. لقد كان يصادف حياة سواها.. مهما تكن هذه الحياة خاوية مملة.. حدث من الأحداث يتيح لها فرصة الخروج عن المألوف.. ولقد تؤدّي مغامرة واحدة.. أحيانًا.. إلى سلسلة لا تنتهي من الأحداث التي تعيّر نمط الحياة.. أمّا هي، فلم يكن يصادفها شيء.. كما لو كانت تلك هي



إرادة الله!.. كان المستقبل يمتد أمامها كسردابٍ مظلمٍ ينتهي ببابٍ محكمٍ الإغلاق!

وكان أن أهملت الموسيقى.. فلماذا تعزف، ومن ذا الذي يسمعها؟!.. لم يكن ثمة ما يدعو إلى بذل الجهد في الممران، ما دامت لن تستشعر همس النشوى يتصاعد حولها كالنسيم وهي تمس بأناملها الرقيقة مفاتيح البيانو العاجية في حفلٍ عام، وقد ارتدت ثوبًا من المخمل قصير الكمين!.. كذلك أبقت لوحات الرسم وقطع التطريز في الصوان.. فما جدواها؟.. وأي نفع منها؟.. أمّا الحياكة، فقد أصبحت تثير أعصابها!.. حتي القراءة، انصرفت عنها قائلة لنفسها: «لقد قرأت كل شيء.. كل شيء»!





الشقاء، والمرض.. والرحيل!

Misery, disease, and departure

وأقبل الشتاء قاسيًا، وأخذ الجليد يكسو زجاج النوافذ في كُلِّ صباح، فيبدو - حين يخترقه الضوء - كالزجاج «المصنفر». وفي ذلك الجو المتجهّم، كان لا بدّ من إضاءة المصباح منذ السّاعة الرّابعة بعد الظهر .

وكانت «إيما» تهبط إلي الحديقة في الأيّام الرائقة، فإذا الندي قد خلف فوق الكرب وشيّا من الفضة، تتخلله خيوط طويلة شفافة تمتد من كرنبة إلى أخرى.. ولم تكن زقزقة العصافير تتردّد، بل كان كل شيء يبدو مخلدًا إلي النّوم، وحده تمثال القس ذي القلنسوة كان ماضيًا في قراءة كتاب الصلوات، وقد فقد قدمه اليمني، بينما عبث الصقيع بطلائه فخلف علي وجهه قروحًا بيضاء!

ولا تلبث «إيما» أن تصعد إلي مخدعها فتغلق الباب، وتبسط الوقود، حتي ترسل المدفأة حرارة تخدرها، وتبعث في نفسها ملأً تخاله ثقلاً فاحًا يجثم علي صدرها، فتود لو هبطت لتأتنس بالحديث مع الخادمة، لولا أن يمنعها الحياء!

وكان صبرها يغدو أقرب ما يكون إلي النفاد والانهيار في أوقات الوجبات، في تلك القاعة الصّغيرة بالطابق الأرضي، حيث الموقد الذي لا ينفك عن إرسال الدخان، والباب الذي يبعث صريرًا، والجدران المنداة، والأرضية الرطبة.. كان يُخيّل لها إذ ذاك أنّ مرارة الحياة بأسرها تخالط طعامها..!



ومع بخار الحساء، كانت تتصاعد من أعماق روحها نفثات من الإعياء والضيق!.. ولَمَّا كان «شارل» بطيئًا في الأكل، فقد كانت تنفق الوقت في قرض بندقة، أو تعتمد بمرفقيها علي المائدة وتتسلي برسم خطوط بسن سكينها علي غطائها!

وراحت تهمل كُلَّ شيء في دارها.. فَلَمَّا أقبلت مدام «بوفاري» الأم إلي «توست» لتقضي بضعة أيام في أثناء الصوم، راعها هذا التغيُّر، فَإِنَّ «إيما» التي كانت فيما مضى شديدة العناية بنفسها، حريصة علي أناقتها، أصبحت تمكث أيامًا بطولها دون أن ترتدي ملابس زينتها، وهي تروح وتعدو في جوربين رماديين من القطن.. كما أصبحت تقتصر علي استخدام الشموع في إضاءة البيت، مُردِّدة أَنْ لا بدَّ من الاقتصاد لأنَّهم ليسوا من أهل الثراء!.. وكانت تضيف إلي هذا أنَّها سعيدة كُلَّ السعادة، راضية كُلَّ الرضي، وَأَنَّ «توست» تروق لها.. وأمثال هذه العبارات الجديدة التي كانت تغلق فم حماتها عن اللوم!

علي أَنَّ «إيما» أضحت - إلي جانب ذلك - تبدي عدم استعداد لتقبُّل إرشادات حماتها!.. وقد حدث مرَّة أن بدا لمدام «بوفاري» الأم أن تشير إلي أَنَّ من واجب المخدمين أن يعنوا بمراقبة احترام الخدم لشعائر الدين، فأجابتها «إيما» بنظرة تنقِّد غضبًا، وابتسامة تفيض برودا، ما حدا بالسَّيِّدة إلي أن تكف بعد ذلك عن احتكاك بها! وأصبحت «إيما» حادة المزاج، كثيرة النزوات، غريبة الأطوار.. فهي تطلب ألوانًا مُعيَّنة من الطعام ثُمَّ لا تقربها.. وقد تصر يومًا علي ألا تتناول سوي اللبن الصافي، ثُمَّ تقبل في اليوم التَّالي علي شرب عشرات من أقذاح الشاي!.. وكانت تُقرِّر أحيانًا عدم الخروج فتضيق أنفاسها وتفتح النوافذ ثُمَّ ترتدي ثوبًا خفيفًا!.. وكانت تعنف الخادمة، ثُمَّ لا تلبث أن تسترضيها بالهدايا، أو ترسلها للنزهة لدي الجيران!.. كذلك كانت أحيانًا تقذف للفقراء بجميع ما في كيسها من نقود فضية، رغم أنَّها لم تكن يومًا رقيقة القلب ولا سهلة التأثُّر بانفعالات المعوزين!

وفي نهاية شهر فبراير (شباط) تقريبًا، حمل الأب «روو» - بنفسه - إلي صهره ديكًا روميًا بديعًا، رمزًا لذكري شفائه، وأقام في «توست» ثلاثة أيام، ولمّا كان «شارل» في تلك الأثناء مشغولًا بمرضاه، فقد بات علي «إيما» وحدها عبء مصاحبته، فضايقتها منه أنّه كان يدخن في الغرفة، ويصق في المدفأة، ويتحدّث عن الزراعة، والعجول والأبقار والدجاج والمجلس البلدي.. حتي لقد عجبت من نفسها إذ أحست بشعور من الارتياح بداخلها حين أغلقت الباب خلفه عقب رحيله!.. والواقع أنّها لم تعد أن تتحرّج من أن تبدي احتقارها لشيء أو ازدراءها لأحد.. وكانت تصدر عنها أحيانًا آراء غريبة، فتتقد ما يرضاه النّاس، وتحبذ أمورًا لا تستقيم مع الأخلاق، الأمر الذي كان يترك زوجها مذهولًا!

وكانت لا تفتأ تسأل نفسها: «أيلازمها هذا البؤس أبد السنين؟!.. أو ليس هناك من مخرج؟!». إنّها لا تنقل عن هؤلاء أولئك اللاتي يعشن في سعادة.. بل لقد رأت في «فويسار» دوقات أسوأ منها قوامًا، وأقل رقة وتهذيبًا!.. وأخذت تسخط علي ظلم الأقدار.. وتسند رأسها إلي الجدار لتبكي!.. كانت تحسد أولئك الذين يحظون بحياةٍ صاخبةٍ، ويقضون الليالي في حفلاتٍ تنكريةٍ، وينعمون بتلك اللذات العنيفة التي يثير سماعها في نفسها مشاعر لا تدرك كنهها!

ومال لونها إلي الشحوب، واضطربت دقات قلبها، فأعطاه «شارل» دواء يهدئ أعصابها، ووصف لها حمامات الكافور.. ولكنّ محاولاته لم تزدها إلّا هياجًا!.. وكانت في بعض الأيام تثرثر في فيض محموم، ثمّ لا يلبث أن يعقب هذا الانطلاق ركود مفاجئ لا تنطق خلاله بلفظ، ولا تأتي بحركة.. ولم يكن ينعشها في تلك اللّحظة سوي زجاجة من ماء «الكولونيا» تسكبها علي ذراعها!

وإذ أخذت تشكو من جو «توست» بلا انقطاع، فقد أيقن «شارل» أنّ مرضها ناشئ عن سبب محلي، ورسخ في نفسه هذا الرأي، حتي أنّه أخذ يُفكر جدّيًا في أن يبحث عن بلدٍ آخر يقيم فيه .



ومن ثمَّ عمدت إلي شرب الخل لتزداد نحافة، فأصيبت بسعالٍ بسيط جاف، وفقدت شهيتها إلي الطعام تمامًا!.. وكان يعز علي «شارل» أن يرحل عن «توست» بعد أن أقام بها أربع سنوات توطد خلالها مركزه.. ولكِنَّه مع ذلك لم يلبث أن خضع لأحكام الضرورة، عندما صاحبها إلي أستاذه القديم في «روان»، فتبين له - بعد أن فحصها - أنَّها تعاني من مرض عصبي، لا بد لعلاجه من أن تبدل الجو الذي تعيش فيه!

وراح «شارل» يتحري هنا وهناك، حتي علم أنَّ في مقاطعة «نيوشاتل» قرية كبيرة تُسمي «أبونفيل - الدير» غادرها طبيبها - وكان من البولنديين اللاجئين - منذ أسبوع، فكتب إلي صيدلي القرية يسأله عن عدد سكانها، وعن المسافة التي تفصلها عن أقرب قرية بها طبيب، وعن الدخل الذي كان يصيبه سلفه في العام.. إلي ما هنالك ممَّا يهمه. ووجد في الرد - حين جاءه - ما أرضاه، فقرَّر أن ينتقل إلي تلك القرية في الربيع التالي، إذ ظلت صحَّة «إيما» دون أي تحسن!

وفيما كانت «إيما» تستعد للسفر، أصيب أحد أصابعها بوخزةٍ من سلك باقة زواجها، وهي ترتب أحد الأدراج ذات يوم. كانت براعم البرتقال - في الباقة - قد اصفرت لفرط تراكم الغبار عليها، وأخذت الأشرطة الحريية ذات الحواف الفضية تنسل.. ولم تحجم «إيما» عن إلقاء الباقة في نار المدفأة، فإذا بها تشتعل بأسرع ممَّا يشتعل القش الجاف.. وما لبثت النيران أن التهمتها، فراحت تتقلص ببطءٍ وقد تفجرت حبيبات الورق المقوي، والتوت والأسلاك، وانصهرت الأشرطة المعدنية، وتيسست أوراق الزهر الاصطناعي.. ثمَّ أخذت أشلاؤها تتراقص فوق اللهب كالغفراش الأسود.. وما لبثت أن تطايرت خلال المدفأة!

وعندما غادر الزوجان «توست» في شهر مارس (آذار)، كانت مدام «بوفاري» حاملاً!





الفصل الأول



ملاحم القرية الجديدة

Features of the new village

لم يكن في منطقة «نيوشاتل» - حتي سنة 1835 - طريق ممهد يفضي إلي «أيونفيل». بيد أن طريقاً ريفياً فرعياً أنشئ في ذلك العام و فوصل بين طريقي «أفيل»، و«أميان»، وأصبحت تجري عليه أحياناً عربات النقل الذهبية من «روان»، إلي «الفلاندر» ..

علي أن «أيونفيل - الدير» ظلت علي حالها، بالرغم من الإصلاحات الجديدة، فبدلاً من أن ينشط أهلها لتحسين الزراعة بها، ظلوا مشبثين بالمراعي علي انخفاض دخلها وقيمتها. وأخذت القرية الكسول تنفصل بالطبيعة عن السهل، وتتبع في اتساعها مجري النهر، حتي أن الرائي يلمحها عن بعد راقدة علي طول النهر، كقطيع من البقر يقبل علي حافة الماء!!

وعند نهاية جسر مقام علي النهر- في أسفل الهضبة - يمتد طريق تحف بجانيه أشجار الحور⁽⁴⁰⁾ الصغيرة، يفضي بك مباشرة إلي طليعة منازل القرية.. وهي بيوت تحيط بها أسوار، وقد أقيمت وسط ساحات تناثر فيها

(40) أشجار الحور Populus، هو جنس شجري من الفصيلة الصفصافية. يصل ارتفاع بعض أنواعها إلى ثلاثين متراً. خشبه لين سهل مُعالجته، يستعمل في صناعة الأثاث واللوازم الخشبية. (المعد).



المعاصر ومخازن العربات ومعامل التقطير، تحت الأشجار المتشابكة التي تستند إليها سلالم متنقلة، أو تعلق بأغصانها الخطاطيف والمناجل .

وكانت الأسقف مصنوعة من القش تشبه طاقيات الفراء المنزقة علي عيون لابسيتها، إذ كانت تكاد تخفي ثلث النوافذ المنخفضة، التي كان زجاجها السميكة المحدودب يتجمّع عند وسطه في عقدة كقاع الزجاج.. وعلي الجدران المُشيّدة من الجص، والتي تمتد بين زواياها المتقابلة أعمدة خشبية سوداء كانت تري أحيانًا شجرة من شجرات الكمثري الهزيلة.. وعند الباب الخارجي لكلّ دار كان ثمة منخفض إلى عتبة البيت للتقاط فتات الخبز المنقوع في نبيذ التفاح.. وكُلّما تقدّمت في السير نحو القرية كُلّما صغرت أفنية الدور، وتقاربت المباني واختفت الحواجز بينها.. وقد نري هنا حزمة من نبات «السرخس» تهتز في نهاية عصا مكنسة تحت إحدى النوافذ.. وهناك حانوت بيطار (طبيب بيطري)، أو محل نجار سدّت الطريق أمامه عربتان أو ثلاث عربات جديدة.. وعبر مسافة من الفضاء يلوح بيت أبيض تمتد أمامه رقعة معشوشبة يزيناها تمثال «كيوبيد»⁽⁴¹⁾ وإحدى أصابعه علي شفّتيه.. وإلي جانبي قمة الدرجات الأمامية آيتان من النحاس.. وعلي الباب تلمع لافتتان تمان عن أنّ هذا البيت موثق العقود.. أجمل بيوت البلدة!

وعلي الجانب الآخر من الشارع، وعلي بُعد عشرين خطوة، تقوم الكنيسة عند مدخل الميدان، تُحيط بها مقبرة صغيرة، يحتضنها سياج في

(41) كيوبيد: في الميثولوجيا الرومانية هو ابن الإلهة «فينوس»، وقد اشتهر دائمًا بحمله للسهم وبكونه طفل، كان كيوبيد شديد الجمال، وكان سهمه يصيب البشر فيسبّب وقوعهم في الحبّ. كان غالبًا يصوّر كطفل صغير - قليل الخطّ - في هيئة ملاك بجناحين ومعه سهم الحبّ. وأحيانًا كان يصوّر أعمى كرمز علي أنّ الحبّ أعمى ولا نختار من نُحبّ. (المُعد).

ارتفاع صدر الإنسان، وقد اكتظ بالقبور حتي أصبحت الأحجار القديمة في مستوي الأرض، تؤلّف فيما بينها رصيفاً طويلاً، امتدت الحشائش خلاله تقسمه إلي مربعاتٍ .. وكان مبني الكنيسة قد جُدد في عهد «شارل العاشر»، فأخذ سقفها الخشبي يبلّي عند قمته .. وفي المكان المخصص للأرغن⁽⁴²⁾ .. فوق الباب - أقيمت شرفة للرّجال، يؤدي إليها سلّم حلزوني يهتز تحت وقع الأقدام في نعالها الخشبيّة!

وكان الضوء الذي ينفذ خلال الزجاج غير الملون يسقط في انكساراتٍ علي المقاعد المصفوفة بطول الجدران التي زينت - هنا وهناك - بحصائر من القش كُتِب عليها بحروفٍ ضخمةٍ «مقعد السيّد فلان». وعلي مسافةٍ قليلة من دهليز الكنيسة، يقوم كرسي الاعتراف إلي أحد الجانبين، وإلي الجانب الآخر تمثال للعذراء مريم في ثوبٍ من الحرير، وعلي رأسها نقاب من التول⁽⁴³⁾ مُرَصّع بنجوم فضيّة، وقد طليت وجنتاها باللون الأحمر.

(42) الأرغن organ، آلةٌ هوائيةٌ ذات لوحة تشبه لوحة البيانو تعمل بوساطة سريان الهواء في أنابيبها، ويتم بالضغط على الملامس بعث الهواء المضغوط والمخزون في جسم الأرغن وتوزيعه على أنابيبها وهنا تكمن سرية التقنية وصعوبتها فيه. والأرغن من أكثر الآلات الموسيقية تعقيداً، وما تُشاهده في شكله الخارجي إنما هو جزء قليل منه وأما ما يرى مباشرة من تركيبه الداخلي فيؤلف الجزء الأكبر. وتعود شدة تعقيده إلى أجهزته الداخلية ودقة تنظيمها البنائي والآلي إضافة إلى ضخامة الهيكل الخارجي. فلا عجب لذلك أن يطلق عليه لقب «ملك الآلات الموسيقية» لأنه أضخمها حجماً وأوسعها مدى صوتياً وأغناها بميزات في الطابع الصوتي. (المعد).

(43) التول: من الأقمشة الفخمة والراقية. (المعد).



وأخيرًا، تطل علي المذبح المرتفع صورة «الأسرة المقدسة» - مهداة من وزير الداخلية - بين أربع شمعدانات. أمّا مقاعد المرتلين المصنوعة من خشب الصنوبر، فقد ظلت باهتة دون طلاء .



وكانت السوق - أو بالأحرى السقف المصنوع من الآجر والمُقام علي عشرين عمودًا تقريبًا - تشغل حوالي نصف الميدان العام في «أيونفيل».. أمّا دار البلدية - التي شُيّدت وفقًا لرسم أعده مهندس من باريس - فكانت تشبه معبدًا إغريقيًا، وترسم مع حائوت الصيدلي شكل زاوية. وكانت في الطابق الأرضي ثلاثة أعمدة يونانية.. وفي الطابق الأوّل بهو نصف دائري تعلوه قبة.

علي أنّ أكثر ما كان يسترعي الانتباه، هو صيدلية السيّد «هوميه» التي تقع في مواجهة فندق «الأسد الذهبي».. ولا سيما في المساء حين يُضاء المصباح فيرسل أشعته خلال القوارير الكبيرة الحمراء والخضراء، ثمّ يبعث عبر الشارع جدولين من الضوء الملون.. وخلال هذا الضوء كان طيف الصيدلي وهو متكئ إلي مكتبه يبدو كما لو كان غارقًا في أضواء القوارير!.. وكانت داره مكسوة بإعلانات كُتبت بخط اليد أو بالحروف الكبيرة بحروف الطباعة.

ولم يكن ثمة ما يُشاهد في «أيونفيل» عدا ذلك، فإنّ الشارع الأوحد - الذي لم يكن طوله يتجاوز مرمي المقذوف الناري والذي تقوم الحوانيت علي جانبيه - كان لا يلبث أن ينتهي عند منعطف الطريق الزراعي.. فإذا تركه المرء وانحرف إلي اليمين في محاذاة منحدر هضبة «سان جان»، وصل إلي المقابر. وكان القوم عندما تفشت «الكوليرا»، قد هدموا جانبًا من جدارها،



وَضَمُّوا إِلَيْهَا بَضْعَةً أَفْدَنَةً لَتَوْسِيعِهَا، بَيِّدَ أَنَّ الْقِطْعَةَ الْجَدِيدَةَ بَقِيَتْ شَبْهَ خَالِيَةٍ، وَظَلَّتِ الْقُبُورُ تَتَكَدَّسُ عَلَيَّ مَقَرَّةٍ مِنَ الْبَابِ، كَمَا كَانَتْ الْحَالُ مِنْ قَبْلِ .

وَلَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ فِي «أَيُونْفِيل» مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ. فَمَا زَالَ الْعِلْمُ ذُو الْأَلْوَانِ الثَّلَاثَةِ، وَالْمَصْنُوعُ مِنَ الصَّفِيحِ، يَدُورُ فَوْقَ الْكَنِيسَةِ.. وَمَا زَالَتْ تَرْفُفُ عَلَيَّ مَتَجَرُّ الْأَقْمِشَةِ رَايَتَانِ مِنَ الْبَفْتَةِ.. وَالْأَجْنَةُ الَّتِي يَحْتَفِظُ بِهَا الْكِيمِيَاءُ مُحْنَطَةٌ أَخَذَتْ فِي التَّحَلُّلِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ فِي كَحُولِهَا الْمُعْكَرِ.. وَمَا زَالَ تَمَثَّلُ الْأَسَدُ الذَّهَبِيُّ بَاهِتَ اللَّوْنِ يَقَعُ عَلَيَّ الْبَابَ الْأَمَامِي لِلْفُنْدُقِ، يَطَانِعُ الْمَارَةَ بِقُلْنَسَوْتِهِ الشَّبِيهَةِ بِفُرْوَةِ الْكَلْبِ!



وَفِي مَسَاءِ الْيَوْمِ الَّذِي كَانَ مَقْدَرًا أَنْ يَصِلَ فِيهِ «بُوفَارِي» وَزَوْجَتُهُ إِلَيَّ «أَيُونْفِيل» كَانَتِ الْأَرْمَلَةُ «لُوفَرَانْسُوا» - صَاحِبَةُ الْفُنْدُقِ - كَثِيرَةَ الْمَشَاغِلِ إِلَيَّ حَدِّثُ أَنَّ الْعَرَقَ أَخَذَ يَنْضَحُ مِنْهَا فِي قَطَرَاتٍ كَبِيرَةٍ وَهِيَ تَرُوحُ وَتَغْدُو بِأَنِيَةِ الْمَطْبَخِ!.. كَانَ الْيَوْمُ الثَّلَاثِي هُوَ يَوْمُ السُّوقِ، وَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَقْطَعَ اللَّحْمَ مَقْدَمًا، وَتَنْظِفَ الدِّجَاجَ، وَتُعِدَّ الْحَسَاءَ وَالْقَهْوَةَ. كَمَا كَانَ عَلَيْهَا.. فَوْقَ ذَلِكَ.. أَنْ تَجْهِزَ لِلنِّزَاءِ غَدَاءَهُمْ، وَأَنْ تُعِدَّ لِلطَّيِّبِ وَزَوْجَتِهِ وَخَادِمَهُمَا الْعِشَاءَ.. وَكَانَتْ تَتَرَدَّدُ فِي قَاعَةِ «الْبِيلْيَارْدُو» ضِحْكَاتُ صَاحِبَةٍ، وَفِي غُرْفَةِ الْجُلُوسِ، كَانَ ثَمَّةُ ثَلَاثَةِ مِنَ الطَّحَّانِينَ يَصِيحُونَ فِي طَلَبِ الْخَمْرِ!.. وَكَانَتِ النَّارُ تَتَأَجَّجُ فِي خَشَبِ الْمَوْقِدِ، وَالْأَنِيَةُ النِّحَاسِيَّةُ تَرَأَّرُ فَوْقَهَا بَعْدَ أَنْ بَدَأَتْ مَحْتَوِيَاتُهَا فِي الْعَلِيَانِ. وَعَلَيَّ مَائِدَةُ الْمَطْبَخِ الطَّوِيلَةِ، وَبَيْنَ قِطْعِ اللَّحْمِ الْكَبِيرَةِ الْنَيِّئَةِ، تَكْدَسَتْ أَكْوَامُ مِنَ الْأَطْبَاقِ كَانَتْ تَهْتَرُ بِاهْتِرَازِ اللَّوْحَةِ الَّتِي كَانَتْ أَوْرَاقُ «السَّبَانَخ» تَقْطَعُ



فوقها.. ومن فناء المبني كانت تنبعث صيحات الدجاج الذي كانت الخادمة تطارده لتمسك به وتدق أعناقه!

ووقف بجوار المدفأة - يدفئ ظهره - رجل علي وجهه بقايا طفيفة من آثار الجدري، وقد ارتدي خفين أخضرين وقلنسوة من المخمل.. ولم يكن وجهه ينم عن شيء اللهم إلا الرضي عن نفسه، وقد بدا أنه مطمئن إلي الحياة طمأنينة طائر الشَّرْشَر⁽⁴⁴⁾ الصداح حين يدس رأسه بين قضبان قفصه.. كان ذلك الرَّجُل هو: الصيدلي!

وعلي حين غرة، صاحت السيِّدة صاحبة الفندق:

- «أرتميز».. شقّي بعض الخشب، واملئي الدواق، وأحضري بعض الخمر، وأيقظي حواسك.. آه، لشد ما أنا حائرة في اختيار حلوي أقدمها بعد العشاء للضيوف الذين ترتقبهم يا مسيو «هوميه»!.. يا للسماء الرحيمة!.. ها هم الحمالون يستأنفون ضوءاءهم في غرفة «البلياردو» بعد أن تركوا عربتهم أمام الباب!.. إنَّ «العصفورة» - اسم عربة - قد تصطدم بها إذا ما جاءت، فأدعو «بوليت» لتقودها إلي الحظيرة.. تصوّر يا مسيو «هوميه» ألهم لعبوا نحو خمسة عشر دورًا منذ الصباح، وشربوا ثمانى زجاجات من نبيذ التفاح!.. إنَّهم يوشكون أن يمزقوا كساء منضدة «البلياردو»!

وأخذت تنأملهم عن كذب، بينما أجاب السيِّد «هوميه»:

- لن يكون الضرر كبيرًا، فإنَّك متقادة حتمًا إلي شراء غيرها!

فهتفت الأرملة مأخوذة:

(44) طائر الشَّرْشَر: طائر صغير مثل العصفور.

- منضدةٌ أخرى للبللياردو؟

- أجل، إذ إنَّ هذه أوشكت أن تتداعي يا مدام «لو فرانسوا».. إنَّني أكرر ما قلت من قبل، فإنَّك تؤذين نفسك إبَّاء!.. ثُمَّ إنَّ اللَّاعبين يطلبون الآن جيوبًا ضيقة وعصيًا ثقيلة للبللياردو، لأنَّ الهواة لم يعودوا يقبلون علي البللياردو الفرنسي الآن، لقد تغيَّر كُلُّ شيء! يجب أن يجاري المرء الزمن!.. أَلَا فانظري إلي «تلييه»!

فقطعت عليه صاحبة النزل حديثه قائلةً، وهي تهز كتفيها السمينتين:

- إنَّ الصعاليك أمثاله لا يزعجونني.. لسوف يفد الناس علي فندق «الأسد الذهبي» طالما ظلَّ علي قيد الوجود.. ليس لدينا ما يدعو إلي القلق، في حين أنَّك يا مسيو «هوميه» لن تلبث أن تري فندق المقهى الفرنسي يومًا مغلقًا، وقد سمرت أبوابه!

..واستأنفت وكأنَّها تُحدث نفسها:

- أُغيِّر بللياردي!!.. المائدة التي اعتمد عليها في طي الغسيل، والتي هيأت فوقها فراشًا لستة نزلاء في موسم الصيد!.. ولكن ذلك المتسكع «هيفير» لم يصل بعد..

- هل ترجئين العشاء لنزلائك حتي وصوله؟

- وهل أملك هذا؟.. ماذا يفعل السيّد «بينيه»؟.. ما إن تبدأ السَّاعة في إعلان السَّادسة حتي تراه مقبلًا، فليس له مثيل تحت الشمس في دقة المواعيد!.. ولا بدَّ من أن يكون مقعده مُعدًّا في قاعة الجلوس الصَّغيرة، فإنَّه يؤثِّر الموت علي أن يتناول العشاء في أي مكان آخر.. وهو حريص علي

الدقة، شديد العناية باختيار شرابه! فهو ليس مثل السيّد «ليون» الذي يفد أحياناً في السّابعة، بل وفي السّابعة والنصف، ولا يكاد يأبه لما يُقدّم إليه من طعام.. ما أظرفه! .. إنّه لم يتلفظ مطلقاً بكلمة نابية!

.. لا شك في أنّك تدركين أنّ ثمة فرقاً شاسعاً بين الرّجل المثقف وبين جندي متقاعد أصبح اليوم مُحصلاً!



ودقت السّاعة معلنة السّادسة، فدخل «بينه».. كان يرتدي سترة طويلة زرقاء تستوي علي جسده الناحل في استقامة، وقلنسوة جلدية ثبتت إلي رأسه برباط، وقد بدأ تحت حافتها المرفوعة جبين عريض، خلفت كثرة ارتداء الخوذات أثراً عليه!.. وكان يرتدي كذلك صديرياً أسود وياقة من الفرو وسروالاً رمادياً.. ثمّ حذاءين بالغى النظافة، يتنقل بهما طوال العام، وقد برز في جانبيهما نتوءان يشيان بموقعي إصبعي قدميه الكبيرتين!.. ولم تكن ثمة شعرة واحدة في سوائفه تشذ عن النظام!.. وقد كانت هذه السوائف تستطيل إلي فكيه علي نمط العشب الذي يحيط بالحديقة، محتضنة وجهه الجامد الطويل، ذي العينين الصّغيرتين والأنف المعقوف.. وكان بارعاً في جميع الألعاب، ماهراً في الصيد، ذا خط جميل، كما كان يملك مخرطة يصنع عليها حلقات مشاجب المناشف التي كان يحتفظ بها في غيره الفنان وأنانية الثري، حديث الثراء، حتي ملأ بها بيته!

واتجه نحو قاعة الجلوس الصّغيرة، ولكن.. كان لابدّ من إخراج الطحانين الثلاثة منها أولاً!.. وظلّ «بينه» صامتاً في مقعده القريب من المدفأة طيلة الوقت الذي استغرقه إعداد المائدة، حتي إذا تمّ له ذلك، أغلق الباب وخلع قلنسوته جرياً علي عادته!

وما إن خلا الصيدلي إلي صاحبة النزل ثانية، حتي ابتدرها قائلاً:

- ما كان إلقاء التحية لينقص شيئاً من لسانه!

فأجابته:

- إنَّه لا يتكلم قط أكثر ممَّا تدعو إليه الحاجة. لقد كان لدينا في الأسبوع الماضي نزيلان من تجار الأقمشة.. وكانا مرحين، ظلا يرويان لنا في المساء من الفكاهات ما جعلني أبكي من كثرة الضَّحك.. بينما كان هو قابلاً كالسمكة، فلم ينس قط بكلمة!

قال الصيدلي:

- أجل.. لا خيال، ولا فكاهة، ولا شيء ممَّا يكوّن رجل المجتمع .

فقالت محتجة:

- ومع ذلك فإنَّهم يقولون إنَّ له أصدقاء ومجالس!

- مجالس!.. مجالس!.. من المحتمل أن تكون علي شاكلته!

وما لبث أن استطرد قائلاً:

- إنَّني أدرك أن التاجر ذا الصلات الواسعة، والقنصل، والطبيب، والصيدلي، يجدون من أعمالهم ما يشغلهم ويلهيهم، حتي ل يبدو الواحد منهم غريب الأطوار، أو جافاً.. إنَّ التاريخ حافل بقصص هؤلاء. ولكنَّ المهم أنَّ عذرهم في هذا راجع إلي أنَّ لديهم ما يشغل تفكيرهم.. فأنا مثلاً كثيراً ما أبحث عن قلمي علي المكتب لأدون تذكرة، فلا ألبث أن أتبيّن في النهاية أنَّني وضعته خلف أذني!.. وفي تلك اللَّحظة، سارت مدام «لو فرانسوا» إلي الباب لتري إذا كانت العربية المرتقبة - «العصفورة» - مقبلة.. ولكنها أجفلت إذ ولج المطبخ فجأة رجل في ثيابٍ سوداء.. وكان في وسع



المرء أن يتبين علي ضوء آخر خيوط الغسق، إنَّ له وجهًا متورِّدًا، وجسمًا رياضيًّا..

وسألته ربَّة النزل وهي تناول من فوق المدفأة أحد الشمعدانات النحاسية التي كانت مصفوفة وقد ثبتت فيها الشموع:

- أية خدمة أملك أن أؤديها لك يا سيدي القس؟ هل لك في تناول شراب ما؟.. جرعة من نبيذ «كاسي» الأسود؟.. أو زجاجة من النبيذ الأحمر؟!

وهز رجل الدين رأسه في أدبٍ بالغ، وقال إنَّه جاء من أجل مظلمته التي نسيها منذ أيام في دير «إيرنمو». وبعد أن سأل مدام «لو فرانسوا» أن تعمل علي إرسالها إليه في دار «الخوري» في المساء، انصرف إلي الكنيسة التي كان ناقوسها يذق معلنًا بدء صلاة المساء.. وما إن اطمأن الصيدلي إلي أنَّه لم يعد يسمع وقع قدمي القس في الميدان، حتي أبدي رأيه في مسلكه فوصفه بأنَّه سيئ!.. فقد بدا رفضه.. في رأي الصيدلي - أبغض ألوان الرياء، إذ إنَّ كُلَّ القساوسة يحتسون الخمر في الخفاء، ويحاولون أن يستعيدوا الأيام التي كانت الكنيسة تتقاضي فيها الضرائب من رعاياها!

وانبرت صاحبة النزل تدافع عن القس قائلة:

- إنَّه رغم قولك يستطيع أن يطوي أربعة من أمثالك علي ركبتيه!.. لقد ساعد رجالنا علي تخزين العشب الجاف في العام الماضي، فبلغ من قوَّته أنَّه كان يحمل ستًا من الحزم في آنٍ واحد!

فهتف الصيدلي:



- مرحي!.. أرسلوا بناتكم إذا ليعترفن أمام رجال من هذا الصنف!.. لو
أنتي كنت في مركز الحكم لأمرت بأن يفصد⁽⁴⁵⁾ دم القساوسة مرّة في كلّ
شهر.. أجل يا مدام «لو فرانسوا».. في كلّ شهر.. وفصدًا جيدًا، في سبيل
مصلحة الشرطة والأخلاق!!

- كف عن هذا يا مسيو «هومييه»، فأنت كافر، لا دين لك!

فأجاب الصيدلي:

- بل لي دين.. ديني الخاص.. وإنّ لديّ من التقوى ما يفوق ما لدي هؤلاء
الآخرين جميعًا، رغم نفاقهم ودجلهم.. إنني علي العكس أعبد الله.. أو من
بالكائن الأعلى.. أو من بوجود خالق، كيفما يكن كنهه.. ومهما يكن هذا
الخالق الذي أوجدنا هنا لنؤدي واجباتنا كمواطنين وأرباب أسر.. ولكني في
غير حاجة إلي أن أذهب إلي الكنيسة لأقبل أطباء فضية، ولأسمن من مالي
رجالاً لا يصلحون لشيء ولا نفع منهم، ويحظون بمعيشة أنعم ممّا نحظى!
وأمسك الصيدلي عن الكلام، وأجال بصره فيما حوله وكأنه يتأمل
جمهورًا يحيط به.. فقد ظلّ في ثورة انفعاله أنّه في قاعة المجلس البلدي!..
علي أنّ ربّة النزول لم تكن تنصت إليه، بل أصاحت بسمعتها تحاول أن تستبين
صوتًا أنبعث عن بُعد، اختلط فيه ضوضاء العجلات بسنابك حديدية تضرب
الأرض.. وما لبثت «العصفورة» أن توقفت أمام باب الفندق أخيرًا!



كانت «العصفورة» تتكوّن من صندوق أصفر يقوم علي عجلتين
كبيرتين يصل محيطهما إلي مستوي سقفه، فيحولان بين المسافرين ورؤية

(45) يُقصد بالفصد: قطع العرق.



الطريق، ويلطخان أكتافهم بالقاذورات!.. وقد أقبل علي الميدان عدد من أهالي «أبونفيل»، أخذوا يتكلمون معًا في آنٍ واحدٍ يتساءلون عن الأخبار، ويستفسرون عن سلال الهدايا. ولم يكن «هيفير» - السائق - يدري أيهم يجيب أولًا، فقد كان هو المنوط بقضاء حوائج القرية من «روان»، وكان يطوف بالحيوانات يجلب لفات الجلد لصانع الأحذية، والحديد للبيطري، وبرميل «الرنجة»⁽⁴⁶⁾ لمخدومه - ربة المنزل - والقبعات من صانعها، والشعور المستعارة من الحلاق.. وكان يوزع الحزم علي طول الطريق وهو عائد فيقف علي مقعده ويقذف بها من فوق الأسوار صائحًا بملء فيه، والخييل ماضية بالعربة!

وكان تأخره في العودة راجعًا إلي حادث بسيط، فقد هربت كلبة مدام «بوفاري» في الحقول، ففضوا ربع الساعة يصفرون لها.. بل أنَّ «هيفير» رجع مسافة طويلة أملًا في العثور عليها، متوهمًا في كُلِّ لحظة أنه قد لمحها!.. وبكت «إيما»، وسخطت، واتهمت «شارل» بأنه كان السبب.

وقد حاول السيّد «ليريه» - تاجر الأقمشة الذي كان يرافقهما في العربة - أن يواسيها، فضرب لها أمثلة بكلاب ضاعت، ثُمَّ «اهتدت» إلي أصحابها بعد سنوات طويلة!.. بل لقد روي لها ما سمعه عن كلب عاد إلي باريس من القسطنطينية!.. وعن كلب آخر قطع خمسين ميلًا في خط مستقيم، وسبح عبر أربعة أنهار!.. وتماذي فذكر لها أن أباه كان يملك كلبًا فقدته اثني عشر عامًا، ثُمَّ فوجئ به يقفز علي ظهره ذات مساء، وهو في طريقه لتناول العشاء في المدينة!

(46) سمك الرنجة هو سمك شعاعي الزعانف صغير الحجم، يعيش في المياه الضحلة، ينتشر تحضير سمك الرنجة بشكل كبير في مصر أكثر من الدول الأخرى حيث يتم تناوله في عيد شم النسيم عند نهر النيل لإحياء أحد أهم الأعياد الموروثة عن الفراعنة. يحتوي سمك الرنجة كغيره من أنواع السمك الأخرى على العديد من المواد التي تجعل منه سمكًا مفيدًا للجسم. (المعد).



الفصل الثاني



حديث جانبي.. في فندق الأسد الذهبي

A side talk .. in the Golden Lion Hotel

....

توقفت العربية إذا.. وكانت «إيما» أوّل مَنْ هبط من العربية، وتبعها «فيليسيثيه»، فالسيد «ليريه».. واضطروا إلي أن يوقظوا «شارل» الذي كان قد استسلم في ركنه لنوم عميق، منذ أرخي الليل سدوله!

وقدّم «هوميه» نفسه، مزجيًا ومبدئيًا احتراماته للسيدة، وتحياته للسيد، مُعربًا عن شدة اغتباطه إذ أُتيح له أن يؤدي لهما بعض الخدمات.. وأضاف في لهجة الصديق أنّه قد تجرأ فدعا نفسه لتناول العشاء معهما، إذ أنّ زوجته غائبة عن البلدة!



وعندما دخلت مدام «بوفاري» إلي المطبخ، اقتربت من الموقد، وأمسكت بثوبها عند الركبتين بأطراف أناملها فرفعته حتي حاذي ذيله عرقوبها، ثمّ مدّت قدميها بنعليها الأسودين نحو اللهب، فوق «الفخدة» التي كانت ترتجف، فإذا اللهب يضيء كلّ كيائها،

• الرحيل إلي أيونفيل •

ويتغلغل نوره في نسيج ثوبها، ومسام جلدها البض الأملس، بل وفي جفون عينيها اللتين أخذت تغمضهما من وقت إلي آخر.. ودفعت الريح المتسللة



من الباب المنفرج وهجًا دافئًا هبَّ عليها.. وكان ثمة شاب أشقر يرقبها في صمتٍ من الجانب الآخر للمدفأة..

كان السيّد «ليون ديوي» - الشاب الأشقر - ثاني النزلاء الدائمين في فندق «الأسد الذهبي»، وقد اعتاد أن يؤخر تناول عشاءه في كلِّ مساء علي أمل أن ينزل بالفندق مسافر يستطيع أن يجاذبه الحديث، إذ كان قد أشتد به السأم في «أيونفيل» حيث كان يعمل كاتبًا لدي الأستاذ «جويومان» موثق العقود.. غير أنّه لم يكن يملك - إذا ما فرغ من عمله - سوي أن يعود إلي الفندق، ومن ثمَّ يضطر إلي مصاحبة «بينيه» طوال العشاء، لهذا رحب مغتبطًا في تلك الليلة باقتراح ربّة الفندق أن يتناول عشاءه في صحبة القادمين في القاعة الكبرى، حيث أبدعت مدام «لو فرانسوا» في إعداد المائدة لأربعة أشخاص!

وأبدي «هوميه» رجاءه في أن يسمحوا له بأن يظلّ مرتديًا طاقيته الإفريقية خشية «الأنفلونزا»، ثمّ التفت إلي جارته قائلاً:

- لا ريب في أنّ السيّدة متعبة فإنّ «عصفورتنا» ترجّ المرء رجًا .

وأجابت «إيما» :

- هذا صحيح، بيد أنّ السفر يلذّ لي، فأنا أحبّ التنقل من مكانٍ إلي آخر!

وتنهّد «ليون» قائلاً:

- من أسوأ ما يسقم النفس أن يظلّ المرء مرتبطًا بمكانٍ واحد!

فسأله «شارل» :

- وماذا كنت تفعل لو أنّك مضطر مثلي إلي امتطاء جوادك دائميًا؟

فأجاب «ليون»، وهو يتجه بحديثه إلي مدام «بوفاري» :
- ولكنني لا أري شيئاً أكثر إمتاعاً من هذا، لو كان في إمكان المرء..
وهنا قال الصيدلي:

- علي أن ممارسة الطبّ ليست بالغة المشقة في هذا الجزء من العالم،
إذ أن طرقنا تسمح باستخدام العربات.. ولمّا كان المزارعون في حالةٍ من
اليسر، فإنّهم يدفعون بسخاءٍ عادةً!.. ومن الناحية الطبيّة لدينا - فضلاً عن
الحالات العادية كالتهاب الأعصاب والنزلات الشعيّة والأمراض الناشئة
عن الصفراء.. إلخ - بعض الحميات المتقطعة التي تظهر من وقتٍ إلي آخر
في موسم الحصاد. وعلي العموم ليس لدينا من الحالات الخطرة سوي
القليل، وليس ثمة حالات ملفتة تستدعي الانتباه إلي كثرة الأمراض الناشئة
عن غدد الرقبة، وهي كثرة مرجعها بلا شك إلي سوء الحالة الصحيّة في
منازل الفلاحين.. آه، لسوف تضطر يا سيّد «بوفاري» إلي مكافحة كثير من
المعتقدات الفاسدة والعادات المتأصلة التي تصطدم بها مجهوداتك العلميّة
في كلّ يوم.. فهم ما زالوا يلجئون إلي الرقي والتّمائم، وإلي القس، بدلاً
من أن يسلكوا الطريق الصحيحة فيأتوا إلي الطبيب أو الصيدلي!.. علي أن
الطقس ليس رديئاً عندنا في الحق، حتي إنّك لتجد في المقاطعة أفراداً في
العقد التاسع من أعمارهم!..

وفي ذلك الوقت كانت «إيما» تواصل حديثها مع «ليون» قائلةً:
- ..علي أنّك ولا بدّ تجد مجالاً للنزهة.. في البقاع المجاورة علي الأقل .
وأجاب الشاب:



- إنها جد قليلة.. فهناك مكان يسمونه «لاباتير» - أي المراعي - علي قمة التل عند حافة الغابة.. وإليه أسعي أحيانًا، في أيام الأحاد، فأمكث في صحبة كتاب حتي أشهد مغيب الشمس.

فقلت له معقبةً:

- ما أحسب أنَّ هناك ما هو أبعد من غروب الشمس، خصوصًا عند شاطئ البحر.

فهتف «ليون» :

- آه.. إنني أعشق البحر!

- ثمَّ، ألا تري أنَّ الذهن يكون أكثر صفاءً وتحرُّرًا في الفضاء الذي لا حد له، والذي يسمو تأمله بالنفس ويوحي بأفكار عن اللانهاية.. والخيال المثالي؟

- كذلك حال المناظر الجبلية.. فإنَّ لي ابن عم سافر إلي سويسرا في العام الماضي، وحين عاد قال لي إنَّ المرء لا يستطيع أن يتصوَّر ما في البحيرات من شاعرية، وما في مساقط المياه من سحر، وما للأنهار من أثر هائل في النفس.. فالمرء يري هناك أشجار الصنوبر، التي لا يتصوَّر العقل حجمها، عبر الممرات التي حفرتها السيول.. والأكواخ معلقة علي حواف الوهاد أو المنخفضات.. وتحت قدمي المرء بألف قدم، تبدو - إذا ما انقشعت السحب - وديان فسيحة.. مثل هذه المناظر ولا ريب تُحرِّك المشاعر، وتبعث الشوق في النفس إلي العبادة والتأملات السامية.. ومن ثمَّ لم أعد أعجب من ذلك



الموسيقي الذي اعتاد أن يوقظ إلهامه بأن يجلس لوضع موسيقاه أمام منظر
رائع يسيطر علي المشاعر!

فسألته:

- هل تعزف شيئاً من الموسيقي؟

- لا، ولكنني شغوف بها تماماً .

وقطع «هوميه» الحديث إذ قال، وهو ينحني علي طبقه:

- آه!.. لا تلقي إليه سمعاً يا مدام «بوفاري».. هذا مُجرّد تواضع..
كيف يا عزيزي وقد كنت منذ أيام تغني «الملاك الحارس» في إبداع يملك
الحواس؟.. لقد سمعتك من المعمل، فإذا بك تؤديها كما لو كنت مغنياً
محترفاً!

وبالفعل كان «ليون» يسكن حجرة صغيرة في الطابق الثاني من منزل
الصيدلي تطل علي الميدان.. وتضرج وجهه لثناء صاحب البيت، الذي
كان قد تحوّل إلي الطبيب وأخذ يحصي له أهم سكان «أيونفيل»، واحداً
واحداً ويروي له تفصيلات، ونوادير.. فمثلاً لم يكن ثمة مَنْ يعرف علي وجه
التحديد ثروة موثق العقود، كما كان آل «توفاش» يظهرون في أفخم مظهر!

وعادت «إيما» تقول:

- وأي موسيقي تؤثر؟

- آه، الموسيقي الألمانية.. تلك التي تُسلمك إلي عالم الأحلام!!

- وهل ذهبت إلي الأوبرا؟



- لم أذهب بعد، ولكنِّي سأفعل في العام التالي، حين أسافر إلي باريس
لأنكم دراسة القانون.

وقطع الصيدلي الحديث مرّة أخرى قائلاً:

- إنكما ستجدان - بفضل فرار ذلك المسكين «يانودا» وبفضل حماقاته
- أن بوسعكما، و كما تشرفت بشرح الأمر للسَيِّد زوجك، أن تستمتعا ببيت
من أفضل بيوت «أيونفيل».. وأبدع ميزاته بالنسبة إلي طيب هي أن له باباً
يفضي إلي الحارة، يستطيع المرء أن يلج وأن يخرج من طريقه دون أن يراه
أحد، كما أنه مستوف لجميع الاحتياجات المنزليّة. وإذا كانت السَيِّدة تهوي
فلاحة البساتين، ففي وسعها..

وإذ ذاك قال «شارل» :

- إن زوجتي لا تحفل بهذه الأعمال.. ومع أنه أُشير عليها بالرياضة
والحركة، إلا أنها تؤثر أن تقضي الوقت في غرفتها تقرأ الكتب!

فقال «ليون» :

- إنها مثلي.. فأني شيء أجمل في الواقع من أن يقضي المرء ساعات
المساء مع كتاب جوار المدفأة، والريح تلفح زجاج النافذة، والمصباح
يشعل؟

قالت «إيما»، وهي تحديق فيه بعينيها السوداوين الواسعتين

- أليس كذلك؟

ومضي يقول:

- إِنَّ المرءَ لَا يُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ حِينَ ذَاكَ.. وَالسَّاعَاتُ تَمُرُّ مَتَلَحِّقَةً وَنَحْنُ نَتَنَقَّلُ - دُونَ أَنْ نَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِنَا - بَيْنَ بِلْدَانٍ نَخَالُ أَنَّهَا نَرَاهَا.. وَأَفْكَارُكَ تَخْتَلِطُ بِالْخِيَالِ لِتَرْسُمَ الدَّقَائِقَ، وَلِتُوضِحَ لَكَ مَعَالِمَ الْمَغَامِرَاتِ.. إِنَّهَا تَنْدَمِجُ فِي الشَّخْصِيَّاتِ حَتَّى لَتَخَالُ أَنَّ قَلْبَكَ هُوَ الَّذِي يَنْبُضُ تَحْتَ ثِيَابِهَا!

قَالَتْ:

- هَذَا حَقٌّ!.. هَذَا صَحِيحٌ!

وَاسْتَأْنَفَ «لِيُون» الْحَدِيثَ قَائِلًا:

- أَوَلَمْ يَحْدِثْ لَكَ قَطُّ أَنْ عَثَرْتُ فِي كِتَابٍ عَلَيَّ فِكْرَةً مَبْهَمَةٌ كَانَتْ قَدْ رَاوَدَتْكَ.. أَوْ عَلَيَّ صُورَةً مَعْتَمَةٌ تَعُودُ إِلَيْكَ مِنْ آفَاقٍ بَعِيدَةٍ وَكَأَنَّهَا تُعَبِّرُ عَنْ أَدَقِّ أَحَاسِيْسِكَ؟

فَأَجَابَتْ:

- لَقَدْ شَعُرْتُ بِهَذَا فَعَلًا!

قَالَ:

- هَذَا هُوَ السَّرَفُ فِي أَنَّي أَحَبَّ الشُّعْرَاءِ، فَإِنِّي أَجِدُ الشُّعْرَ أَكْثَرَ رِقَّةً مِنَ النَّثْرِ.. إِنَّهُ يَشْجِي الْمَرْءَ بِسَهُولَةٍ حَتَّى لِيَبْكِيَهُ!

قَالَتْ «إِيْمَا»:

- عَلَيَّ أَنَّ الشُّعْرَ لَا يَلْبِثُ مَعَ طُولِ الْوَقْتِ أَنْ يَشِيرَ السَّأْمَ.. إِنَّنِي الْآنَ أَهِيْمُ - عَلَيَّ الْعَكْسُ - بِالْقَصَصِ الَّتِي تَبْهَرُ الْأَنْفَاسَ، وَتَشِيرُ الْخُوفَ.. وَأَكْرَهُ الْأَبْطَالَ الْعَادِيِّينَ، وَالْمَشَاعِرَ الْمَعْتَدِلَةَ، عَلَيَّ نَحْوَ مَا نَرِي فِي الطَّبِيعَةِ!!



قال «ليون» :

- الواقع أنني أرى أن هذه الكتب - التي لا تمس القلب - تنحرف عن الغاية الحقيقية للفنّ. ما أعذب أن يتنقل المرء بفكره من أحزان الحياة ليجول بفكره مع شخصيات نبيلة، وعواطف خالصة، وصور للسعادة، إنني - إذ أقيم هنا بمنأى عن الدنيا - أجد في هذا ملهاتي الوحيدة.. بيد أن «أيونفيل» لا تتيح للمرء سوى موارد قليلة من هذا القبيل !

فردت «إيما» قائلة:

- إنها ولا بدّ مثل «توست»، ولذلك اشتركت في مكتبة تُعبر الكتب.

وسمع الصيدلي كلماتها الأخيرة، فقال:

- هل للسيدة أن تشرفني بالإفادة من مكتبي الخاصة.. إن لديّ - تحت تصرفها - مكتبة تضم خيرة المؤلّفين، مثل: «فولتير»⁽⁴⁷⁾، و«روسو»⁽⁴⁸⁾، و«التر سكوت»، وصحيفة «صدي البلد».. كما أنني أتلقي صحفًا كثيرة،

(47) فرانسوا ماري آروويه François-Marie Arouet، والذي يُعرف باسم «فولتير» Voltaire. ولد في 21 نوفمبر 1694، وتوفي في 30 مايو 1778. هو كاتب وفيلسوف فرنسي عاش خلال عصر التنوير. وذاع صيته بسبب سحريته الفلسفية الطريفة ودفاعه عن الحُرّيّات المدنية خاصة حُرّيّة العقيدة والمساواة وكرامة الإنسان. (المُعد).

(48) جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau. ولد في 28 يونيو 1712 بجنيف وتوفي في الثاني من يوليو 1778 هو كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات سويسري، يُعد من أهم كتّاب عصر التنوير، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة «روسو» في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. (المُعد).



بينها «منار روان» اليومية، إذ إنني مراسلها في مناطق «بوشي»، و«نيو شاتل»، و«أيونفيل» وما حولها.



ومضت عليهم وهم حول المائدة ساعتان ونصف الساعة، إذ كانت الخادمة «أرتميز» تحضر طبقًا بعد آخر في بطءٍ، وهي تجر خفيها في كسل فوق البلاط، وقد غفلت عن كُلِّ شيء، وأخذت في كُلِّ مرّةٍ تنسي إغلاق باب حجرة البلياردو، فيرتطم بالجدار.

وكان «ليون» قد وضع قدمه علي أحد قضبان مقعد مدام «بوفاري» - في أثناء الحديث - دون أن يشعر!.. وكانت «إيما» تلف حول عنقها وشاحًا حريريًا أزرق، يشدّ ياقةً مكشكشةً مُجعدة من قماش «الباتيستة». وكان الجزء الأسفل من وجهها يقوّص برفقٍ في ذلك الوشاح أو يرتفع عنه تبعًا لحركات رأسها!..

وبينما كان «شارل»، والصيدلي يثرثران، اندمج الشَّبان - اللذان تجاور مقعدهما - في أحد تلك الأحاديث المبهمة التي تقودك العبارات خلالها دائمًا إلي مركز ثابت تلتقي عنده الميول والمشاعر.. فتحدثا عن مسارح باريس، وعناوين القصص، وأنواع الرقص الحديثة، والمجتمع الذي لم يكونا يعرفانه، و«توست» التي كانت «إيما» تقيم فيها، و«أيونفيل» حيث كانا في ذلك الحين.. وتناقشا حتي نهاية العشاء في كُلِّ موضوع خطر في باليهما!

وبعد أن تناولوا القهوة، ذهبت «فيليسيته» لتعد المخدع في المنزل الجديد، وما لبث الضيوف أن نهضوا بعد قليل، فإذا مدام «لو فرانسوا» قد



أغفت علي مقربةٍ من النَّارِ المحتضرة، بينما كان السائس في انتظار السيّد «بوفاري» وزوجته، وهو يحمل مصباحًا ليرشدهما إلي منزلهما، وشرعوا في الانصراف عندما حمل بيده الأخرى مظلة القس .

كانت البلدة قد هجعت، وأعمدة السوق تلقي ظلالًا كبيرةً علي الأرض الرمادية، كما كانت تبدو في ليالي الصيف.. ولمّا كان بيت الطبيب لا يبعد عن الفندق بأكثر من خمسين خطوة، فإنَّ القوم سرعان ما تبادلوا تحية الوداع ثُمَّ تفرقوا .

وما إن ولجت «إيما» الردهة حتي أحست برطوبة الجص تهبط علي كتفيها كقطعة مبتلةٍ من قماشٍ.. وكانت الجدران جديدة وللدراجات الخشبيّة صرير.. وفي المخدع - بالطابق الأوّل - كان ثمة ضوء يميل إلي البياض، ينفذ خلال النوافذ التي تحجبها ستائر.. ولاحت لها رؤوس الأشجار ومن خلفها الحقول تكاد تتواري في أحضان الضباب الذي انتشر في ضوء القمر علي طول مجري النهر.. وفي وسط الحجرة، تناثرت في غير نظام أدراج الخزائن، والزجاجات، وقضبان الستائر، وعصي من المعدن المطلي.. وعلي المقاعد كانت ثمة حشايا، وعلي الأرض أوان وأوعية.. فقد ترك الرّجلان اللذان حملا الأثاث كلّ شيء في غير ترتيب .

تلك كانت المرّة الرّابعة التي تنام «إيما» فيها في مكانٍ لم تألفه.. كانت المرّة الأوّلي يوم التحقت بالدير، والثانية يوم انتقلت إلي «توست» بعد زفافها، والثالثة في «فويسار».. وها هي الرّابعة! وكانت كلّ مرّة بداية لمرحلة جديدة.. ولم تكن تعتقد أنّ الأمور تجري علي وتيرة واحدة في كلّ مكان.. ولمّا كان الشطر الذي عاشته من حياتها سيئًا، فقد وقر في نفسها أنّ الشطر الباقي سيكون أفضل.



الفصل الثالث



ميلاد الطفلة «بيرت»

The birth of the girl «Bert»

عندما استيقظت «إيما» في اليوم التالي، لمحت «ليون» يسير في الميدان.. وكانت في ثوب المنزل حينها، ورفع الشاب رأسه إليها محيياً، فردت بإيماءة سريعة، وأغلقت النافذة!.. وقضى «ليون» نهاره كله في ارتقَاب السَّاعة السادسة.. ولكَّته حين ولج الفندق لم يجد سوي السيّد «بينيه» يجلس إلي المائدة!

كان عشاء الليلة الماضية مناسبة مهمة في نظره، إذ لم يتح له قبل ذلك أبداً أن يقضي ساعتين متتاليتين في الحديث مع «سيّدة»، فكيف إذا وسعه أن يكلمها بمثل تلك اللغة، وعن كل تلك الأمور التي لم يكن - من قبل - يجيد التعبير عنها علي هذا النحو، وهو الذي كان في العادة خجولاً، يلتزم ذلك التحفّظ الذي يجمع بين الحياء والتكتم في آنٍ واحدٍ؟! لقد كان أهل «أيونفيل» يعتبرونه حسن التربيّة، إذ كان ينصت للكبار حين يتكلمون، ولم يكن يبدو مصاباً بالهوس السياسي، وهذه سمة مهمة بالنسبة إلي أي شاب!.. فضلاً عن أنّه كان موهوباً، يرسم بالألوان المائية، وعلي الإمام بمبادئ الموسيقى، ويستطيع الحديث في الأدب بعد العشاء، إذ لم يلعب الورق، وكان السيّد «هوميه» يحترمه لثقافته، ومدام «هوميه» تحبّه لطيبته، إذ كثيراً ما كان يصطحب أبناءهما إلي الحديقة!

وأثبت «هوميه» أنّه خير جار، إذ كان يرشد مدام «بوفاري» إلي الباعة، ويستقدم لها تاجر شراب التفاح، ويدوق بنفسه الشراب ثمّ يستوثق من



أَنَّ القوارير وضعت كما ينبغي في قبو البيت!.. كما كان يرشدها إلي طرق الحصول علي كميات من الزبد بثمن زهيد، ويتفق مع «ليستيودوا» الذي كان - إلي جانب مهامه الكنسية والجنائزية - يتعهد حدائق الدور الكبرى في «أيونفيل» مقابل أجر يحسب بالساعة أو بالعام .

ولم تكن الرغبة في مساعدة الغير هي الحافز الوحيد الذي دفع الصيدلي إلي كُلِّ هذا التوّدّد والمروءة، بل إنّه كان يخفي قصداً آخر.. إذ كان قد خرق المادة الأولى من قانون 19 «فتتوز» من العام الحادي عشر للثورة - وهي المادة التي تحظر علي كُلِّ مَنْ لا يحمل شهادة أن يزاول مهنة الطب - حتي إنّه استدعي إلي «روان» بناءً علي بلاغات قُدّمت ضده من مجهولين، فمُثل أمام وكيل النيابة في مكتبه الخاص.. وقد استقبله النائب بوشاحه واقفاً، وعلي كتفه شريط القضاء، وعلي رأسه قلنسوة. وكان ذلك في الصباح، قبل أن تفتح المحكمة أبوابها.. وكان يسمع وقع أحذية رجال الشرطة الثقيلة في الردهة، وصوتاً ينبعث عن بُعد لأقفال ضخمة تُفتح وتُغلق.. وأحس الصيدلي بطين في أذنيه كذاك الذي يسبق نزلة الشلل.. ورأي بعين الخيال أعماق الزنانات، وأسرته في دموعها، والصيدلية وقد بيعت وتناثرت زجاجاتها.. حتي لقد اضطر إلي أن يلجأ إلي مقهى تناول فيه كأساً من «الروم» ليتمالك جأشه!

غير أنَّ ذكرى هذا الإنذار ما لبثت أن أخذت في الاضمحلال، وعاد إلي ما كان يمارسه من قبل من تقديم المنشورات الطيبة لمن يطلبها في الغرفة الخلفية بالصيدلية. غير أنَّ العمدة كان يحقد عليه، وزملاؤه يغارون منه، فكان لابدّ له من أن يحسب حساباً لكلِّ شيء، ومن ثمّ رأي أن السيّد «بوفاري» سيقدر ولا ريب ما يغمره به من مجاملات، وسيحمّله الاعتراف بالجميل علي أن يمسك لسانه إذا ما لمح شيئاً!.. ومن ثمّ اعتاد أن يحمل إليه الصحيفة في كُلِّ صباح، وأن يبرح الصيدلية بعد الظهر ليقضي فترة في الحديث مع الطبيب!

وكان «شارل» مكتباً لأنَّ العملاء لم يقبلوا عليه.. وكان يجلس ساعات طويلة دون أن ينبس ببنت شفة، أو يلجأ إلي مكتبه لينام، أو يتأمل زوجته وهي مستغرقة في الحياة. ثم أخذ يعمل في البيت كالأجير ليتلهي عن أفكاره.. بل إنَّه حاول أن يطلي جدران مخزن القمح ببقية من دهان تركه النقاشون.. بيد أنَّ الشؤن المائيَّة كانت تشغل باله، فقد أنفق الكثير في الإصلاحات التي أدخلها علي داره في «توست»، وفي توفير أدوات الزينة لزوجته، وفي نقل الأثاث، حتي آخر مدخراته التي كانت تتجاوز ثلاثة آلاف فرنك، أنفقها عن آخرها.. وكم من أشياء تلفت أو ضاعت في أثناء نقلها من «توست» إلي «أيونفيل».. ناهيك بتمثال الفس الذي هوي من العربة إثر عثرة عتيقة فتحطم.



ثمَّ جاءت مهمَّة مفرحة تشغله عن أفكاره.. تلك هي: حمل زوجته..! وكان كلَّما اقترب موعد الوضع كلَّما ازداد عطفًا وحبًّا عليها.. فهذه رابطة أخري - من لحم - تُعزز صلتها وتقوي فيها أحساسًا مستمرًا بالرباط المشترك. وكان إذا رآها عن بُعد تمشي متثاقلة، وقوامها يلتف في طراوة فوق ردفها، بعد أن تحرَّز من الحزام الذي كان يشده، أطال النظر إليها.. فإذا جلسا متقابلين، راح يتأملها في تمعن وهي تتململ متقلبة ذات اليمين وذات الشمال في مقعدها، فتفيض به السَّعادة، فينهض فيقبلها، ويمسح وجهها بيده، ويناديه بالأمِّ الصَّغيرة، ويسعي لحملها علي الرِّقص، ويروي لها - بين الضَّحك والبكاء - جميع النكات اللطيفة التي تتبادر إلي ذهنه!.. كانت تطربه فكرة إنجاب طفل.. ومن ثمَّ لم يعد يعوزه شيء آخر، فقد أصبح يعرف الحياة البشرية من بدايتها إلي نهايتها، فكان يتدبرها في خاطره مطمئنًا ساكن النفس! وبدت «إيما» في دهشة بالغة - في البداية - ثمَّ أصبحت تتوق إلي أن تضع حملها لتعرف كيف تكون الأمومة!.. ولمَّا لم تكن تملك أن تنفق عن سعة لتعد للطفل مهذا متأرجحًا - علي شكل زورق - ذا ستائر من الحرير الوردي،



وطاقيات مُطرزة، فقد عدلت - والمرارة تعتصر قلبها - عن كُلِّ هذا، وعهدت إلي امرأةٍ تشتغل بالتطريز في إحدى القرى بإعداد ما يلزم، دون أن تختار بنفسها شيئاً! وهكذا لم تستمتع بهذه الاستعدادات التي تذكي الحنان في الأمهات، حتي لقد بدأ أن حُبها للصَّغير قد فتر - بعض الشيء - عما كان عليه في البداية!.. علي أنها لم تلبث أن أخذت تُفكر فيه باسترسال متواصل، إذ كان «شارل» لا يفتأ يتحدث عنه مع كُلِّ وجبة!

وتمنت أن ترزق بولدٍ قوي، أسمر، تسميه «جورج»!.. وكانت تحبذ الفكرة كما لو كان إنجاب الذكر انتقاماً مأمولاً من كُلِّ ما أصابها في الماضي من قصور واستضعاف. فالرجل حُرٌّ.. يستطيع علي الأقل أن يجتاز جميع الانفعالات، وأن يجوب الأقطار، وأن يتخطي العقاب، وأن يتذوق أبعد الملذات منالاً!.. في حين أن المرأة تتعثر دائماً في المشبطات والمحبطات.. فإذا نشطت وتذرعت بالمرونة، لا تلبث أن تجد ضعف جسدها والحياة التي فرضتها عليها الشرائع لتكون عالة علي سواها، عوامل تقعد بها.. وما أشبه عزيزمتها بنقاب قبعتها المعلق بخيط، وهو يرفرف في الهواء!



وفاجأها المخاض في نحو السَّاعة السَّادسة من صباح يوم من أيام الأحاد، والشمس تشرق.. وما لبث «شارل» أن هتف:

- إنها بنت!

فأشاحت برأسها، وراحت في شبه إغماء!

وأقبلت مدام «هومييه»، ومدام «لو فرانسوا» - صاحبة نزل الأسد الذهبي - مسرعتين لتقبلاها، فور سماعهما النباء.. أمَّا الصيدلي فقد اكتفي - كرجل مهذب، حيي! - بأن أزجي إليها بعض التهاني خلال الباب المنفرج، ثمَّ رغب في رؤية الوليدة، وأعرب عن ارتياحه إلي لحسن تكوينها!

وشغلت «إيما» كثيرًا - خلال فترة النقاهة - باختيار اسم لابتنتها.. فاتجهت في أوّل الأمر إلي الأسماء التي تنتهي بمقاطع مُعيّنة، علي الطريقة الإيطالية، مثل: «كلارا»، و«لوزا»، و«أماندا»، و«أتالا».. ومالت كثيرًا إلي اسم «جالسويند».. وكانت أكثر ميلًا إلي «إزولته»، أو «ليوكادي»، ورغب «شارل» في أن تحمل الطفلة اسم أمّه، ولكن «إيما» عارضته.. ثمّ راحا يستعرضان كلّ ما ضمنه التقويم من أسماء القديسات، وأخذا يستشيران الأصدقاء والأغراب. فقال الصيدلي:

- كنت أحدث منذ أيام مع السيّد «ليون» فأبدي عجبه لأنكم لا تختارون اسم «مادلين» الذي يقبل الجميع عليه في هذه الفترة!

ولكن مدام «بوفاري» الأمّ، عارضت بصوت مرتفع هذا الاسم الذي كانت تحمله إحدى الخاططات!.. أمّا السيّد «هوميه» فكان يفضل الأسماء التي تبعث إلي الذهن ذكري عظيمة، أو واقعة بهيجة، أو فكرة كريمة.. وعلي هذا النحو سمي أبناء الأربعة، فكان «نابليون» يمثل المجد، و«فرانكلين» رمزًا للحرّيّة، وربما كان اسم «إرما» مظهرًا لتأثره بالخيال القصّصي العاطفي.. أمّا اسم «أتالي» فكان تحية لأعظم تحفة شهدتها المسارح الفرنسيّة!

وتذكّرت «إيما» أخيرًا أنّها سمعت المركيزة في قصر «فويسار» تُنادي شابة باسم «بيرت».. ومنذ تلك اللحظة وقع الاختيار علي هذا الاسم!.. ولمّا لم يستطع السيّد «روو» الحضور، فقد سئِل السيّد «هوميه» أن يكون إشبينًا للطفلة.. وكانت كلّ هداياه من المنتجات التي تحويها صيدليته: ست علب من ثمار العناب المحفوظة، وقنينة مملوءة بأكسير مقوٍّ، وثلاث أنابيب من معجون الشيخ، فضلًا عن ست أصابع من سكر ألنبات عثر عليها في أحد الصوانان. وفي أمسية الاحتفال، أقيمت مأدبة عشاء كبيرة حضرها القس، وتخلّلها هرج ومرج.. وعندما حان موعد الشراب، غني السيّد «ليون» إحدى أغاني الجندول، وغنّت مدام «بوفاري» الكبيرة - وكانت إشبينة الطفلة - إحدى أغاني العصر الإمبراطوري العاطفيّة!.. وأخيرًا أصرمسيو «بوفاري»

- الكبير- علي إحصار الوليدة، وشرع يعمدها بأن سكب علي رأسها كوبًا من الشمبانيا.. وأثارت هذه السخرية من أقدس الشعائر الدينية غضب الأب «بورنيزيان»، فرد عليه «بوفاري» الشيخ بفقرة من كتاب: «حرب الآلهة»!.. وهم القس بالخروج فنضرت إليه النسوة، وتدخل السيّد «هوميه»، حتي أفلحوا في حمل القس علي الجلوس، ومن ثمّ عاد يستأنف احتساء ما تبقي في قذح القهوة بهدوء!

وبقي مسيو «بوفاري» الكبير شهرًا في «أيونفيل» بهر خلاله أهلها بخوذة فخمة من خوذات الشرطة، يتدلي منها زر فضي، كان يرتديها في الصباح وهو يدخن غليونيه في الميدان!.. ولمّا كان من عادته الإفراط في الشراب، فكثيرًا ما كان يوفد الخادمة إلي فندق «الأسد الذهبي» لتوافيه بزجاجة علي حساب ابنه. واستنفد - ليعطر مناديله - كلّ ما كان لدي زوجة ابنه من ماء الكولونيا، بيد أنّ هذه الأخيرة لم تكن تضيق بصحبته إطلاقًا، إذ كان قد جاب الأقطار، فكان يُحدثها عن «برلين»، و«فيينا»، و«ستراسبورغ»⁽⁴⁹⁾، وعن أيام الجندية، وعن العشيقات اللاتي أحبينه، والولائم الحافلة التي أقامها!.. ثمّ إنّّه كان لطيفًا.. بل لقد كان في بعض الأحيان يطوق خصرها بذراعه - علي السّلّم أو في الحديقة - ويصيح:

- «شارل».. احترس لنفسك!

إذ ذاك خشيت السيّد «بوفاري» - الأمّ - علي سعادة ابنها، وخافت أن ينتهي زوجها مع مرور الوقت إلي أن يترك أثرًا غير خلقي في ما للمرأة من آراء وأفكار، فعملت علي التعجيل بالرحيل.. ولعلّها كانت تكتم أسبابًا أخطر من ذلك لقلقها، إذ إنّ السيّد «بوفاري» لم يكن بالرجل الذي يحترم شيئًا!!

(49) ستراسبورغ Strasbourg، هي مدينة شرقي فرنسا. وهي مقر البرلمان الأوروبي والعديد من المؤسسات التابعة للمفوضية الأوروبية. يعتبر وسط المدينة القديم من المواقع التاريخية المحمية من قبل اليونسكو منذ عام 1988. (المعد).



رغبة مستحيلة!!

An impossible desire

وأحسّت «إيما» يومًا برغبة مفاجئة في أن تري ابنتها - التي كانت قد أسلمت لزوج النجار لتعني بها وترضعها - ودون أن ترجع للتقويم لتبين ما إذا كانت أسابيع العذراء الستة قد انقضت - انطلقت إلي بيت «روليه» - النجار - في الطرف الأقصى من القرية، بين الطريق الرئيسة والحقول.. وكان الوقت ظهرًا، وقد أوصدت أبواب الدور ونوافذها، وتألفت السقوف الإردوازية تحت ضوء السماء الباهر حتي كادت تقدح شررًا من أبراجها.. وكانت الرياح تهب بشدة، وما لبثت «إيما» أن شعرت خلال سيرها بوهن، وأخذت أحجار الأرصفة تؤلم قدميها.. وتردّدت بين أن تعود إلي البيت ثانية، أو أن تلوذ بأي مكان.. وفي هذه اللحظة برز السيّد «ليون» من منزل مجاور، وقد تأبط حزمة من الورق، فقام بتحيتها، وهو يقف تحت المظلة الرمادية الممتدة أمام حانوت «روليه».

أعلمته مدام «بوفاري» أنّها في طريقها لرؤية ابنتها، بيد أنّ الثّعب أخذ يشتدّ بها، فقال: «ليون»:

- هل لك...

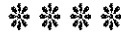
ثمّ أمسك لا يجرؤ علي أن يتم عبارته، فسأله:



- هل لديك أي عمل يشغلك الآن؟

..ولمّا أجابها بالنفي، رجته أن يصحبها..

فلم يحن المساء حتي كانت «أيونفيل» بأسرها قد عرفت النبأ. وصرحت مدام «توفاش» - زوجة العمدة - أمام خادمتها بأنّ مدام «بوفاري» أوقعت نفسها في ورطة!!



كان لا بدّ لـ «إيما» كي تصل إلي بيت المرضعة، من أن تعرج إلي اليسار بعد نهاية الشارع وكأنّها تسعي إلي المقابر، ثمّ تسلك - بين الدور والأفنية - طريقاً ضيقاً محفوفةً بأشجار اللبخ⁽⁵⁰⁾ والفيرونكا والنسرين⁽⁵¹⁾. وخلال ثغرات في الأسيجة، كانت الأبقار تلوح في الخرائب وهي تحك قرونها في جذوع الأشجار.. وسارا في هوادة، جنباً إلي جنب، وقد استندت «إيما» إلي

(50) شجرة «اللبخ»، أو «ذقن الباشا»، هي شجرة ضخمة ترتفع حتى 15 متراً، تزهري في الصيف، ولزهورها رائحة جميلة، وللشجرة استعمالات طبية كمضاد للحساسية وهذا ما يجعلها محببة. والشجرة تتحمل الحر والبرد، غير مستهلكة للمياه، صالحة في الشوارع والحدائق العامة، وليس منها ضرر على البنى التحتية للمنازل مع مراعاة حجمها الضخم. (المعد).

(51) النسرين، كلمة فارسية تعني «الزهرة البيضاء»، وزهرة النسرين لها رائحة عطرة ذكية، وهي زهرة ناصعة البياض أحياناً ومتوردة الوجدات أحياناً أخرى. وتعتبر سوريا موطناً قديماً لشجيرات النسرين حيث عرف بفوائده الطبية والغذائية والعطرية منذ مئات السنين، ومن دمشق انتقلت زهرة النسرين إلى بلاد الأندلس في إسبانيا إبان الحكم الأموي حيث زينت شجيرات النسرين شوارع ومنازل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة لتنتشر منها إلى جنوب أوروبا. ومن ثمّ إلى المغرب العربي. (المعد).



زميلها الذي كان يضيق من خطاه كي تلاءم خطاها!.. وكان يحوم أمامها
سرب من الذباب يطن في الهواء الدفيء ..

وتعرِّفاً علي المنزل بفضل شجرة بندق قديمة كانت تظله، وكان بيتاً
منخفضاً، مُغطّي بقرميد بني اللون، وعلي صوت صرير باب السياج خرجت
المرضعة علي ذراعها طفلاً يرضع، وتسحب باليد الأخرى طفلاً هزياً
مسكيناً كست وجهه البثور، وكان ابن صانع قبعات في «روان»، تركه أبواه
في الريف لفرط انصرافهما إلي تجارتهما. وقالت المرضعة:

.. تفضلي.. إن طفلكِ نائمة هناك!

كانت الغرفة، في الطابق الأرضي، هي الغرفة الوحيدة بالمسكن، وقد
أقيم لصق الجدار.. في أقصاها.. سرير واسع دون ستائر، بينما شغل حوض
العجين الجدار الذي تخللته النافذة، وقد الصق في مكان الزجاج المكسور
فيها ورق أزرق.. وفي الركن القائم خلف الباب رصت أحذية ذات مسامير
لامعة، تحت حافة المغسل، بجوار زجاجة دست في فوهتها ريشة. وكانت
طفلة «إيما» ترقد في سرير من الغاب، فحملتها في الغطاء الذي كان يلفها
وأخذت تغني لها برفق وهي تهزها.. ومضي «ليون» يذرع الغرفة، وقد بدا له
من الغريب أن يري سيّدة جميلة في ثوبٍ أنيق وسط كل هذا البؤس والفاقة..
وتضرّجت وجنتا مدام «بوفاري» فأشاح ببصره إذ خطر له أنَّ نظرة فضولية
بدت في عينيه.. وما لبثت الأم أن ردت الطفلة إلي مهدها بعد أن تقيأت علي
صدر مريلتها، فأقبلت المرضعة لمسح القيء فوراً، مؤكّدة أنّه لن يخلف
أثراً.. وقالت:



- كم من أفعال لها تشغلني، فإنني أحرص علي تنظيفها باستمرار، ولو أنك تفضلت فأمرت «كاميس» البقال بأن يعطيني بعض الصابون، لكان هذا أدعي لراحتك، لأنني لن أضطر إلي إزعاجك مرةً أخرى!

فقالت «إيما»: .

- حسناً.. ليكن!.. طاب يومك يا سيّدة «روليه».

وخرجت وهي تمسح نعلها عند العتبة.. وتبعها المرضعة حتي نهاية الحديقة، وهي تحدثها طيلة الوقت عن العناء الذي تلاقيه طيلة الليل، قائلةً:

- إنّ الضنى يبلغ بي أحياناً أن أستغرق في النعاس وأنا جالسة في مقعدي، وأعتقد أنّه يخلق بك أن تمنحني رطلاً علي الأقلّ من البن المجروش، يكفيني شهراً، لأنناول منه قدحاً مع الحليب في كلّ صباح .

وانصرفت مدام «بوفاري» بعد أن استمعت مكرهة لعبارات الشكر. علي أنّها لم تكذب بعد بضع خطوات حتي انتهت إلي وقع حذاءين خشبيين.. وإذا بالمرضعة، فسألتها:

- ماذا هناك؟

..وإذ ذاك انتحت بها الفلاحة جانباً خلف إحدى أشجار الدردار، وراحت تحدثها عن زوجها الذي أوتي حرفة، لا تدر عليه غير النزر الضئيل.. وقاطعتها «إيما» قائلةً:

- أسرع!

فاستأنفت وهي تتهد بين كلّ كلمة وأخري:

- آه.. أخشي أن يغتم إذا رآني أتناول القهوة وحدي.. فأنتِ تعرفين
الرجال..

قالت «إيما» :

- لسوف تحصلين علي البن.. سأعطيك إياه.. إنك تضايقيني!
- أواه يا سيّدتى العزيزة المسكينة!.. إنّه يُعاني - بسبب جراحة - من
انقباضات مزعجة في الصدر.. ويقول إنّ شراب التفاح يضعفه!
- عجلي أيها الأمّ «روليه»!
فاستطردت المرضعة وهي تنحني احترامًا :
- إذا، فإذا لم أكن قد تماديت..
وانحنت مرّة أخرى..
- فلو تكرمت..

..وبدت في عينيها ضراعة، ثمّ أفضت بغايتهما أخيرًا:
- ..بقنينة براندي! ولسوف أدلك منها قدمي طفلتك، فهما رقيقتان
كاللسان!!



وما إن تخلصت «إيما» من المرضعة، حتي أمسكت بذراع «ليون»
وسارت مسرعة بعض الوقت، ثمّ تباطأت.. وفيما كانت تتطلع إلي الأمام
وقع بصرها علي كتف الشاب الذي كانت لسترته ياقة من المخمل الأسود،



يتدلي فوقها شعره الكستنائي الذي نسق في عناية، ولا حظت أنَّ أظافره كانت أطول ممَّا اعتاد النَّاس في «أيونفيل» أن يتركوا عليه أظفارهم!.. وكانت العناية بها من المهام الرئيسة التي تشغله.. ومن ثمَّ كان يحتفظ في درج مكتبه بمطواة خاصَّة لذلك!

وعادا إلي «أيونفيل» سائرين بمحاذاة مجري الماء.. فلم تسمع الشَّابة وزميلها أي صوت وهما يسيران، اللّهم إلَّا وقع خطواتهما علي أرض الطريق، والكلمات التي كانا ينطقان بها، وحفيف ثوب «إيما».. وكانت أسوار الحدائق - التي بدت من فوقها قطع الزجاج - ساخنة كزجاج نوافذ بيوت تربية النباتات الحارة، وقد نبتت الزهور البرية بين أحجارها، فكانت مدام «بوفاري» تمس بعض هذه الزهور الجافة بحافة مظلتها المفتوحة، وهي تمرُّ بها، فتساقط ترابًا أصفر.. كما كان يشتبك بحافة المظلة أحيانًا غصن اللبلاب المتدلي، ويتأرجح فوق حريرها لحظة..

كانا يتحدثان عن فرقة من الرَّاقصين الأسبان مرتقبة الوصول إلي مسرح «روان»، فسألته:

- هل ستذهب لرؤيتها؟

فأجاب:

- إذا استطعت!

هل لم يكن لديهما ما يُقال غير هذا؟!.. كانت عيونهما مفعمة بحديث أكثر جدية.. وكانا، إذ يجهدان أنفسهما في البحث عن عبارات تافهة، يحسان بنوع واحدٍ من الخدر يسري فيهما.. ذاك كان همس الروح.. همسٌ عميقٌ،

مستمراً، يطغى علي صوتيهما!.. وأخذهما العجب لهذه العذوبة الطارئة، فلم يخطر ببالهما أن يتكلما عن هذا الإحساس أو أن يبحثان عن سببه.. فإنَّ المسرات في إقبالها تلقي - كالشواطئ الاستوائية - علي الفضاء الشاسع رخاوتها الفطرية، وتبعث في الجوّ نسيماً عليلاً.. فإذا هذه النشوة تسلمنا إلي إغفاء عذب يصرفنا عن التفكير في الأفق الذي نجهله!

وعندما بلغا حديقة دارها، دفعت مدام «بوفاري» الباب، وطوت السلالم عدواً، واختفت.. فعاد «ليون» إلي مكتبه - وكان رئيسه غائباً - فألقي علي الملفات نظرة، وشحذ لنفسه قلماً، ثُمَّ تناول قبعته أخيراً وانصرف متجهاً إلي المرح بأعلى هضبة «أرجي» - عند مدخل الغابة - حيث استلقي علي الأرض تحت أشجار الصنوبر، وأخذ يتطلع إلي السماء من خلال أصابعه، مُحدثاً نفسه: «ما أشد ضجري»!!

كان يحس كأنه خليق بالثناء لإقامته في هذه القرية، حيث لا صديق سوي «هوميه».. ومع السَّيّد «جويومان» رئيسه!.. وكان الأخير، بمنظاره ذي الإطار الذهبي ولحيته الحمراء وربطة عنقه البيضاء، ينكب علي عمله، ولا يفقه شيئاً من المتع الفكرية، وإن اتخذ لنفسه مظهرًا إنجليزياً صارماً بهر الكاتب في الأيام الأوّلي!

أمّا زوجة الصيدلي، فكانت خير زوجة في «نورمانديا».. ودیعة كالحمل، تُحبّ أولادها وأباها وأُمّها وبني عمومتها، وتبكي لأحزان الآخرين، مهملة في الوقت نفسه كُلّ شؤون دارها!.. وكانت تكره المشادات، غير أنَّها كانت بطيئة الحركة، مملة الحديث، مبتدئة



لة المظهر، ضيقة الأفق، حتي ما كان أحد ليتصور أنها تصلح زوجة لغير الصيدلي، أو أنها أوتيت شيئًا من خصائص جنسها فيما عدا الثوب!.. وكانت هي في الثلاثين بينما كان هو - أي «ليون» - في العشرين، وكان مخدعه ملاصقًا لمخدعها، ومن ثمَّ كان يخاطبها يوميًا! ثمَّ.. ماذا كان هناك غير ذلك!.. «بينه»، وبعض أصحاب الحوانيت، واثنان أو ثلاثة من أصحاب الحانات، والقس، وأخيرًا مسيو «نوفاش»، العمدة وأولاده: وكلُّهم ثراه، متغطرسون، أغبياء، يزرعون الأرض بأنفسهم، ويستأثرون بالولائم فيما بينهم، متمتون، لا تُطاق صحبتهم!

ولكن.. ماذا عن «إيما»؟.. لقد كانت تقف بمعزل عن كُلِّ الإطار العام الذي يضم هذه الوجوه البشرية.. وبعيدًا عنه هو الآخر، إذ كان يري بينه وبينها هوة غامضة!.. كان قد زارها مع الصيدلي عدة مرَّات في البداية، فلم يبد «شارل» ميلًا واضحًا أن يراه مرَّةً أخرى، فلم يدر «ليون» ماذا يفعل، إذ حار بين الخوف من أن يبدو متطفلًا والرَّغبة في ألفة جميلة تكاد تبدو مستحيلة!





الفصل الخامس



عاصفة الحب التي تجرف القلب

A love storm that sweeps the heart

عندما بدأ الشتاء نقلت «إيما» مخدعها إلي حجرة الجلوس.. وكانت قاعة طويلة، منخفضة السقف.. استقرت علي رف مدفاتها - أمام المرأة - حزمة كثيفة من المرجان. وكانت تجلس في مقعدها الوثير بجوار النافذة، حيث تشهد أهل القرية وهم يمرون علي الرصيف.

وكان «ليون» يسعى بين مكتبه وفندق «الأسد الذهبي» مرتين في اليوم، فكانت «إيما» إذا سمعته عن بُعد انحنى لتصيح السمع، بينما يمر الشاب دون أن يلتفت، فتراه من خلف الستائر في المظهر والملبس نفسه دائماً. ولكنها عندما كانت تترك قطعة القماش التي تطرزها علي ركبتيها، وتستند بذقنها إلي يدها اليسرى - عند الغروب - كانت تسري في جسدها رجفة لظهور هذا الشبح ومروره بالبيت!.. وكانت لا تلبث أن تنهض، وتأمرياً عداد المائدة.

وكان السَّيِّد «هوميه» يصل في أثناء العشاء، وطاقيته الإفريقية في يده، فيدخل بخطي مكتومة الوقع كي لا يزعج أحداً، وهو يُردّد العبارة نفسها دائماً:

- مساء الخير أيها الزملاء!



.. فإذا اتخذ مجلسه إلي مائدة الزوجين، سأل الطبيب عن أبناء المرضى، فيستشيرهم هذا فيما يُقدّر من أتعاب، ثمّ يخوضان في الحديث عمّا جاء بالصحيفة التي يكون «هوميه» قد استظهر كلّ ما فيها تقريبًا!.. فكان يرويه، مع التعليقات، كما كان يروي جميع النكات الفردية التي وقعت في فرنسا أو في الخارج، ولم يكن يتوانى - إذا ما نضب موضوع الحديث - علي أن يلقي بعض الملاحظات عن أصناف الطعام التي يراها!.. بل إنّه كان ينهض أحيانًا عن مقعده ليرشد السيّد إلي أطري قطع اللحم، أو يتحوّل إلي الخادمة يوجه إليها إرشادات في معالجة اللحوم، والقواعد الصحيّة لاستخدام التوابل.. ويتكلّم عن البهار، وأنواع العصير والهلام (الجيلاتين).. علي نحوٍ مدهش!.. ولمّا كان رأس «هوميه» يحفل بتركيّات تفوق في الكثرة ما ترخر به صيدليته من قوارير، فإنّه كان يحذق صنع جميع أنواع المشروبات الروحية الخفيفة، كما كان مُدبّرًا بجميع المخترعات الحديثة المتعلقة بأدوات الطهو الاقتصاديّة، فضلًا عن أصول صيانة الجبن

وكان «جوستان» يأتي في السّاعة الثامنة يستدعيه لإغلاق الصيدلية، فيرمقه السيّد «هوميه» بنظرة خبيثة، ولا سيما إذا كانت «فيليسيتيه» واقفة، إذ كان قد فطن إلي أنّ مساعده يميل إلي التردّد علي بيت الطبيب!.. وكان يقول: - إنَّ هذا «الفحل» بدأ يُفكّر.. وليأخذني الشيطان إذا كنت مخطئًا في ظني أنّه يُحبّ خادمتهما!

بيد أنّ أدهي عيب كان يؤاخذ «جوستان» عليه، هو أنّه كان ينصت دومًا إلي الحديث، فلم يكن من السهل إبعاده عن «الصالون» في يوم الأحد مثلاً، عندما تناديه مدام «هوميه» لينقل الأطفال الذين ناموا في مقاعدهم، وأخذوا

يسحبون بظهورهم مفارشها عنها!.. ولم يكن يحضر سهرات الصيدلي أناس كثيرون، إذ نجح ميله للخوض في الفضائح والآراء السياسية في تنفير مختلف الأشخاص المحترمين منه. علي أنَّ الكاتب لم يتخلف قط عن سهراته، وكان إذا سمع جرس الباب بادر مسرعًا إلي استقبال مدام «بوفاري» فيأخذ عنها شالها، ويضع تحت منضدة الصيدلي الخفين السميكين المزدانين بالشرائط، اللذين كانت ترتديهما فوق حذاءها إذا كان الجليد يملأ الشوارع.

وكانوا يلعبون أحيانًا من لعبة الورق المعروفة برقم 31، ثمَّ ينفرد السيّد «هوميه» باللّعب مع «إيما»، و«ليون» من خلفها يُقدِّم لها النصائح، وقد وقف معتمدًا بيديه علي ظهر مقعدها، مُحدِّقًا في أسنان المشط التي تعض عقصه أو ضفيرة شعرها، وكان الجانب الأيمن من ثوبها يرتفع مع كُلِّ حركة تقوم بها لإلقاء الورق، وينبعث من شعرها لون أسود ينساب علي ظهرها، ويأخذ في الشحوب تدريجيًا، حتي يتلاشي في الظلال.. ثمَّ يتهدل ثوبها علي جانبي المقعد، متفخًا، مليئًا بالثنايا، وينساب حتي يبلغ الأرض.. فإذا أحس «ليون» بأنَّ نعله وقع علي طرف منه، ارتد مجفلًا وكأنَّما داس شخصًا!

وعندما كان ينتهي لعب الورق، كان الصيدلي والطبيب يلعبان «الدومينو» فتنتقل «إيما» إلي مقعد آخر لتكئ علي المائدة وتقلب صفحات مجلة «الألستراسيون».. كما كانت تحضر معها مجلتها النسوية، فيجلس «ليون» يتأمل الصور إلي جانبها، ويترث أحدهما عند نهاية كُلِّ صفحة ريشما بفرغ منها الآخر، وكثيرًا ما كانت ترجوه أن ينشدها شعرًا، فكان «ليون» يفعل



بصوتٍ متراخٍ كان يعني بخفضه عند العبارات الغرامية، لتطغي عليه جلبة «الدومينو»!..

وكان السيّد «هوميه» بارعًا في هذه اللعبة، إلي حدّ أنّه كان يفوز علي «شارل» بدورين، حتي إذا فرغا من الدور الثالث اضطجعا معًا أمام المدفأة، فلا يلثان أن يغفوا!.. وتموت النَّار.. واخلوا إبريق الشاي.. و«ليون» ماضي في القراءة، و«إيما» تنصت إليه، وهي تعبت بمظلة المصباح في حركة آليّة، وتُحدّق في الرسوم المنقوشة عليها: من عصافير في عرباتٍ، إلي راقصين علي الحبال ممسكين بالعصي التي يحفظون بها توازنهم.. وكان «ليون» لا يلبث أن يمسك أو يتوقف عن القراءة ليشير بإيماءٍ إلي النائمين.. وإذ ذاك يشرعان في الحديث بخفوتٍ، فكان هذا الحديث يبدو لهما أعذب من أي حديث، لأنّ أحدهما لم يكن يسمعه!

وهكذا توثقت بينهما عري صداقة من نوع خاص، وأخذ يتبادلان الكتب والروايات، ولم يكن السيّد «بوفاري» ليشغل باله بهذا.. فقد كان قليل الانسياق للغيرة!

وتلقى «شارل» في عيد ميلاده صورة لرأسٍ رُسم باللون الأزرق، لبيان الجهاز العصبي، وقد انتشرت عليه الأرقام والبيانات حتي القفص الصدري!.. تلك كانت هدية من الكاتب الذي أخذ يُقدّم الكثير غيرها من الهدايا والخدمات، حتي لقد كان يقضي للطبيب جميع حوائجه في «روان».. وكان أحد الروائيين قد أورد في كتابٍ له فصلًا عن نبات «الصبار» جعله بدعة لقيت رواجًا، فابتاع «ليون» بعض نباتات منه لمدام «بوفاري»، وقد أدمى بعض أشواكها أصابعه، إذ حملها في «العصفورة» علي ركبتيه!..

وأقامت السيِّدة خارج نافذتها قاعدة من الخشب وضعت عليها الأصوص.. ولمَّا كانت للكاتب حديقة صغيرة معلقة، فقد أخذ كُلُّ منهما يشاهد الآخر وهو يعني بأزهاره عند النافذة!

ومن بين نوافذ القرية، كانت ثَمَّة نافذة ينبعث منها أكبر قدر من النشاط.. فطيلة أيام الأحاد - نهارها ومساوُها - وبعد ظهر كُلِّ يوم، حين يصحو الجو، كان المرء يري خلال كوة مخزن الغلال منظرًا جانبيًا لوجه «بينه» وقد انحنى علي محرطته فانبعث طينها الرتيب حتي صار يسمع في فندق «الأسد الذهبي» .

وولج «ليون» غرفته ذات يوم، فألقى فيها سجادة من المخمل والصوف، نقشت عليها فنون ورسوم علي قاعدةٍ شاحبةٍ، فاستدعي مدام «هوميه»، والسيِّد «هوميه»، و«جوستان»، والأطفال، والطباخة ليشاهدوها!.. وتحَدَّث إلي رئيسه عنها.. ورغب الجميع في أن يروا هذه السجادة، وهم يسألون أنفسهم: تري لماذا تُقدِّم زوجة الطبيب للكاتب هدايا؟.. إنَّه لأمر جد عجيب!.. ووقر في نفوسهم أنَّها لابدَّ حبيبته، ولا سيما أنَّه كان في مسلكه ما يُبرِّر هذا الظن، إذ كان دائم الحديث عن سحرها وذكائها، حتي لقد رد عليه «بينه» مرَّة في عنفٍ قاسٍ:

- وماذا يعنيني من أمرها وأنا لستُ من أصدقائها؟!

وأخذ «ليون» يجهد ذهنه بحثًا عن وسيلة يعلن حُبَّه لها.. فقد كان يتردَّد بين الخوف من أن يُثير استياءها وبين الخجل من جبنه!.. كان يبكي من الرُّغبة وعدم الجرأة، ثُمَّ لا يلبث أن يستجمع عزمته ويعمد إلي كتابة خطابات يُمزقها بعد أن ينتهي منها، ويرجئ الأمر إلي أوقاتٍ أُخري، ثُمَّ يعود

فيرجئه من جديد!.. وكثيرًا ما كان يهَمُّ بمواجهة الأمر في عزم، فلا تكاد
تحضر «إيما» حتي يتبدّد هذا العزم!.. وكان إذا دعاه «شارل» إلي مرافقته
في عربته لعيادة مريض في قرية مجاورة لبي الدعوة فورًا فيحيي السيِّدة
وينصرف.. ولم لا، أليس زوجها جزءًا منها؟

أمّا «إيما» فلم تسأل نفسها قط عمّا إذا كانت تُحِبُّه، فهي تعتقد أنّ الحُبَّ
يفد فجأةً مصحوبًا برعدٍ وبرقٍ، كما لو كان عاصفة تنقض من السماء علي
الأرض، فتقلب كيائها، وتنتزع الإرادة انتزاعها لأوراق الشجر، وتجرف
القلب!.. ولم تظن إلي أنّ المطر يحيل الشرفات بحيرات إذا كانت مصارف
المياه مغلقة.. وهكذا ظلت مطمئنة، حتي اكتشفت فجأةً صدعًا في الجدار..
جدار قلبها انصدع فوق!!





وقد بدا لها فتناء!!

She seemed to have missed us

وحدث في أصيل يوم أحد من شهر فبراير (شباط)، والجليد يتساقط.. وهم جميعاً - السَّيِّد «بوفاري» وزوجته، و «هوميه»، والسَّيِّد «ليون» - علي بعد نصف فرسخ من «أيونفيل»، أن خرجوا في رحلة لمشاهدة مصنع لغزل الكتان كان العمل جارياً لإقامته في الوادي.. وكان الصيدلي قد اصطحب معه ولديه: «نابليون»، و«أتالي» للرياضة، كما رافقهم «جوستان» حاملاً المظلات علي كتفه .

غير أنهم لم يجدوا فيما ذهبوا لرؤيته شيئاً يُثير الفضول.. مساحة أرض واسعة، خالية، تناثرت في أرجائها بين أكداس الرمل والحصى المُلقاة في غير انتظام، بضع عجلات ذات تروس يعلوها الصدا، ووسط هذه الأرض أُقيم مبني مستطيل، يتخلل جدرانه عدد من النوافذ الصَّغيرة.. ولم يكن البناء قد اكتمل، فكانت السماء تُري خلال هيكل السقف الذي علقت بإحدى كتله الخشبيَّة حزمة من سنابل القمح والقش راحت ترفرف في الهواء بألوانها الثلاثة.. وانطلق «هوميه» يشرح للجماعة ما سوف يكون لهذه المؤسَّسة من أهمية، وما ستكون عليه أرضها الخشبيَّة من متانة، وجدرانها من سمك..



وأبدي أسفه إذ لم يملك عصًا للقياس كتلك التي كان السيّد «بنيه» يقتنيها
لمآرب أو لأغراض أخرى!

كان يتأبط ذراع «إيما» التي راحت تميل معتمدة علي كتفه بعض الشيء،
لتتطلّع إلي الشمس التي كان قرصها يُرسل من بعدد.. خلال الضباب.. ضوءاً
أخذ يسطع في شحوب.. وحانت منها التفاتة، فرأت «شارل» قد ضغط
قلنسوته حتي حاجبيه، وراحت شفتاه الغليظتان ترتجفان، ما أضفي علي
وجهه مزيداً من الغباء!.. حتي ظهره.. ظهره الساكن.. كان يثير الاشمئزاز،
وكأنما انشرت علي سترته مظاهر تفاهة شخصيته!!

وفيما كانت تتأمل زوجها، مستشعرةً في اشمئزازها لوئاً من المتعة
الشاذة، اقترب «ليون» خطوة، وقد لاح أنّ البرد الذي أصابه بالشحوب قد
أسبغ علي وجهه استرخاء زاده بهاء.. وكانت ياقة القميص واسعة بعض
الشيء، تكشف.. بين الرقبة ورباطها.. عن بشرته.. وبرز طرف أذنه من خلال
خصلة من الشعر.. وخيّل لـ «إيما» أنّ عينيه الواسعتين الزرقاوين - اللتين
تتطلعان إلي السحب - أكثر صفاءً وجمالاً من البحيرات الجبلية التي ينعكس
لون السماء علي مياهها!

وهتف الصيدلي فجأة:

- يا للشقي!

.. ثمّ عدا مسرعاً نحو ابنه الذي قفز إلي كومةٍ من الجير ليطلّي حذاءيه
بلونٍ أبيض.. وراح «نابليون» يصرخ إذ انهال عليه توينخ أبيه، بينما أسرع
«جوستان» ينظف له حذاءيه بحزمةٍ من القش، بيد أنّه احتاج إلي سكين،
فقدّم إليه «شارل» واحدة.. وعندئذ حدثت «إيما» نفسها قائلة: «آه!.. إنّهُ
يحمل سكيناً في جيبه كالفلاحين»!

وتساقط الثلج، فعادوا إلي «أيونفيل» .. ولم تذهب مدام «بوفاري» لزيارة جيرانها في ذلك المساء .. ولمّا غادرها «شارل» وخلت إلي نفسها، عادت إليها المفارقة بوضوح الإحساس المباشر الذي يكاد يكون واقعاً، وبالعُمق الذي تخلعه الذاكرة علي الأشياء! .. وتمثّل لعينيها - وهي تتأمل من سريرها النّار وهي تستعر صافية في المدفأة - المنظر الذي رآته هناك، وكأنّه لا يزال أمام عينيها: «ليون» وقد وقف يشني عصاه بإحدى يديه، ويمسك «أتالي» باليد الأخرى، وهي تستحلب في هدوءٍ قطعة من الثلج .. وبدأ لها فاتناً! .. ولمّا لم تستطع أن تتزع نفسها عنه، وجّرس صوته، وكُل كيانه .. ومضت تُردّد وهي تمط شفيتها كأنّها تُقبّل أحداً: «أجل .. فاتن .. فاتن! ألا تراه قد أحب؟ .. ومنّ عساه أحب؟ .. أنا؟»!

وأخذت الأدلة تتوضّح أمامها، فقفز قلبها .. وألقي وهج النّار علي السقف ضوءاً راح يتراقص في مرج، وانقلبت علي ظهرها باسطة ذراعيها .. وإذ ذاك بدا الرّثاء الأبدي: «أواه .. ليت السماء تدفعه إلي حبي .. ولم لا؟ .. ما الذي يحول دون ذلك؟»!

وبدت - حين عاد «شارل» في منتصف اللّيل - وكأنّها استيقظت لتوها .. وشكت من صداع، إذ أخذ يخلع ثيابه في جلبة، ثمّ سألته عرضاً عمّا حدث في السهرة، فقال:

- لقد غادرنا السيّد «ليون» مبكراً وأوي إلي غرفته!

ولم تتمالك أن ابتسمت، ونامت، مفعمةً بلون من الغبطة جديد طراً عليها!





الفصل السابع



هل كانت امرأة فاضلة حقاً؟

She was a truly virtuous woman ?

زارها السيّد «لوريه» تاجر الأقمشة عند غروب شمس اليوم التّالي، وكان بائعاً ماهراً، جمع بين لباقة أهل الجنوب وبين دهاء أهل «كو». وبعد أن ترك لدي الباب قبعته المَحلاة بالديباج، ووضع علي المائدة صندوقاً اخضر من الورق المقوي، شرع يشكو للسيّدة - في أدب جم - من أنّه لم يحظ بعد بثقتها، قائلاً إنّ من الصحيح أنّ حانوته الفقير لم يكن أهلاً لأن يجتذب «سيّدة أنيقة» - وضغط علي هاتين الكلمتين - مثلها ومع ذلك فليس لها سوي أن تأمر وهو يعد بأن يوافيها بأي شيء تبغيه من الخردوات، أو الثياب الداخليّة، أو القبعات، أو الكماليات، لأنّه يتردّد علي المدينة بانتظام أربع مرّات في الشهر، ويتعامل مع خير متاجرها .. وتستطيع أن تسأل عنه في المتاجر المعروفة فإنّ أصحابها جميعاً يعرفونه معرفتهم لمّا في جيبهم! ومن ثمّ فهو قد جاء اليوم يعرض علي السيّدة - إذ مرّ بدارها - بضع سلع قدر له أن يحصل عليها بمحض المصادفة النادرة.

ثمّ أخرج من الصندوق ست ياقات مطرزة، فحصبتهام مدام «بوفاري»، ثمّ قالت:

- لستُ في حاجةٍ إلي شيء!

..وعندها عرض في رفقي ثلاثة من شالات الجزائر، وعدة مجموعات من الإبر الإنجليزيّة، وزوجاً من النعال القش، وأخيراً، أربع كؤوس للبيض

صُنعت من لحاء جوز الهند وقد زانها نزلاء السجون بنقوشٍ محفورةٍ،
مفرغة. ثُمَّ استند علي المائدة بيديه وأشرأب بعنقه، وراح يرقب «إيما» - التي
كانت تجول بين سلعه مُترددة - وقد انحني إلي الأمام وفغر فاه.. وسألته
أخيراً:

- ما ثمنها؟

فأجاب:

- لا شيء في الواقع.. ثمنٌ ضئيلٌ لا يذكر.. ولا داعي للعجلة، بل ادفعي
حين يحلو لك.. فلسنا يهوداً!

وفكرت لبضع لحظات، ثُمَّ انتهت إلي رفض عرض السيّد «لوريه» من
جديد، فأجاب غير آبه لرفضها:

- حسناً.. سيفهم كلُّ منا الآخر شيئاً فشيئاً.. لقد اعتدت دائماً أن أوفق إلي
إرضاء السيّدات، وإن لم أفلح في إرضاء زوجتي!

وابتسمت «إيما»، بينما استطرد قائلاً في طيبة القلب، بعد النكتة :

- إنما أحببت أن أثبتك بأنَّ النقود ليست بالشيء الذي يقلقني، بل إنني
علي استعداد لأن أقدم لك منها ما قد تكونين بحاجةٍ إليه!

وبدرت منها حركة تنم علي دهشةٍ، فبادر قائلاً في صوتٍ خفيض:

- آه، لن أضطر إلي أن أذهب بعيداً للحصول علي ما تريدين، ثقي بي!

وتحوّل يسأل عن الأب «تيليه» - صاحب المقهي الفرنسي - الذي كان
السيّد «بوفاري» يُعالجه. ومضي يتحدّث عن مرضي الطبيب، وهو يربط
صندوقه، ثُمَّ أردف وهو يتأمل الأرض عابساً:

- إِنَّ الْجَوَّ ولا ريب هو سبب هذه الأمراض. فأنا الآخر أشعر بتوعك، وما أراني إِلَّا مضطراً إلي أن أَسْتَشِيرَ الطَّيِّبَ يوماً ما بشأن ألمِّ بظَهْري. حسناً يا مدام «بوفاري».. أَسْتودِعُكَ الله.. إني خادِمُكَ الخاضع في خدمتك! ..وأغلق الباب خلفه في رفقٍ .

وطلبت «إيما» أن يحمل إليها العشاء لتتناوله إلي جوار المدفأة في مخدعها.. وقضت وقتاً طويلاً في الأكل، إذ كانت راضية عن كُلِّ شيء.. وقالت لنفسها وهي تُفَكِّرُ في الشالات: «ما كان أحكم تصرفي!»

وفجأةً سمعت خطي علي السَّلَم، فأدركت أنَّ القادم «ليون»، ونهضت فتناولت من الصَّوان أوَّلَ صف من المناقض التي لم تشن أطرافها بعد.. فلمَّا وصل، بدت جد منهمة في العمل. ودار الحديث بينهما متراحياً، إذ كانت مدام «بوفاري» تنصرف عنه، بينما بدا الشاب نفسه مرتبكاً.. وأخذ يُقَلِّبُ عُلْبَةَ «الكتَّبان» العاجية بين أصابعه، وهو جالس علي مقعد منخفض إلي جوار المدفأة، وهي ماضية في التطريز، تطوي - من أن إلي آخر - طرف القماش بظفرها، دون أن تتكلم. ومن ثَمَّ لزم هو الآخر الصَّمَمَ، وقد أسره سكونها، كما كان من الممكن أن يأسره حديثها!.. وقالت تُحدِّثُ نفسها: «يا للشباب المسكين!»

علي أنَّ «ليون» لم يلبث أن قال إِنَّهُ مضطر لأن يذهب إلي «روان» يوماً في بعض مهام عمله، وأردف:

- لقد انتهي اشتراكك في الموسيقى، فهل أجده لك؟

..فأجابت:

- لا!

..وسألها:

..لماذا؟

..فقلت:

..لأن..

ثُمَّ زمت شفتيها وأخذت تشد الخيط الرمادي في غرزةٍ طويلةٍ.. وكان عملها هذا يضايق «ليون»، إذ بدا أنه يؤدي إليّ تخشين ملمس أناملها!.. وخطرت له عبارة رقيقة، ولكنه لم يجرؤ عليّ النطق بها.. بل قال:

..إذا فسوف تستغنين عنها؟

..فقلت:

..ماذا؟

..ثُمَّ أردفت بسرعة:

- الموسيقي؟.. آه!.. أجل!.. أليس لديّ بيتي أرعاه، وزوجي أعني به، وألف شيء.. وكثيرٌ من الواجبات التي يجب أن أؤديها أولاً؟

ونظرت إليّ السّاعة، فإذا «شارل» قد تأخر في العودة، وإذ ذاك تظاهرت بالقلق.. بل لقد ردّدت مرّتين أو ثلاثاً:

..لكم هو طيب!

..وكان الكاتب يُحبّ السيّد «بوفاري»، ولكن حنان زوجته نحوه أدهشه وساءه. ومع ذلك فقد أخذ يمدحه ويقول إنَّ كُلَّ امرئٍ - ولا سيما الصيدلي - يشي عليه.. فعادت «إيما» تُردّد:

..آه..إنّه طيب!

..وأجاب الكاتب:



.. حقًا!

.. وشرع يتحدث عن مدام «هومي» التي كان إسرافها في إهمال مظهرها
يشير ضحكهما، فقاطعت «إيما» قائلة:

.. وما قيمة ذلك؟.. إن ربة البيت الصالحة لا تحفل بمظهرها..

.. ثم لزمّت الصمت!

وتكرّرت الحال في الأيام التالية.. حديثها، ومسلكتها، وكلّ شيء فيها قد
تغيّر، وأخذت تبدي اهتمامًا بشؤون منزلها، وتذهب إلى الكنيسة بانتظام،
وتحاسب خادمتها في مزيد من الشدة. واستردت طفلتها «بيرت» من
المرضعة.

وكانت «فيليسيتيه» تحملها - إذا وفد الضيوف - فتخلع مدام «بوفاري»
عنها ثيابها لتعرض أطرافها، وتُرَدّد أنها تعشق الأطفال وتجد فيهم عزاءها
وفرحها وهيامها..

وأصبح «شارل» يجد خفيه - حين يعود إلى الدار - وقد جلسا إلى جوار
المدفأة ليكتسبا دفئًا.. ولم يعد صديقه يفتقد البطانة، ولا قمصانه تعوزها
الأزرار.. وكان يسره أن يري الطاقيات في الصوان وقد انتظمت في صفوف
متساوية الارتفاع.

ولم تعد «إيما» تتذمر من المساهمة في العناية بالحديقة كما كانت تفعل
من قبل، وغدت تنفذ ما يقترح، وإن لم تفهم الرغبات التي كانت تنصاع لها
دون تملّص. وكان «ليون» حين يري الزوج إلى جوار النار بعد العشاء، ويداه
علي بطنه، وقدماه علي حافة المدفأة، وخداه متضرجان من التغذية، وعيناه
نديتان لفرط هناءه، والطفلة ترحف علي البساط، وهذه المرأة ذات الخصر



النحيل تسعي من خلف مقعده الوثير لتطبع علي جبينه قبلة، كان «ليون» حين يري هذا كُلهً، يقول لنفسه: يا له من جنون!.. كيف السبيل إليها؟!

كانت بتصرُّفاتِها هذه تبدو له جد فاضلة وموفورة الحصانة، حتي لقد فقد كُلُّ أمل، ولكِنَّه - بهذا التحوُّل - أنزلها مكانًا غير عادي، إذ أصبحت في نظره مُجرَّدة من مفاتها البدنية التي لم ينل منها شيئًا، ومن ثَمَّ أخذت تسمو في قلبه، وتبعد عن متناوله كروح سماوية تُحلَّق عاليًا!.. وداخله شعور من تلك المشاعر الطاهرة التي لم تَمُتْ إلي الحياة الدنيويَّة، والتي يتعهدا المرء في نفسه لأنَّها نادرة، ويخلف فقدها من الحزن أكثر ممَّا يضيفه من اللذات!

وأخذت «إيما» تزداد نحولاً، وخداها يزدادان شحوبًا، ووجهها يستطيل! ألم تصبح يشعرها الأسود، وعيناها الواسعتين، وأنفها الأقي، ومشيتها التي تشبه حجل الطير، والسكون الذي أصبحت تخلد إليه.. ألم تكن تبدو - بهذا كُلهً - وكأنَّها تجتاز الحياة ولا تكاد تَمسُّها، وتحمل علي جبينها ميسم مصير قدسي؟!.. كانت جد حزينة وهادئة، وقد غدت فجأة جد رقيقة ومتحفظة، حتي يشعر المرء إلي جوارها بأن فتنة جليدية استولت عليه.. حتي لقد قال الصبيلي:

- «إيما» امرأةٌ عظيمة المواهب.. ما كان ينبغي أن تعيش في بلدةٍ صغيرة!

وكانت ربَّات البيوت يعجبن باقتصادها، والمرضي يعجبون بأدبها، والفقراء يبرها.. ولكِنَّها كانت تحترق بالشهوات، والغيط، والبغضاء!.. كان هذا الثوب مستقيم الشَّايًا، يخفي قلبًا حائرًا، لا تنفرج تلكما الشفتان العفيفتان عن شيءٍ من عذابه.. كانت تُحبُّ «ليون» وتشدُّ العزلة لتسعد بطيفه في طمأنينة!.. وكانت رؤية شخصه تعكر عليها متعة نجواها!.. كانت تهتز طربًا لوقع خطواته، ثُمَّ يخمد الانفعال في حضوره، ولا يتبقي لها بعد ذلك سوي دهشة عارمة تنتهي إلي أسي طاع!



علي أن «ليون» لم يكن يعلم أنها كانت - إذا غادرها قانطاً - تنهض بعد انصرافه لترقبه في الطريق.. وإنها كانت تشغل بتتبع روحاته وغدواته، بل إنها لفقت قصةً محبوكة لتجد عذراً يُسوِّغ لها زيارة غرفته.. وبدأت لها زوجة الصيدلي سعيدة لأنها تنام تحت السقف الذي يأويه!.. وأخذت أفكارها تحوم دائماً حول ذلك البيت، كحمام فندق «الأسد الذهبي» التي كانت تأتي لتغمس قوائمها الوردية وأجنتها البيضاء في مياه مضارفه. ولكن «إيما» كانت تزداد كبتاً لحُبّها كلما ازدادت إدراكاً له، حتي لا يتجلبى واضحاً، وحتى تستطيع أن تلجمه!.. كانت تود أن يحسه «ليون» من تلقاء نفسه، وتتصوّر ما يمكن أن يسير ذلك من مصادفات وكوارث. وما كان مانعها من الإتيان بالخطوة الأولى سوي الكسل، والخوف.. وشعور بالحياة أيضاً!.. وخيّل إليها أنها قد تمادت في صده حتي فوتت الفرصة وضيعت كلّ شيء.. وإذا ذلك، كانت تجد في الكبرياء، وفي البهجة التي تراودها إذ تملك أن تقول لنفسها: «أنا امرأة فاضلة»، وأن تتأمل نفسها في المرأة متخذة أوضاع الإذعان والاستكانة.. كانت تجد في كلّ هذا عزاء بعض العزاء عن التضحية التي اعتقدت أنها كانت تقوم بها!

ثم راحت شهوات الجسد، وجشع المال، وأشجان العاطفة، تختلط جميعاً في نوع واحد من العذاب، كانت تزداد استكانة إليه - بدلاً من أن تنتشل نفسها منه - مستحثة نفسها علي الشعور بالألم، باحثة في كلّ مكان عن فرصة لذلك. فكانت تنفعل إذا أسيء تقديم صنف من الطعام، أو إذا رأت باباً منفرجاً، وتندب ما لا تملكه من ثروة، وما ينقصها من سعادة، وما يبعد عن متناولها من أحلام، وما كان عليه بيتها من ضيق!

ومن ثم أغاظها أن «شارل» لم يبد أي انتباه إلي عذابها.. وبدأ لها اعتقاده بأنه حقق لها كلّ سعادة.. إهانة، وقحة، واطمئنانه إلي هذا الاعتماد جحوداً.. فمن أجل من إذا كانت عفتها وفضيلتها؟!.. أولم تكن من أجله هو؟!.. هو الذي كان حجر العثرة في سبيل كلّ سعادة، والسبب في كلّ تعاسة..

والذي كان كالمحبس المُدبَّب يحكم إغلاق ذلك الطوق المُعقَّد اللَّعين الذي يطبق عليها من جميع النواحي!.. لذلك صبت عليه وحده كُلَّ تلك الأحقاد العديدة التي تجمَّعت من ضيقها، وكان كُلُّ مجهود للتخفيف من هذه الأحقاد إنَّما يضاعفها، إذ كان المجهود الضائع يضيف سببًا جديدًا إلى خيبة الأمل، ويزيد الهوة بينهما عمقًا!.. وكان تَلطُّفها مع نفسها يُزيدها تمرُّدًا على زوجها، وضعة حياتها المنزلية تدفعها إلى أحلام ملؤها البذخ، كما كانت الملاطفات الزوجية تسلمها إلى شهوات داعرة!.. ولكم ودت لو أنَّ «شارل» ضربها حتي تجد مسوغًا لأن تكرهه وتعمل على الانتقام منه لنفسها!

وكانت تذهل أحيانًا للخيالات الفظيعة التي كانت تراود خاطرها. ومع ذلك لم يكن هناك بد من أن تستمر في الابتسام، وأن تسمع الادعاء بأنَّها سعيدة يُرَدِّد علي مسمعها في كُلِّ الأوقات، وأن تتظاهر بالسَّعادة، وتدع سواها يعتقد أنَّها سعيدة!

علي أنَّها كانت تشعر باشمئزاز مع هذا النفاق، وتملكها إغراء راح يزين لها الفرار إلي مكانٍ ما، مع «ليون»، لتبدأ حياة جديدة.. ولكنَّ هوة غامضة مفعمة بالظلام، كانت لا تلبث أن تنشق في أعماقها، فتذهب تُرَدِّد لنفسها: «ثُمَّ إِنَّه - إلي جانب هذا - لم يعد يُحِبُّني، فماذا يصيبني؟.. أي عون يرجي.. أي عزاء.. آية تسرية؟».

وتخرج من هذا كُلِّه محطمة الأعصاب، لاهثة، عاجزة، فتتحب في صوتٍ خفيضٍ ثُمَّ تنساب دموعها غزيرة كالنهر!

وكانت الخادمة تسألها إذا أقبلت عليها خلال هذه الأزمات:

- لِمَ لا تخبرين السيِّد بهذا؟

..فتجيبها «إيما»:

- إنَّها الأعصاب!.. لا تخبريه، حتي لا تتولاه الهموم.





كانت تريد أن تعترف!

She wanted to recognize!

في إحدى الأمسيات وبينما كانت «إيما» جالسة إلي جوار النافذة المفتوحة، رأت الشمساس «ليستيبودوا» يشذب أغصان حديقة القس. ولم تلبث أن سمعت الناقوس يدق مُعلنًا صلاة المساء.

كان ذلك في أوائل أبريل (نيسان)، حين تتفتح البراعم، وتهب ريح دافئة علي أحواض الزهور التي تمّ حرثها منذ عهد قريب.. وكانت الماشية تبدو عن بُعد وهي تتحرك دون أن يسمع لها خطو ولا خوار.. والناقوس ماض في رنينه، ناشرًا في الهواء شجاء وحزنه الوديع!

وعلي رنين دقاته المتواترة، هام فكر السيّدة الشّابة في ذكرياتها القديمة، أيام الشّباب والدراسة في الدير. فتذكّرت الشمعدانات الضخمة التي كانت تبدو من وراء الأواني المليئة بالأزهار فوق المذبح، والهيكل المقدس ذا الأعمدة الصّغيرة.. وتمنّت لو أنّها ظلت كما كانت في ذلك العهد، تائهة وسط صف الأوشحة البيضاء التي كانت تتخلّلها - هنا وهناك - بقع سوداء متناثرة تمثل محارم الراهبات المنحنيات فوق مساند الركوع.. ثمّ قداسات أيام الأحد، حين كانت ترفع رأسها في أثناء الصّلاة فتلمح وجه العذراء مريم العذب، وسط غلالات الدخان المائلة إلي الزّرقاء، التي كانت تتصاعد من



المباخر!.. إذ ذاك جاشت عواطفها، فأحست بأنّها ضعيفة، مهجورة، كريشة في مهب الريح.. وسعت.. دون وعي منها.. إلي الكنيسة، توّاقة إلي أية فرائض تُتاح لها، كي تذيب روحها فيها.. فيتلاشي الوجود!

وفي الميدان المؤدي إلي الكنيسة التقت «ليستيبودوا» عائداً.. فقد كان يؤثر أن يوقف عمله ثمّ يستأنفه،.. حتي لقد كان يدق الناقوس لصلاة المساء كما يلائمه.. فضلاً عن أن دقه مبكراً عن مواعده كان ينبه الصبية إلي موعد درس الدين!

وكان بعض الصبية قد وصلوا فعلاً، وراحوا يلعبون علي بلاط المقابر، ويهزون أرجلهم فيحصدون بأحذيتهم زهور «بنات النّار» التي نمت بين السور والمقابر المتاخمة له.. وسألت مدام «بوفاري» صبيّاً كان يلهو بهز مزلاج الباب في عروته الواسعة:

- أين القس؟

.. فأجاب الصّبي:

- ها هو ذا قادم.

وبالفعل، انبعث صرير من باب مسكن القس.. وما لبث الأب «بورنيزيان» أن ظهر، وهرع الأطفال إلي الكنيسة في هرج.. وتمتم القس:

- يا لهؤلاء الأوغاد!.. إنهم دائماً علي هذه الحال!

.. ثمّ التقط نسخة مهلهلة من كتاب الصلوات تعثرت فيها قدمه، وقال:

- إنهم لا يحترمون شيئاً!



علي أنه لم يكذ يلمح مدام «بوفاري» حتي هتف:

.. معذرة!.. لم أتيناك!

..ودس كتاب الصلوات في جيبه، ووقف وهو يعبث بمفتاح الهيكل الثقيل يحاول أن يوازنه بين أصبعيه.. وفي ضياء غروب الشمس المنصب علي وجهه، بدا مسوحه الصوفي حائل اللون، لامعًا عند المرفقين، باليًا عند الذيل.. وكانت بقع الدسم والتبغ تتناثر علي صدره العريض موازية لصف الأزرار الصغيرة، ثم تتكاثر عند فتحة العنق التي ارتكزت عليها ثانيا من جلد ذقنه الأحمر، المتهدل، الذي تناثر فيه بقع صفراء توارت تحت شعر لحية خشنة وخطها المشيب.. وكان قد فرغ لتوه من تناول العشاء، فراح يتنفس بصوتٍ مسموع.. وعاد يقول:

.. كيف حالك؟

فأجابت «إيما»:

.. ليست علي ما يرام ..إنني مريضة!

ورد القس قائلاً:

.. وأنا كذلك.. إن أيام الحرِّ الأولي هذه تضعف المرء بدرجةٍ عجيبة..

أليست كذلك!.. لكننا علي كُلِّ حال خلقنا لتعذب، كما يقول بولس الرسول.

ولكن، ما رأي السيّد «بوفاري» في مرضك؟

فبدرت منها حركة ازدراء، وقالت:

.. هو؟!

.. فقال الرَّجُل الطَّيِّب وقد أخذته الدهشة:

- ماذا؟.. أولم يصف لك دواء؟

فقالت «إيما»:

- آه.. ليس الذي أحتاج إليه علاجًا دنيويًا!

ولكن القس كان ينظر من آنٍ إلي آخر نحو الكنيسة، حيث ركع الأطفال وأخذوا يتدافعون، ويتهاوون كرقعٍ من الورق..

ومضت «إيما» تقول:

- أريد أن أعترف..

وهنا صاح القس في صوتٍ غاضب:

- حذار يا «بوديه».. لسوف ألهب أذنيك أيها الشيطان!

.. ثم قال إذ تحوّل نحو «إيما»:

- إنّه ابن «بوديه النجار».. والداه في يسر، ولذلك يتركانه يفعل ما بدا له..

علي أنّ بوسعه أن يتعلّم بسرعةٍ لو أنّه أراد، فهو شديد الذكاء.. وكيف حال السيّد «بوفاري»؟

ولاح أنّها لم تكن تسمعه، فاستطرد قائلاً:

- لا ريب أنّه كثير المشاغل دائماً.. فهو وأنا أكثر الناس عملاً في الأبرشية..

هو طيب الأجسام..

.. ثمّ أردف وهو يطلق ضحكة مجلجلة:



- وأنا طيب الأرواح!

وحديثه «إيما» بعينين ضارعتين، وهي تقول:

- أجل إنَّك تخفف الأحزان!

- آه يا مدام «بوفاري».. لا تحدثيني عن ذلك، فقد اضطرت في هذا الصباح إلي التوجه نحو «باديوفيل» من أجل بقرة كانت مريضة، فظنوا أنَّها كانت تحت تأثير الشيطان.. كُلُّ أبقارهم هكذا، وإن لم أدرِ لهذا مسوِّعًا! ولكن، معذرة..

ثمَّ التفت نحو الصبية وصاح:

- «لونغمار»، و«بوديه».. هلا كففتما عن هذا؟

..وقفز مسرعًا إلي داخل الكنيسة .

وقال حين عاد إلي «إيما» وهو يثر منديله القطني، ويمسك بأحد أطرافه بين أسنانه:

- أجل.. ما أجدر المزارعين بالثناء!

قالت:

- وغيرهم أيضًا!

- بالتأكيد.. هناك عمال المدن مثلاً .

- لستُ أقصدهم..

- عفواً!.. لقد عرفت بينهم أمَّهات يائسات.. ونساء فاضلات .. بل أوكد لكِ أنَّهن قديسات فعلاً - لا يجدن الخبز!

فقالت «إيما» وقد أخذ جانباً فمها يختلجان وهي تتكلم:



- ولكن أولئك.. أولئك اللائي يجدن الخبز يا سيّدي القس، لا يجدن..

قال:

- النَّارُ في الشتاء؟!

- أواه.. ما قيمة هذا؟

- ماذا؟.. ما قيمته؟.. يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُ إِذَا مَا وَجَدَ المَرْءُ الدَّفْعَ والغذاء.. إذ..
علي كُلِّ حالٍ ..

فتنهدت قائلةً:

- يا إلهي! يا إلهي!

- إِنَّكَ تعانين من عسر هضم ولا ريب.. يجب أن تعودِي إلي داركِ يا مدام
«بوفاري» فتشربي قليلاً من الشاي، فَإِنَّهُ يقويكِ.. أو تتناولِي كوباً من الماء
البارد الممزوج بمحلّول السكر المركز.

وتساءلت «إيما»، وقد بدت كَمَنْ يتنبه من حلم:

- لماذا؟

..فقال:

- ذلك لِأَنَّكَ كُنْتَ تضعين يديكِ علي جيبيكِ فخيَّلَ إِلَيَّ أَنَّكَ تشعرين
بدوار..

ثُمَّ استدرك قائلاً:

- ولكنَّكَ كُنْتَ تسأليني عن شيءٍ.. فما هو؟.. إِنِّي لا أذكره!

فردت «إيما»:

- أنا؟.. لا شيء! لا شيء!



ووقع بصرها - حين أجالته ببطءٍ فيما حولها - علي مسوح القس.. ثم عاد
كُلّ منهما يُحْدق في الآخر صامتين. وما لبث أن قال في النهاية:

- والآن، معذرة يا مدام «بوفاري»، فإنّ الواجب قبل كُُلّ شيء، كما
تعلمين، ولا بدّ أن أتولي علاج تلاميذي هؤلاء الذين لا يصلحون لشيء،
فإن حفلة التناول الأوّلي قادمة عمّا قريب، وأخشى أن تدهمنا ولم نستكمل
استعدادنا.. ولذلك أستقيهم ساعة بالإضافة إلي الفترة المُحدّدة للدرس
في يوم الأربعاء من كُُلّ أسبوع، منذ عيد الصعود، في مواظبة قاسية.. يا
للمساكين!.. إنّ المرء لا يملك أن يرشدهم بسرعةٍ كبيرةٍ إلي طريق الرّب..
لكِ تمنياتي يا سيّدتِي بالصحّة الجيدة، ولزوجكِ احترامي!

ودخل الكنيسة وهو يثني ركبته احترامًا عند الباب.. ورأته «إيما» يغيب
بين صفّي المقاعد، وهو يسير بخطي ثقيلة، ورأسه مائل علي كتفه قليلًا،
ويده مبهسوطتان، وقد أخرجهما من المسوح..

وما لبث أن دارت علي كعبيها بكُُلّ جسمها - قطعة واحدة - كتمثالٍ علي
قاعدة تدور، ومشت شطر بيتها، غير أنّ صوت القس المرتفع، وأصوات
الأطفال الصافية، ظلت تصل إلي أذنيها وتلاحقها..

- هل أنت مسيحي؟

- نعم، أنا مسيحي

- ومن هو المسيحي؟

- هو ذلك الذي عمّد.. عمّد.. عمّد!





الوداع الحزين!!

The sad farewell

بعد لقاء القس في الكنيسة مباشرة، صعدت «إيما» درجات السلم مشبثة بالحاجز، حتي إذا بلغت حجرتها ألقت بنفسها في مقعد مريح.. وكان الضوء الشاحب المنساب خلال زجاج النافذة يهبط في تموجات خفيفة.. ولاحت قطع الأثاث في أماكنها أكثر جمودًا مما هي عادة، وأشد تواريًا في الظلال وكأنها تغوص في بحرٍ من الظلمات.. والمدفأة مطفأة، والساعة سادرة غير متوقفة في دقاتها، وسارو «إيما» عجب غامض لهذا الهدوء الذي يسود كل الأشياء، بينما يعتمل جوفها باضطرابٍ صاخب!..

وفطنت أن «بيرت» الصغيرة كانت هناك - بين النافذة ومنضدة الحياكة - تتأرجح علي حذاءيها المنسوجين باليد، وتحاول أن تسعي إلي أمها لتمسك بأطراف أشرطة مريلتها.. فقالت وهي تنحيها بيدها:

- دعيني وشأني!

علي أن الصغيرة لم تلبث أن اقتربت من ركبتَي أمها، فاستندت إليهما بذراعيها، وتطلعت بعينيها الزرقاوين الواسعتين، وقد انساب من بين شففتيها خيط صغير من اللُّعاب أخذ يتساقط علي مريلتها الحريرية.. فكُورت الشَّاية في ضيق:



- دعيني وحدي!

وأفزع وجهها الطفلة، فأخذت تصرخ.. ولكزتها الأم بمرفقها قائلة:

- هلا تركتني وحدي؟

..وسقطت «بيرت» عند قاعدة الصوان، فشق مقبض الدرج النحاسي خدها، الذي شرع يتزف دمًا. ووثبت مدام «بوفاري» لترفعها، وشدت حبل الجرس، فنادت الخادمة بأعلى صوتها.. وعندما همت بأن تلعن نفسها، ظهر «شارل» إذ كانت ساعة العشاء قد حانت، فعاد إلي البيت..

قالت «إيما» في صوت هادئ:

- انظر يا عزيزي! لقد وقعت الصَّغيرة وهي تلعب، فجرحت نفسها..

فطمأنها «شارل» إلي أنَّ الأمر ليس خطيرًا، وذهب ليحضر بعض الضمادات اللاصقة.

ولم تهبط مدام «بوفاري» إلي قاعة الطعام، إذ رغبت في أن تخلو للعناية بالطفلة. وحين أخذت ترقبها وقد نامت، زایلها رويدًا ما أحست به من قلق، وبدا لها أنَّها كانت غبية وساذجة إذ داخلها كُلُّ الانزعاج لأمر بسيط كهذا. فالواقع أنَّ «بيرت» لم تعد تشهق بنهنة البكاء، بل أنَّ أنفاسها ترفع في رفق الغطاء القطني الذي أسبغته عليها أمها.. وعلقت قطرات كبيرة من الدموع بأركان أجفانها نصف المغصصة التي كان المرء يلمح بين أهدابها حدقتين شاحبتين، غائرتين.. والضمادة اللاصقة بخدها تشد جلدتها في خطٍ منحرف. وعبر خاطر ببال «إيما»، فقالت لنفسها: «يا عجبًا!.. ما أقبح هذه الطفلة!».

وعندما عاد «شارل» في السَّاعة الحادية عشرة من الصيدلية - حيث كان قد ذهب بعد العشاء ليرد ما تبقي من الضمادة اللاصقة - وجد زوجته وهي تقف إلي جوار المهد، فقال وهو يُقبِّل جبينها:

- قلت لك إنها إصابة بسيطة، فلا تنزعجي يا حبيبتى المسكينة، وإلا أسلمت نفسك للمرض. وكان قد مكث طويلاً في بيت الصيدلي، إذ جهد «هوميه» في التسمية عنه وتقوية روحه المعنوية، رغم أنه لم يبد كثيراً من القلق والتأثر.. ثم أخذوا يتحدثون عن الأخطار العديدة التي يتعرض لها الأطفال، وعن إهمال الخدم.

حاول «شارل» أن يقطع الحديث أكثر من مرة، فهمس في أذن الكاتب:

- أود أن أتحدث إليك في أمر..

فتقدمه الكاتب صاعداً السُّلم وهو يسأل نفسه: «أتراه قد أحس شيئاً؟».. وأخذ قلبه يخفق، وراح يرهق ذهنه بالافتراضات.. وأخيراً، رجاء «شارل»] بعد أن أغلق الباب - أن يسأل بنفسه في «روان» عن ثمن صورة فوتوغرافية بديعة، إذ كان يود أن يُعَد لزوجته مفاجأة عاطفية.. لفئة رقيقة تتمثل في صورة له وهو يرتدي الحلة السوداء. ولكنه أراد أولاً أن يعرف كم تكلف.. وما كان السؤال ليضايق السيّد «ليون» في شيء، إذ كان يذهب إلي المدينة في كلّ أسبوع تقريباً.

ولكن.. لماذا «ليون» بالذات؟!.. توقع السيّد «هوميه» أن وراء الأكمة مغامرة من مغامرات الشباب.. أو مؤامرة!.. ولكنه كان مخطئاً، إذ أن السيّد «ليون» لم يكن يسعى إلي غرام.. بل إنه كان أكثر اكتئاباً منه في أي وقت مضى، كما لمست ذلك مدام «لوفرانسوا» من كمية الطعام الذي يتركها في طبقه. وقد سألت مُحصل الضرائب علّه يزيد لها علماً وإيضاحاً، ولكن «بينيه» أجابها في جفاء بأنه «لا يعمل في الشرطة»!

ومع ذلك، فقد لاح له زميله في حال جد غريبة، إذ كثيراً ما كان «ليون» ينطرح في مقعده، ويمدّ ذراعيه، ويشكو من الحياة في أسلوب غامض!.. وقد قال له المُحصل:



- إنما يرجع ذلك إليَّ أنك لا تحصل علي نصيب كاف من الراحة والتسلية..

- أيّة تسلية ؟

- لو كنت في مكانك لهويت العمل في المخرطة ..

قال الكاتب:

- ولكني لا أعرف كيف أديرها.

فرد الآخر وهو يحك ذقنه في مزيج من الترفع والرضي :

- آه. هذا صحيح!

كان «ليون» برم بالحُبِّ الذي لا أمل منه، ثمَّ بدأ يشعر بذلك الضيق، الذي يُسبِّبه مضي الحياة علي وتيرة واحدة متكررة، دون ما هدف يوجهها، أو مأرب يعززها. واشتد به الملل من «أيونفيل» وأهلها حتي أصبحت رؤيته بعض الأشخاص، والبيوت، تشبه إلي درجة لم يعد يحتملها!.. وقد كان الصيدلي رجلاً طيباً، إلّا أنّه أصبح لا يطيقه البتة.. ومع ذلك فإنَّ التفكير في نوع جديد من الحياة كان يفزعه بقدر ما كان يستهويه!.. وتحوّلت هذه الهواجس بعد قليل إلي نفود صبر، وإذ ذاك أخذت باريس تناديه - علي البعد - بضجيج حفلاتها الراقصة الصاخبة، وضحكات عاملاتها الساقطات!!

ولمّا كان لا بدّ من أن يتم دراسته القانونيّة هناك، فلماذا لا يرحل إليها لتوه؟.. وما الذي يمنعه؟.. وشرع يُعد متاعه، ودبر أعماله مقدّماً، وأث في خياله مسكناً يعيش فيه حياة فنان.. فيتلقى دروسه في العزف علي «الجيتار»،

ويقتني منامة جميلة، وقلنسوة علي غرار قلنسوات أهل «الباسك»⁽⁵²⁾، وخفين من المخمل الأزرق!.. بل إنه بدأ يتصور في إعجاب سيفين متقاطعين فوق مدفأة مسكنه وفوقهما «الجيتار» تعلقوها جمجمة!

إلا أنَّ العقبة كانت تنحصر في الفوز بموافقة أمه.. علي أنَّه لم ير ما هو أحكم من هذا التدبير.. بل إنَّ رئيسه نفسه نصحه بأن يلتحق بمكتب آخر يستطيع فيه أن يُحرز تقدُّمًا سريعًا في مرانه ودراسته. وإذ ذاك، انتهج «ليون» طريقًا وسطًا، فأخذ يبحث عن مكتب في «روان» يقبله ككاتب ثانٍ، فلمَّا لم يجد، كتب إلي أمه في النهاية خطابًا طويلًا مسهبًا شرح فيه أسباب مبادرته للرحيل إلي باريس والإقامة فيها.. فوافقت!.. علي أنَّه لم يتعجل.. وظلَّ «هيفير» سائق «العصفورة» شهرًا بأكمله يحمل معه كُلَّ يوم من «أيونفيل»، إلي «روان»، ومن «روان» إلي «أيونفيل» صناديق، وحقائب، وحرما.. حتي إذا أعد «ليون» ثيابه، وجدَّد حشو مقاعده المريحة الثلاثة، واشترى عددًا من ربطات العنق، وقام.. بالاختصار!.. باستعدادات تفوق ما يلزم لرحلة حول العالم، أخذ يرجع سفره من أسبوع إلي آخر، حتي تلقي من أمه خطابًا ثانيًا تستحثه فيه علي الرحيل ما دام قد اعتزم أن يتقدَّم لامتحان قبل موسم العطلات.

وعندما حانت ساعة الوداع، بكت مدام «هوميه»، وانتحب «جوستان»، وأخفي «هوميه» تأثره.. كَرَّجَلٍ قَوِيٍّ الأعصاب!.. ورغب في أن يحمل بنفسه معطف صديقه حتي باب مكتب الموثق الذي كان سيقبل «ليون» في عربته إلي «روان». ولم يبق لـ «ليون» سوي لحظات يودع فيها السيّد «بوفاري»، فلمَّا بلغ قمة السُّلم، توقف وقد تتابعت أنفاسه لاهثة.. ولمَّا دلف إلي المكان، نهضت مدام «بوفاري» في عجلة، فقال «ليون» :

(52) إقليم الباسك: منطقة تقع في شمال إسبانيا. (المعد).



- ها أنا ذا مرّة أخرى.

..فقلت:

- كنت متأكدة من هذا..

..وعضت شفتيها، واندفع فيض من الدماء خلال بشرتها فاصطبغت -
من منابت شعرها حتي طوق ثوبها - بالحمرة وظلت واقفة، مستندة بكتفها
إلى الخشب الذي كان يكسو الجدار..بينما مضي متسائلاً:

- هل الطيب هنا؟

..فأجابت:

- إنه في الخارج..في الخارج!

..ثُمَّ لفهما صمت..وأخذ كُلّ منهما يرمق الآخر، وقد رزحت أفكارهما
تحت ألم واحد، متعانقة كصدرين ينبضان..ثُمَّ قال «ليون»:

- أود أن أقبل «بيرت»..



فهبطت «إيما» بضع درجات ونادت
«فيليسيث».. وألقي نظرة طويلة علي ما حوله
من جدران، وزخارف، ومدفأة، وكأنّه ينفذ

خلال كُلّ شيء!..وعادت الخادمة تحمل
«بيرت» وهي تهز طاحونة هواء صغيرة مقلوبة رأساً علي عقب ومعلقة في
خيوط. وطبع «ليون» عدة قبلات علي عنقها، وغمغم:

- في رعاية الله أيتها الطفلة المسكينة!..أستودعك الله أيتها الصّغيرة
الحبيبة!..وداعاً!..ثُمَّ ردها إلي أمّها فقالت للخادمة:

- أخرجني بها.

..وبقيا وحيدين، وقد أولته مدام «بوفاري» ظهرها، وألصقت وجهها بزجاج النافذة.. بينما أمسك «ليون» بقلنسوته يضرب بها فخذه برفق.. وقالت «إيما»:

- ستمطر السماء!

..فأجاب:

- لديّ معطف!

..قالت:

- آه.

..ثُمَّ استدارت، وقد خفضت ذقنها، فبرز جبينها، وسقط عيه الضوء.. كما يسقط علي قطعة من مرمر.. فانحدر حتي حاجبيها، دون أن يملك المرء أن يعرف ما كانت «إيما» تراه عند الأفق، ولا ما كان يجول في سريرتها.. وما لبث «ليون» أن تنهد قائلاً:

- والآن.. وداعاً!

..فرفعت «إيما» رأسها بحركة سريعة، وقالت:

- أجل، وداعاً.. اذهب!

..وتقدّم كلّ منهما نحو الآخر، ومد يده، ولكنها تردّدت.. ثُمَّ قالت وهي تسلمه يدها، وتغتصب ضحكة:

..فليكن علي الطريقة الإنجليزية إذا!

..وتحسس «ليون» راحتها بين أصابعه، ولاح له أنّه روح كيانه كلّهُ قد انسابت إلي يدها الرطبة.. ثُمَّ فتح يده، وتلاقت أعينهما مرّة أخرى.. ثُمَّ اختفي!.. حتي إذا بلغ السوق، انحرف متوارياً خلف عمود، وتذوّد بنظرة

أخيرة من البيت الأبيض ذي النوافذ الخضراء.. وخُيِّلَ إليه أنه رأي طيفاً
خلف نافذة حجرة «إيما»، ولكنَّ الستارة انسابت علي مشجبها، وكأنَّ
شخصاً أخذ يزحزحها، فراحت تسدل رويداً رويداً ناشرة ثناياها الطويلة
المائلة، ثُمَّ انبسطت كُلُّها أمام النافذة، وظلت مسدلة في استقامةٍ و دون
حراك، كجدارٍ من الجص!

وانطلق «ليون» يعدو.. ورأي عن بُعد عربة رئيسه علي الطريق، وإلي
جوارها رجل في مريلة سميكة، يمسك بالجواد.. وكان «هوميه»، والسَّيِّد
«جويومان» يتحدثان.. ريثما يصل!.. وقال له الصيدلي والدموع تترقق في
عينيه :

- قبلني!.. هاك معطفك يا صديقي العزيز.. خذ حذرك من البرد،
واحترس لنفسك.. اعتن بنفسك!

وقال موثق العقود:

- هيا يا «ليون».. اصعد!

..وانحني «هوميه» علي «رفرف» العربة، ونطق بهاتين الكلمتين
الحزبتين بصوتٍ يقطعُه النشيج :

- رحلة سارة!

..فأجابه السَّيِّد «جويومان» :

- عم مساء!

وتحرَّكت العربة.. ووقف «هوميه» عائداً.



الفصل العاشر



الحياة في الحي اللاتيني! Life in the Latin Quarter

في تلك الأثناء كانت مدام «بوفاري» قد فتحت النافذة المطلة علي الحديقة وأخذت ترقب السحب، فإذا هي تتجمّع حول الشمس الغارية في اتجاه «روان»، ثُمَّ تطوي ذيولها السوداء بسرعة، فتندفع من خلفها خيوط الشمس الطويلة كأنّها سهام من ذهب في درع معلقة، بينما كانت بقية السماء خالية، يبيضاء كالخزف.. علي أنّ الريح لم تلبث أن هبت فأحنت هامات شجر الحور، ثُمَّ سقط المطر فجأة، وأخذت قطراته ترتطم بالورق الأخضر في صوتٍ مسموع.. ثُمَّ عادت الشمس إلي البزوغ، فانبعث نقيق الدجاج، وأخذت الطيور تنفض أجنحتها وسط الأعشاب الكثيفة المخلصة، وحملت المياه معها وهي تنحدر علي الحصباء زهور البلخ الوردية..

وحَدَّثت «إيما» نفسها قائلة: «آه!.. ما أبعد المسافة التي يكون قطعها الآن!»

وجاء السيّد «هوميه» في منتصف السّابعة، في أثناء تناول العشاء - كعادته - وقال:

- لقد ودعنا صديقنا الشاب!



فقال الطبيب:

.. علمت بذلك.

.. ثُمَّ دار في مقعده، وقال:

.. هل من أنباء عن الأسرة؟

.. لا شيء يستحق الذكر، اللهم إن زوجتي كانت متأثرة بعد ظهر اليوم..
أنت تعرف النساء.. يتأثرون لأتفه الأمور، ولا سيما زوجتي.. ونخطئ لو أننا
عارضنا ذلك، إذ إن جهازهن العصبي أرق من جهازنا!

وقال «شارل»:

.. مسكين ليون!.. تري كيف سيعيش في باريس؟.. وهل يألفها؟

فتنهدت «مدام بوفاري».. وطقق الصيدلي بلسانه قائلاً:

.. يألفها!.. حفلات العشاء في المطاعم، والمراقص التنكرية والشمبانيا..
أؤكد لك أن كل هذا سيحلوه!

.. فاعترض السيّد «بوفاري»، قائلاً:

.. لا أظنه سينزل إلي الفساد.

.. فأسرع السيّد «هوميه» قائلاً:

.. ولا أنا.. وإن كان سيضطر إلي أن يجاري الآخرين خشية أن يظنوه
متزمتاً!.. وما أراك تعرف أية حياة يمارسها أولئك «الكلاب» من شباب
الحي اللاتيني مع الممثلات.. ثُمَّ إِنَّ الطلبة يحظون بنظرة طيبة في باريس،
ويكفي أن يظهروا بعض المواهب حتي يقبلهم القوم في خير المجتمعات..



بل إنَّ من سيِّدات الحي في «سان جيرمان» مَنْ يتدلَّهن في هواهم، فيتحن
لهم الفرص لزيجاتٍ طيبة جدًّا!

قال «شارل» :

- ولكنني أخشي عليه.. هناك..

فقاطعه الصيدلي قائلاً:

- أصبت .. هذا هو الجانب الآخر للموضوع. فالمرء هناك مضطر إلي
أن يبقي يده فوق جبينه .. إنَّك قد تكون في حديقةٍ عامَّةٍ - مثلاً - فيتقدَّم إليك
شخص حسن الهندام - وربما كان يحلي صدره بوسام ليحسبه المرء من
رجال السلك الدبلوماسي - ويستدرجك، ويتلطف معك، ويُقدِّم إليك قبضة
من سعوطة⁽⁵³⁾، أو يلتقط قبعتك إذا وقعت، ثُمَّ يزداد ودًا فيصحبك إلي مقهى،
ويدعوك إلي منزله الريف .. وبين كأسين من النبيذ يقدمك إلي مختلف أنواع
النَّاس. وفي ثلاث أرباع الحالات لا يكون ذلك إلَّا لينشل ساعتك أو
ليورطك في مأزقٍ خبيث!

.. فقال «شارل» :

(53) السعوطة، أو التماك، الشمة Chewing tobacco، أو كما يُسمي في السودان «النشوق»،
هو نوع مخدر من عائلة التبغيات، ويتم تصنيعها من رماد عشبة الرمث و عشبة ورقة التبغ.
بلد المنشأ الهند. يعتقد كثير من النَّاس أن مضغ التبغ أو تنشقه أكثر أمانًا من تدخينه، ولكنَّ
تناول التبغ غير المدخن يعادل تدخين من 3 إلي 4 سجائر، حيث يسمح استعمال التبغ غير
المدخن لدخول كمية أكبر من النيكوتين إلى الجسم، وذلك بالمقارنة مع تدخين السجائر.
(المعد).



- هذا صحيح!.. علي أنني كنت أفكر بوجه خاص في الأمراض.. حُمَي
التيفوئيد مثلاً، التي تصيب الطلبة الوافدين من الريف!

وارتعدت «إيما».. بينما قال الصيدلي:

- هذا راجع إلي تغيير نظام الأكل، وما يترتب عليه من اضطراب في
الجهاز كُله.. ثُمَّ، هناك ماء باريس، ألم تسمع عنه؟.. وكُلّ تلك الأطعمة التي
تُقدَّم في المطاعم.. كُلّ تلك الأغذية كثيرة التوابل، التي تنتهي إلي إشاعة
الحرارة في الدَّم، وهي لا تُعدّ - مهما قال النَّاس عنها - حساء طيباً!

وهكذا استمر يعرض آراءه، وميوله الشخصيّة، حتي أقبل «جوستان»
يدعوه.. فصاح:

- أما من لحظة راحة؟.. دائماً أراني مشدوداً إلي الصيدلية والعمل!..
أما أستطيع أن أخرج دقيقة؟.. هل أظل أكّد وأكدح كالحصان المشدود إلي
المحراث؟.. يا لها من عبودية!

حتي إذا بلغ الباب، التفت قائلاً:

- بهذه المناسبة، هل عرفتما النبأ؟

- أي نبأ؟

أجاب «هوميه» رافعاً حاجبيه، متخذاً أكثر مظاهره جدية:

- من المحتمل جدّاً أنَّ الاجتماع الزراعي - الذي كان يعقد عادة في
مقاطعة السين السفلي - سيعقد هذا العام في «أيونفيل».. هذه هي الشائعة
المنتشرة. وقد أشارت إليها الصحيفة في هذا الصباح. سيكون هذا أمر بالغ
الأهمية لمنطقتنا. علي أننا ستحدث عن هذا فيما بعد.. شكراً، إنني أري
طريقي، فإن «جوستان» يحمل المصباح .



نزوات وأحزان

Freaks and sorrows

استيقظت «إيما» حزينة في اليوم التالي، إذ بدا لها كُلُّ شيءٍ سابقًا في جوٍّ أسود يطفو في اضطراب حائر علي أسطح الأشياء ومظاهرها.. وأخذ الأسى يغوص في أعماق نفسها في عزف واهن كالذي تبعته رياح الشتاء في القلاع الخربة!.. كان ذلك صدي لمثل ذلك التفكير الحالم الحزين الذي نخلعه علي الأشياء التي لا رجعة لها، أو الكلل الذي يعتريك بعد الجهد المبذول، أو الألم الذي يُسبِّبه جمود حركة معتادة سادرة، أو التوقف الفجائي لأي اهتزاز طال به الأمد!

وكما حدث لها عند عودتها من «فويسار» - حين كانت الرقصات تدور في رأسها - اعترتها كآبة قاتمة، وقنوط خدَّر نفسها.. وعادوها طيف «ليون» أطول قامة، وأكثر ملاحهً، وفتنةً، وعموضًا.. فهو لم يفارقها، وإن كان قد انفصل عنها.. كان هناك، وكأن جدران البيت ما زالت تحتفظ بشبحه!

ولم تكن تمتلك أن تحوّل بصرها عن البساط الذي سار عليه، ولا عن تلك المقاعد الخاوية التي كان يجلس عليها.. ولقد ظلَّ النهر ينساب، ويدفع في بطءٍ موجاته الصَّغيرة علي طول الضفاف الزلقة.. كم من مرّة سارا هناك علي الحصاء المكسوة بالطحالب، يرافقهم خريز الأمواج؟!.. ما كان أشدَّ تألّق الشمس إذ ذاك!.. أية أصائل هائلة شهداها وحدهما في الظل عند نهاية الحديقة!.. كان يقرأ لها بصوتٍ مرتفع، وهو عاري الرأس، وقد جلس فوق رقعة من الأغصان الجافة، وريح المروج الرقيقة تهز صفحات الكتاب



والأزهار الجميلة.. أواه! .. لقد ذهب!.. فتنة حياتها، والأمل الوحيد في السعادة المحتملة!.. لِمَ لم تقتنص تلك السعادة حين وانتهت؟.. لِمَ لم تشبث بها بكلتا يديها، حين همت بأن تفر منها؟!.. وأخذت تلعن نفسها لأنها لم تُحب «ليون».. واستولت عليها الرغبة في أن تفر وراءه وتلحق به، فتلقى بنفسها بين ذراعيه وتقول له بلا تردد: «ها أنا!.. إني لك!».. ولكنها ما لبثت أن تقاعست إزاء صعوبات المغامرة، وبدأت شهواتها - التي ضاعفها الندم - تزداد شدة!!



وغدت ذكرى «ليون» منذ ذلك الحين محورًا لمللها.. كانت تشتعل هناك، في لهيب يفوق لهيب نار خلفها المسافرين فوق الجليد، في سهول المراعي الروسية!.. وكانت تقفز نحوه، وتلتصق به، وتُحرّك، في عناء، النار المحترقة وتبحث في كُلِّ ما حولها عن شيء يزيكها!.. وجمعت أبعد الذكريات، وأقرب المناسبات، وما خبرته، وما تخيلته، وشهواتها الشبقة التي لم تحظ بالإشباع، ومشروعات السعادة التي تكسرت في الرياح كما تنكسر الأغصان الذائبة، وفضيلتها العقيم، وآمالها المُبددة، والألفة المنزلية.. كُلُّ هذا جمعته - دون أن تفعل شيئًا - ثم اتخذته وقودًا لشجونها!

عليَّ أنَّ اللهب لم يلبث أن خمد، إمَّا لأنَّ الوقود قد نفذ، أو لأنَّه تراكم أكثر ممَّا ينبغي، وشيئًا فشيئًا، أخذ الحب يخمد بسبب الفراق، والندم يخنق بحكم الاعتياد، ووهج الحريق الذي أشاع في سمائها الشاحبة لونًا قرمزيًا يخبر رويدًا رويدًا!..

وفي غفلةٍ من ضميرها، ظنت أنَّ اشمئزازها من زوجها إن هو إلَّا تلهف لحبيبها!.. بيد أنَّ العاصفة ظلت هوجاء.. حتي إذا احترقت الشهوة فصارت رمادًا، دون أن تجد عودًا، ودون أن تشرق شمس، أطبق الليل علي المسكينة من كُلِّ جانب، وضلت في البرد الفظيع الذي كان يخرقها.. ثم عاودتها ذكرى أيام «توست» البغيضة.. وأصبحت تري نفسها أكثر تعاسة، إذ كانت قد خبرت الحزن، فأيقنت أنَّه حزن لن ينتهي!

ولعلَّ امرأةً تفرض علي نفسها مثل هذه التضحيات الجسام، لخليقة بأن تسمح لنفسها ببعض النزوات!.. وبالفعل، ابتاعت «إيما» مقعدًا قوطيًا للصلاة، وأنفقت خلال شهر واحد أربعة عشر فرنكًا في شراء ليمون لتنظيف أظفارها، وكتبت إلي «روان» في طلب ثوب من الكشمير الأزرق، واختارت شالًا من أبدع شالات «لوريه»، واعتادت أن تعقده حول خصرها علي الثوب الكشمير، ثم تغلق النوافذ، وتستلقي في هذا الزى علي أريكة، وفي يدها كتاب!.. وكثيرًا ما أخذت تبدل طريقة تصفيف شعرها فأحيانًا تصففه علي الطريقة الصينية، أو ترسله في خصلات رخوة تجدلها في صفائر، أو تفرقه علي جانب الرأس مقصوصًا من أسفل كما يفعل الرجال!

وأرادت أن تتعلَّم الايطالية فابتاعت معاجم وكتابًا في النحو، وكمية من الورق الأبيض.. وجربت القراءة الجدية في التاريخ والفلسفة.. وكان «شارل» يستيقظ مجفلاً فزعًا في أثناء الليل أحيانًا، طائناً أن أحدًا يُناديه لإسعاف مريض، فيغمغم: «ها أنذا قادم!»، ثم يظن إلي أن ما سمع لم يكن سوى صوت عود من ثقاب أشعلته «إيما» لتوقد المصباح!.. ولكنَّ قراءتها لم تكن أسعد حظًا من تطريزها.. كُلُّها لم تحظ بأكثر من الخيوط الأولي، ثمَّ كانت تلقي بها في الصوان، وتشرع في تطريز غيرها، لتلقي بها بدورها.. وهكذا لم تكن تشرع في قراءة كتاب حتي تطرحه جانبًا وتتناول سواه!

ثمَّ كانت تتولاها نوبات من السهل أن تنساق معها إلي ارتكاب أئمة حماقة.. فقد افترض زوجها يومًا بأنَّها تستطيع أن تشرب كأسًا كبيرة من «البراندي». وإذ كان «شارل» من الحمق بحيث قبل هذا التحدي، فقد تجرعت ما كان في الكأس حتي أخر قطرة!.. وبالرغم من تصرُّفاتها الزقة الطائشة.. كما كانت ربَّات البيوت في «أيونفيل» يصفنها - فإن «إيما» لم تكن قط مرحة، بل كان يحف بجانيبي فمها عادة ذلك التقلص الجامد الذي يتاب وجوه العوانس، والرجال ذوي الطموح الخائب!.. واشتد بها الشحوب حتي غدت كالثوب الأبيض، وأصبح جلد أنفها مشدودًا عند الفتحتين، وغدت عينها زائغتين، وراحت تكثر من الحديث عن شيخوختها، بعد أن اكتشفت ثلاث شعرات بيضاء في مفرقها!



وكثيراً ما كانت تُصاب بالإغماء حتي أنّها بصقت دمًا ذات يوم. وعندما أخذ «شارل» يروح ويجيء حولها في اهتمام ينم عن قلقٍ، قالت له:
- آه...! وما أهمية هذا؟

فأسرع «شارل» إلي مكتبه وانخرط في البكاء وقد اتكأ بمرفقيه علي مكتبه وهو جالس في مقعده تحت صورة الجهاز العصبي.. ثمّ كتب إلي أمّه بسألها أن تحضر، وراحا يعقدان معاً الأحاديث الطويلة، ويتبادلان الرأي بشأن «إيما».. وفيما ينبغي أن يتخذه.. وما الذي ينبغي فعله ما دامت ترفض كلّ علاج طبي؟.. وقالت مدام «بوفاري» الأمّ:

- أفتعرف ما الذي يلزم زوجتك؟.. إنّها تحتاج إلي أن تهتمك في عمل يدوي يشغلها.. ولو أنّها كانت مضطرة - ككثيرات غيرها - إلي كسب عيشها، لما راودتها هذه الأوهام التي تتابها من كثير من الأفكار التي تحشد بها رأسها، ومن البطالة التي تعيش فيها!

فقال «شارل»:

- ولكنها دائماً مشغولة ..

- آه، حقاً.. مشغولة بماذا؟.. قراءة الروايات، والكتب التافهة، والمؤلفات الموضوعية ضد الدين، والتي يسخر مؤلفوها من القسس بأقوالٍ مقتبسة عن «فولتير»؟.. كلّ هذا يشتت العقل يا بني المسكين!.. وأي إنسان بلا دين لا بدّ أن ينتهي أسوأ نهاية!

وهكذا استقر الرأي علي منع «إيما» من قراءة الروايات.. ولم يكن الأمر حينئذٍ، ولكن السيّدة تعهدت بالأمر، ورأت أن تذهب بنفسها إلي متعهد الكتب - عند مرورها بـ «روان» - فتخبره بأن «إيما» أوقفت اشتراكها.. ومن ثمّ كان الوداع بين الحماة وزوجة ابنها فاتراً.. لم تكونا خلال الأسابيع الثلاثة التي قضتها معاً قد تبادلنا ست كلمات، فوق الأسئلة والعبارات التي كانتا تتبادلانها علي المائدة، وقبل اللجوء إلي الفراش ليلاً ..



العاشق الجديد.. هل ينالها؟

The new lover .. Will receive it ?

كانت «إيما» تتكىء علي حافة النافذة، علي نحو ما كانت تفعل في كثير من الأحيان.. فالنافذة تحل في الريف محل المسرح والنزهة.. وفيما هي تسلي بمشاهدة حشد من العامة، رأت سيِّداً في سترة طويلة من المخمل الأخضر، وفي يديه قفازان أصفران.. وكان يسعي نحو منزل الطبيب، يتبعه فلاح يسير مطأطئ الرأس، يادي الاستغراق في التفكير.. وقال الرَّجل يسأل «جوستان» - الذي كان يتحدث إلي «فيليسيته» عند درجات المدخل - وقد ظنه خادماً في المنزل:

- هل أستطيع أن أقابل الطبيب؟.. قل له إنَّ السَّيِّد «رودولف بولانجيه» من «لاهاشيت» هنا.

وأقبل «شارل» علي الغرفة، فقَدَّم إليه السَّيِّد «بولانجيه» رفيقه الذي كان يريد أن يفصداً لأنَّه كان يحس بتنميل يسري في كُلِّ جسمه!.. وقال الرَّجل يُعارض كُلَّ حجة: لسوف يطهرني هذا..

ومن ثَمَّ أمر «شارل» بضمادةٍ ووعاء، وسأل «جوستان» أن يمسكه له، ثمَّ قال للفلاح الذي شحبه لونه:



- لا تخف يا بني!

فقال الآخر:

- لا.. لا، يا سيّدي.. هيا..

وفي تظاهر بالجرأة، مدّ ذراعه الضخمة.. وبوخزة من المبضع، انبثق الدّم
ملطخاً يديه، فهتف «شارل»:

- اقرب الوعاء..

بينما قال الفلاح:

- يا إلهي!.. إنّ المرء ليحسبها نافورة صغيرة.. ما أشد حمرة دمي!.. إنّها
دلالة طيبة.. أليست كذلك؟!

فقال الطيب:

- إنّ المرء لا يشعر بشيء في البداية - أحياناً - ثمّ يواتيه الإغماء فيما بعد،
ولا سيما ذوي البنية القوية كهذا الرّجل!

وعند هذه الكلمات، أفلت الفلاح الكيس الذي كان يعبث به بين
أصابعه.. وطقطق ظهر المقعد، إذ سرت في كتفيه رعدة.. وسقطت قبعته،
فقال «بوفاري» وهو يضغط الوريد بأصبعه:

- لقد توقعت هذا..

وأخذ الوعاء يهتز بين يدي «جوستان»، وارتجفت ركبتاه، وشحب لونه،
فنادي «شارل»:

- «إيما».. «إيما»..

وهبطت السُّلَم في وثبةٍ واحدةٍ فصاح:

- بعض الخل.. يا إلهي!.. اثنان في وقت واحد..

وتعذر عليه - لفرط انفعاله - أن يضع الكمادة!

وقال السيّد «بولانجيه» في هدوءٍ وهو يمسك بذراع «جوستان» ويجلسه علي المائدة وظهره إلي الحائط:

- ما هذا بشيء!

وراحت مدام «بوفاري» تخلع عنه رباط رقبته.. وانعقد الشريط الذي يضم فتحة قميصه، فظلت دقائق تُحرِّك أصابعها الرقيقة حول عنق الفتى، ثُمَّ سكبت بعض الخل علي مندبلها ورطبت صدغيه بلمساتٍ خفيفةٍ وراحت تنفخ فيها برفقٍ.. وما لبث الفلاح أن أفاق، ولكنَّ إغماء «جوستان» طال، واختفت حدقاته في بياض عينيه كما تغيب الزهور الزرقاء في اللبن.. فقال «شارل»:

- يجب أن نخفي هذا عنه..

فتناولت مدام «بوفاري» الوعاء لتضعه تحت المائدة.. وإذ تحرّكت منحنية، انتشر حولها - علي بلاط الغرفة - ثوبها. وكان ثوبًا صيفيًا أصفر، ذا أربعة «كرانش» وخصر طويل وذيل واسع.. وترنحت «إيما» قليلًا وهي منحنية فبسطت ذراعيها، فالتف القماش حول صدرها، مبينا قسماته.. ثُمَّ ذهبت لتحضر إبريق ماء، وفيما كانت تذيب بعض قطع السكر فيه، وصل الصيدلي، وكانت الخادمة قد ذهبت في غمرة الارتباك لاستدعائه، وما إن



رأي عيني تلميذه تحملقان، حتي تنفس الصعداء، ثُمَّ ذهب إليه فحذق فيه من رأسه إلي قدمه، وقال:

- مغفل!.. مغفل كبير!.. كأني بالحجامة عملية خطيرة، أليس كذلك؟!..
أفهمكذا يتحوّل الصنديد الذي لا يخشي شيئاً إلي سنجاب من النوع الذي يتسلق إلي ارتفاعات شاهقة ليسقط بعض البندق!.. أي نعم، تكلم وأطنب مزهواً في مدح نفسك!.. يا لها من استعدادات طبية لممارسة الصيدلة فيما بعد!.. إنك قد تستدعي في ظروف خطيرة إلي المحاكم لتتير أذهان القضاة، وإذ ذاك يتحتم عليك أن تحتفظ برباطة جأشك وقوة حجتك وأن تظهر بمظهر الرجل.. وإلا كنت أبله!

ولم يجب «جوستان»، فاستطرد الصيدلي:

- مَنْ سألك أن تحضر؟ إنك لتثقل دائماً علي السَيِّد والسَيِّدة، فضلاً عن إنني لا أستغني عنك في أيام الأربعاء، ففي الحانوت الآن عشرون شخصاً، وقد تركت كُلَّ شيء وحضرت نظراً لاهتمامي بأمرك، فهيا، انهض.. أسرع!.. عجل!.. انتظرنني هناك، وانتبه للقوارير..

وما إن انصرف «جوستان» - بعد أن سوي ثيابه - حتي أخذوا يتحدثون بعض الوقت عن نوبات الإغماء، فزعمت مدام «بوفاري» أنها لم تفقد قط وعيها.. فقال السَيِّد «بولانجي»: :

- هذا عجيب بالنسبة إلي سيِّدة!.. علي أن بعض النَّاس شديد الحساسية، فقد رأيت - في إحدى المبارزات - مشاهدًا يفقد وعيه بمجرّد سماعه صوت حشو المسدسات!

وقال الصيدلي:

- إنَّ مرأى دماء الغير لا تؤثر فيَّ - شخصيًا - علي الإطلاق، ولكن مُجرَّد التفكير في أن دمي يسيل كاف لأن يفقدني الوعي.. لو تباديت في التفكير! وعندئذ أخبر السيّد «بولانجيه» خادمه موصيًا إياه بأن يهدئ من جأشه بعد أن تخلّص من وهمه، ثُمَّ أضاف:

- إنَّه قد أتاح لي فرصة التعرّف بكم ..

ونظر نحو «إيما» حين قال ذلك، ثُمَّ وضع ثلاثة فرنكات علي ركن من المائدة، وانحني في غير اكتراث، وانصرف. وسرعان ما كان منطلقًا علي الضفة الأخرى من النهر، في طريقه إلي «لاهاشيت» .. ورأته «إيما» يسير في المرعي تحت أشجار الحور، وهو يتمهل بين آن وآخر كما لو كان يُفكّر..

كان يُحدث نفسه بهذه الخواطر: «إنَّها لطيفة جدًا.. لطيفة جدًا.. زوجة الطبيب هذه!.. أسنانٌ بديعة، وعينان سوداوان، وقدمان صغيرتان، وقوام كقوام الباريسيات.. من أين جاءت بحق الشيطان .. من أين حظي بها هذا الرَّجل البدين؟» .

كان «رودلف بولانجيه» في الرَّابعة والثلاثين من عُمره، ذا مزاج عنيف، وذكاء نافذ، وقد خالط كثيرًا من النساء حتي غدا خبيرًا بهن، ومن ثُمَّ لاحت له هذه المرأة جميلة، فراح يُفكّر فيها وفي زوجها.. ويقول لنفسه: «أعتقد أنَّه مغفل، وأنَّها قد سئمته ولا ريب، فإنَّ أظفاره قدرة، ولحيته لم تحلق منذ ثلاثة أيام، وبينما ينطلق لعيادة مرضاه، تعكف هي علي رفق الجوارب، فلا تلبث أن تسأم!.. ولا بدَّ أنَّها تتوق لسكن المدينة، ورقص «البولكا» كُل مساء.. يا للمرأة المسكينة!.. كأن بها تتعطش إلي الحبِّ كما تتعطش السمكة إلي الماء فوق مائدة المطبخ!.. وإنَّ ثلاثًا من كلمات الغزل لكافية لأن تجعلها تعشق المرء، إنني واثق من ذلك!.. ولسوف تكون رقيقة، فاتنة.. أجل، ولكن كيف السبيل إلي التخلص منه بعد ذلك؟» .



غير أنَّ متاعب اللذة التي تراءت له جعلته ينقلب إلي التفكير في عشيقته علي سبيل المقارنة.. كانت ممثلة في «روان»، وقد استخلصها لنفسه وأخذ يعولها. وما إن أخذ يتأمل صورتها - علي صفحة ذاكرته - حتي أحس بجذوة رغبته تخمد.. فقال لنفسه: «آه!.. إنَّ مدام «يوفاري» أجمل منها، وأكثر نضرة بوجه خاص.. فلقد بدأت «فرجينيا» تميل إلي البدانة بالتأكيد.. وهي امرأة من العسير إرضاء رغباتها.. ثُمَّ إنَّها ذات ولع جنوني بجراد البحر»!.

ولمَّا كانت الحقول خالية من النَّاس، لم يكن «رودولف» يسمع حوله سوي خشخشة الأعشاب عندما تحتك بحذاءيه مع خطواته المنتظمة.. وعاد يتمثَّل صورة «إيما» في الحجرة، وفي الثوب الذي رآها فيه.. ثُمَّ شرع يخلع عنها ثيابها في خياله أو صباح وهو يفتت قطعة متماسكة من الطين بضربة من عصاه: «آه.. لسوف أنالها»!.

وشرع لفوره يدرس الأسلوب «السياسي» للمغامرة، فسأل نفسه: «أين نلتقي؟.. وبأي الوسائل؟.. لسوف تضايقنا دائمًا الطفلة، والخادمة، والجيران، والزوج، وكلُّ هذه الهموم. أف!.. إنَّ المرء مُعرَّض لأن يضيع كثيرًا من الوقت في كلِّ ذلك»!.

ثُمَّ عاد يقول: «إنَّ لها في الحق عينين تخترقان قلب المرء كالمنقباب.. وبيا لشحوب بشرتها!.. إنَّني أعشق الشاحبات!!»!.

وعندما بلغ قمة تلال «أرجي»، كان ذهنه قد استقر علي أمرٍ، فقال: «لم يبق إلَّا تصيد الفرص. حسنًا، وسأطلب حجامة لنفسي لو استدعي الأمر.. ولن نلبث أن نغدو أصدقاء، فأدعوهم إلي منزلي»!.. ثُمَّ أضاف: «مرحي!.. إنَّ المعرض الزراعي عمَّا قريب، ولسوف تزوره فأراها هناك.. ولنبدأ في جراحة، فهذه أضمن الطرق للوصول!!»!.



لقاء المعرض الزراعي

For the agricultural exhibition

حان أخيرًا موعد المعرض الزراعي الذي شاع ذكره.. وفي صباح يوم الافتتاح، وقف جميع أهل «أيونفيل» علي أبواب منازلهم يتحدثون عن الاستعدادات.. كانت واجهة مبني البلدية قد زينت بفروع نبات اللبلاب، وأقيم سرادق في أحد المروج للمأدبة.. وأمام الكنيسة - في وسط الميدان - نصب مدفع من النوع الذي يحدث فرقة، للإعلان عن وصول مدير المقاطعة، وتحية أسماء المزارعين الفائزين بجوائز. ووفد الحرس الوطني من «بوشي» - إذ لم يكن في «أيونفيل» - حرس لينضم إلي فريق رجال الإطفاء الذين كان «بينه» يترأسهم.. وقد ارتدي في ذلك اليوم ياقة أعلي من ياقته العادية، وشدت الأزوار سترته حول جسمه إلي درجة أحالت جذعه إلي كتلة متيصة لا تتحرك، فبدأ كما لو كان الجزء الحي من جسمه كله قد هبط إلي ساقيه اللتين كانتا ترتفعان في خطوات رتيبة إلي إيقاع واحد.. ولما كانت ثمة منافسة بين مُحصل الضرائب وضابط الحرس الوطني، فقد أخذ كل منهما يقوم بمناورات مع رجاله - علي حدة - ليظهر مواهبه.. فكان المرء يري الأشربة الحمراء والشارات السوداء تروح وتغدو بالتناوب دون



أن يكون لهذا العرض من نهاية!.. وبدأ أنه لم ير في قرية «أيونفيل» عرض
للأبهة والعظمة مثل هذا من قبل!



وأخذت الجماهير تتوافد من
مختلف أنحاء القرية علي الشارع
الكبير، متدفقة من الأزقة والدروب
والبيوت. ومن وقت إلي آخر كان
المرء يسمع ارتطام الأبواب وهي تغلق

• في المعرض الزراعي •

وراء النسوة اللاتي يخرجن من دورهن - وقد ارتدين قفازاتهن - يسعين إلي
مشاهدة الاحتفال.. وكان أشد ما حاز الإعجاب، حاملان طويلان زخرا
بالمصاييح، وقد حُفّا بمنصة أُعدت لجلوس ذوي النفوذ. وإلي جانب ذلك،
أقيمت حول أعمدة دار البلدية أربع قوائم تحمل كُل منها علما صغيرا من
قماش يميل لونه إلي الخضرة، نُقِشت عليه كلمات بحروف ذهبية.. وقد
كتب علي العلم الأول: «إلي التجارة»، وعلي الثاني: «إلي الزراعة»، وعلي
الثالث: «إلي الصناعة»، وعلي الرابع: «إلي الفنون الجميلة».

وكان الحبور الذي أشرقت به الوجوه جميعا قد انقلب تجهما علي وجه
مدام «لوفرانسوا» صاحبة الفندق، إذ راحت تتمتم لنفسها، وهي واقفة علي
درجات مطبخها:

- يا للحماقة!.. يا للسخافة!.. هذا السرايق من القماش السميك
الخشن!.. هل يظنون أن مدير الإقليم سيغبط يتناول العشاء تحت هذه
الخيمة كمهرج السرك؟!.. هل يسمون هذا العمل المستهجن خدمة لصالح
البلدة؟

ومرّ بها الصيدلي إذ ذاك، وكان يرتدي سترة سوداء، وينطلقون من المخمل
القطني، وحذاءين من نسيج الفراء.. ومن العجيب أنّه كان يلبس فوق هذا
قبعة ذات قبة منخفضة!

وقال «هوميه» لصاحبة الفندق:

- ائذني لي!.. معذرة، فأني علي عجل!

وإذ سألته الأرملة البديئة إلي أين هو ذاهب، أجاب:

- إنّ الأمر يبدو لك غريباً.. أليس كذلك؟.. أنا الذي أظل حبيساً في
معملي أكثر من فأر الحقل في جبهه!
فسألته:

- أي جبن؟

فتابع حديثه قائلاً:

- آه، لا شيء! شيء!.. إنما أردت أن أثبتك يا مدام «لو فرانسوا» بأنني
أعيش في بيتي عادةً كالناسك، أمّا اليوم، فمن الضروري، بحكم الظروف..
فقاطعته في ازدراء:

- آه.. أنت ذاهب إلي هناك!

فأجاب الصيدلي في دهشة:

- أجل، أنا ذاهب.. أو لست عضواً في اللجنة الاستشارية؟

وحَدّقت فيه الأمّ «لو فرانسوا» بضع لحظات، ثُمَّ قالت في النهاية، وهي
تبتسم:

- هذا وضع آخر! ولكن، فيم تهتمك الزراعة؟ أنفهم فيها شيئاً؟



- بالتأكيد .. إنني أفهمها ما دمت صيدلياً .. أي كيميائياً .

ولم تحوّل صاحبة الفندق عينها عن «المقهى الفرنسي»، بينما مضي الصيدلي قائلاً:

- إني لأدعو الله أن يكون كُلُّ المشتغلين بالزراعة عندنا كيميائيين، أو أن يولوا مجالس العلم اهتماماً، علي الأقلّ .. فأنا مثلاً قد ألّفت أخيراً كتيباً لا بأس به .. مذكّرة في أكثر من اثنتين وسبعين صفحة، بعنوان: «شراب التفاح، صنعه وتأثيره .. مع بعض الأفكار الجديدة في الموضوع» .. وأرسلتها إلي الجمعية الزراعية في «روان»، فكانت سبباً في أن حظيت بشرف الانضمام إلي عضويتها .. في قسم الزراعة، وفي الفرع الخاص بزراعة الفواكه. ولو أن مؤلفي هذا أتبح للجمهور ..

علي أنّ الصيدلي أمسك هنا عن الكلام، إذ بدا أنّ مدام «لوفرنسوا» كانت في شغل عنه .. ثمّ قالت أخيراً:

- ألا انظر إليهم! .. شيء غير مفهوم! .. هذه الحانة الحقيرة! ..

وهزت كتفيها في حركة أزاحت عن جسمها الصديري الصوفي، وأشارت بكلتا يديها إلي حانة منافسها، التي كانت تنبعث منها أصوات تغني .. ثمّ أضافت قائلة:

- لن يدوم هذا أمداً طويلاً، علي أية حال، وسيتهيئ كلّ شيء قبل أسبوع.

فترجع «هوميه» مذهولاً، بينما هبطت ثلاث درجات لتهمس في أذنه:

- ماذا! .. ألا تعلم هذا؟ .. هناك حجز سيوقع في الأسبوع المقبل، و«لوريه»

هو الذي سيتسبّب في بيع الحانة، إذ قضي عليه بدفع قيمة الصكوك ..

فصاح الصيدلي الذي كان يجد دائماً من التعبيرات ما يتمشي مع كلّ مناسبة يمكن تصوّرها:

- يا لها من نكبةٍ فظيعة!

وعندما شرعت صاحبة الفندق تروي له القصة التي كانت قد سمعتها من «ثيودور» - خادم السيّد «جويومان» - ومع أنّها كانت تبغض تلييه، إلّا أنّها راحت تنحي باللّوم علي «لوريه» واصفة إياه بأنّه غشاش دنيء!..

وقالت:

- ها هو ذا!.. انظر إليه، إنّهُ في السوق، ينحني لمدام «بوفاري» التي ترتدي قبعة خضراء. عجبًا، إنّها تأخذ بذراع السيّد «بولانجي»!!

فهتف «هوميه»:

- مدام «بوفاري»!.. يجب أن أذهب فورًا فأقدم لها احترامي.. لعلها ستسر جدًا بأن تحصل علي مقعد في الحلبة، تحت الرواق..

ولم يلق الصيدلي بالّا إلي الأمّ «لو فرانسوا» التي أخذت تناديه لكي تسهب له في القصص، بل ابتعد في خطوة سريعة، وعلي شفّتيه ابتسامة، وراح يسخو في الإنحاء يمّنة ويسرة موزعًا التحيات وذيل سترته السوداء يطير مع الريح من خلفه، شاغلًا فراغًا كبيرًا.. لكنّ «رودولف» لمحّه من بعيد، فراح يُسرّع السير وهو يجذب مرافقته معه، ولكنّ أنفاس مدام «بوفاري» تقطعت، فاضطر إلي أن يتباطأ، وقال في لهجة جافة وهو يبتسم:

- ما هذا إلّا لكي نفر من هذا الرّجل البدين.. الصيدلي، كما تعلمين!

فضغطت مرفقه.. فسألها وهو يرمقها من طرف عينه:

- ما معني هذا؟



• حديث «إيما» و«رودولف»

في مقصورة المعرض الزراعي.

وكانت صفحة وجهها هادئة، لا تنم عن شيء، وقد برزت من إطار قلنسوتها بيضاوية الشكل، التي كانت مزدانة بأشرطة باهتة تشبه أوراق البوص. وكانت عيناها - بأهدابها الطويلة المقوسة -

تنظران إلي الأمام في خطٍ مستقيم. ومع أنهما كانتا مفتوحتين علي وسعهما، إلا أنهما لاحتا متواريتين بعض الشيء، كما لو كانت وجنتاهما تدفعانهما، وقد راح الدَّم يسري برفق تحت يشرتهما الرقيقة.. وعلي طول الحاجز الذي كان يتوسط فتحتي أنفها، امتد خط وردي، وكان رأسها يميل علي إحدى كتفيها، كما كانت الأطراف اللؤلؤية لأسنانها البيضاء تري من بين شفتيها!

وسأل «رودولف» نفسه: «أتراها تسخر مني؟».. غير أن الحركة التي بدرت من «إيما» لم تكن ترمي إلا إلي تنبيهه، فقد كان السيّد «لوريه» يرافقهما، وكان يتكلم بين آن وآخر، وكأنه يود أن يندمج معهما في الحديث.. وما لبث أن قال: - يا له من يومٍ رائع!.. لقد غادر الجميع دورهم!.. إنَّ الرياح تهب من الشرق!

ولم ترد عليه مدام «بوفاري»، ولا «رودولف» بكلمة، بينما كان هو يقترب منهما عند أية حركة تبدر منهما، ويقول: معذرة!.. ويرفع قبعته!.. حتي إذ بلغوا منزل البيطري، لم يمشوا في الطريق العامّة حتي الحاجز، بل انحرف «رودولف» فجأة إلي طريق ضيقة، ساحبًا معه مدام «بوفاري»، وهو يهتف:

- عم مساء يا مسيو «لوريه»!.. إلي اللقاء!

وقالت «إيما» ضاحكة:

- ما أبرع ما تخلصت منه!

فعقب قائلاً:

- ولماذا يترك المرء نفسه عرضة لأن يتقل عليه الآخرون!.. ولما كنت اليوم سعيداً بأن أكون معك..

وتضرج وجه «إيما».. ولم يتم «رودولف» عبارته، بل تحوّل يتحدث عن جمال الجو، ولذة السير علي العشب.. وكانت بعض زهرات «المرغريت» قد استوت علي سيقانها فقال:

- ها هي بعض زهور المرغريت البديعة تبشر بعيد الفصح.. وها هو ذا عدد منها يكفي لتقديم النبوءات لجميع العذارى العاشقات في المنطقة!
ثم أضاف:

- هل اقطف بعضها؟.. ما رأيك؟

فتنهدت قائلة:

- وهل أنت عاشق؟

فأجاب «رودولف»:

- آ.. آ.. مَنْ يدري.. آ.

وكان موعد فحص المعروضات قد حان، فاخذ الفلاحون يدخلون - واحد بعد آخر- إلي ما يشبه حلبة للسباق، يحدها حبل طويل شد إلي عصي.. وكانت الماشية تربض هناك وأنوفها موجهة نحو الحبل، وقد اصطفت في مجموعات غير متساوية ولا منتظمة، العجول تخور، والنعاج تنغو، والأبقار تمدّ بطونها علي النجيل وقد ثنت قوائمها تحتها، وهي تجتر

في بطءٍ، وجفونها الثقيلة تختلج من الذباب الذي كان يحوم حولها في طنين. والحوذيه قد شمرُوا عن سواعدهم يشدون أعنة الجياد الجامحة التي راحت تصهل - متفتحة الخياشيم - وهي تنظر نحو إنائها التي وقفت هادئة، تمدّ أعناقها، وأعرافها متدلية، بينما كانت أمهارها مستكنة في ظلالها، تقبل علي الرضاعة منها بين آنٍ وآخر!.. وفوق هذا الخضم الزاخر من الأجسام المكدسة، كانت ترتفع في الهواء أوراق بيضاء كأنها الموجات، أو تبرز قرون حادة، أو رؤوس رجال يجرون حولها.. وخارج الحلبة وقف - علي بعد نحو مائة خطوة - ثور أسود ضخم، مكتم في أنفه بحلقة من حديد.. وهو لا يتحرك، كأنه صيغ من البرونز، بينما أمسكه بحبل أطفال في أسمال بالية..

وبين الصفيين سار أعضاء اللجنة بخطي ثقيلة، يفحصون كل حيوان، ثم يستشير كل منهم الآخر في صوتٍ خفيض، وقد أخذ واحد منهم - كان يبدو أهم من الآخرين مكانة - في تدوين بعض الملاحظات من وقتٍ إلي آخر.. ذاك كان السيّد «دبروزياري دي لابنفيل»، رئيس المحكمين.. وما إن رأي «رودولف» حتي أسرع متقدماً منه، وابتسم في ودٍ قائلاً:

- ما هذا يا سيّد «بولانجيه».. أتتخلي عنا؟

فاعتذر «رودولف» بأنّه قد وصل لتوه، ولكن، ما إن انصرف الرئيس حتي قال له «إيما»:

- أحسب أنني لن أذهب، فإنّ صحبتك خير من صحبتة!

وكان يبرز بطاقته الزرقاء لرجال الشرطة - ليمرّ في يسر - وهو يسخر من المعرض.. وكان يقف أحياناً أمام حيوان بديع، لا يروق لمدام «بوفاري» علي الإطلاق، فلمّا فطن إلي ذلك،

تحوّل يرسل النكات الساخرة عن سيّدات «أيونفيل» وأزيائهن، ثمّ انقلب
يعتذر عمّا في زيه من إهمال، إذ كان خليطاً من المبتذل والأنيق معاً، يري فيه
عامّة النّاس دليلاً علي غرابة في الطّباع، واضطراب في الإحساس، ومُغالاة
في الفنّ .. ودائماً .. نوعاً من الاستخفاف بالعادات الاجتماعيّة المألوفة، ما
يفتنهم أو يغيظه ..! وعاد يتابع الكلام قائلاً:

- ثمّ إن المرء حين يكون مقيماً في الريف..

فقلت «إيما» :

- إنّها مضیعة للوقت!

فأجاب:

- هذا حقّ.. تصوّري أنّ أحداً من هؤلاء النّاس لا يستطيع أن يفهم حتي
طراز سترته!

.. ثمّ دار الحديث عن الريف الكثيب، وما يضيع فيه من أعمار، وينهار من
آمال.. فقال «رودولف»:

- لهذا السبب تغمرني الكآبة!

فعقبت مذهولة:

- أنت؟! .. ظننتك شديد السّعادة!

- آه.. أجل. هكذا أبدو، لأنني أعرف كيف أخفي وجهي وراء قناع ساخر،
وسط المجتمع.. ومع ذلك، فكم ساءلت نفسي حين كنت أري مقبرة في
ضوء القمر: أليس من الخير أن أشارك أهلها في سباتهم!

فهتفت:

- أواه!.. وأصدقائك؟.. ألسنتُ تُفكّر فيهم؟



فقال:

- أصدقائي!.. أي أصدقاء؟.. هل لي أصدقاء؟.. مَنْ يحفل بي؟

..وأردف بصغير خافت من بين شفثيه.. لكن ما لبثا أن اضطرا إلي الانفصال، كُلُّ عن الآخر، بسبب حمل كبير من المقاعد كان أحد الرّجال يرفعه خلفهما. وكان من الكثرة بحيث لم يكن في وسع الرّجل أن يري مقدم حذاءيه الخشبيين، أو نهاية ذراعيه المبسوطتين. وكان هذا الرّجل هو «ليستيبودو»، حفار القبور، وقد حمل مقاعد الكنيسة، وأخذ يجوس بين النّاس، إذ كان نشيط اللّذهن في كُلِّ ما يعود عليه بالنفع، وقد فطن إلي هذه الطريقة للإفادة من المعرض، وصادفت فكرته نجاحًا، إذ تكاثرت عليه الطلبات حتي لم يعد يدري أيها يجيب، والواقع أنَّ القرويين الذين برح بهم التّعب، أخذوا يتشاجرون من أجل هذه المقاعد التي كان عبير البخور يفوح من قشها، ويضطجعون علي مساندها السميكّة - المتسخة بدهن الشموع - في زهوٍ وخيلاء!

وعادت مدام «بوفاري» فأمسكت بذراع «رودولف» الذي كان ماضيًا في الحديث، وكأَنه يكلم نفسه:

- أجل، كم أضعت من أشياء.. فأنا وحيد علي الدوام!.. آه، لو كان لي هدف في الحياة!.. لو أنّي لقيت شيئًا من الحُبِّ.. لو أنّي التقيت بشخص يعطف علي!.. ما كان أحراني إذ ذاك أن أبذل كُلَّ ما أوتيت من طاقة، وأن أدلّل كُلَّ شيء!.. وأن أتغلّب علي كُلِّ شيء!

فقالت:

- ومع ذلك، إنَّك لا تبدو في حالٍ تدعو للرتاء!

قال:

- آه.. أو هذا ظنك بي؟

فاستطردت قائلة:

- لأنك قبل كل شيء، حرر..

وتردّدت، ثم أردفت:

- وغني!

فأجاب:

- لا تسخري مني..

وبينما كانت تؤكّد أنّها لا تسخر، دوت طلقة مدفع، فإذا الجميع ينطلقون متدافعين في هرج نحو القرية.. ولكنّ التنبيه كان كاذبًا، فإن مدير الإقليم لم يكن قد حضر، وشعر أعضاء لجنة التحكيم بالحيرة، إذ كانوا لا يدرون أيّدهون الحفل، أم ينتظرون أمداً آخر..

وأخيراً، ظهرت في أقصى الميدان عربية كبيرة مستأجرة - من الطراز مغلق الجوانب - يجرها جوادان هزيلان، يسوطهما حوذي بقبة بيضاء بكلّ قوته.. ولكن ركب المدير كان قد توقّع الزحام مقدّمًا، فخفّف الجوادان من سرعتهما، ووصلا علي رنين أعتتهما إلي منصة البلدية، في اللحظة التي تمّ فيها تجمّع الحرس الوطني وفريق الإطفاء، ومن ثمّ أخذوا يدقون الطبول، وينظمون خطواتهم. وبعد أن ارتفعت البنادق للتحية، وانطلقت الموسيقى كرنين وعاء نحاسي ينحدر علي سلّم، خفضت البنادق من جديد. وإذ ذاك، غادر العربية سيّد في حلة ذات سترة قصيرة موشاة بخيوط فضية.. وكان أصلع في مقدمة رأسه، ويضع شعرًا مستعارًا في مؤخرتها، راح ينعم النظر في الجماهير، رافعًا - في الوقت ذاته - أنفه الحاد، راسمًا علي فمه الفاخر ابتسامة. وعرف الرّجل العمدة من وشاحه، فأوضح له أنّ مدير الإقليم لم يتمكّن من الحضور، وإنّهُ هو مستشار الإقليم. ثمّ أردف مُردّدًا بعض الأعذار، فرد السيّد «توفاش» - العمدة - ببعض المجاملات.. وبدأ علي الآخر الارتباك!..

وظلا واقفين وجهًا لوجه، تكاد جبهتهما أن تتلامسا، وحولهما أعضاء لجنة التحكيم والمجلس البلدي، والأعيان، والحرس الوطني، والجمهور، وكرَّر المستشار انحناءاته بالتحية، وهو يضمُّ إلي صدره قبعته الصَّغيرة السوداء ثلاثية الجوانب، بينما انحنى «توفاش» كالقوس، وابتسم هو الآخر، وتلعثم إذ حاول أن يقول شيئًا، ثُمَّ أكَّد ولاءه للملكية، وأعرب عن الشرف الذي أتيج له «أيونفيل» بإقامة هذا المعرض!

وأخذ «هيوليت» - سائس الفندق - عناني الجوادين من الحوذي، وقادهما، وهو يعرج بقدمه المشوهة إلي باب «الأسد الذهبي»، حيث تجمَّع عدد من الفلاحين يتأمَّلون العربة.. ودقت الطبول، ودوي المدفع، وتقاطر السَّادة صاعدين المنصة ليتبوأوا المقاعد الحمراء التي أعارتها مدام «توفاش» للمحتفلين..

ووقفت زوجات السَّادة خلفهم، بين الأعمدة، بينما احتشد الجمهور في الناحية المقابلة، بين وقوف وجلوس علي المقاعد، إذ كان «ليستيودوا» قد نقل جميع المقاعد من المراج إلي هناك، وراح يجري طيلة الوقت ليحضِر من الكنيسة غيرها.. وسبَّب بنشاطه التجاري هذا ارتباكًا جعل بلوغ سُلَّم المنصة أمرًا عسيرًا!! وقال «لوريه» للصيْدلي إذ مرَّ به ذاهبًا إلي المكان المخصَّص له:

- من رأيي أنَّه كان من الواجب عليهم أن يقيموا صاريين علي طراز البندقية، يحملان بعض الزينة الرفيعة، حتي يصبح المنظر متعة للعين.. فأجاب «هوميه»:

- هذا حق.. ولكن، ماذا كنت تتوقَّع وقد استأثر العمدة بالإشراف علي كُلِّ شيء.. لكم هو محدود الذوق هذا الـ«توفاش» المسكين!.. بل إنَّه محروم ممَّا يُسمي عبقرية الفن!!



مشقة البحث عن السعادة!

Difficulty searching for happiness!

في تلك الأثناء، كان «رودولف» قد صعد مع مدام «بوفاري»، إلي قاعة الاجتماعات في الطابق الأول من مبني البلدية..ولمّا كانت القاعة خالية، فقد قال إن في وسعهما أن يستمتعا بالفرجة منها وهما مستريحان. وحمل ثلاثة مقاعد من حول المائدة البيضاوية ومن أسفل التمثال النصفي للملك، ووضعها علي مقربة من إحدى النوافذ، ثمّ جلسا متجاورين..وكانت ثمة جلبة فوق المنصة، وهمسات طويلة، ومفاوضات..وأخيراً وقف السيّد المستشار، فعرّف الجمهور إذ ذاك أنّه يُدعي «لييفان»، وسري الاسم بين الجمع، من شخصٍ إلي آخر.. وبعد أن أخرج بضع أوراق، وانحنى عليها ليراها بوضوح، شرع يقول:

- سادتي: اسمحوا لي أولاً وقبل أن أحدثكم عن الغرض من اجتماع اليوم أن أقر بالفضل - وأنا واثق من أنّكم تشاطرونني هذا الشعور - للحكومة..للملك. لملكنا أيها السّادة..هذا الملك المحبوب الذي لا تغيب عن اهتمامه ناحية من نواحي الرخاء العام أو الخاص، والذي يقود بيد تجمع بين الحزم والحكمة سفينة الدولة، بين الأخطار المتلاحقة في بحرٍ عاصف،



وهو يعرف - فوق هذا - كيف يجعل للسلام من الاحترام مثل ما للحرب والصناعة والتجارة والزراعة والفنون الجميلة!

وعند ذلك قال «رودولف» :

- يجب أن أرتد قليلاً إلي النوراء..

فقالت «إيما» :

- لماذا؟

وفي تلك اللحظة، أرتفع صوت المستشار فوق المؤلف، وهو يقول:

- لقد مضي أيها السادة ذلك الزمن الذي كان الشقاق بين المواطنين فيه يلطخ الميادين العامة بالدماء، والذي كان فيه المالك، وصاحب الأعمال، والعامل نفسه، يأوون إلي مضاجعهم لينعموا بالنوم، وهم يرتجفون خشية أن يستيقظوا فجأة علي ضجيج عربات الحريق.. والذي كانت فيه أعنف المبادئ الهدامة تدك في جراءة جميع الأسس..

وعاد «رودولف» يتابع الكلام:

- قد يلمحني أحد، فأضطر عندئذ إلي أن أظل أسبوعين أنتحل الأعذار.. فضلاً عن أن سمعتي سيئة!

فقالت «إيما» :

- إنك تظلم نفسك!

قال:

- لا.. إنها سيئة.. أوكد لك!

ومضي المستشار يقول:

- عليَّ أنْني أنْحي عن الذاكرة هذه الأمور الحالكة - أيها السَّادة - أنتقل
ببصري إليَّ الأحوال الراهنة في وطننا العزيز.. فماذا أري؟.. في كُلِّ مكان
تزدهر التجارة والفنون، وفي كُلِّ مكان طرق جديدة للمواصلات، كأنَّها
شرايين حديثة في جسد الدولة، تقيم في أرجائها علاقات جديدة.. وقد
استأنفت مراكزنا الصناعية الكبرى نشاطها.. والدين - الذي ازداد وحدة
وتوطداً - يبتسم في كُلِّ قلب.. وموانئنا مليئة، والثقة قد نبَت من جديد..
وفرنا قد عادت تتنفس!

و استأنف «رودولف» الحديث:

- الواقع أنَّهم ربما كانوا - من وجهة نظر المجتمع - علي حق!

فقلت «إيما»:

- كيف ذلك؟

قال:

- الأمر بسيط.. ألا تعلمين أنَّ هناك نفوساً مضناة تعيش في عذابٍ دائم،
وأنَّ لا بدَّ لها من أن تتقلَّب بالتناوب بين الحُلم والعمل.. بين العواطف سامية
الثَّبل، وبين الشهوات متطرفة العنف، ومن ثمَّ تلقى بأنفسها في جميع ألوان
الأمواء والحماقات؟!

فنظرت إليه كما ينظر المرء إليَّ رحالةٍ ارتاد بلاداً غريبةً، وقالت:

- نحن النساء البائسات لا نملك حتي هذه التسلية!



فقال:

- وإنَّها لتسليّةٍ محزنة، إذ إنَّ المرء لا يجد فيها السَّعادة!

فتساءلت:

- وهل من سبيلٍ إليّ العثور عليّ السَّعادة يومًا؟

فأجاب:

- أجل.. إنَّها لا تلبث أن تجيء يومًا..

هذا بينما كان المستشار ماضٍ في خطابه:

- وهذا هو ما فهمتموه أنتم، معشر الزراع وعمال الريف.. أيها الرُّؤاد المسالمون، في ميدان الحضارة الفسيح!.. أنتم يا رجال التقدُّم والأخلاق قد فهمتم أن العواصف السياسيّة أشدَّ خطرًا - في الحقيقة - من اضطرابات الطبيعة..

وتابع «رودولف» حديثه:

- إنَّ المرء لا يلبث أن يلقي السَّعادة فجأةً.. يومًا ما، بعد أن يكون قد يش منها.. فإذا ذاك، ينفرج الأفق.. وكأنَّ صوتًا يصيح: ها هي ذي!.. وتحين بالحاجة إليّ أن تفضي بكلِّ أسرار حياتك، وبأن تهبي كُلَّ شيء، وتضحى بكلِّ شيء، من أجل ذلك الكائن!.. ولا داعي عندئذ للكلام، فإنَّ كلا منهما يفهم الآخر، إذ يكون كلُّ قد رأي الآخر في أحلامه!

ورمقها بنظرة، وهو يستطرد:



..وبالإجمال، ترين أمامكِ أخيراً الكنز الذي طالما بحثتِ عنه..إنَّه يتلأأ،
ويبرق...ومع ذلك فإنَّ المرء يظلُّ في ريبٍ، فلا يصدق..يظلُّ مبهوراً، وكأنَّه
خرج من الظلمة إلي النور!

وما إن انتهى الشاب من هذا القول، حتي قرنه بالإشارة، فمسح وجهه
بيده كرجلٍ أحس بدوارٍ، ثُمَّ تركها تسقط علي يد «إيما»..فسحبت هذه يدها
بلطف!

هذا..والمستشار ماضٍ في خطابه:

...أي وجه للعجب في ذلك!..لا ينكر روح أهل الزراعة، إلّا مَنْ أُصيب
بالعمى، وغرق.. ولا أخشي من أن أقولها بهذه الصراحة - في أوهام عصر
مضي وأنقضي!..وفي الحق، أين نجد وطنية تفوق ما نجد في الريف، و
إخلاصاً للمصالح العام فوق إخلاصهم؟..وفي كلمة واحدة، أين نجد ذكاء
أعظم ممّا نجد في الريف؟! ولست أعني أيها السّادة، هذا الذكاء السطحي
الذي تتحلّى به النفوس المتسكعة، وإنما أعني ذلك الذكاء المتزن، الذي
ينصب علي السعي إلي الأهداف النافعة قبل كلّ شيء، وبذلك يُساهم في
رخاء كلّ فرد، والارتفاع بالمستوي العام، وتدعيم الدول، نتيجة لاحترام
القوانين والنهوض بالواجبات!

وعقب «رودولف» قائلاً:

... آه..هل عدنا ثانية..الواجبات، دائماً!..لقد سئمت هذه الكلمة..إنَّ
هؤلاء الذين يطنون في آذاننا باستمرار قائلين: الواجب! الواجب! ليسوا
سوي ثلة من ذوي الفكر الجامد،ومن العجائز المتعبدات!..آه، لعمري!..



ما الواجب إلا أن نحس بما هو عظيم، وأن نُحب ما هو جميل، لا أن نقبل
كُلّ معتقدات المجتمع بما تفرضه علينا من أسر وإذلال..

فاعترضت مدام «بوفاري»، قائلةً:

- ومع ذلك.. ومع ذلك...

- لا، لا!.. لماذا يصرخون ضد الرغبات العاطفية؟.. أليست هي الشيء
الجميل الوحيد علي الأرض؟.. أليست منبع البطولة والحماسة والشعر
والموسيقى والفنون.. أو بإيجاز: أليست كُلّ شيء؟

فقالت «إيما»:

- ولكن علي المرء أن ينحني إلي حدّ ما لرأي المجتمع، وأن يتقبّل قانون
الأخلاق..

فأجاب:

- أجل، ولكن هناك قانونين: قانون صغير، ويمثل ما تعارف إليه النَّاس
ووضعوده، وهو يتغيّر باستمرار، ويصرخ في صخبٍ، ويشير مثل هذا الجلبة
التي نراها تحتنا.. إنّه أرضي من تراب، كهذا الحشد من الأغبياء الذين
ترينهم هناك، تحتنا!.. أمّا القانون الآخر، فهو الخالد، وهو يشملنا ويعلوننا،
كالطبيعة التي تحيط بنا، والسماء الزرقاء التي تمنحنا الضياء!!





كانت تريد أن تنطلق كاليمامة!

She wanted to go off like a dove

في تلك الأثناء كان الميدان مزدحمًا بالناس حتي مواقع المنازل، فكان المرء يري قومًا متكئين بمرافقهم علي جميع النوافذ، وآخرين يقفون أمام الأبواب، ويذا «جوسثان» أمام الصيدلية وقد سُمر في مكانه لفرط ما استهواه المنظر.. وكان صوت السيّد «لييفان» يضيع في الهواء رغم الصّمت الشامل، فلا تصل إلي سمعك سوي نتف من العبارات، يقطعها صرير المقاعد المنبعث هنا وهناك.. ثُمَّ لا تلبس أن تسمع خوار ثور، أو ثغاء الحملان، يجاوب بعضه بعضا عند أركان الشارع.. إذ كان رُعاة البقر والغنم قد ساقوا ماشيتهم حتي هناك، فكانت تخور من آنٍ إلي آخر وهي تتزعج بالسنتها نثًا من أوراق الشجر المتدلّية أمام أفواهها .

وكان «رودولف» قد ازداد من «إيما» اقترابًا، وقال لها بصوتٍ خفيض ولهجةٍ سريعة:

- ألا يُثيرك تأمر المجتمع علي هذا النحو؟.. وهل هناك إحساس واحد لا يستكره؟.. إنَّ أبلى الغرائز وأسمي الميول تضطهد ويُشهر بها.. وإذا حدث أن التقت روحان يائستان، فإنَّ كُلَّ العوامل تنتظم لتحول دون امتزاجهما.. ومع ذلك فإنَّهما ستحاولان، وترفران بأجنحتهما، وتسعي كُلُّ منهما إلي



الأخرى.. أو اه!.. لا بأس، فإنَّهما لن تلبثا أن تجتمعا وتتحابا، طال الزمن أو قصر.. في ستة أشهر، أو في عشر سنوات.. فإنَّ القدر قد كتب هذا لهما، إذ خلقت كُلَّ منهما للأخرى..

وكان جالسًا وقد تقاطعت ذراعه فوق ركبتيه.. وتطلَّع إليَّ «إيما» وهو جد قريب منها، وثَّبت بصره عليها، فلمحت في عينيه خطوطًا ذهبية صغيرة تومض من أعماق حدقتيه السوداءوين.. بل إنَّها راحت تشم عطر الدخان الذي ضمخ به شعره.. وما لبثت أن غشيتها نوبة من شرود، فذكرت الفيكونت الذي رقصت «الفالس» معه في «فويسار»، إذ كانت تبعث من لحيته رائحة الليمون والفانيليا التي تفوح من هذا الشعر.. وأسبلت جفونها بحركة آليّة - في نصف إغماضه، وهي تنشق في شعره هذا العطر، ولكنَّها حين اضطجعت في المقعد لمحت عليَّ البُعد - عند حافة الأفق - عربة الركاب القديمة .. «العصفورة» تنحدر في بطءٍ هابطة تل «ليو»، وهي تجر ذيلًا طويلًا من الغبار! .. هذه العربة الصفراء التي كثيرًا ما عاد «ليون» إليها فيها، وفي ذلك الطريق رحل عنها إليَّ غير رجعة.. وخيَّل إليها أنَّها تراه واقفًا عند نافذته.. ثمَّ اختلطت الرؤى، واكفهرت السحب، وخيَّل إليها أنَّها عادت تدور في رقصه «الفالس» - تحت أضواء الثريات - بين ذراعي «الفيكونت»، وأنَّ «ليون» ليس بعيدًا عنها، وأنَّه قادم. ومع ذلك، كانت طيلة الوقت تشم عبير رأس «رودولف» إليَّ جانبها، وتغلغل هذا الإحساس العذب في رغباتها القديمة، التي أخذت تتحرَّك جيئةً وذهابًا، في نفحات هذا العطر الذي ران عليَّ روحها، كما تتحرَّك ذرات الرمل في مهب الريح.. ففتحت طاقتي أنفها عدة مرَّات لتعب من عقب اللبلاب الملتف حول رؤوس الأعمدة.

ونزعت قفازيها، فمسحت يديها، ثُمَّ حركت مندِيلها أمام وجهها
كالمروحة، بينما كان صوت المستشار يصل إليها - خلال نبض صدغيها -
مُرَدَّدَة عباراته، وكأنَّه يترنم بها:

- واصلوا، ثابروا، ولا تنصتوا إلي ما يوصي به الروتين، أو ما تدعو
إليه النصائح المرتجلة المبنية علي تجارب طائشة!.. واتجهوا بجهودكم
- بنوع خاص - إلي تحسين التربة، والسماذ الجيد.. والإكثار من سلالات
الخيول والبقر والأغنام الجيدة.. ولتكن هذه المعارض - بالنسبة إليكم - أشبه
بالساحات السلمية، يمد المنتصر فيها يده - إذ يغادرها - إلي المهزوم - ويؤاخيه،
أملًا في فوز أفضل.. وأنتم أيها العمال الشيوخ، والخدم المتواضعون، الذين
لم ترمقهم حكومة حتي اليوم بعين الاعتبار.. تعالوا لتسلموا جزاء فضائلكم
الصَّامِتة، وثقوا من أن الدولة ترمقكم، وتشجعكم، وتحمىكم.. وستستجيب
لمطلبكم العادلة، وتخفف بقدر ما تستطيع من عبء تضحياتكم..

ثُمَّ جلس السَّيِّد «لييفان» بعد ذلك، فنهض السَّيِّد «ديروزبراي»، وشرع
يلقي خطابًا آخر.. ولعله لم يكن خطابًا منمقًا كخطاب المستشار، ولكنه
امتاز عنه بأسلوب أكثر إيجابية، أو بالأحرى، بمعلومات أدق، واعتبارات
أسمى.. فلم يشغل مدح الحكومة - مثلاً - سوى حيز صغير منه، أمَّا الدين
والزراعة، ففازا بقسطٍ أوفر، إذ ألقى الضوء علي العلاقة بينهما، وعلي
دورهما المشترك في خدمة الحضارة، والجاذبية المغناطيسيَّة. كان الخطيب
يتكلم عن نشأة المجتمع، متدرِّجًا من العصور الأوَّلي التي كان الإنسان
يتغذي فيها بثمار البلوط في أعماق الغاب، إلي تلك العهود التي تحوَّل فيها
الناس من جلود الماشية إلي الأقمشة المنسوجة، وراحوا يحرقون الأرض



ويزرعون الكروم.. أفكان هذا التحول خيراً؟.. أولم يكن في هذه الاكتشافات من الضرر فوق ما فيها من نفع؟..



• بداية الحب الجارف بين
«إيما»، و«رودولف» •

وتولي السيّد «ديروزبراي» علاج السؤال.. بينما كان «رودولف» قد تطرّق مثقلاً من المغناطيسية إلي الميول والعلاقات.. وأخذ رئيس اللجنة يذكر «سنسنا توس» ومحراثه، و«ديوكلسيان»

إذ زرع الكرب، وأباطرة الصين حين كانوا يفتتحون العام ببذر البذور.. في حين كان الشّاب - «رودولف» - ماضياً يشرح للشّابة أنّ الميول والانجذابات ترجع في سبيلها إلي نوع سابق من الوجود.. أو حياة سابقة! ومضي يقول:

- ومن ثمّ، لماذا قدر لكلّ منا أن يعرف الآخر؟.. آية إرادة شاءت هذا؟.. لقد تمّ ذلك بسبب انجذاب كلّ منا إلي الآخر - كجدولين يجريان لكي يلتقيا ويتحدا - وهكذا دفعت اتجاهاتنا الفكرية الخاصّة بكلّ منا إلي صاحبه! وأمسك بيدها، فلم تسحبها منه.. وفي تلك اللّحظة، كان الخطيب يصيح:

- جائزة الزراعة الجيدة..

و«رودولف» ماضٍ في حديثه:

- فمثلاً عندما أتيّت إلي بيتكم..

وهكذا أخذت عبارات «رودولف»، و«الخطيب» تتابع في تناوب واختلاط.. كان الخطيب يقول:

- إلي السيّد «بيريه» من «كونكانبوا» -

و«رودولف» يقول: هل كنت أعلم أن قد قُدر لي أن أصحبك؟

- الخطيب: سبعون فرنكًا.

- «رودولف»: بل لقد حاولت مئة مرّة أن أرحل.. ولكنني تبعتك. وبقيت!

- الخطيب: جائزة الأسمدة.

- «رودولف»: وسوف أبقى الليلة، وغداً، وكلّ الأيام المقبلة، وحياتي كلّها!

- الخطيب: إلي السيّد «كارون» من «أرجي».. ميدالية ذهبية.

- «رودولف»: فأني لم ألتق بمثل هذه الفتنة الشاملة في صحبة أي امرأة أخرى.

- الخطيب: إلي السيّد «بان» من «جيفري سان مارتان».

- «رودولف»: وسوف أحمل معي ذكراك..

- الخطيب: جائزة عن كبش أسباني من نوع «مارينو».

- «رودولف»: ولكنك سوف تنسيني.. سأتلاشى كالطيف!

- الخطيب: إلي السيّد «بيلو» من «نوتردام».

- «رودولف»: آه، لا!.. بل سأبقي في فكري وحياتك.. أليس كذلك؟

- الخطيب: سلالة الخنازير.. الجائزة مناصفة بين السيّدين «لهريسيه»، و«كيلمبور».. وقد رها ستون فرنكًا.

وضغط «رودولف» يد «إيما»، فأحس بها دافئة، تنفض، كاليمامة الحبيسة، التي تبغي انطلاقاً.. وسواء أكانت تحاول أن تنتزع يدها، أو كانت تستجيب لضغطه، فإنها حركت أصابعها، فهتف:



سأه، شكرًا لك.. فأنت لا تصدينني!.. ما أطيبك! إنك تدركين أنني ملك
يمينك!.. ألا دعيني أنظر إليك!.. دعيني أأملك!

وهبت من النافذة ربح ثنت أطراف غطاء المائدة، وأطاحت بقبعات
الفلاحات الكبيرة.. في الميدان.. فطارت كأجنحة فراشات بيضاء ترفرف!..
وكان رئيس لجنة التحكيم ماضيًا في قوله:

- جائزة استخدام كسب البذور الزيتية.. السماد الفلمنكي.. زراعة التيل..
الصفوف.. الإيجارات الطويلة.. الخدمات الأهلية..

أمّا «رودولف» فلم يعد يتكلم، إذ راح يرمق «إيما».. وهي ترمقه،
وشفاهما ترتجف بتأثير رغبة جامحة!.. وفي استرخاءٍ ودون ما جهد،
تعانقت أصابعهما.. ورئيس لجنة التحكيم ماضٍ في سرد الجوائز!

- «كاثرين نيكيز إليزابيث لير» من «ساستولاجيرير».. من أجل بقائها
خمسًا وخمسين سنة تخدم مزرعة واحدة.. ميدالية فضية ومكافأة قدرها
خمس وعشرون فرنكًا!

وردد المستشار النداء قائلاً:

- أين هي «كاثرين لير»؟

لكنّها لم تتقدّم.. وسمعت أصوات تنهاس:

- استمر!..

- لا.. إلي اليسار.. لا.. لا تخافي!

- آه، يا لها من غبية!

وصاح «توفاش»:

- وبعد، أموجودة هي؟

- نعم .. ها هي ذي!

- فلستقدّم إذا!

ورؤيت إذ ذاك امرأة عجوز، ضئيلة الجسم، تتقدّم واجفة نحو المنصة، وهي تكاد تتواري في ثيابها النعسة، وفي قدميها حذاءان ضخمان من الخشب، بينما انسدت علي رديفها مريّلة كبيرة زرقاء.. وكان وجهها الضامر، المُحاط بطاقيّة لا حافة لها، أكثر تجعيّدًا من تفاحة صغيرة ذابلة.. ومن كمي سترتها الحمراء، برزت يدان بدت مفاصلها كالعقد، وقد غطتهما البقع والبثور والبشرة الخشنة من أثر غبار الأجران، و«البوتاس» الذي تستخدمه في إزالة بقع الشحم عن الملابس الصوفية، حتي إنّهما كانتا تبدوان قدرتين رغم غسلها بالماء الصافي.. وقد مكثتا منفرجتين لطول ما خدمتا، وكأنّهما تقدمان دليلًا متواضعًا علي ما تكبدتا من مشاقٍ مضيئة!.. وأكسب وجهها جلالًا شيء من جمود الرهبة، ولم يكن يخفف من حدة نظراتها شيء من الحزن أو من الحنان ..

وكانت لكثرة معاشرتها للحيوانات قد أخذت عنها الصّمت والسكوت .. وكانت هذه أوّل مرّة تري فيها نفسها وسط مثل هذا الجمع الغفير، فداخلها ذعر من الأعلام والأبواق، وأولئك السّادة الذين كانوا في ثياب سوداء، وذلك الوسام الذي كان يزين صدر المستشار.. فطلت مسمرة في مكانها، لا تدري أتقدّم، أم تلوذ بالفرار.. ولا تفهم لماذا راحوا يدفعوها إلي الأمام، ولا لماذا كان الحكام يبتسمون لها!.. وهكذا وقفت أمام المواطنين السعداء، تمثاليًا حيًّا لنصف قرن من العبودية!.. وكان المستشار أخذ قائمة الفائزين بالجوائز من يد رئيس الحكام، فقال لها:

- اقتربي أيتها المبهجة «كاثرين نيكيز إليزابيث ليرو» .



وأخذ ينقل بصره بين قائمة الفائزين والسيدة العجوز، مُكرِّراً في لهجة
أبوية:

.. اقتربي! اقتربي!

وقال «توفاش»، وهو يتململ في مقعده:

.. أصماء أنتِ؟

ثمَّ راح يصيح في أذنها:

- أربع وخمسون سنة في الخدمة!.. ميدالية فضية.. وخمسة وعشرون
فرانكا!.. لك! وتأملت «الميدالية» حين تناولتها، وما لبث وجهها أن أشرق
بابتسامة راضية، ثمَّ تمتمت وهي تنصرف:

.. سأعطيها لقس قريتنا كي يقيم لي قداساً!

فمال الصبديلي نحو موثق العقود قائلاً:

.. يا للتعصب!

واختتم الحفل، فأخذ الجمهور يتفرق.. كلَّ أمريء إلي مكانه، وكلَّ شيء
إلي مجراه.. وأخذ السادة ينهرون الخدم، وهؤلاء يضربون الماشية.. تلك
الماشية الفائزة، التي علق بقرونها تاج أخضر، وهي تعود إلي حظائرها!..
هذا بينما صعد جنود الحرس الوطني إلي الطابق الأول من مبني البلدية،
وقد رشقوا الفطائر الجافة في حراهم، وحمل قارع الطبول سلة مليئة
بالزجاجات.. وأخذت مدام «بوفاري» بذراع «رودولف» الذي رافقها حتي
دارها، ثمَّ افترقا عند الباب، وسار وهو يتنزه وحيداً في المرح، في انتظار
موعد الوليمة .

كانت المأدبة طويلة، صاخبة، سيّئة النظام، ازدحمت إلي درجة لم يكن في وسع المرء معها أن يُحرّك مرفقه، وحتى أوشكت الألواح الضيقة - التي استخدمت كمقاعد - أن تتحطم تحت ثقل الجالسين.. وأكل القوم في إسرافٍ، إذ عني كُلُّ واحد أن يملأ بطنه، حتي تفصّد العرق علي كُلِّ جهة، وانبعث بخار يميل إلي البياض - كذلك الذي يتصاعد من جدول في صباح يوم من أيام الخريف - وأخذ يخيم فوق المائدة بين المصاييح المدلاة..

واستند «رودولف» إلي قماش السراقد، وقد استغرقه التفكير في «إيما»، حتي إنّه لم يسمع شيئاً ممّا كان يدور حوله. وكان الخدم من ورائه يجمعون الأواني المتسخة، وجيرانه يوجهون إليه الحديث فلا يظفرون منه بجواب.. ومن ثمّ ملئوا له كأسه!.. وران علي فكره سكون رغم الضجيج المُحيط به.. كان يحلم بما قالت، وبشكل شفيتها.. وكان وجهها يتمثّل له منعكساً علي خوذات الجنود، وكأنّه يراه في مرآةٍ سحرية.. وثنايا ثوبها تنتشر بين الجدران.. وأخذت أيام الهوى تتابع أمام عينه في أفق المستقبل.

ورآها ثانيةً في المساء، في أثناء الاحتفال بإطلاق الأسهم النارية، بيد أنّها كانت مع زوجها ومدام «هوميه»، والصيدلي الذي كان شديد القلق بسبب خوفه من الأسهم الشاردة، حتي إنّه كان يترك الجماعة في كُلِّ لحظةٍ، ليذهب إلي «بينيه» ويُقدّم له النصائح.. وكانت الأسهم - التي وردت باسم السيّد «توفاش» - قد اختزنّت في قبو منزله، زيادة في الحيلة، ومن ثمّ لحقت الرطوبة بالبارود فلم يشتعل.. وفسدت القطعة الرئيسة تمامًا!.. ومن وقتٍ إلي آخر، كانت تفجر شعلة رومانية هزيلة، فتنبعث من الجمهور فاغر الأفواه ضجة تختلط بها صيحات النساء اللواتي كان الرّجال يدغدغون خصورهن في الظلام، وقد التصقت «إيما» - في رفقٍ - بكتف «شارل»، وراحت تتبّع انبثاق الضوء من الأسهم في السماء المعتمة، وهي رافعة الذقن، و«رودولف» يتأمّلها علي ضوء المصاييح المشتعلة!



وأضاءت النجوم، وسقطت بعض قطرات من المطر، فعقدت «إيما» حرمليتها فوق رأسها العارية.. وفي هذه اللحظة أقبلت عربة المستشار من الفندق، وقد أخذت الحوزي المخمور غفوة طارئة، فكان جسمه الضخم يري علي مقعده بين مصباحي العربة وهو يهتز يمنة ويسرة مع ارتجاجات العربة.. فقال الصيدلي:

- الحق أن من الواجب تشديد العقوبة علي مَنْ يُفِرط في تناول الخمر.. وبودي لو سجلت أسبوعيًا علي لوحةٍ خاصّة - علي باب البلدية - أسماء الذين يسكرون خلال الأسبوع من المشروبات الكحولية!.. فضلًا عن أننا سنحصل بذلك - من الناحية الإحصائية - علي قوائم سنوية رسمية، نطلع عليها عند الحاجة، ولكن.. اسمحوا لي..

وعدا ثانيةً نحو القائد!.. وكان هذا الأخير عائدًا إلي منزله ليتفقد مخروطته.. فقال له «هوميه»:

- إنك لن ترتكب خطأ لو أنك أوفدت أحد رجالك..

فأجاب مُحصل الضرائب:

- دعني وشأني!.. اطمئن!

وبعد أن عاد الصيدلي إلي أصدقائه قال:

- اطمئنوا!.. لقد أكّد لي السيّد «بينيه» أنّ التدابير اتخذت، ولم تسقط أيّة

شرارة، كما أنّ المضخات مليئة.. فهي بنا نسترح!

فقال مدام «هوميه» وهي تتشأب بقوة:

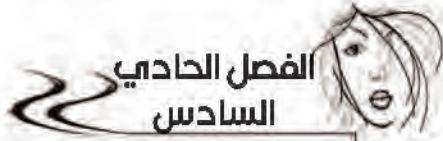
- الواقع أنّي بحاجة إلي الثوم، ولكن.. لا بأس، فقد قضينا يومًا جميلًا

كأنّه العيد!

فرّد «رودولف» بصوتٍ خفيض، ونظرة حاملة:

- آه، أجل!.. كان جميلًا جدًّا..

وانحني كلّ منهم للآخر، ثمّ انصرفوا.



رحلة الاستسلام الهادئة!

The quiet surrender journey!

ولت أسابيع لم يرجع خلالها «رودولف» إلى القرية ثُمَّ ظهر أخيرًا ذات يوم -

لقد حدثت نفسه في اليوم التالي للمعرض قائلاً: «لا يجوز أن أسرع بالعودة وإلا كان هذا خطأ .

وفي الواقع أنه نهاية الأسبوع كان قد سافر للمصيد، وبعد الصيد ظن أنه قد تأخر أكثر ممَّا يجب، ولكنه فكر علي النحو الآتي: «ولكنها إذا كانت قد أحببني منذ اليوم الأول فإن تلهفها علي رؤيتي مرَّة أخرى لابد أن يزيد بها حبًّا فلنواصل إذا!». .

ولقد فهم أن تقديره كان حكيماً، وذلك عندما رأى «إيما» يصيها الشحوب بمُجرَّد أن دخل إلى الصالة .

كانت وحدها، والنهار أخذ في الغروب، وستائر الموسلين الصَّغيرة الموضوعية علي ألواح الزجاج تزيد الشفق كثافة، وإطار البارومتر⁽⁵⁴⁾

(54) البارومتر: هو جهاز لقياس الضغط الجوي. ويمكن استخدام البارومتر أيضاً لقياس الارتفاعات المختلفة حيث يقلَّ الضغط الجوي كُلَّما زاد الارتفاع. (المعد).



المُذهب ينعكس عليه شعاع من الشمس، فينشر الوهج في المرأة بين فراغات المرجان .

وظلّ «رودولف» واقفًا! وفي مشقة استطاعت «إيما» أن ترد علي عبارات التحية الأولى.

وقال:

- لقد كانت لديّ مشاغل! لقد كنت مريضًا!

فصاحت هي:

- مرضٌ خطير؟!!

قال «رودولف»، وهو يجلس علي مقعد إلي جوارها:

- في الواقع لا!.. وإنما لم أشأ أن أعود.

- لماذا؟

- أما تستطيعين أن تعرفي؟

ونظر إليها مرّة أخرى، ولكن علي نحوٍ بلغ من العنف أن خفضت بصرها وأحمر وجهها. واستأنف قائلاً:

- «إيما»...

فقالت، وهي تتنحي قليلًا:

- سيّدي!

وأجاب في صوتٍ حزين:



- آه! ألا ترين أنني كنت علي حق عندما لم أشأ أن أعود، ذلك لأنّ هذا الاسم - الاسم الذي يملأ روحي والذي انطلق مني - هذا الاسم تحظرينه عليّ! مدام «بوفاري»!.. آه، إنّ جميع النَّاس ينادونك هكذا!.. وهذا ليس في الواقع اسمك وإنما هو اسم شخص آخر!

وكرّر:

- شخص آخر!

وأخفت وجهها بين يديها!

- نعم إنني أفكر فيك باستمرار!.. وذكرك تصيبني بالأس! آه معذرة!.. إنني أتركك.. وداعاً!.. سأذهب بعيداً جداً.. حتي لا تعودني تسمعين عني!.. ومع ذلك.. اليوم.. لا أدري أية قوّة تلك التي دفعتني نحوك! وذلك لأنّ الإنسان لا يُجاهد ضد القدر ولا يقاوم ابتسامة الملائكة! وإنما يترك الإنسان نفسه لينساق نحو ما هو جميل ساحر.. جدير بالعبادة!

وكانت هذه أوّل مرّة تسمع فيها «إيما» كلمات كهذه توجه إليها، وأخذت كبرياؤها تسترخي استرخاءً كاملاً بحرارة هذه العبارات، علي نحو ما يسترخي الإنسان بفعل حمام دافئ! واستطرد يقول:

- لكنني إذا كنت لم أحضر، وإذا كنت لم أستطع أن أراك، فإنني علي الأقل كنت أتملي كلّ ما يُحيط بك. ففي جنح الظلام كنت أستيظ كلّ ليلة وأصل إلي هنا، لأشاهد منزلك، والسقف الذي يلمع تحت القمر، وأشجار الحديقة التي تتأرجح أمام نافذتك، ومصباحاً صغيراً يلمع وميضه من خلال



الزجاج في الظلام. آه! إنك لم تكوني تعلمين أن هناك، قريباً جداً وبعيداً جداً، يائساً مسكيناً!

فالتفت نحوه وهي تشيح قائلة:

آه! كم أنت طيب!

قال:

- إنني أحبك، وهذا كل ما في الأمر! إنك لا تشكين في ذلك؟! قل لي.. كلمة!.. كلمة واحدة!



وبطريقة غير محسوسة أخذ «رودولف» ينزلق من المقعد حتي الأرض، ولكنه سمع وقع حذاء في المطبخ، كما أدرك أن باب الصلاة لم يكن مغلقاً. وواصل قائلاً، وهو ينهض:

- هل لك أن تجودي بإشباع أمل يراودني؟

وكان هذا الأمل هو أن تزور بيته، فقد كان الإنسان لا يجاهد ضد القدر. يود أن يعرفها عن كثب. ولم ترمداً «يوفاري» بأساً في ذلك، ونهض الاثنان عندما دخل «شارل».

فقال له «رودولف»:

- عمت صباحاً يا دكتور!

وطرب الطبيب لهذا اللقب غير المنتظر، فاندفع في التحيات، بينما انتهز الآخر الفرصة لكي يسترد رباطة جأشه بعض الشيء! وقال عندئذ:

- لقد كانت السيِّدة تحدثني عن صحتِّها..

وقاطعه «شارل»، فقد كان لديه في الواقع عدة أسباب للقلق، وكانت أزمات ضيق التنفس قد أخذت تعاود زوجته. وعندئذ سأله «رودولف» عمَّا إذا كانت رياضة الخيل تنفعها .

فقال «شارل» :

- دون شك! هذا يفيدها تمامًا، فكرةٌ طيبةٌ يجب أن تنفذها!

وعندما اعترضت «إيما» بأنَّها لا تملك حصانًا، عرض «رودولف» واحدًا، ورفضت عرضه، فلم يُلح. ولكي يسوِّغ لزيارته روي كيف أنَّ سائق عربته - وهو الرَّجل الذي سبق أن حضر لعملية فصد الدَّم - لا يزال يشعر بدوار.

فقال السيِّد «بوفاري» :

- سأمر بكم.

- لا، لا. سأرسله إليك.. سنحضر، فهذا أكثر راحة بالنسبة إليك..

- آه. حسن جدًّا، إنَّني أشكرك .

وبمجرَّد أن أصبحا وحيدين قال لها زوجها:

- لماذا لم تقبلي عرض السيِّد «بولانجي» بالغة اللطف؟

فقطبت جبينها، وأخذت تبحث عن مئآت الأعذار. وفي النهاية قالت:

- إنَّ هذا قد يبدو غريبًا!



فدار «شارل» علي عقبية، ثم قال:

- إنني أسخر من كُلِّ هذا! فالصَّحَّة قبل كُلِّ شيء! إنَّكَ مخطئة!

- وكيف تريد أن أركب حصانًا وليس لديَّ بنطال للركوب؟

فأجاب:

- يجب أن توصي بصنع واحد .

وبفضل البنطال عقدت عزمها!

وعندما أَعَدَّ اللباس كتب «شارل» إلي السَّيِّد «بولانجيه» يخبره أنَّ زوجته تحت تصرُّفه، وأنَّه يعلّق الأمل علي لطفه!

وفي اليوم التَّالي وصل «رودولف» عند الظَّهر أمام باب «شارل» ومعه حصانان أصيلان، تحلي أذني أحدهما حلية من القماش، ويحمل فوق ظهره سرجًا نسائيًا من جلد الغزال.

وكان «رودولف» قد ارتدي حذاءً طويلًا رخوًا معتقدًا أنها لم تر مثله قط، وبالفعل أخذت بهيئته عندما ظهر علي الدرج في سترته الطويلة المصنوعة من المخمل، وسرواله الأبيض. وكانت مستعدة في انتظاره .

وانفلت «جوستان» من الصيدلية لكي يراها، كما تحرَّك الصيدلي أيضًا، وأخذ يُقدِّم إلي السَّيِّد «بولانجيه» النصائح:

- إنَّ الحوادث سريعًا ما تقع! خذ حذرَكَ! فقد تكون خيلك جموحة!

وسمعت «إيما» ضوضاء فوق رأسها، كانت «فيليسييتيه» تدق علي الزجاج لكي تسلي الطفلة «بيرت»، وأرسلت الطفلة قُبلة عن بُعد، فردت عليها أمّها بإشارةٍ من مقبض سوطها.

وصاح السيّد «هوميه» :

.. نزهةٌ طيبة! ولكن ألزما الحذر! الحذر!

وهز جريدته وهو ينظر إليهما يتعدان .

ويُمرّجّد أن أحس حصان «إيما» بالأرض أخذ يعدو، و«رودولف» يعدو إلي جوارها. وكانا يتبادلان الحديث أحياناً، وقد خفضت وجهها قليلاً، ورفعت يدها إلي أعلي، ومدّت ذراعها الأيمن، وتركت نفسها تهتز علي إيقاع الحركة التي أخذت ترنحها فوق السرج..

وعند أسفل الهضبة أرخي «رودولف» العنان فانطلقا معاً في خطوةٍ موحدة، ثمّ توقف الحصانان فجأةً عندما وصلا إلي القمة فانسدل وشاحها الأزرق الكبير .

كان يومًا من الأيام الأوّلي من شهر أكتوبر (تشرين الأوّل)، وكان ضباب فوق الحقول، وقد امتدّت الأبخرة في الأفق بين سفوح التلال وتمزقت أبخرةٍ أخرى وصعدت وتلاشت، وأحياناً كانت السحب تنفجر تحت شعاع من الشمس فتلوح عن بعد سقوف «أيونفيل»، والحدائق علي حافة المياه، والجدران وبرج الكنيسة، وكانت «إيما» تضم جفونها لكي تتعرّف علي منزلها، ولم تظهر لها هذه القرية المسكينة التي تسكنها في مثل هذا الصّغر قبل اليوم، أو من الارتفاع الذي كانا فيه لاح الوادي كبخيرة شاحبة تتبخّر



في الهواء، وكتل الأشجار تبرز هنا وهناك كأنها صخور سوداء، وصفوف أشجار الجوز العالية التي ترتفع فوق الضباب قد لاحت كالألواح التي تُحرّكها الرياح ..

وهكذا واصل «رودولف»، و«إيما» السير علي حافة الغابة، وكانت تلتفت من وقتٍ إلي آخر لكي تتجنبَ نظرته، وعندئذ لم تكن تري غير جذوع الصنوبر المتراسة، وقد سبّب لها متابعتها شيئاً من الدوار، والحصانان يلهثان، وجلد السرجين يقرقع .

وفي اللحظة التي دخلا فيها الغابة ظهرت الشمس ..

فقال «رودولف» :

.. إنَّ عناية الله ترعانا.

فقالت:

- إلي الأمام! إلي الأمام!

وقرقع بلسانه فعدا الحصانان .

وكانت أغصان السيسبان⁽⁵⁵⁾ الطويلة النامية علي حافة الطرق تعلق بركاب «إيما»، وكان «رودولف» ينحني وهو يواصل السير لكي يتزعمها، وفي بعض الأحيان كان يمرّ إلي جوارها لكي ينحي الأغصان، وكانت «إيما» تحس بركبته تمس ساقها. وكانت السماء قد أصبحت زرقاء ولم تعد

(55) السيسبان: هي شجيرة إلى شجرة كبيرة حسب ظروف التربة متحملة للجفاف إلى حدّ ما، والعامل الأساس الذي يُحدّد نموّها هو كمية مياه الري المقدمة لها، وتستخدم أساساً كمصد للرياح على أطراف الحقول والبساتين. ولأوراق السيسبان استعمالات طبية، كما يمكن استخدام هذه الشجرة كمصدر مهم للأعلاف الخضراء. (المعد).

الأوراق تتحرك، ومساحات شاسعة قد امتلأت بالأعشاب المزهرة، ويقع من زهرة البنفسج تتتابع مع ورق الشجر الذي كان رمادياً أو مُصفراً أو مُذهباً، تبعاً لاختلاف الورق. وكثيراً ما كان يُسمع تحت الأعشاب انسياب خفقة جناح أو صيحة مبحوحة عذبة تطلقها الغربان التي كانت تتطاير بين أشجار الببلوط.

وترجلاً، وربط «رودولف» الحصانين، وسارت «إيما» أمامه فوق الحشائش بين دروب الطريق، لكنَّ الثوب الطويل أخذ يضايقها بالرغم من أنَّها حملته مرفوعاً من الذيل، وأخذ «رودولف» يتأمل وهو يسير خلفها رقة جوربها - بين سواد الرداء وسواد الحذاء - وقد لاح له كأنَّه جزء من جسمها العاري.

وتوقفت قائلةً:

- لقد تعبت .

فقال:

- هيا فلنحاول مرّةً أخرى تشجعي!

وبعد ذلك بمئة خطوة وقفت ثانيةً. ومن خلال وشاحها الذي تدلي إلي رديفها، من القبة التي كانت تلبسها، لاح وجهها في شفافية ضاربة إلي الزرقة، وكأنَّها قد سبحت تحت أمواج لازوردية⁽⁵⁶⁾.. وقالت:

- إلي أين نذهب؟

(56) اللازورد: هو فيلِزُ سهاوي الزرقة يُستخدم كحجر كريم للزينة، تعتبر أجود أنواع اللازورد ما كانت زرقته صافية وضاربة إلى الحمرة أو الخضرة. (المُعد).



فلم يجب بشيءٍ. وكانت تنفس تنفسًا متقطعًا. ودار «رودولف» ببصره من حوله وعض شاربته.

ووصلًا إلي مكانٍ فسيح كانت قد قطعت أشجاره، وجلسا فوق جذع شجرة مطروح علي الأرض، وأخذ «رودولف» يتحدث إليها عن حُبّه..

وفي أوّل الأمر لم يتحفها قط بعبارات غزله، فقد كان هادئًا جدًا مبتسمًا.. وكانت «إيما» تنصت إليه خافضة الرأس، وهي تُحرّك بطرف قدمها قطعًا من الأعصان المتساقطة علي الأرض.

و أجابت علي قوله:

.. أليس قد أتحد مصيرنا الآن؟

بقولها:

.. آه.. لا! أنت تعرف جيدًا، هذا مستحيل!

ونفضت لكي ترحل فأمسك بمعصمها، فتوقفت ثم أخذت تتأمله بضع دقائق بعين ولهي ندية، ثم قالت في حيوية:

.. آه. فلنمسك عن الحديث.. أين الحصانان؟ فلنعد.

وبدرت منه عندئذ حركة غضب وضجر، فكَرَّرت قولها:

.. أين الحصانان؟ أين هما؟

وعندئذ ابتسم ابتسامة غريبة وقد جمدت حدقتا عينيه وضغط علي أسنانه، وتقدّم نحوها فاتحًا ذراعيه فارتدت إلي الخلف واجفة، وهي تتمتم

.. آه! إنك تخيفني.. إنك تؤلمني! فلنرحل!



فقال وقد تغيّر وجهه:

- إذا لم يكن بد!

وأصبح بعد ذلك مباشرة حفيًا مُداعبًا حييًّا. وأعطته ذراها وقفلا راجعين،
ثم قال:

- ما بك إذا؟ لماذا؟ إنني لم أفهم! إنك بلا ريب مخطئة.. فأنت في قلبي
كتمثال العذراء مريم فوق قاعدته، في مكان مرتفع متين نقي! وأنا في حاجة
إليك لكي احتمل الحياة! إنني في حاجة إلي عينيكَ، إلي صوتك، إلي
تفكيرك. فلتكوني صديقتي.. أختي.. ملاكي!!

ومد ذراعه وطوّق خصرها، وحاولت في رخاوة أن تتخلّص. وظلّ
يسندها هكذا وهما سائران.

لكنّهما سمعا الحصانين يريان العشب .

فقال «رودولف» :

- ليس بعد.. فلنتنظر.. فلنبق!

وقادها بعيدًا عند مستنقع كان العشب المائي يكسو أمواجه خضرة،
وعندما أحست الضفادع بوقع أقدامها فوق العشب أخذت تقفز لكي تختبئ..

قالت:

- إنني مخطئة.. نعم مخطئة، بل ومجنونة إذا استمعت إليك.

- لماذا؟.. «إيما».. «إيما»!

وفي بطةٍ قالت السيّدة الشّابة وهي تميل علي كتفه:

.. آه! «رودولف»!..

وتعلق قماش ثوبها بمحمل سترته، وطرحت إلي الخلف رقبتها البيضاء التي انتفخت منتهدة، ثم انهارت باكية واعترتها رعشة طويلة وأحفت وجهها واستسلمت!

وانسدلت ظلال المساء، وتسلفت أشعة الشمس بين الأغصان، فأعشت عينيهما، وانتشرت حولها هنا وهناك بين الأوراق أو علي الأرض بقع من الضوء أخذت تهتز، وكأن طائراً قد نثر ريشه وهو يطير. وكان الصمت منتشرًا في كل مكان، وكأن شيئاً عذباً ينبعث عن الأشجار،

وأحست بقلبيها يستأنف خفقاته، والدم يجري في عروقها.. وعندئذ سمعت عن بُعد خلف الغابة وفوق التلال الأخرى صيحة غامضة ممتدة.. صوتاً متراخياً. استمعت إليه في صمتٍ وقد امتزج كالموسيقى بآخر اهتزازات أعصابها الثائرة، وقد وضع «رودولف» سيجارة بين أسنانه وأخذ يصلح بسكينه أحد العنانين المكسورين .

وعاد إلي «أبو نفيل» من الطريق نفسها ورأيا علي الوحل آثار حصانيهما جنباً إلي جنب، كما رأيا الأشجار والأحجار نفسها في العشب فلم يتغير شيء ممّا حولهما، ومع ذلك فقد حدث بالنسبة إليهما شيء أكثر خطورة من انتقال الجبال من مكانها، ومن وقتٍ إلي آخر، كان «رودولف» ينحني ويأخذ يدها ليقلبها .

كانت ساحة فوق الحصان! وقد انتصبت بخصرها الضامر وركبتها المثنية فوق عرف الدابة، وقد تلون وجهها قليلاً في الهواء الطلق وفي حمرة المساء .

ودخلا «أبو نفيل». وأخذت تمشي علي الطريق المرصوف والناس ينظرون إليها من النوافذ .



الفصل السابع عشر



مغامرات مجنونة!

Crazy Adventures!

كان زوجها يتناول العشاء وقد وجدها مشرقة الطلعة، ولكنَّ كان يلوح أنَّها لا تسمعه عندما كان يسألها عن نزهتها. وقد ظلت متكتة يمرقها بجوار طبقها بين الشمعتين المضيئتين.

فقال:

- «إيما»!

- ماذا؟

- لقد أمضيت بعد ظهر اليوم عند السيّد «ألكسندر»، ووجدت عنده مهرة، لكنَّها لا تزال فتية، وإن تكن ركبها مسلختين. وإنني لمؤكد من أنَّه يمكن الحصول عليها بمئة فرانك.

وأضاف:

- ولمَّا كنت أظن أنَّ هذا قد يروقك فقد حجزتها لك.. لقد اشتريتها.. فهل أحسنت صنعًا؟ أجيبي!

فهزت رأسها كدليل علي الموافقة. وبعد ذلك برع ساعة سألته:



- هل ستخرج هذا المساء؟

- نعم. لماذا؟

- آه! لا شيء، لا شيء يا عزيزي.

وبمجرد أن تخلصت من «شارل» صعدت وحبت نفسها في غرفتها.

كانت في أول الأمر في شبه دوار، فكانت تري الأشجار والطرق و«رودولف»، وكانت لا تزال تحس بضمة ذراعيه، بينما تهتز الأعشاب وينبعث الصفيير من الغابة.

ولكنها عندما رأت نفسها في المرأة دهشت لمنظر وجهها، فهي لم ترقط عينيها بمثل هذا الاتساع وهذا السواد وهذا العمق، وقد طرأ علي شخصها شيء غامض غيّر ها تغييرًا تامًا.

وكانت تُكرّر: «إن لي عشيقًا! عشيقًا».. وهي تتلذذ بهذه الفكرة، وكأنها نزوة مراهقة قد عادت إليها، فهي سوف تمتلك إذا لذات الحبّ وحُمَي السعادة التي كانت يثست منها. ودخلت في جوّ عجيبٍ انقلب فيه كلّ شيء إلي انفعال وهيام وهذيان، وكأنّها تسبح في محيط مترام ضارب إلي الزُرقة، وقمم الإحساس تبرق أمام خاطرها. أمّا الحياة العادية فلم تعد تلوح أمامها إلّا عن بعد.. وفي أسفل.. في الظلال بين هذه القمم.

وعندئذ تذكرت بطلات الروايات التي قرأتها، وأخذت تلك الكوكبة الشعرية من النساء الزانيات يغنين في ذاكرتها بأصوات أخوات سحرتهن. فقد أصبحت هي نفسها جزءًا حقيقًا من تلك الخيالات، وقد حقّقت حلم شبابها الطويل وهي تتأمل نفسها في ذلك النوع من العاشقات الذي طالما تلهفت

إليه! وفوق ذلك كُلُّه أحست بنوع من الرضا للانتقام، فهي قد قاست الكثير، لكنَّها قد انتصرت الآن، والحبُّ الذي كبتته طويلاً قد أخذ ينفجر بعنفوانه الكامل كقفقاع مرحة، وأخذت تتذوقه من غير ندم ولا قلق ولا اضطراب.

ومرَّ اليوم التَّالي في عذوبةٍ جديدةٍ، فتبادل العاشقان العهود وقصَّت عليه أحزانها، وكان «رودولف» يقطعها بقبلاته، وكانت تطلب إليه، وهي تتأمله بعينها المغمضتين نصف إغماضه، بأن يدعوها ثانية باسمها، وأن يُكرِّر أنَّه يُحبُّها. وكانا في العابة كالיום السَّابق تحت خصص للفلاحين كانت جذرانه من القش وسقفه منخفضاً بحيث يقف الإنسان فيه منحنيًا، وقد جلسا أحدهما إلي جوار الآخر علي فراشٍ من الأوراق الجافة.

ومنذ ذلك اليوم أخذتا يرسلان بانتظام كُلَّ مساء. وكانت «إيما» تحمل خطابها إلي طرف الحديقة بجوار النهر وتضعه في شقٍّ من السياج، حيث كان «رودولف» يأتي ليأخذه ويضع مكانه خطاباً آخر، وكانت «إيما» تشكو دائماً من إيجازه في الكلام.

في صباح يوم - وكان «شارل» قد خرج قبل الفجر - قادتها نزوة أن تري «رودولف» فوراً. وكان من الممكن أن تصل إلي «لاهاشيت» سريعاً، وأن تبقي هناك ساعة ثُمَّ تعود إلي «أيونفيل» بينما لا يزال جميع النَّاس نائمين. فأسالت هذه الفكرة لُعبها، وإذا بها وسط المراعي تسير بخطي سريعة دون أن تنظر خلفها.

وكان الفجر قد أخذ يبرز فعرفت «إيما» عن بُعد منزل عشيقها، حيث كانتا دوَّارتا الريح المنصوبتان فوقه والمصنوعتان علي شكل ذيل السنونو قد أخذتا تتحدَّدان سوداوين فوق الغسق الشاحب.



وبعد جرن المزرعة كان يقوم بناء لابدَّ أنَّه القصر، فدخلته، وكأنَّ الجدران قد انشقت من تلقاء نفسها لمقدمها. وقادها سلَّم كبير إلى الدهليز، وأدارت مزلاج الباب، فإذا بها تلمح فجأة في نهاية الغرفة رجلاً نائمًا، لقد كان «رودولف». وأطلقت صيحة.

فقال:

- ها أنتِ ذي! ها أنتِ ذي! كيف حضرتِ؟ آه لقد تبلَّل ثوبكِ!

فأجابت وهي تطوق رقبتَه بذراعيها:

- إنَّني أُحبُّكِ!

ولمَّا كانت هذه الفعلة الجريئة الأولى قد نجحت، ففي كُلِّ مرَّة كان يخرج فيها «شارل» مبكرًا كانت «إيما» ترتدي ملابسها مسرعة وتنزل - في خطوة الذئب - الدرج الذي يؤدي إلى ضفَّة النهر.

ولكنَّها عندما كانت تجد معبر البقر الخشبي مرفوعًا، كانت تضطر إلى أن تسير في محاذاة الجدران الممتدة على طول النهر.

ولمَّا كان الشاطئ زلَّقا، فإنَّها كانت تمسك بيديها شجيرات القرطم⁽⁵⁷⁾ الذابلة لكي لا تسقط، ثُمَّ كانت تختصر الطريق بالسير في الحقول المحروثة حيث كانت تغور وتتعثر ويغوص حذاؤها الرفيع. وكان خمارها المعقود فوق رأسها يهتز في الريح وسط الأعشاب، وكانت تخاف من البقر فتأخذ

(57) القرطم جنس نباتي ينتمي إلى الفصيلة النجمية. يضم هذا الجنس بضع عشرات من الأنواع أهمها القرطم الصباغي الذي يؤخذ منه العصفور. موطن معظم أنواعه حوض البحر الأبيض المتوسط. أمَّا العُصفُر فهو زهرة القرطم المصبوغ يستعمل لصبغ الأكل وله فوائد طبية. (المُعد).

في العدو، وتصل لاهثة وردية الخدين وقد انبعث من وجودها كُلُّه عطر نضر
من الخضرة والهواء الطلق، ويكون «رودولف» لا يزال نائمًا فتبدو كصباح
يوم ربيعي يدخل غرفته!

وكانت الستائر الصفراء علي طول النوافذ ترسل في رفق شعاعًا ذهبيًا
ثقيلًا ينفذ إلي الغرفة، وكانت «إيما» تتحسس ما أمامها، وعيناها تختلجان،
بينما قطرات الندي المعلقة بخصلات شعرها تلوح كهالة من الزَّبَرَجَد⁽⁵⁸⁾
حول وجهها، و«رودولف» يجذبها نحوه وهو يضحك، ويضمها إلي قلبه.

وبعد ذلك كانت تفحص البيت وتفتح أدراج الأثاث وتمشط شعرها
بمشطه وتنظر في مرآته، وكثيرًا ما كانت تضع بين أسنانها مبسم غليون ضخم
تجده علي منضدة السرير، وسط الليمون وقطع السكر إلي جوار إبريق ماء.

والواقع أنَّه لم يكن يكفيها ربع ساعة للوداع، وعندئذ كانت تبكي وتود
ألا تفارق «رودولف» قط. لقد كانت مدفوعة نحوه بشيء أقوى، ولقد قطب
وجهه يومًا متضايقًا عندما رآها تفاجئه بالمجيء.

فقالت:

.. ما بك؟ هل أنت مريض؟ قل لي!

وأخيرًا أعلن لها في لهجةٍ جادةٍ أنَّ هذه الزيارات أصبحت مجازفة وأنَّها
تورط نفسها!

(58) الزَّبَرَجَد نوعٌ من أنواع الأحجار الكريمة. يعرف الزَّبَرَجَد في عالم المجوهرات بلونه
الزيتوني الشفاف وصلابته المرتفعة والتي تصل إلى 5,6 درجة على مقياس موس، بينما
صلابة صخر الجرانيت تبلغ 5 درجات علي نفس المقياس. وتعد مناجم الزبرجد ذي اللون
الزيتوني نادرة التواجد في العالم. (المعد).





الورطة!

The dilemma!

شيئاً فشيئاً أخذت مخاوف «رودولف» تتغلب عليها. ففي البداية كان الحُب قد أثملها وأسكرها فلم تكن تُفكر في شيءٍ سواه. أمّا الآن وقد أصبح شيئاً ضرورياً لحياتها فإنّها صارت تخشى أن تفقد منه شيئاً، أو أن يُعكر صفوه أي شيء. وفي أثناء عودتها من عنده كانت تلقي عليّ كلّ ما حولها نظرات قلقة فترقب كلّ شبح يمر بالأفق، وكلّ كوة بالقرية يمكن أن يراها منها أحد، وكانت تنصت لوقع الأقدام والصيحات، ولضوضاء المحارث، وكانت تقف أحياناً شاحبة مرتعدة أكثر من أوراق الحور التي تهتز فوق رأسها.

و ذات صباح بينما كانت عائدة عليّ هذا النحو، إذا بها تتبيّن فجأةً ماسورة بندقية كبيرة لاح أنّها موجهة إليّ خدها، وكانت هذه الماسورة تبرز بميل فوق حافة برميل صغير، غاص نصفه بين الأعشاب، عليّ حافة حفرة. وبالرغم من أنّ «إيما» كانت عليّ وشك الإغماء من الخوف، فإنّها تقدّمت، وخرج رجل من البرميل، كتلك العفاريث ذات اللولب التي تقفز من قاع الصناديق، وكان يرتدي حذاءً طويلاً ذا أفعال يصعد حتيّ ركبتيه، وقلنسوة مكبوسة حتيّ عينيه، وشفثاه ترتعدان وأنفه أحمر.. لقد كان القائد «بينه» مثيرباً للبط البري!!

وصاح قائلاً:

- كان يجب أن تتكلمي عن بُعد. وعندما يري الإنسان بندقيته يجب دائماً أن ينبه!

وكان المُحصِّل يحاول بهذا أن يخفي الخوف الذي انتابه، وذلك لأنَّ قراراً من المديرية كان يحظر صيد البط إلا في القارب. وبالرغم من احترام السيّد «بينيه» للقوانين، إلا أنَّه كان متلبساً بمخالفتها. ولذلك كان يظن في كُل لحظة أنَّه يسمع الخفير قادماً. لكن هذا القلق كان يثير لذته، وكان يزهو وحيداً في البرميل بسعادته ودهائه!!

وعندما رأي «إيما» لاح أنَّه يتنفس الصعداء، فأخذ نفوره يتجاذب معها الحديث:

- إنَّ الجوَّ ليس دافئاً.. إنَّه قارس!

ولم ترد «إيما» بشيء. فاستمر يقول:

- وهأنْتِ خرجتِ مبكرة!

فقالت متممة:

- نعم.. إنَّني قادمة من عند مرضعة طفلي!

- آه.. حسنٌ جداً! حسنٌ جداً! وأمّا أنا منذ مطلع الفجر ترينني هنا علي هذه الهيئة وفي هذا الجوَّ من الرداءة، بحيث إذ لم يأخذ الإنسان أهفته كاملة..

فقاطعت «إيما» وهي توليه ظهرها قائلة:

- وداعاً يا سيّد «بينيه»!

فأجاب بلهجة جافة:

- خادمك المطيع يا سيّدتى!

ثمّ انسحب إليّ برميّله.

وندمت «إيما» لأنّها غادرت المُحصِّل فجأةً عليّ هذا النحو، فهو لا ريب سوف يفترض فروضاً غير سارة، وكانت حكاية المرضعة أسوأ اعتذار، ذلك لأنّ جميع النّاس في «أيونفيل» كانوا يعلمون جيّداً أنّ الطفلة «بوفاري» كانت قد عادت إليّ أهلها منذ عام، هذا فضلاً عن أنّ أحداً لم يكن يسكن في تلك الناحية، وهذا الطريق لم يكن يؤدى إلّا إليّ «لاهاشيت».

وإذاً فلا بد أنّ «بينيه» قد عرف من أين كانت قادمة، وهو لن يسكت، بل سوف يثرثر بكلّ تأكيد، وظلت تجهد ذهنها حتي المساء في جميع مخارج الكذب التي يمكن تصوورها، وقد ظلّ ماثلاً أمام عينيها باستمرار ذلك المغفل ذو البندقيّة!

ولمّا رآها «شارل» بعد العشاء مهمومة أراد أن يرفه عنها بأن يأخذها عند الصيدلي. وكان أوّل شخص لمحتّه في الصيدلية هو المُحصِّل ثانيةً، كان واقفاً أمام المصرف وقد أنصب عليه الضوء من خلال الإناء الأحمر، وهو يقول:

- أعطني نصف أوقية من ماء النّار من فضلك.

فصاح الصيدلي:

- أعطنا حامض الكبريتيك يا «جوستان».

ثمّ خاطب «إيما» التي كانت تريد أن تصعد إليّ جناح مدام «هوميه»:

- لا.. ابقي لا تتعبى نفسك فإنّها ستنزّل. أدفني نفسك أمام المدفأة إليّ أن تنزّل.. معذرةً. مرحبا يا دكتور.

وعندما طلب منه «بينيه» نصف أوقية من حامض السكر، قال الصيدلي
في ترفع:

- حامض السكر؟ إنني لا أعرف شيئاً كهذا، لا علم لي به! ربما تريد أن
تقول حامض الأوكساليك⁽⁵⁹⁾؟ أليست هي الكلمة التي تقصدها؟

وأوضح له «بينيه» أنه في حاجة إلي مادة كاوية لكي يُرْكَب بنفسه محلولاً
من ماء النحاس يزيل به الصدأ عن عدد من أدوات الصيد.. فانتفضت «إيما»،
وقال الصيدلي:

- حقاً! إنَّ الجوَّ غير ملائم بسبب الرطوبة!

فقال المُحصِّل بخبث:

- ومع ذلك فإنه يلاءم بعض الأشخاص!

فشعرت «إيما» بالاختناق.

وقال «بينيه»:

- أعطني أيضاً...

فقالت لنفسها: «يبدو أنه لن يرحل أبداً!

- أعطني نصف أوقية من الغراء والترابنتينة وأربع أواق من الشمع
الأصفر، وثلاثة أرباع أوقية من فحم الحيوان، من فضلك، لتنظيف الجلد
المصقول في أدواتي .

(59) حمض الأكساليك، أو حمض أوكساليك oxalic acid هو مركب عضوي قوي. وهو
عبارة عن بلورات صلبة عديمة اللون يذوب في الماء. يوجد بكميات لا تضر في نباتات
عديدة على صورة حمض. ويعتبر تناول حمض الأكساليك من خلال ملامسة الجلد أو الفم
أمر خطير للغاية. (المُعد).

وابتدأ الصيدلي في تقطيع الشمع عندما ظهرت مدام «هوميه»، واتجهت لتجلس علي أريكة المخمل إلي جوار النافذة. كان الصَّمت مخيمًا فلم يكن شيء يسمع غير وقع الصنج في الميزان من وقتٍ إلي آخر، وبعض عبارات يهمس بها الصيدلي إلي تلميذه كإرشادات.

وفجأةً سألت مدام «هوميه» :

- وكيف حال طفلتكما الصَّغيرة؟

فصاح زوجها الذي كان يكتب أرقامًا في دفتر المسودات:

- هس!

فاستأنفت بصوتٍ خافت:

- لماذا لم تحضروها؟

فقالت «إيما»، وهي تشير بأصبعها إلي الصيدلي:

- هس! هس!

ولكنَّ «بينيه» الذي كان منهمكًا بمراجعة الحساب لم يسمع شيئًا فيما يبدو. ثمَّ خرج أخيرًا. فتخلَّصت «إيما» من الكابوس وتنفست الصعداء!

وقالت مدام «هوميه» :

- إنَّك تتنفسين تنفُّسًا عميقًا!

فأجابت:

- آه. ذلك لأنَّ الجوَّ حار!



غواية الحب!

Seduction of love!

حرصت «إيما»، و«رودولف»، في اليوم التالي علي تنظيم مقابلاتهما. وأرادت «إيما» أن ترشو خادمتها بهدية، وإن كانت تفضل لو أنهما عثرا في «أيونفيل» علي بيتٍ منزوٍ. ووعد «رودولف» بالبحث عنه في أقرب وقت.

وخلال فصل الشتاء كان يأتي إلي الحديقة في ظلام الليل ثلاث أو أربع مرّات كُل أسبوع. وقد عمدت «إيما» إلي أن تنزع من باب السياج المفتاح الذي ظنّ «شارل» أنّه فقد.

وكان «رودولف» إذا أراد أن يُعلمها بوصوله يقذف خشب النافذة بحفنة من الرمل فتنهض قافزة، وإن كان يضطر أحياناً إلي الانتظار، وذلك لأنّ «شارل» كان مولعاً بالثرثرة إلي جوار النّار، ولم تكن ثرثرته تنتهي أبداً.

وكانت اللفة تفتك بها، ولو أن عيناها استطاعتا لقفتا به من النافذة. وأخيراً كانت تلبس ملابس النّوم ثم تأخذ كتاباً وتستمر في القراءة في هدوء، كأنها مسرورة بهذه القراءة. ولكنّ «شارل» الراقص في السرير كان يدعوها لكي تنام قائلاً:

- «إيما»، تعالي لقد حان وقت النوم!

فتجيب:



- نعم، إنني قادمة!

ومع ذلك، فلمّا كانت الشموع تعشي بصره فإنّه كان يستدير نحو الحائط ويغلبه النعاس، فتفتلت حابسة أنفاسها، مبتسمة، نابضة، عارية!

وكان لـ «رودولف» معطف كبير يلفها فيه بأكملها ويطوق خصرها بذراعيه ثم يقودها في صمتٍ حتى نهاية الحديقة.

كان يأخذها تحت العريشة علي المقعد نفسه المصنوع من الأعواد المتعفنة حيث كان «ليون» ينظر إليها بعين والهة خلال أمسيات الصيف.. لكنّها لم تعد تُفكر فيه الآن!

كانت النجوم تتلألأ من خلال أغصان الياسمين العارية عن الورق، وكانا يسمعان من خلفهما خرير مياه النهر، وهنا وهناك كانت تتنفخ كتل من الظلال وسط الظلام، وتهتز كلّها أحياناً بحركةٍ واحدة، وتنهض ثم تنحني كأمواج ضخمة سوداء، تتقدّم لكي تغطيها. وكان برد الليل يحملهما علي تشديد العناق، وتنهذات شفاههما تلوح لهما أكثر قوّة. وعيونهما التي لا تكاد يبيّنانها تلوح أكثر اتساعاً. وفي وسط الصّمت كانا يتهاامسان بعبارات تسقط علي روعيها كرنين البلور، وتردّد عنها ذبذبات عديدة متكاثرة.

أمّا في الليالي المطيرة فكانا يلجآن إلي حجرة الفحص بين المخزن والحظيرة، وكانت توقد أحد مشاعل المطبخ وقد خبأته خلف الكتب، وكان «رودولف» يتربع هناك كأنّه في بيته، ومنظر المكتبة والمكتب، والمكان كلّهُ يشير مرّحه.

ولم يكن يستطيع أن يمسك عن أن يُطلق علي «شارل» عدة نكات تخرج «إيما» التي كانت تود أن لو رأته أكثر جدّاً، بل وأكثر انفعالاً عندما تستدعي المناسبة، كما حدث عندما تُخيّل إليها أنّها تسمع وقع أقدام تقترب.

فقلت:

- إنَّ أحدًا قادم!

فأطفأ النور.

- هل لديك مسدسك؟

- لماذا؟

فأجابت «إيما» مندهشة:

- لماذا؟ .. لكي تحمي نفسك!

- أحميها من زوجك؟ آه! هذا المسكين!!

وأنهي «رودولف» عبارته بحركة تُفيد أنَّه: «يستطيع أن يسحقه بخدشة ظفر».

فأذهلتها شجاعته، وإن تكن قد أحست بنوع من الغلظة والسماجة الساذجة التي استهجنتها.

وفكر «رودولف» كثيرًا في حكاية المسدس، وظنَّ أنَّها كانت جادة في هذه الحكاية. فهي إذاً مضحكة إلى أقصى حد، بل شنيعة! وذلك لأنَّه لم يكن لديه أي سبب يغيض من أجله هذا الرَّجل الطيب «شارل» وإلا كان معني هذا أنَّه يلتهب ضده غيره. وكانت «إيما» قد حدَّثته في هذا الصدد حديثًا طويلًا لم يجد فيه ذوقًا سليمًا.

ثمَّ إنَّها أصبحت عاطفية. وكانا قد تبادلا صورًا مصغرةً وخصلات من الشعر كتذكُّار، لكنَّها أخذت تطلب الآن خاتمًا - خاتم زواج حقيقيًا - شعارًا للارتباط الأبدي. وكثيرًا ما كانت تحدِّثه عن أجراس المساء، أو عن أصوات الطبيعة، ثمَّ تحدِّثه عن أمِّها، وهو يحدثها عن أمِّه التي كان «رودولف» قد



فقدّها منذ عشرين عامًا. ومع ذلك فقد كانت «إيما» تعزيه عنها في عباراتٍ تافهةٍ، كتلك التي توجه إليّ طفل محروم، بل وكانت تقول له أحيانًا، وهي تنظر إليّ القمر:

- إنني واثقة من أنّهما تباركان حُبنا في عليائهما!!

ومع ذلك كانت رائعة الجمال، ولم يكن قد عثر إلاّ عليّ القليل من هذا الصفاء، فهذا الحُبّ الخالي من انتهك كان بالنسبة إليّ شيئًا جديدًا أخرجني من استهتاره المألوف، وأخذ يداعب كبرياءه ولذته الحسية عليّ السواء. أمّا اندفاع «إيما»، ذلك الاندفاع الذي كان يحتقره بحسه البرجوازي، فأخذ يبدو له ساهمًا في أعماق قلبه ما دام موجهًا إليّ شخصه. ومنذ أن استوثق من حُبّها فتر اهتمامه وأخذت معاملته تتغيّر في تدّرج غير محسوس. لم تعد تصدر عنه - كما كان يفعل من قبل - مثل تلك الكلمات العذبة التي تسيل لها دموعها، ولا مثل تلك القُبلات الحارة التي تحس بها جنونًا، حتي حُيِّلَ إليها أنّ حُبّها العظيم الذي غاصت فيه قد أخذ يغيض أو يتلاشي من تحتها، كميّاه النهر التي تغيض في مجراه حتي تكشف لها الوحل! ولم ترد أن تصدق، فضاعت من حنانها، لكنّ «رودولف» أخذ يتحلّل شيئًا فشيئًا من إخفاء عدم مبالاته، ويُقلِّل شيئًا فشيئًا من حرصه عليّ إخفاء فتوره.

ولم تدر هل تندم لاستسلامها له، أم عليّ العكس تأمل في أن تريده حُبًّا، وهل ينقلب الإذعان الذي أحسته - لضعفها - إليّ حقدٍ لا تطفئ نار اللذات؟ ولم يكن الأمر تعلقًا بل غواية مستمرة، فقد سيطر عليها، وأصبحت تحس نحوه بما يشبه الخوف .

ومع ذلك فقد كانت المظاهر أكثر هدوءًا من أي وقت مضى. وقد استطاع «رودولف» أن يقود «الخاطئة» وفق هواه.



موجة حنان طارئة!

An emergency wave of tenderness!

عندما جاء الربيع، بعد ستة أشهر، وكان هذا الموعد الذي يرسل الأب «روو» الديك الرومي، تذكراً لساقه التي جبرت. وكانت الهدية تصل مصحوبة بخطاب، فقطعت «إيما» الحبل الذي يعلقه بالسلة، وقرأت الأسطر التالية:

«أبنائي الأعزاء ..

إنني لأرجو أن يجدكم خطابي هذا في صحّة جيّدة، وأن يكون هذا الديك في جودة سابقه، وذلك لأنّه يلوح لي أكثر ضراوة، وأجرو أن أقول أكبر حجماً.. ولكنني في المرّة القادمة سأعطيكم - للتغير - ديكاً من الدجاج، وذلك ما لم تكونوا تفضلون السمك. و أرجو أن تعيدوا السّلة مع السّلتين السّابقتين! ولقد حدثت حادثة عندي لمظلة العربات، إذ طارت ريح عاتية يسقفها وسط الأشجار، كما أنّ المحصول لم يكن مفرط الجودة! وأخيراً لست أدري متي سأحضر لرؤيتكم، فمن الصّعب عليّ أن أترك المنزل الآن، منذ أن أصبحت وحيداً يا بنيّتي العزيزة» .

وكان في هذا الموضوع فراغ بين السطور، وكان الارتجاف قد ترك القلم يسقط من يده لكي يسبح في أحلامه بعض الوقت..



«..وأما عن نفسي فأنتي بخير، فيما عدا الزكام الذي أصبت به من أيام في سوق» إيفيتو، حيث ذهبت لكي أستحضر راعيًا للغنم، بعد أن طردت الراعي الذي كان عندي بسبب شرايته. ويا ويلنا من هؤلاء اللصوص أمثال ذلك الراعي..

ولقد علمت من تاجر متجول مرّ ببلدكم هذا الشتاء، واقتلع ضرسًا، أنَّ «بوفاري» يجهد نفسه دائمًا في العمل. وليس في هذا ما يدهشني، ولقد أراني ضرسه وتناولنا القهوة سوياً.. وقد سألته عمّا إذا كان قد رآكَ فأجاب بالنفي، لكنّه أخبرني أنّه قد رأى حصانين في الحظيرة فاستتجت أنَّ العمل يسير سيرًا مرضيًا، وفي هذا ما تطيب له نفسي يا أبنائي الأعزاء، وليضف الله عليكما كلّ سعادة يمكن تصورها.

وإنّه لمّا يحزنني ألا أعرف حتي الآن حفيدتي العزيزة «بيرت بوفاري»، ولقد غرست في الحديقة وتحت النافذة من أجلها شجرة إجاص⁽⁶⁰⁾ بري، ولا أريد أن يمسه أحد اللهم إلا لكي يظهر لها فيما بعد فاكهة مطبوخة و أحفظه لها في الصوان عندما تحضر!

وداعًا أبنائي الأعزاء، وأقبلِك يا ابنتي كما أقبل صهري والطفلة علي اللوجنتين..

مع تحياتي..

أبوكم الحنون
«ثيودور روو»

(60) الإِجْاص Pyrus (بكر الهزمة وتشديد الجيم)، هو نفسه ثمر الكُكْثُرَى. (المُعد).

وظلت بضع دقائق ممسكة بهذه الورقة السميكة بين أصابعها.. وكانت أخطاء الإملاء آخذة بعضها برقاب بعض.. وكانت «إيما» تتابع تلك الروح العذبة التي تتواري خلالها، كالزجاجة المخفية تحت كومة من الشوك! كانوا قد جففوا الكتابة برماد النَّار فتساقط بعض الغبار الرمادي من الخطاب فوق ثوبها. وكانت تتصوّر أباهَا منحنيًا فوق المدفأة لكي يتناول الملقط. وأخذت تُفكّر في الزمن الطويل الذي لم تعد تجلس فيه إلي جواره فوق المقعد المنخفض حول المدفأة وهي تشعل طرف عصا في لهب البوص البحري الذي يثّر، وتذكّرت أمسيات الصيف المشمسة والمهر تصهل عندما يمرّ شخص، وتعدو ثمّ تعدو، وكانت هناك تحت نافذتها خلية نحل، وكان النحل يحوم أحيانًا في الضوء ويصطف بألواح الزجاج ككراتٍ ذهبية مزهوة..

أية سعادة كانت في تلك الأيام! وأية حُرّيّة! وأي أمل! أي فيض من الأحلام! كلّ هذا لم يبق منه شيء الآن! لقد أنفقته في مغامرات روحها خلال مراحل حياتها المتتابعة: أيام عذوبتها، وأيام الزواج، وأيام الحبّ، وهي تفقدها باستمرار علي طول حياتها، كالمسافر الذي يترك شيئًا من ثروته في كلّ فندق من الفنادق الطويل!

ولكن، مَنْ الذي تسبّب لها في كلّ هذه التعاسة؟ وأية كارثة خارقة تلك التي قلبت حياتها؟.. ثمّ رفعت رأسها، وأخذت تنظر من حولها، وكأنّها تبحث عن السبب الذي نتج عنه هذا الشقاء.

كان شعاع من أشعة الشمس أبريل (نيسان) يداعب الأواني الصدئة فوق الرف، والنَّار تتقد. وأحست رقة السجاد تحت خُفها، وكان اليوم مشرقًا، والجوفاترا، وسمعت طفلتها ترسل الضحكات.



لقد كانت الطفلة تتدحرج فوق العشب وسط الحشائش التي كانوا يجففونها. وكانت مستلقية علي بطنها فوق حجر طاحون، وخادمتها تمسكها من ثوبها. وكان «ليستيبودوا» يمزق الأرض إلي جوارها. وكلّما أقترَب كُلمّا انحنت، وهي تضرب الهواء بكلتا ذراعيها.

وقالت الأمُّ وهي تهوّل لكي تُقبّلها:

- أحضريها إليّ! كم أحبّك أيتها الطفلة المسكينة!.. كم أحبّك!

ثمّ لمحت أنّ في طرف أذنها بعض الوسخ، فدقت الجرس بسرعة لكي يحضروا لها بعض الماء الساخن ونظفنها، وغيّرت ملابسها وجوربيها وحذاءها، وألقت آلاف الأسئلة عن صحتّها، وكأنّها عائدة من رحلة. وأخيرًا قبلتها ثانية، وبكت قليلًا، ثمّ ردتها بين يدي الخادمة التي ظلت مندهشة من ذلك الحنان المفرط!

وفي المساء وجدها «رودولف» جادة أكثر من العادة.

فقدر أنّها نزوة سوف تمرّ.

وتغيّب عن ثلاثة مواعيد متتالية. وعندما عاد تظاهرت بالبرود، بل وبالاحتقار.

- آه! إنك تضيعين وقتك يا صغيرتي ..

وبدا أنّه لا يلاحظ تنهداتها الحزينة، ولا المنديل الذي كانت تشده ..

وعندئذ استشعرت «إيما» الذنب!

بل إنّها تساءلت: «لماذا تبغض «شارل» إذا؟ ألم يكن من الأفضل أن تُحبّه؟ لكنّها لم تستجب لسلطان هذا الإحساس بل ظلت بالغة الحيرة إزاء هذا الدافع الضعيف نحو التوضيحية، حتي أتى الصيدلي في الوقت المناسب لكي يتيح لها فرصته.



هل خسر الطبيب مهنته، وزوجته؟

**The doctor has lost his
profession, and his wife ?**

كان قد أطلع الصيدلي «هوميه» أخيرًا علي تقرير علي طريقة جديدة
لعلاج الأقدام المشوهة. ولمّا كان من أنصار التقدّم، فقد خطرت له تلك
الفكرة الوطنية التي ترتفع بـ«أيونفيل» إلي المستوى اللائق بها، وهي أن
تجري فيها عمليات إصلاح جراحة العظام!!

قال لـ«إيما» :

- وأي خطر في ذلك؟.. لنبحث الأمر!

ثم أخذ يعدّد علي أصابعه مزايا هذا المشروع:

- نجاح مؤكّد تقريبًا، تخفيف عن المرضى وتجميلهم، وشهرة سريعة
للجراح!.. ولماذا لا يُريد زوجك مثلاً أن يُخلّص هذا المسكين «هيوليت»
خادم «الأسد الذهبي» ؟ ولتلاحظي أنّه لن يحجم عن أن يقصّ قصّة شفائه
علي جميع النزلاء!

ثمّ خفض «هوميه» من صوته، ونظر حوله وقال:



- ثُمَّ ما الذي يمنعني أن أرسل إليّ الجريدة نبذة صغيرة في هذا الصدد؟
وسيتشر المقال ويتحدّث عنه الناس، حتي ينتهي الأمر بالتضخم ككرة
الجليد. ومنْ يدري؟! .. مَنْ يدري؟!

والواقع أنّه كان من الممكن للطبيب أن ينجح. ولم يكن هناك شيء
يثبت لـ «إيما» أنّه غير ماهر. وأي رضي عن نفسه ستصيبه إذا دفعته نحو هذا
المشروع الذي سيزيد من شهرته وثروته؟ ولم تكن تبغي إلّا أن تستند إليّ
شيء أكثر صلابة من الحُبّ.

والحّت هي الصيدلي علي «شارل» فأقتنع، وأستحضر من «روان»
مجلد الدكتور «ديفال». وفي كلّ مساء كان يأخذ رأسه بين يديه ثُمَّ يغوص
في القراءة.

وبينما كان يدرس سبب اعوجاج القدم من أسفل ومن الداخل ومن
الخارج، كان السّيّد «هوميه» يحث خادم الفندق بمختلف الحجج لكي
يطلب إجراء العملية الجراحية، قائلاً:

- إنك لن تكاد تحس شيئاً، ربما ألماً خفيفاً.. وخزة بسيطة كعملية فصد
صغيرة.

وكان «هبوليت» يدور بعينين بلهاوتين وهو يُفكر.

ويُضيف الصيدلي:

- علي أيّة حال فإنّ هذا لا يعنيني، وإنما هو في مصلحتك، وبدافع إنساني
خالص، وإنما أريد أن أراك يا بني وقد تخلصت من هذا العرج القبيح،
واهتزاز جسدك ممّا لا بدّ - مهما قلت - أن يُسيء إليك في تأدية عملك!

ثُمَّ صَوَّرَ لَهُ «هومييه» كيف أَنَّهُ سوف يحس بعد العملية بِأَنَّهُ أَكْثَرُ قُوَّةً ونشاطاً، بل ولمح لَهُ بِأَنَّهُ سيصبح في حالة أدعي إلى الاستحواذ علي إعجاب النساء! فأخذ الخادم يبتسم ابتسامة ثقيلة، ثُمَّ أخذ «هومييه» يتملّق غروره فقال:

- أفلست رجلاً؟ وماذا كنت فاعلاً لو أَنَّكَ جُندت لتحارب في ظل العلم؟.. آه! «هيبوليت»! ...

ثُمَّ أخذ «هومييه» يبتعد وهو يصرح بِأَنَّهُ لا يفهم هذا العناد وهذا التعامي عن أفضال العلم!

واستسلم الشاب المسكين! وذلك لِأَنَّ الأمر كان كمؤامرة، فـ«بينيه» الذي لم يكن يتدخل في أمور الآخرين قط، ومدام «لوفرانسوا»، و«أرتميز»، بل والعمدة، وجميع الناس أخذوا يدفعونه ويلحون عليه ويخجلونه، وكان في مجانية العملية ما انتهى به إلى اتخاذ قرار، بل وتعهد «بوفاري» بِأَن يُقدِّم الآلة اللازمة للعملية. وقد كانت «إيما» صاحبة فكرة هذا السخاء، الذي وافق عليه «شارل» وهو يُردّد في أعماق نفسه أَنَّ زوجته ملاك.

وبعد محاولات ثلاث ومع إرشادات الصيدلي استطاع التجّار بمساعدة الحداد أن يصنع شيئاً يشبه الصندوق وزنه ثمانية أرطال تقريباً لم ينقصه شيء من الحديد والخشب والقماش والجلد والمسامير اللولبية .

ومع ذلك فلكي يعرف «شارل» أي عضل سيقطعه لـ«هيبوليت»، كان لابدّ من أن يعرف أولاً أي نوع من العرج كان في قدمه.



ولمّا كان مُصابًا باعوجاج سفلي فقد كان من الواجب قطع عضلة «أخيل» علي أن يقطع فيما بعد عضلاً داخلياً في السَّاق لكي يتخلَّص من الاعوجاج الداخلي، وذلك لأنَّ الطَّبيب لم يكن يجرؤ أن يجازف بعمليتين في الوقت نفسه، بل وكان يرتعد خوفاً من أن يمس موضعاً مهمّاً لا يعرفه .

اقترب الطَّبيب «شارل» من «هيوليت» ممسكاً بمبضع العضلات بين أصابعه، وكما يحدث في المستشفيات كنت تري هناك علي مائدة جانبية كومة من القماش وخطاً مشمّعاً وكثيراً من الضمادات.. بل هرمًا من الضمادات.. كلُّ ما كان عند الصيِّدلي من ضمادات!! وكان السيّد «هوميه» هو الذي نظم منذ الصباح كلَّ هذه المعدات (وذلك لكي يبهز الجمهور، ثُمَّ لكي يرضي غروره). وشق «شارل» الجلد فسمعت قرقرة جافة، وقطع العضل، وانتهت العملية، ولم تنهي دهشة «هيوليت»، الذي انحني علي يدي «بوفاري» وأخذ يغطيها بالقمّلات .

وقال الصيِّدلي:

- هيا.. ألزم الهدوء وسوف تعترف فيما بعد بالفضل لمن أحسن إليك.

ونزل «هوميه» لكي يقصّ ما حصل علي خمس أو ستة من الفضولين الذين كانوا يرابطون في صحن الدار، والذين كانوا يتصورون أنَّ «هيوليت» سيظهر ماشياً مشيئةً مستقيمة. وبعد أن وضع «شارل» ساق مريضه في المُحرّك الميكانيكي عاد إلي منزله حيث كانت «إيما» تنتظره علي الباب في لهفةٍ، فقفزت إلي عنقه، وجلسا إلي المائدة، وأكل كثيرًا، بل وأراد أن يتناول مع الحلوى فنجاناً من القهوة، وهذا نوعٌ من البذخ لم يكن يسمح لنفسه به إلّا في يوم الأحد عندما يكون لديه ضيوف.

وكانت الأمسية ساحرة مليئة بالأحاديث والأحلام المشتركة، فقد تحدثنا عن ثروتهم المقبلة وعن التحسينات التي سيدخلانها في منزلهما. وأخذ هو يتخيل صيته يذيع وريخاءه يزداد، وزوجته تُحبّه دائماً. وأخذت هي تحس بنفسها سعيدة وبحياتها تنتعش بإحساس جديد أكثر سلاماً وخيراً، كما أخذت تستشعر شيئاً من الحنان نحو هذا الرجل المسكين الذي يُحبّها. ومرّت بخاطرها لحظة صورة «رودولف» ولكن عينيها انصرفتا إلي «شارل»، بل ولاحظت في دهشة أن أسنانه لم تكن قبيحة.

وكانا في السرير عندما دخل السيّد «هوميه» فجأةً إلي الغرفة، بالرغم من الخادمة، وفي يده ورقة لم يجف مدادها بعد، هي إعلان أعده لجريدة «فانال دي روان»، وقد حملته إليهما ليقرأه.

وقال «بوفاري» :

... اقرأه أنت.

فقرأ:

... بالرغم من الآراء الرجعية التي لا تزال تغطي جزاءً من سطح أوروبا كالشبكة، فإنّ الضوء قد أخذ مع ذلك يتغلغل في ريفنا. ففي يوم الثلاثاء كانت مدينتنا الصّغيرة «أبونفيل» مسرحاً لتجربةٍ جراحيةٍ تُعتبر في الوقت نفسه من أعمال البر، وذلك أنّ السيّد «بوفاري» أحد جراحيّ البارزين ...

وقال «شارل»، وقد خنقه الانفعال:

... آه. هذا كثير.



- أبداً.. أبداً.. كيف هذا؟.. قد أجري عملية في قدم أعرج ..إنني لم أضع
الاصطلاح العلمي ولذلك أنه في جريدة سيارة كما تعلم..وقد لا يفهمه
الجميع، ومن الواجب أن الجماهير...

وقال «بوفاري» :

- هذا حق ..استمر.

وقال الصيدلي :

- ها أنا أواصل .. السَّيِّد «بوفاري» أحد جراحينا الممتازين قد أجري
عملية في ساق أعرج، للمدعو «هيبوليت توتان» الذي يعمل منذ خمسة
وعشرين عامًا خادماً إسطنبول في فندق «الأسد الذهبي» الذي تديره الأرملة
مدام «لوفرانسوا» في ميدان السلاح. وقد كان في جدة هذه المحاولة
وفي الأهمية المعلقة علي هذا الموضوع ما أستحوذ علي مشاعر السكان،
فتجمعوا في زحامٍ شديدٍ عند مدخل المبنى. وقد تمت العملية فيما يشبه
السحر، ولم يسَلْ من الدَّم غير بضع نقط علي الجلد، وكأنَّما سألت لكي
تنبئ بأنَّ العضلة الجموح قد انتهت بالاستسلام لمجهودات الفنِّ. ومن
المدَّهش أنَّ المريض (كما تحققتنا بأعيننا) لم يستشعر أي ألم، وحالته الآن
لا تترك مجالاً لمستزيد. وقد تضافرت الدلائل علي أنَّ دور النقاهة سيكون
قصيراً. ومنْ يدري فلعلنا نشاهد في عيدنا الريفي المقبل فتانا «هيبوليت»
الشجاع، وهو يرقص وسط جوقة من الفتية المرحين، وبذلك يثبت لجميع
الأعين بمرحه وخفته شفائه الكامل؟ ألا فلنحي علماءنا الأخيار، تلك
الأرواح التي لا تمل والتي تكرر لياليها لتحسين جنسها، أو للتخفيف من
آلامه.. فلنحييها ولنحييها أكثر من مرَّة، أو لسنا في موقف يصح أن نصيح

معه أنَّ العميان سيصبرون، والصم سيسمعون، والعرج سيمشون؟ وما كان التعصّب الديني يعد به المؤمنين قد أصبح العلم الآن يُقدّمه لجميع البشر. ولنسوف نوافي القراء بالمراحل المتتابة لهذا العلاج الفذ.

ولكن كُلّ هذا لم يمنع الأُمّ «لوفرانسوا» من أن تأتي بعد ذلك بخمسة أيام ملتاعة وهي تصيح:

.. النجدة.. إنّه يحتضر.. إنني أكاد أفقد صوابي..!

وهرول «شارل» إلي «الأسد الذهبي».. ولمحه الصيدلي وهو يمرّ في الميدان بغير قبة، فترك الصيدلية وقد لاح هو نفسه لاهثاً محمراً قلقاً، وأخذ يسأل كُلّ أولئك الذين كانوا يصعدون السُلّم:

.. ما الذي أصاب أخرجنا العزيز؟

لقد كان الأعرج يلتوي في تقلّصات بشعة، حتي أنّ المُحرّك الميكانيكي الذي كان قد وضع فيه ساقه كان يصدم الحائط وكأنّه سيهدمه. وفي كثير من الاحتياط، لكي لا يتغير وضع الساق، سحبوا الصندوق، وإذا بهم أمام منظر بشع. فمعالم القدم قد اختفت في ورم بلغ من الضخامة أنّ الجلد كُله راح علي وشك الانفجار، وقد تغطي بكدمات سببتها تلك الآلة الشهيرة التي كان «هيوليت» قد شكّا منها، ولكنّ أحداً لم يلتفت إليه. وقد أصبح من الواجب الآن أن يعترف بأنّه لم يكن مخطئاً كُلّ الخطأ، ولذلك تركوه حُرّاً بضع ساعات، ولكن لم يكد يختفي الورم قليلاً حتي رأي العالمان الفاضلان أنّه من الأنسب إعادة ساقه إلي الجهاز مع زيادة إحكامه لكي يسرعوا في الأمر. وأخيراً لم يستطع «هيوليت» الاحتمال بعد ثلاثة أيام، فسحبوا الآلة مرّة ثانية ولاحظوا لشدة دهشتهم النتيجة: وهي ظهور خراج متقيح يمتد علي الساق



مع بثور هنا وهناك يسيل منها سائل أسود. واتخذت المسائلة وضعًا جديدًا. فـ«هيوليت» قد أخذ يتضجر، والأُمّ «لوفرانسوا» قد وضعت في الصالة الصَّغيرة التي بجوار المطبخ وذلك لكي يجد بعض التسلية علي الأقلّ.

ولكنّ المُحصِّل الذي كان يتناول عشاءه كُلّ يوم هناك أخذ يشكو - في مرارةٍ - من مثل هذا الجوار، فنقل «هيوليت» عندئذ إلي صالة البلياردو .

لقد كان هناك يئن تحت غطاءه السميك، شاحبًا، مرسل اللحية، غائر العينين. ومن وقتٍ إلي آخر كان يُقلِّب رأسه الغارق في العرق فوق الوسادة القذرة التي يتساقط عليها الذباب، وكانت مدام «بوفاري» تأتي وهي تحمل إليه قطعًا من القماش لعمل اللزقات، وكانت تواسيه وتشجعه. وهو فوق ذلك لم يكن يعدم الصحبة، وخصوصًا أيام السوق عندما كان الفلاحون يدفعون من حوله كرات البلياردو، ويتبارزون بالمضارب، ويدخنون ويشربون ويغنون ويتصاحبون. وكانوا يقولون له وهم يضربون علي كتفه:

- كيف حالك؟ آه. إنَّك لست فخورًا فيما يبدو! ولكنها غلظتكَ. يجب أن تفعل هذا وتفعل ذاك ..

وكانوا يقصون عليه قصص أناس شفوا جميعًا بعلاجٍ آخر غير علاجه. ثمّ يضيفون علي سبيل المواساة:

- إنَّك تستسلم إلي نفسك كثيرًا. انهض إذا. إنَّك تدلل نفسك كأنك ملك. آه! وعلي آيةٍ حال فإنَّ رائحتك ليست طيبة أيها العفريت.

والواقع أنَّ الغرغرينا كانت تتزايد شيئًا فشيئًا، وكان «بوفاري» يكاد يفقد بسببها صوابه، فهو يأتي في كُلِّ ساعة، و«هيبوليت» ينظر إليه في كُلِّ لحظة بعينين مليئتين بالفرع ويتمتم وهو ينشج من البكاء:

..متي سأشفي؟... آه... أنقذني... يا لي من بائس... يا لي من بائس..

وكان الطيب ينصرف دائمًا وهو يوصيه دائمًا بالامتناع عن الطعام .

وكانت الأمُّ «لوفرانسوا» تعقب عليه بقولها:

- لا تستمع إليه يا بني. كفي ما أنزلوا بك من عذابٍ. إنَّك تزداد ضعفًا..
خذ.. ابتلع.

و كانت تُقدِّم إليه بعضًا من الحساء الجيد، وقطعًا من الفخذ، وقطعًا من الدهن، وأحيانًا كؤوسًا صغيرة من الخمر التي لم يكن يجد الشجاعة ليرفعها إلي شفتيه .

وعلم القس أنَّه يزداد سوءًا، فطلب أن يراه، وابتدأ بالثناء لألمه مع الإشارة إلَّا أنَّ عليه أن يتهج مادامت تلك إرادة الرَّبِّ، وأن يتهز في سرعة هذه الفرصة لكي يتصالح مع السماء .

وقال رجل الكنيسة بنغمة أبوية:

- ذلك أنَّك كنت تهمل بعض الشيء واجباتك، وقلما كنت تُري في الصَّلَاة! وكم من السنين لم تقترب فيها من المائدة المقدسة.

ووعد المسكين. وعاد القسيس في الأيام التالية، وكان يتحدث مع صاحبة الفندق، بل ويقصُّ حكايات ممزوجة بالنكات والأحاجي التي لم



يفهما «هيوليت» وبمجرد أن تسنح له الفرصة كان يعود إلي مسائل الدين وقد أتخذ وجهه مظهرًا ملائمًا .

والظاهر أن حماسه قد أثمرت، وذلك لأنَّ الأعرج لم يلبث أن أبدي رغبته في الذهاب إلي الحج في «بون سكور» إذا شفي، وأجاب القس علي ذلك بأنَّه لا يري ضيرًا في هذه الرَّغبة، وأنَّ مضاعفة الحيلة خير، وليس في الأمر أيَّة مخاطرة .

ولكن الصيدلي امتعض ممَّا سماه مناورات القسيس التي تسيء - في رأيه - إلي نقاهة «هيوليت» . وأخذ يُردِّد علي مسامع مدام «لوفرانسوا» :

- اتركه! إنَّك تنزلين بروحه الاضطراب بهذه الغيبيات .

ولكنَّ السيِّدة لم تعد تقبل الاستماع إليه لأنَّه كان السبب في كُلِّ شيء . بل ودفعته روح العناد إلي أن تُعلق في فراش المريض قنينة من الماء المقدس وغصنا من شجر البقس⁽⁶¹⁾ .

ومع ذلك فلا الدين ولا الجراحة استطاعا أن يُسعفا، وأخذ التعفن العاتي يتصاعد باستمرار من الأطراف إلي البطن، وعبثًا كانوا يستبدلون العقاقير، والضمادات، فعضلاته تزداد تفكُّكًا يوميًا بعد يوم .

وأخيرًا أجاب «شارل» بحركة موافقة من رأسه عندما سألته الأم «لو فرانسوا» عمَّا إذا كان من الممكن، كملاذٍ أخير، أن تستقدم من «نيوشاتل» السيِّد «كانيفيه» لذائع الصيت .

(61) البقس: شجر يشبه الآس خشبه ضلب، يُعمل منه بعض الأدوات. توجد أنواع أخرى معروفة تستخدم كسياج وتُشكَّل بِإشكالٍ هندسية جميلة.

كان دكتوراً في الطب في الخمسين من عُمره، يشغل مركزاً رفيعاً، وكان واثقاً من نفسه، ولذلك لم يتحرّج كزميل من أن يضحك في ترفع، عندما اكتشف تلك الساق التي ضربت فيها الغرغرينا حتي الركبة. وبعد أن صرح في حزم بأنه لا بدّ من بترها، انصرف إلي محل الصيدلي حيث أخذ يثرثر ضد أولئك الحيوانات، الذين انتهوا بهذا الرّجل المسكين إلي مثل هذه الحالة. وأخذ يهز السيّد «هوميه» من زرار سترته، ويصيح:

- هل من الممكن تقويم أقدام عرجاء؟ إنّ هذا يشبه مثلاً محاولة تقويم ظهر أحدب!

وكان «هوميه» ينفخ وهو يستمع إلي هذا الحديث، وإن أخفي ضيقه في ابتسامة مصطنعة لأنّه كان في حاجة إلي أن لا يغضب السيّد «كانيفيه» الذي كانت تذاكر أدويته تصل أحياناً حتي «أيونفيل»، ولذلك لم يقم بالدفاع عن «بوفاري»، بل ولم يبد أية ملاحظة، وتخلي عن مبادئه وضحي بكرامته في سبيل المصالح الجدية لتجارته.

وكان بتر الفخذ بواسطة الدكتور «كانيفيه» حدثاً جليلاً في القرية. فاستيقظ جميع السكان في ذلك اليوم في ساعة مبكرة، وبالرغم من أنّ الشارع الرئيس كان مليئاً بالنّاس، إلّا أنّه كان يلوح حزيناَ كثيراً، وكأنّهم بإزاء تنفيذ حكم بالإعدام، فكانوا يتناقشون عند البقال حول مرض «هيوليت» والمحلات لا تباع شيئاً، وزوجة العمدة لم تتحرّك من النافذة بسبب حالة اللهفة التي كانت فيها في انتظار قدوم الجراح

ووصل الجراح في عربته التي كان يقودها بنفسه، وبعد أن دخل كالإعصار تحت باب «الأسد الذهبي» تقدّم إليه «هوميه». فقال الدكتور:



- إني معتمد عليك . هل نحن مستعدون ؟ إلي العمل .

ولكن الصيدلي أعترف - وقد أحمر وجهه خجلاً - بأنه من الحساسية بحيث لا يستطيع أن يحضر مثل هذه العملية .

وأردف قائلاً :

- عندما يكون الإنسان مُجرّد مشاهد فإن الخيال يصدمك كما تعرف .. ثمَّ
أنَّ جهاززي العصبي من
فقاطعه «كانيفيه» قائلاً :

- آه .. كلام فارغ . إنَّك تلوح علي العكس عرضه لداء السكتة . ولو أنَّ
هذا لا يدهشني لأنَّكم أيها السَّادة الصيادلة تحبسون أنفسكم باستمرار في
مطبخكم ممَّا ينتهي بتغيُّر مزاجكم .

ثمَّ دخل هذان السيِّدان في مناقشةٍ قارن فيها الصيدلي هدوء الجراح
بهدوء قائد الجيش، وذلك دون أي مراعاة لـ «هيبوليت» الذي كان يتصبَّب
عرقاً في دثاره من شدة الفزع . وأن تكن المقارنة قد راقَت لـ «كانيفيه»، الذي
أسترسل في الحديث عن مقتضيات فنِّه الذي يعتبره رسالة مقدسه . وأخيراً
عاد إلي المريض ففحص الضمادات التي أحضرها «هوميه»، وهي نفسها
التي كانت قد ظهرت عند عملية إصلاح السَّاق الأعرج، وطلب شخصاً
لكي يمسك له السَّاق، فأرسلوا لإحضار خادم الكنيسة . وبعد أن شمَّر السيِّد
«كانيفيه» عن ساعديه دخل صالة البلياردو بينما بقي الصيدلي مع صاحبة
الفندق .

وفي تلك الإثناء لم يجرؤ «بوفاري» علي أن يتحرك من منزله، حيث ظلّ في الصالة بالدور الأرضي جالساً إلي جوار المدفأة الخالية من النّار، وذقنه فوق صدره، وقد شبك يديه وجمدت حدقته وهو يُفكّر: «يا له من حظ سيء. يا لها من خيبة أمل». ومع ذلك، فإنّه كان قد أخذ جميع الاحتياطات التي يمكن تصوّرها. ولكنّ القدر تدخل في الأمر. ولكنّ إذا حدث أن مات «هيبوليت» بعد ذلك، فإنّه سيُعتبر القاتل. ثمّ أي تفسير سيُقدمه في أثناء عيادته لمرضاه عندما يُسأل عن هذا الحادث؟ ومع ذلك فلعله أخطأ في شيء ما! وأخذ يبحث، ولكنّه لم يهتد إلي شيء. ولكنّ ألا يخطئ أشهر الجراحين؟ هذا ما لا يُريد أحد أن يعتقد. بل أنّهم علي العكس سوف يضحكون وينبحون ويذيع الخبر في كلّ مكان.. ومنّ يدري أنّ الزملاء لن يكتبوا ضده ويثور حول ذلك جدل، ويتطلّب الأمر الرد في الصحف، بل قد يرفع «هيبوليت» ضده دعوي. وأخذ يتصوّر نفسه وقد أهين شرفه ونزل به الخراب وضاع. وتوالت علي خياله جملة من الافتراضات أخذ يسبح بينها كالبرميل الخالي الذي يحمله البحر ويتقلب بين الأمواج.

وكانت «إيما» تنظر إليه وهي في مواجهته، وإن لم تشاطره مذلته (إذا كان لها مذلة أخرى، هي أنّها قد تصوّرت أنّ مثل هذا الرّجل يمكن أن يساوي شيئاً، وكأنّها لم تكن قد تبيّنت من قبل - في وضوح - أكثر من مرّة تفاهته وخيبته!!)

وأخذ «شارل» يروح ويجيء في الغرفة وحذاءه يقرقع

فوق خشبها.

فقالت «إيما»: :



- أجلس، فأنتك تثير أعصابي.

فعاد إلي الجلوس .

كيف حدث أن عادت فأخطأت الحكم رغم شدة ذكائها؟ ثم أي جنون محزن ذلك الذي جعلها تتلف حياتها علي هذا النحو في توضحياتٍ مستمرة؟ وتذكرت جميع غرائز البذخ الكامنة في نفسها، وكل ما في روحها من إحساسات بالحرمان، وما في الزواج ومنزل الزوجية من حقارة، ثم أحلامها التي سقطت في الوحل كالسنونو الجريح، وكل ما رغبت فيه وحرمت نفسها منه، وكل ما كانت تستطيع أن تناله. ثم لماذا .. لماذا؟

ووسط الصمت الذي كان مخيمًا علي القرية ارتفعت صرخة حادة اخترقت الهواء، فشح لون «بوفاري»، إلي حد الإغماء، وقطبت «إيما» حاجبيها بحركة عصبية، ثم واصلت خواتمها: «فمن أجله.. من أجل هذا الكائن.. هذا الرجل الذي لا يفهم شيئًا، ولا يحس بشيء، فهو محتفظ بهدوئه لا يخطر بباله أن العار الذي سيلطخ اسمه سوف يلطخها هي الأخرى كما يلطخه. ولقد بذلت مجهودات لكي تحبه ثم ندمت! لأنها استسلمت لشخص آخر .

وفجأة صاح «بوفاري» إذ كان يفكر:

- لعلها كانت سوسة؟

وعند مفاجأتها بهذه العبارة التي سقطت في نفسها ككرة من الرصاص في طبق من الفضة، انتفضت «إيما» ورفعت رأسها لكي تحس ما أراد أن يقوله. وأخذ كل منهما ينظر إلي الآخر في صمتٍ وكأنه مذهول عن نفسه،

وذلك لشدة البُعد الذي كان بين ضميرهما. فـ«شارل» ينظر إليها نظرة مضطربة كالمخمور، وهو ينصت جامدًا لأخر صيحات الأعرج التي تبتز ساقه، وهي تتنايع في موجاتٍ متراخيةٍ تقطعها تشنُّجات حادة كالخوار البعيد المنبعث عن دابة تُذبح، وأخذت تعض شفثيها الشاحبتين، وتدير بين أصابعها غصنًا صغيرًا من اللبلاب الذي كسرتة، وقد ثبتت فوق «شارل» سنان حدقتيها الحادتين وكأنَّهما سهمان من نارٍ علي أهبة الانطلاق، وقد أخذ كُلُّ شيءٍ فيه يثيرها الآن: وجهه وحُلته.. وما لم يقله.. وشخصه كُلُّه.. وأخيرًا وجوده ذاته.. كما أخذت تُحاسب نفسها علي عفتها الماضية وكأنَّها جريمة وقد انهار ما تبقي من تلك العفة تحت صوت كبريائها المحتدمة. وأخذت تتلذذ بمساخر الرُّبا المتصر، وعادت إليها ذكرى عشيقها مصحوبة بلذاتٍ ثملة. وألقت بروحها إلي تلك الذكرى، محمولة إليها بحماسةٍ جديدةٍ، وقد لاح لها «شارل» منفصلًا عن حياتها ومختفيًا إلي الأبد ومستحيلًا ومنعدم الوجود كأنَّه صائر إلي الموت وأنَّه يحتضر تحت ناظريها.

وسمع وقع أقدام علي الرصيف، فنظر «شارل»، ومن خلال خشب النافذة المسدل رأي إلي جانب السوق تحت وهج الشمس الدكتور «كانيفيه» وهو يجفف جبهته، و«هوميه» من خلفه حاملًا صندوقًا كبيرًا أحمر ثُمَّ اتجه الاثنان ناحية الصيدلية.

وعندئذ التفت «شارل» نحو زوجته في انهيارٍ وحنانٍ مفاجئ، وقال:

- قبليني يا عزيزتي.

فقالَت وقد أحمر وجهها من الغضب:

- إليك عني.



فأخذ يُرَدِّد مندهشًا:

- ماذا بك.. ماذا بك؟ اهدئي. استردي جأشك.. إِنَّكَ تعلمين جيدًا أَنني أَحَبُّكَ.. تعالي..

فصاحت في نبرةٍ مخيفةٍ:

- كفي!

ثُمَّ هربت من الصالة وأغلقت الباب في عنفٍ، حتي أَنَّ البارومتر سقط عن الحائط وتكسر علي الأرض .

وتهاوي «شارل» في مقعده وقد أختل مزاجه، وأخذ يبحث عمَّا يمكن أن يكون قد أصابها، فتصوَّر مرضًا عصبيًا، واستسلم للبكاء كَمَنْ رأي في غموضٍ شيئًا مشؤومًا غير مفهوم يحوم حوله.

وعندما وصل «رودولف» إلي الحديقة في المساء، وجد عشيقته تنتظره عند أسفل السلم علي أَوَّل درجة فتعانقا ووذابا حقدَهما كالجليد تحت حرارة العناق .



امرأة تتماذي في طيشها!!

A woman goes on in her stupidity

ومن جديد بدأ غرامهما، بل كثيراً ما كانت تكتب إليه فجأةً وسط النهار
ثم تُشير من خلال الزجاج إلي «جوستان»، الذي كان يحل مريثته في سرعةٍ
ويطير إلي «لاهاشيت»، ويصل «رودولف» لكي تشكو إليه السأم وتقول إنَّ
زوجها كرهه وإنَّ الحياة كريهة .

وصاح بها يوماً وقد نفذ صبره:

- وهل لي في ذلك حيلة؟

فقالت وهي جالسة علي الأرض بين ركبتيه محلولة الضفائر زائغة البصر:

- نعم لو أردت..

فقال «رودولف»:

- كيف؟

فتنهدت قائلةً:

- أن نذهب لنعيش بعيداً من هنا.. في مكانٍ آخر..

فقال ضاحكاً:



.. أمجنونة أنتِ .. هل هذا ممكن؟

وعادت إلي هذا الموضوع. فتظاهر بأنه لا يفهم وغير مجري الحديث .
والشيء الذي لم يكن يفهمه هو كُـلُّ هذا الاضطراب في شيء بسيط
كالحُبِّ، ولابدَّ أنَّه كان لديها باعث وسبب آخر يضاف إلي هذا التعلق .

والواقع أنَّ هذا الحُبِّ كان يزداد نموًا كُلَّ يوم مع زيادة نفورها من
زوجها، وكلَّما استسلمت لأحد الرّجلين كُلَّما ازدادت بغضًا للآخر. ولم
يظهر لها «شارل» قط في مثل هذا القبح: أصابعه في مثل هذه الغلظة،
وروحه في مثل هذا الثقل، وعاداته في مثل هذا الابتذال، كما كان يبدو
بعد مقابلاتها لعشيقها ثُمَّ اجتماعها بزوجها، فإنَّها رغم تمثيلها عندئذ دور
الزوجة والمرأة الفاضلة، كانت تلهبها صورة ذلك الرأس الذي يلتف شعره
الأسود في خصلةٍ نحو الجبهة الملوحة، وصورة ذلك القد الذي يجمع بين
القوة والرشاقة، فمن أجله كانت تسوي أظافرها في عنايةٍ، ومن أجله لم تكن
تقنع بأية كمية من المساحيق لوجهها، أو من العطور لمناديلها. وقد أثقلت
نفسها بالأساور والخواتم والعقود، وعندما كان يحين موعد قدومه كانت
تملأ بالورد زهرتيها الكبيرتين المصنوعتين من الزجاج الأزرق، وكانت
ترتب بيتها وتهندم شخصها كغانيةٍ تنتظر أمير. وكان لابدَّ للخادمة من أن
تعمل طول النَّهار في غسل البياضات، كما أنَّ «فيليسيتية» لم تكن تتحرَّك
هي الأخرى طوال النَّهار من المطبخ حيث كان «جوستان» الصَّغير يصاحبها
ويراقبها وهي تعمل .

وكانت «إيما» تمتلك في صوانها كمية من الأحذية تبذر فيها تباعًا، دون
أن يسمح «شارل» لنفسه قط بأن ييدي في ذلك أية ملاحظة.

وبهذا التسامح نفسه دفع «شارل» ثلاثمئة فرنك ثمنًا لساق من الخشب رأت زوجته فيها هدية مناسبة لـ«هيوليت». وكان تجويف الساق الاصطناعية مغلفًا بالفلين ولها مفاصل لولبية وصناعتها مُعقدة ومن فوقها سروال أسود، كما تنتهي بحذاء من الجلد اللامع المصقول. ولما كان «هيوليت» لا يجروء علي أن يلبس في جميع الأيَّام مثل هذه الساق الجميلة، فقد تضرَّع إلي مدام «بوفاري» لكي تحصل له علي ساق أخرى أكثر سهولة في استخدامها، وبالطبع تكفل الطبيب بثمان هذه السَّاق الأخرى.

وعلي هذا النحو أخذ «هيوليت» يستأنف عمله شيئًا فشيئًا، فكان يري وهو يحوب البلدة كما كان يفعل من قبل. وعندما كان «شارل» يسمع عن بُعد صوت عصاه الجاف فوق الرصيف كان يسرع باتخاذ طريق آخر.

وكان السيّد «ليريه» التاجر هو الذي عهد إليه بشراء السَّاقين، فأتاح له ذلك فرصة التردّد علي «إيما»، حيث أخذ يتحدّث معها عن واردات باريس الحديثة، وآلاف المبتكرات النسائيّة. وكان يُظهر لها مجاملة شديدة فلا يطلب نقودًا قط. واستسلمت «إيما» إلي تلك السهولة التي وجدتها في إشباع جميع نزواتها، فمثلاً أرادت أن تُقدّم إلي «رودولف» سوطًا جميلًا كان موجودًا في دكان مظلات في «روان»، فإذا بالسيّد «ليريه» يضعه بعد أسبوع أمامها علي المنضدة.

ولكنّه تقدّم إليها في اليوم الثَّالي بفاتورة بمئتين وسبعين فرنكًا، فأخرجت «إيما» إحراجًا شديدًا، إذ كانت جميع أدراج مكتبها خالية، وكانوا مدينين علي سبيل المثال للخادمة بستة أشهر، فضلًا عن مجموعة من الديون



الأخرى، وكان السيّد «بوفاري» ينتظر بصبر نافذ الدفعة التي اعتاد السيّد «ديروزييه» أن يدفعها له كلّ عام في عيد القديس بطرس.

وقد نجحت أوّل الأمر في أن تتخلّص من «ليريه»، ولكنّ صبره نفذ، فهو مطارّد، وقد اختفي رأسماله، وإذا لم يستردّ بعضه فإنّه سيضطرّ إليّ استرداد جميع البضائع التي لديها.

فقالت «إيما» :

- لا بأس.. فليستردها .

ولكنّه أجاب:

- أوه.. إنّي أفرح وإن كنت غير آسف
إلا علي السوط الذي أفكر في أن أطلب إلي
السيّد «بوفاري» رده.

• «ليريه» التاجر الخبيث يستقطب «إيما» •

فقالت:

- لا.. لا..

ففكر «ليريه» في نفسه قائلاً : «آه..ها قد أمسكت بك» .

ثمّ خرج بعد أن أطمأن إلي اكتشافه، وهو يرّدّد في صوتٍ منخفض وفي صريه المعتاد:

- فليكن.. فلننتظر .. فلننتظر .

وبينما كانت تحلم في مخرج من هذا المأزق إذ بالطاهية تدخل وتضع فوق المدفأة لفافة صغيرة من الورق الأزرق مُرسلة من السيّد «ديروزييه»،

فوثبت عليها «إيما» وفتحتها وإذا بها خمسة عشر جنيهاً من الذهب، وهي الدفعة المنتظرة، وسمعت «شارل»، صاعداً علي السلم فألقت بالذهب في قاع الدرج وأخذت المفتاح.

وبعد ذلك بثلاثة أيام ظهر «ليريه» .

قال:

- إنَّ لديَّ تسوية أقترحها.. وبدلاً من المبلغ المتفق عليه.. هل تريدين أن تأخذي..

فقالت وهي تضع في يده أربعة عشر جنيهاً من الذهب:

- ها هو .

فذهل التاجر، ولكي يخفي خيبة أمله، اندفع في سيل من الاعتذارات ومن عرض خدماته التي رفضتها «إيما» كلها. ثُمَّ ظلت تتحسس في جيب مريلتها قطعتي الفرنك اللتين ردهما إليها وعاهدت نفسها بأن تقتصد لكي ترد في المستقبل ..

ثُمَّ استطرد تفكيرها: «ولكنَّ لا، إنَّه لن يُفكِّر في ذلك بعد الآن» .

وفضلاً عن السوط ذي المقبض العتيقي، كان «رودولف» قد استلم منها خاتماً نقش عليه عبارة «حبيب القلب»، ثُمَّ شالاً استخدمه ككوفية، وأخيراً مبسم سجائر شديد الشبه بمبسم الفيكونت الذي كان «شارل» قد التقطه قديماً من الطريق، وكانت «إيما» قد احتفظت به. ومع ذلك فإنَّ هذه الهدايا قد مست كبرياءه فرفض الكثير منها، ولكنَّها أصرت فانتهي «رودولف» بالرضوخ، وإن كان قد أحس بسيطرتها، بل وإقحام نفسها في حياته.



وكانت تقول له:

- فُكِّرْ فيَّ عندما يحين منتصف الليل .

ولمَّا اعترف لها بأنَّه لم يتذكَّر، وجهت إليه فيضًا من العتاب كان ينتهي
دائمًا بتلك الكلمة الخالدة: هل تحبني؟

فيجيب:

- نعم.. نعم.. أُحِبُّكَ دون شك .

- كثيرًا؟

- قطعًا.

- أَلَمْ تُحِبَّ غَيْرِي قَطُّ؟

فتساءل ضاحكًا:

- وهل تعتقدين أنَّكَ قد أخذتني بكَرٍّ؟

فتبكي «إيما» ويحاول أن يهدئها، وهو يحمل عباراته ببعض النكات .

فتقول:

- آه.. ذلك إني أُحِبُّكَ، أُحِبُّكَ حتي أنَّني لا أَسْتَطِيعُ أن أحيأ بدونك..
هل تعلم ذلك.. وتثور بي أحيانًا رغبة في أن أعود إلي رؤيتك عندما تمزقني
انفعالات الحُبِّ فأتساءل: أين هو؟ ربما كان يتحدث إلي نساء أخريات!
فيضحك ويقترب..

- ولكن.. لا. أليس كذلك؟ إِنَّ أَيْةَ واحدةٍ منهن لا تروقك.. هناك من هن
أكثر جمالاً مني.. ولكنني أعرف جيدًا كيف أُحِبُّ.. إنني خادمتك وعشيقتك.
وأنت ملكي وعشيقتي. إنَّكَ طيب. إنَّكَ جميل. إنَّكَ ذكي. إنَّكَ قوي .

ولكنّ «رودولف» بفضل ذلك التفوق الذي تملكه كلّ نفس خبيرة، وبحكم وقوفها عن بُعد خلف أية معركة ناشبة، أخذ يلمح في هذا الحُب لذات أخري يمكن أن يستغلها، وكان يري أنّ كلّ حياء أمر غير عملي، فأخذ يُعاملها في غير احتفال، وجعل منها شيئاً مرناً متحلاً، فكان حُبها نوعاً من التألّق الأبله المليء بالإعجاب نحوه وباللذة بالنسبة إليها.. كان استرخاءً سعيداً يُخدِّرها، وقد انغمست روحها في هذا الثمل وغرقت مثل دوق «كلارانس» في برميل نبذه الإغريقي.

وبحكم اعتيادها الغراميات غيّرت مدام «بوفاري» من طبائعها، فنظرتها أصبحت أكثر جرأة وأحاديثها أكثر تحرُّراً، بل لقد تجرأت ذات مرّة فخرجت للنزهة مع «رودولف» وبفمها سيجارة وكأنّها أرادت أن تتحدى النَّاس. وأخيراً فإنّ أولئك الذين كانوا لا يزالون يخامرهم شيء من الشك لم يلبث شكهم أن زال عندما رأوها تنزل في أحد الأيام من «العصفورة» وقد شدت خصرها في حمالات علي هيئة الرِّجال .

ومدام «بوفاري» الأمّ التي كانت قد لجأت إلي منزل ابنها علي أثر عراك عنيف مع زوجها، لم تكن أقلّ سيّدت الطبقة البرجوازية اشمئزاً، فأشياء كثيرة لم ترقها.. منها أنّه لم يستمع إلي نصائحها فيحرم كتب الروايات، ثمّ إن طابع المنزل نفسه لم يكن يروقها، فسمحت لنفسها بإبداء ملاحظات، بل واثارت الخصومة بنوع خاص ذات مرّة بخصوص «فيليسيتيه»، فمدام «بوفاري» الأمّ لاحظت فيّ المساء وهي تعبر الممشاة أنّ «فيليسيتيه» كانت في صحبة رجل في حوالي الأربعين من عُمره يُحيط بعنقه وشاح بُني، وعندما سمع هذا الرّجل وقع أقدامها أسرع إلي التسلّل من المطبخ. وعندئذ أخذت «إيما» تضحك، ولكنّ السيّدة الوقور ثار بها الغضب وأعلنت أنّه من الواجب أن يلاحظ الإنسان سلوك الخدم ما لم يكن مستهتراً بالأخلاق طبعاً.

وقالت «إيما» :

- من أي عالم أنتِ؟

قالتها مع نظرة بلغت من الوقاحة حدًا دفع السيِّدة «بوفاري» الأمُّ إلي أن تسأل زوجة ابنها عمًّا إذا كانت لا تدافع عن حالتها الخاصَّة.

فقالت السيِّدة الشَّابة، وقد نهضت واثبةً:

- أخرجي .

وصاح «شارل» لكي يصلح بينهما:

- «إيما» .. ماما ..

ولكنَّهما كانتا قد ماجتا بالغضب، فأخذت «إيما» تتقزز وهي تُردِّد:

- آه يا لها من تربية .. هذه الفلاحة الجلفة!

وجري نحو أمِّه التي كانت قد خرجت عن طوقها وأخذت تتمتم:

- يا لها من وقحة طائشة، بل ربما كانت أسوأ من ذلك .

وأرادت أن ترحل فورًا ما لم تأت «إيما» لتقدم إليها الاعتذار، فعاد «شارل» إلي زوجته وأخذ يصرع إليها لكي تتنازل، وركع علي ركبتيه أمامها، فانتَهت بأن قالت:

- فليكن، سأذهب إليها.

وبالفعل مدَّت يدها إلي أمِّ زوجها في ترفع المركيزة، وقالت لها:

- معذرةٌ يا .. سيِّدتي ..

ثمَّ صعدت «إيما» إلي مخدعها حيث انبطحت علي السرير، وأخذت تبكي كالطفل وقد دفنت رأسها في الوسادة .

وكانت قد اتفقت مع «رودولف» علي إنه إذا جد أمر خطير علقت بمصرع النافذة قصاصة من الورق الأبيض، حتي إذا كان موجودًا مصادفة في «أيونفيل» أسرع إلي الممر الممتد خلف البيت. وبالفعل علقت «إيما» الشارة، وبعد أن انتظرت ثلاثة أرباع السّاعة لمحت فجأة «رودولف» عند ركن السوق، فودت لو فتحت النافذة ونادته، ولكنّه كان قد اختفي فانهارت يائسة بائسة .

ومع ذلك فلم تلبث أن خيّل إليها أنّ أحدًا يمشي فوق الرصيف، فحدثتها نفسها بأنّه هو دون ريب، فنزلت السّلم وعبرت الفناء وإذا بها في الخارج تلقي بنفسها بين ذراعيه.

فقال:

- احذري..

فقالت:

- آه.. لو تعلم!

ثمّ أخذت تقص عليه كلّ شيء في عجلةٍ وبغير انتظام وهي تُبالغ في الوقائع وتخترع الكثير منها وتسرف في الجمل الاعتراضية، حتي إنه لم يفهم شيئًا، ولكنّه قال:

- هيا يا ملاكي المسكين.. تشجعي.. عودي نفسك علي الصبر .

فقالت:

- لقد مضت أربع سنوات وأنا أصبر وأتألم.. إنّ حُبّا كحُبّنا يجب أن يظهر في ضوء النهار. إنهم يعذبونني ولم أعد أستطيع الاحتمال.. أنقذني .



وأخذت تلتصق به وقد امتلأت عيناها بالدموع وبريقهما ينبعث كاللهب،
وأخذ صدرها يلهث في ضرباتٍ سريعةٍ، ولم يشعر نحوها بحُبٍّ مثلما شعر
في هذه اللّحظة حتي فقد صوابه وقال لها:

- وما الذي يجب أن نفعل؟ ماذا تقترحين؟

فصاحت:

- خذني.. اختطفني.. أوه إنني أضرع إليك!

وانهالت علي شفّتيه وكأنّها تريد أن تقتنص منه موافقته غير المتوقعة
وهي تنبعث في قبلة .

فقال «رودولف» :

- ولكن..

- ماذا؟

- وابنتك؟

ففكرت بضع دقائق ثمّ قالت:

- سنأخذها معنا.

فقال وهو ينظر إليها وهي تبتعد:

- يا لها من امرأة!

وذلك لأنّها كانت قد دلفت إلي الحديقة إذ كانوا ينادونها!!





الاستعداد للرحيل!

Prepare to leave!

في الأيام التالية دهشت الأم «بوفاري» دهشةً بالغةً من التغيّر الذي طرأ علي زوجة ابنها. وبالفعل أصبحت «إيما» أكثر طواعية، بل وبلغت من التوقير أن طلبت إليها نصيحة في تحليل الخيار .



فهل كان ذلك إمعاناً في خداعها لهما معاً - الزوج والأم - أم هي لذة الاستشهاد التي تدفعها إلي أن تستشعر - في عمق - مرارة الأشياء التي ستخلص منها؟

«إيما» مع حماتها وأسرتها في حديقة المنزل . ولكنّها لم تكن تحذر شيئاً. وعلي العكس من ذلك أخذت تعيش كالضالة في اللذة التي تتعجلها من سعادتها القريبة المقبلة. وكان هذا هو الموضوع الدائم لحديثها مع «رودولف» فهي تنكس علي كتفه وتتمتم:

- آه عندما تصبح في عربة سفرك.. هل تتصوّر؟ هل هذا ممكن؟ يُخيّل إليّ أنني عندما أشعر بالعربة تنطلق أشعر أننا نصعد في اللون، وكأننا نصعد إلي السحاب. هل تعلم إنني أعد الأيام؟.. وأنت؟



ولم تكن مدام «بوفاري» قط جميلة كما كانت في هذه الفترة. فقد كان لها ذلك الجمال الذي لا يمكن وصفه، والذي ينبعث عن الغبطة والحماسة والانتصار، والذي هو انسجام بين المزاج والظروف. فأطماعها وأحزانها ومزاولة اللذة وأحلامها دائمة الشباب، قد فعلت فيها ما يفعله السماد والمطر والرياح والشمس في الأزهار فنمت بالتدريج ثم ازدهرت في النهاية واكتملت طبيعتها.

وقد أخذ «شارل» يراها كما كانت في أيام زواجه الأولي مغرية لا تقاوم. وعندما كان يعود في منتصف الليل لم يكن يجرؤ علي إيقاظها. وكان مصباح الليل الصغير يعكس علي السقف دائرة من الضوء المهتز والستائر المغلقة فوق المهد الصغير تكون ما يشبه كوخاً أبيض يتنفخ في الظل عند حافة السرير، و «شارل» ينظر إليها فيخيل إليه أنه يسمع الأنفاس الرقيقة المنبعثة من طفلته التي أخذت تكبر الآن. وكل موسم يؤدي سريعاً إلي تقدم حتى لكأنه يراها عائدة من المدرسة عند غروب الشمس، مشرقة الوجه، وقد لطخت مريلتها بالمداد، وعلقت السلة في ذراعها. ثم إنه لا بد من إلحاقها بالقسم الداخلي، وهو أمر باهظ التكاليف. فما العمل؟ وعندئذ أخذ يفكر، وخطر له أن يستأجر مزرعة صغيرة في الناحية يشرف عليها بنفسه كل صباح عند ذهابه لعيادة مرضاه، وذلك لكي يدخر دخلها ويضعه في صندوق الادخار، ثم يشتري أسهماً من أية جهة حسبما اتفق، كما أن الزبائن سوف يزداد عددهم. وقد عول علي ذلك لأنه كان يريد أن يربي «بيرت» تربية طيبة، وأن ينمي عندها المواهب فتعلم البيانو.. آه كم ستكون جميلة فيما بعد - في الخامسة عشرة من عمرها عندما تشبه أمها - فتليس مثلها في الصيف قبعات كبيرة من الخوص، فيحسبهما الناس عن بُعد أختين. وتصورها وهي تعمل في المساء إلي جوارهما تحت ضوء المصباح، حيث تطرز له خفاً، وتعني بأمر المنزل وتملؤه كله بظرفها ومرحها. وأخيراً سيفكران في استقرارها، فيعثران لها علي شاب صالح ذي مركز متين فيسعدوها وتدوم تلك السعادة.

ولم تكن «إيما» نائمة عند ذلك ولكنها كانت تتظاهر بالنوم. وعندما كان يغفو إلي جوارها كانت تستيقظ في أحلام أخرى. ومع ذلك فإن هذا المستقبل الحُلم الذي استحضره الخيال لم ينبعث عنه شيء نادر متميز، فالأيام تشابه رائعة كال موج، وأخذ كُلُّ هذا يتأرجح في الأفق اللانهائي المنسجم الضارب إلي الزرقة والمغطي بالشمس. ولكنَّ الطفلة أخذت تسعل في مهدها و«بوفاري» يزداد شخير، و«إيما» لم تنم إلا عند الصباح عندما ألقى الفجر ضوءه الأبيض علي الزجاج، وأخذ «جوستان» الصَّغير يفتح مصاريع الصيدلية في الميدان.

وكانت قد استدعت السيِّد «ليريه» وقالت له:

- إنني سأحتاج إلي معطف.. معطف كبير مبطن ذي ياقة طويلة .
فسألها قائلاً:

- هل ستسافرين في رحلة؟

فقالت:

- لا.. ولكن .. لا عليك - إنني أعتد عليك - أليس كذلك؟

فانحني ..

واستأنفت قائلةً:

- وسأحتاج أيضاً إلي حقيبة كبيرة.. ليست مفرطة الثقل .. عملية.

قال:

- نعم . نعم . لقد فهمت ..

وأضافت:

- ومعها حقيبة ليل .



ففكّر «ليريه» في نفسه قائلاً:

- قطعاً إن في الأمر سرّاً!

وقالت مدام «بوفاري» وهي تنزع ساعتها من حزامها:

- ثمّ خذ هذه لكي تقطع منها الثمن .

ولكن التاجر صاح بأنّها مخطئة، فهو يعرفها ولا يمكن أن يشك فيها!
ولكنّها مع ذلك ألحت لكي يأخذ علي الأقلّ السلسلة. وكان «ليريه» قد
وضعها في جيبه وأخذ ينصرف عندما نادته لتقول له:

- إنك ستحتفظ عندك بكلّ شيء .

ثمّ فكّرت قليلاً، وأضافت:

- وأما عن المعطف فإنك لن تحضره أيضاً إلي هنا، ولكنك ستعطيني
عنوان العامل وتنبيهه إلي أن يحتفظ به إلي حين أطلبه.

وكان من المقدر للعشيقين أن يهربا في الشهر المقبل، فيسافرا من
«أيونفيل» وكأنّهما ذاهبان لقضاء بعض الحاجات في «روان»، ويكون
«رودولف» قد حجز أماكن وأعد جوازات السفر، بل وكتب إلي باريس لكي
يستأجر العربة كلّها إلي «مرسيليا» حيث يستأجران عربة خفيفة يتابعان السير
فيها دون توقف علي الطريق المؤدي إلي «جنوة». وكانت قد رتبت الأمر
بحيث ترسل حقائبها إلي «ليريه» حيث تحملها «العصفورة» رأساً، وحيث
لا يخامر الشك أي إنسان. وفي كلّ هذا لم يعرض قط مصير الطفلة، وكان
«رودولف» يتجنّب الحديث عنها لأنّ «إيما» لم تُفكّر فيها .

وكان يود أن يحتفظ بمهلة أسبوعين لكي ينتهي من بعض الإجراءات.
ولم تمض ثمانية أيّام حتي طلب خمسة عشر يوماً أخري، ثمّ ادعي أنّه
مريض، وبعد ذلك سافر في رحلته. ومزّ شهر أغسطس (آب)، وبعد كلّ هذه

التأجيلات قراراً نهائياً أن رحيلهما سيكون في يوم الاثنين 4 سبتمبر (أيلول).
وأخيراً حل يوم السبت السابق ليوم الرحيل .

وجاء «رودولف» في المساء مبكراً عن عادته فسألته قائلة:

.. هل أعد كل شيء؟

.. نعم .

ثم دارا حول حوض من الزهور، وذهبا ليجلسا إلي جوار الشرفة علي حافة الحائط.

قالت «إيما» :

.. أنت حزين؟

.. لا .. لماذا؟

ومع ذلك أخذ ينظر إليها في حنان نظرة غريبة .

فاستأنفت قائلة:

.. هل ذلك لأنك سترحل وتترك مواضع حُبك وحياتك؟ .. آه.. إنني أقدر ذلك.. ولكنني أنا ليس لي شيء في العالم .. أنت كل شيء بالنسبة إلي..
ولذلك سأكون كل شيء بالنسبة إليك.. سأكون لك أسرة ووطنًا وسأعني بأمرك وسأحُبك .

فقال وهو يضمها بين ذراعيه:

.. يا لك من ساحرة.

فقالت وهي تضحك في نشوة:

.. أهذا صحيح؟ هل تحبني؟ اقسم بذلك إذا!

.. هل أحبك؟! هل أحبك؟! بل أني أهيمن بك يا حبيبي .



وامتد الليل العذب من حولهما، وأسبلت «إيما» جفونها وأخذت تنشق -
في تنهدات كبيرة - النسيم الرطب الذي يهب. لم يتحادثا، إذ كانا غارقين في
فيض من الأحلام. وعادت إلي قلبهما عذوبة الأيام الماضية، فيأضة صامتة
كالنهر المنساب مع كُلِّ تلك الرخاوة التي يشيرها عطر الأزهار، فعكست
في ذكرياتهما ظلالاً أكثر أسى وبأساً من ظلال أشجار الصفصاف الساكنة
الممتدة فوق الحشائش. وكثيراً ما كانت إحدى دواب الليل كالقنفذ أو أم
عرس تأخذ في المطاردات فتتحرك الأوراق ويسمع من وقتٍ إلي آخر صوت
خوخة ناضجة تسقط من الخميلة⁽⁶²⁾.

وقال «رودولف» :

- آه.. يا له من ليل جميل!

فقالت «إيما» :

- ستكون لنا ليالٍ أخرى .

وأضافت، وكأنَّها تُحدث نفسها:

- نعم، ما أجمل الأسفار، ومع ذلك فما هو هذا الحزن الذي في قلبي..
أهو الخوف من المجهول؟ وأثر العادات التي نتخلي عنها.. أم أن ..؟ لا
..إنَّه فرط السَّعادة.. يا لي من ضعيفة.. أليس كذلك؟ اعذرني .

فصاح:

- إنَّ الأمر لا يزال بأيدينا.. فكري.. فلربما ندمت!

فقالت في عنفٍ:

- أبداً.

(62) الخَمِيلَة، جمعها: خَمَائِل. والخَمِيلَة الشجر الكثير المجتمع الملفف الذي لا يرى فيه شيء إذا
وقع في وَسْطه، وقيل: الخَمِيلَة كُلُّ موضع كثر فيه الشجر. (المُعَد).

ثُمَّ أضافت، وهي تقترب منه:

- أية كارثة يمكن أن تحل بي؟.. ليست هناك صحراء ولا هاوية، ولا محيط لا أعبره معك.. وما دمنا سنعيش سويًا فلن تكون الحياة بالنسبة إلينا سوي عناق يزداد مع الأيام قوّة وكمالًا.. ولن يقلقنا شيء.. فلا هموم ولا عقبات وسوف نخلو لأنفسنا وحدنا إلي الأبد.. تكلم إذا.. أجبني!

وكان يجيبها علي فتراتٍ منتظمة: «نعم.. نعم..». وكانت قد مرّرت أصابعها في شعره وأخذت تُرَدّد بصوتٍ صبياني بالرغم من الدموع الغزيرة التي تتساقط:

- «رودولف».. «رودولف».. آه «رودولف».. حبيبي.. «رودولف».

ودقت السّاعة نصف اللّيل.

فقلت:

- نصف اللّيل.. هيا. إنّه الغد، إنّه يوم آخر.

ونهض لكي يرحل، وكان هذه الحركة كانت بدء هربهما، فبدت «إيما» فجأة في مظهر الفرح، وقالت:

- لديك الجوازات؟

- نعم.

- لم تنس شيئًا؟

- لا.

- متأكد؟

- دون شك.



- ستتظنني في فندق «بروفانس» .. أليس كذلك؟ إنك ستتظنني عند الظاهر؟

فأجاب بإيماءٍ من رأسه .

وقالت «إيما» وهي تقبله القبلة الأخيرة:

- إلي غدٍ إذا .

ونظرت إليه وهو يتعد .

ولم يلتفت إلي الخلف، فجرت في أعقابها وانحنت علي حافة الماء بين العشاب وصاحت:

- إلي الغد...

وكان قد عبر إلي الضفة الأخرى من النهر وأخذ يسير مسرعًا وسط المروج .

وبعد بضع دقائق توقف «رودولف» .. وعندما رآها في رداها الأبيض وهي تختفي في الظل شيئًا فشيئًا، أحس في قلبه من الخفقان ما دعاه إلي أن يستند إلي شجرة لكي لا يسقط . وقال، وهو يقسم أغلظ الأيمان:

- يا لي من مغفل! ولكن لا بأس فقد كانت عشيقته جميلة!

وللتوّ عادت إليهِ صورة جمال «إيما»، وجميع لذات ذلك الحُبّ، فاستشعر الحنان أوّل الأمر، ثُمَّ تار ضدها، وهو يقول ويشير بيديه:

- في النهاية لا أستطيع أن أهجر موطني وأتحمل عبء طفلة .

وكان يقول هذه العبارات كي يشد من عزمه .

وأضاف:

- ثُمَّ هناك الارتباك والتفقات.. آه، لا.. لا.. ألف مرة.. لا.. وإلا كانت حماقة كبري مني .



رسالة الفراق!

Message separation!

لم يكد «رودولف» يصل إلي بيته حتي جلس فجأة إلي مكتبه تحت رأس الوعل⁽⁶³⁾ المُعلّق علي الحائط بين غنائم الصيد، ولكنه عندما أخذ القلم بين أنامله لم يجد ما يكتبه، فاتكأ بمرفقيه علي المكتب وأخذ يُفكّر. ولاحت له «إيما» وقد أوغلت في الماضي السحيق، وكأن القرار الذي اتخذاه قد وضع بينهما فجأة فترة شاسعة من الزمن.

ولكي يستعيد شيئاً منها نهض إلي صوان بجوار فراشه واستخرج منه صندوقاً قديماً اعتاد أن يضع فيه الخطابات التي تأتيه من النساء، فانبعث منه رائحة تراب وورود ذابلة، ووقع نظره أولاً علي منديل صغير مُغطّي يقع باهتة وكان منديلها الذي نزلت فيه يوماً من أنفها في أثناء نزهة. لم يعد يذكر شيئاً من ذلك، وإلي جواره صورة لها تتخبط في أركان الصندوق. ولاحت له زينتها مسرفة ونظرتها الفضولية سيئة الوقوع. ويطول التأمل في هذه الصورة

(63) الوعل: Capra، جنس من الثدييات، يتألف من تسعة أنواع بها في ذلك الماعز البري، ويعتبر الماعز المستأنس من الأنواع الفرعية المستأنسة من الماعز البري. يعيش الماعز البري في البيئات الجبلية. فهي قوية ورشيقة جداً، وتتميّز بقدرتها على تسلق الصخور الصلدة والعيش على النباتات المنثارة. (المعد).



واستحضار ذكري صاحبها اختلطت ملامح «إيما» شيئًا فشيئًا في ذاكرته، وكأن الوجه الحي والوجه المصور قد احتك أحدهما بالآخر حتي انمحي الاثنان.

وأخيرًا قرأ بعض خطاباتها المليئة بالاستفسارات الخاصة برحلتها (وهي خطابات قصيرة عملية مُلحَّحة كالمكاتبات التجارية)، وأراد أن يلقي نظرة علي الخطابات الطويلة قديمة العهد فانتزع جميع الخطابات الأخرى لكي يعثر عليها في قاع الصندوق، وأخذ يُقلب أليًا في كومة من الأوراق والأشياء حيث اختلطت الياقات وأربطة السَّاق، وقناع أسود، ودبايس، وخصلات من الشعر.

وهكذا أخذ يفحص - وهو يهوّم بين الذكريات - الخطوط وأسلوب الخطابات المتنوعة تنوع تلك الخطوط، لقد كانت عاطفية أو مرحة عابثة أو حزينة. وكان يتذكّر من بينها وجوهاً وبعض حركات ونغمات صوت وأحيانًا كان لا يتذكّر شيئًا.

والموقع أن أولئك النساء اللاتي تراحمن في ذاكرته كن يتدافعن بعضهن ضد بعض فيصغرن ويهبطن إلي مستوي واحد من الحبّ يسوي بينهن. وأخذ يتناول حفئات من هذه الخطابات المختلطة ويلهو لبعض دقائق بأن يتركها تتساقط كالشلال من يده اليمني إلي يده اليسرى. وأخيرًا مل وشعر بالنعاس، فانصرف حاملاً الصندوق إلي الصوان وهو يقول: «يا لها من كومة من المضحكات»!

وكانت هذه العبارة خلاصة رأيه، وذلك لأنّ اللذات كان قد طال وطوؤها علي قلبه، كأطفال المدارس في فناء المدرسة، حتي إنه لم يعد ينمو في

ذلك القلب شيء أخضر. وأولئك اللائي مررن به كن أقل وعيًا من الأطفال أنفسهم، حتي إنهن لم يحرصن كالأطفال علي أن ينقشن أسماءهن علي الحائط .

وقال لنفسه:

.. هيا فلنبداً .

وأخذ يكتب: «الشجاعة يا «إيما» الشجاعة! فلستُ أريد أن أكون سبباً في تعاسة حياتك..»

وحذت «رودولف» نفسه: «والواقع أنَّ هذا الحق، فأنا أعمل لمصلحتها كرجلٍ شريف».

: «هل قدرتِ جيداً عاقبة ما اعتزمتِ. هل تدركين مدي الهاوية التي أسوقكِ إليها يا ملاكي المسكين؟ لا.. أليس كذلك؟ إنَّكِ تسيرين واثقةً مجنونة مؤمنة بالسعادة في المستقبل.. آه. يا لنا من تعساء .. حمقي!!» .

وهنا توقف «رودولف» لكي يجد عذراً مقبولاً.

وقال لنفسه: «وماذا لو قلت لها إنَّني فقدت ثروتي؟.. آه لا، هذا لن يمنع شيئاً وسأضطر إلي العودة إلي الموضوع نفسه. وهل من الممكن أن نرد إلي الصواب مثل أولئك النسوة؟

وفكَّر، ثُمَّ أضاف

.. «إنَّني لن أنساكِ، كوني واثقة من ذلك، وسأحتفظ لكِ دائماً بإخلاصٍ عميق، لكنَّ هذا الهيام سيضعف إن عاجلاً أو آجلاً. فهذا هو مصير المشاعر



وقال لنفسه: «هذه هي الكلمة التي تحدث دائماً الأثر المطلوب».

وقال لنفسه: «إنَّها قد تظن أنَّني عدلت بسبب البخل.. آه فليكن.. فليكن،
يجب أن أنتهي.»!

مدام یوفاری

دائمًا طيبة. احتفظي بذكرى الشقي الذي فقدك، علمي اسمي لطفتك لكي تُردّده مع صلواتها» .

ثم نهض «رودولف» لكي يغلق النافذة.

وقال عندما عاد إلي الجلوس: «أظن أنّ هذا هو كلّ شيء. آه. ولكن هذا أيضًا لكي لا تعود إلي مطارديتي» .

.. «وسأكون بعيدًا عندما تطالعين هذه الأسطر الحزينة، وذلك لأنني أردت أن أهرب بأسرع ما أستطيع لكي أتجنّب إغراء العودة إلي رؤيتك. فلتجنب الضعف. سوف أعود. وربما تحدثنا سويًا فيما بعد ببرودٍ عن غرامياتنا القديمة، وداعًا» .

وقال لنفسه: «والآن كيف أوقع؟ المخلص..لا..صديقك؟..نعم هو هذا» .

«صديقك» .

وأعاد قراءة الخطاب فبدأ له جيدًا.

وحَدَّث نفسه في حنانٍ قائلاً: يا لها من امرأةٍ مسكينة! إنَّها ستظنني أقلَّ إحساسًا من الصخر. لقد كان من الواجب أن أسفح فوقه بعض العبرات أو الدمعات.. ولكنتي لا أستطيع أن أبكي، وليس هذا ذنبي! .

وعندئذ سكب «رودولف» بعضًا من الماء في كوبٍ وغمس فيه أصبعه، ثمَّ أسقط منه نقطة «غليظة» أحدثت بقعة شاحبة فوق الممداد. ثمَّ أراد أن يغلق الخطاب فأخذ الختم المنقوشة فوق عبارة: «حبيب القلب» .



ولكنّه قال: «إنّ هذا لا يطابق مقتضى الحال.. آه، ولكن لا بأس..»!

وبعد ذلك دَخَنَ في غليونه، ثُمَّ ذهب لينام.

وفي اليوم التَّالِي، عندما استيقظ حوالي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، إذ كان قد نام متأخرًا، أمر بأن تجني سلة من المشمش وضع الخطاب في قاعها تحت قليل من ورق العنب، ثُمَّ أمر «جيرار» عامل محراثه بأن يحمل السلة برفقٍ إلي مدام «بوفاري». وكان يستخدم هذه الطريقة لمراسلتها فيرسل إليها تبعًا للمواسم الفواكه أو طيور الصيد.

وقال للخادم:

- إذا سألتك عن أخباري فأجبها بأنني قد سافرت في رحلة، ويجب أن تسلم السلة إليها هي، وأن تضعها بين يديها شخصيًا. أذهب وخذ حذرك.





الانهيار العظيم!!

Great collapse

كانت مدام «بوفاري» عندما وصل «جيوار» إلي منزلها ترتب مع «فيليسيته» - علي مائدة في المطبخ - كومة من الملابس المغسولة.

فقال الخادم:

- سيدي يرسل لك هذا.

فتملأها شعور بالخوف. وجعلت تبحث في جيبيها عن قطعة من النقود، وهي تنظر إلي الفلاح بعين شاردة، بينما كان ينظر هو في دهشة لأنه لم يفهم كيف يمكن لمثل هذه الهدية أن تثير عند إنسان كل هذا الانفعال، وأخيرًا خرج وبقيت «فيليسيته» ولم تعد «إيما» قادرة علي الاحتمال، فأسرعت إلي الصالة، وعلبت السلة وانتزعت الأوراق ووجدت الخطاب وفتحته ثم هرولت مذعورة إلي غرفتها وكأن حريقًا هائلًا يلاحقها من الخلف.

وكان «شارل» في الغرفة، فلمحته، وتحدث إليها فلم تسمع شيئًا، واستمرت تصعد الدرج في سرعة لاهثة ذاهلة قلقة، وفي يدها دائمًا تلك الورقة المروعة التي تترقع بين أصابعها كقطعة من الصاج. وفي الطابق الثاني وقفت أمام مخزن الغلال الذي كان مغلقًا.



وأرادت عندئذ أن تهدأ، وتذكّر الخطاب. وكان لابد أن تتم قراءته فلم تجرؤ، فأين وكيف؟ دون أن يراها أحد!

وحَدَّثت نفسها قائلةً: «آه.. لا.. هنا.. سأكون مطمئنة».

ودفعت الباب ودخلت.

كانت متكئة علي إطار النافذة وهي تعيد قراءة الخطاب، وفي ناصية الشارع انبعث من طابق سفلي صوت يشبه الشخير الحاد، فقد كان «بينيه» يلف مخرطته، ولكنّها كانت كلّما ركزت انتباهها كلّما ازدادت أفكارها اختلاطًا، فكانت تستعيد صورته وتسمع صوته وتعطّقه بذراعيها، وضربات قلبها التي تحفّق تحت صدرها.. وكأنّها ضربات عاتية من قرون كبش..

أخذت تتابع سريعًا واحدة تلو الأخرى في غير انتظام، وأخذت تلقي من حولها النظرات وبودها لو انهارت الأرض. ولماذا لا تنتهي؟ وما الذي يمكنها عن ذلك؟ إنّها حرّة. وتقدّمت ونظرت إلي الشارع وهي تقول:

.. هيا.. هيا.

وكان شعاع الضوء الصاعد مباشرة من أسفل يجتذب ثقل جسمها نحو الهاوية، وخيّل إليها أنّ أرض الميدان المهترئة ترتفع علي طول الجدران، وأرض الغرفة تميل عند الحافة كالسفينة التي تترنح وهي تغوص في الرمال الطافية وهي ممسكة بالحافة، وكأنّها مُعلّقة ومُحاطة بفضاءٍ واسع، وزرقة السماء تغزوها والهواء يسبح في رأسها الجوفاء، ولم يكن لديها إلّا أن تستسلم وتترك نفسها، ولم يتوقف صوت المخرطة وكأنّه نداء صاخب يدعوها.

وصاح «شارل» :

-زوجتي .. زوجتي .

فتوقفت .

- أين أنتِ؟ تعالي .

وأدت بها فكرة نجاتها من الموت إلي الإغماء من الخوف، فأغلقت عينيها ثُمَّ انتفضت عندما أحست بيدِ علي ذراعيها، وكانت يد «فيليسيتيه»، التي قالت:

- إنَّ سيّدي ينتظركِ يا سيّدتِي والحساء علي المائدة .

وكان لابدّ من النزول .. والجلوس إلي المائدة .

وحاولت أن تأكل فكانت اللقم تكتّم أنفاسها، وعندئذ نشرت فوطتها وكأنّها تفحص ما بها من ثقب. وأرادت بالفعل أن تفعل أن تشرع في عد خيوط النسيج. وفجأةً تذكرت الخطاب! هل فُقد منها؟ وأين تجده؟ ولكنّها لم تعثر قط علي سبب لترك المائدة، ثُمَّ إنّها أصبحت جبانة. فهي تخاف «شارل» لأنّه يعلم كلّ شيء بلا ريب .. وبالفعل نطق «شارل» بهذه العبارات الغريبة:

- بلوح أنّا لن نري السيّد «رودولف» قريباً .

فقالَت وهي تنفض:

- مَنْ قال لك هذا؟



فأجاب بلهجةٍ حادة:

- مَنْ قال لي؟ إنَّه «جيرار» الذي قابلته منذ هنيهة عند باب القهوة الفرنسيَّة.
لقد سافر في رحلةٍ، أو هو علي وشك السفر.
واختنقت بالعبرات.

فقال:

- وما الذي يدهشك في هذا؟ إنَّه يتغيَّب علي هذا النحو من وقتٍ إلي
آخر كي يسري عن نفسه. والواقع أني أوافقُه وخصوصًا عندما تكون لدي
الإنسان ثروة ويكون عزبًا!.. وفضلاً عن ذلك فصديقنا يلهو كما يحلو له،
وهو مولع بالعبث، كما علمت .

وصمت مراعاة لللياقة حين دخلت الخادمة .

وأعادت الخادمة المشمش الذي كان منشورًا علي الرف إلي السلة، وأمر
«شارل» بأن يحمل إليه دون أن يلاحظ الحمرة التي علت وجه زوجته.

ثم أخذ منه واحدة وقضمها، وهو يقول:

- أوه! مدهش! خذي! ذوقي! ومدَّ السِّلَّة نحوها.. فدفعتها برفقٍ .

فقال، وهو يضعها تحت أنفها عدة مرَّات:

- شمي إذًا. يا لها من رائحةٍ!

فصاحت، وقد نهضت واثبة:

- إنَّني أحتق...



ولكن بمجهودٍ إرادي اختفي هذا الاختناق .

ثُمَّ قالت :

- لا شيء.. لا شيء .. إنَّه طارئٌ عصبي . اجلس وتناول طعامك .

وما ذلك إِلَّا لِأَنَّهَا خَشِيتُ أَنْ يَأْخُذَ فِي اسْتِجَابِهَا وَالْإِهْتِمَامِ بِأَمْرِهَا فَلَا تُتْرَكُ لِنَفْسِهَا .

وعاد «شارل» إلَيَّ الجُلُوسِ إِطَاعَةً لِأَمْرِهَا، وَأَخَذَ يَلْفِظُ فِي يَدِهِ نَوَى الْمَشْمَشِ، ثُمَّ يَضْعُهُ فِي طَبَقِهِ .

وفجأةً مَرَّتْ عَرَبَةٌ زُرْقَاءُ عُدُوًا فِي الْمِيدَانِ، فَأُطْلِقَتْ «إِيْمَا» صَرْخَةً، وَسَقَطَتْ جَامِدَةً عَلَيَّ الْأَرْضِ عَلَيَّ أَمِّ رَأْسِهَا .

والْحَقِيقَةُ كَانَ «رُودُولْف» بَعْدَ تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ قَدْ قَرَّرَ أَنْ يُسَافِرَ إِلَيَّ «رُوان» .

ولَمَّا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَيْنَ «لَا هَاشِيَّتْ»، وَ«بُوشِي» طَرِيقَ آخَرٍ غَيْرِ طَرِيقِ «أَيُونْفِيل» فَقَدْ كَانَ لَا مَفْرَ مِنْ أَنْ يَعْبُرَ الْقَرْيَةَ . وَكَانَتْ «إِيْمَا» قَدْ لَمَحَتْهُ عَلَيَّ ضَوْءُ الْمَصَابِيحِ الَّذِي كَانَ يَخْتَرِقُ ضَوْءُ الشَّفَقِ كَالْبَرْقِ .

وَأَسْرَعَ الصَّيْدَلِي عِنْدَمَا سَمِعَ الضُّوْضَاءَ الَّذِي حَدَثَ بِالْمَنْزِلِ، وَكَانَتْ الْمَائِدَةُ قَدْ انْقَلَبَتْ بِمَا عَلَيْهَا مِنْ أَطْبَاقٍ، وَكَانَتْ الصَّلْصَلَةُ وَاللَّحْمُ وَالسَّكَائِينُ وَالْمَلَاخَةُ وَزُجَاجَاتُ الزَّيْتِ مَثْوَرَةٌ عَلَيَّ الْأَرْضِ، وَ«شارل» يَسْتَعِثُ، وَ«بيرت» تَصِيحُ رَعْبًا، وَ«فِيلِيسِيَّتِهِ» تَفْكُ بِيَدِهَا مَلَابِسَ السَّيِّدَةِ الَّتِي كَانَتْ التَّشْنُجَاتُ تَمْتَدُّ عَلَيَّ طَوْلَ جَسْمِهَا .



وحمل الصيدلي من معمله قليلاً من الخل المعطر، وقال عندما فتحت عينيها وهي تستشق القارورة :

- لقد كنت متأكداً، فإنه يوفظ الموتى.

وقال «شارل» :

- حدثينا.. حدثينا. اسردي جأشك. أنا «شارل» حبيبك الذي يُحبّك. هل تدريين من أنا؟ هيا. هيا هي ابنتك الصغيرة.. قبلها..

ومدّت الطفلة ذراعيها نحو أمّها لكي تتعلّق بعنقها، ولكن «إيما» أدارت رأسها، وقالت بصوتٍ متقطع :

- لا.. لا.. لا أريد أحداً..

وأغمي عليها من جديد، فحملوها إلي الفراش وظلت ممددة فاعرة الفم، مغلقة الجفنين، باسطة يديها، ساكنة شاحبة كتمثالٍ من الشمع .

وخرج من عينيها نهران من الدموع التي انسابت علي الوسادة .

وظل «شارل» واقفاً عند طرف المخدع، والصيدلي إلي جواره صامتاً مفكراً علي نحوٍ يليق بالمناسبات الخطيرة. وقال وهو يضغط علي ذراع «شارل» :

- اطمئن.. فأنا اعتقد أنّ الأزمة قد مرّت.

وأجاب «شارل» :

• حديث بين «هوميه» الصيدلي و «شارل» حول صحة «إيما» •

- نعم.. إنها تسريح الآن قليلاً.

قال ذلك وهو يراها تنام، ثُمَّ أضاف:

- يا لها من امرأة مسكينة.. يا لها من امرأة مسكينة.. ها هي تتكس! وعندئذ سأله «هوميه» كيف حدثت هذه الحادثة، فأجاب «شارل» بأنّها قد سقطت فجأة وهي تأكل المشمش.

فقال الصيدلي:

- هذا أمرٌ عجيب! ولكنّ من الجائز مع ذلك أن يكون المشمش هو الذي سبّب الإغماء، فهناك طبائع حساسة من ناحية بعض الروائح، بل إن هذا الموضوع جدير بالدرس من الناحية الباثولوجيّة⁽⁶⁴⁾ والناحية الفسيولوجيّة⁽⁶⁵⁾ علي السواء والقساوسة يعرفون أهمية هذا الأمر فهم يمتزجون دائماً بالعطور في طقوسهم، وهم يستخدمونها لتخدير العقل وإثارة الشهوة، وهذا أمر يسهل الحصول عليه في الجنس الآخر لأنّهن أكثر حساسية من الآخرين، ولقد قيل إنّ بعضهن يصبن بالإغماء من القرن الذي يحترق أو رائحة الخبز الطري!

وقال «بوفاري» بصوتٍ خافت:

- احذر من أن توقظها.

(64) الباثولوجي Pathology، هو علم دراسة و تشخيص الأمراض، من حيث طبيعة الأمراض، والتغيرات التشريحية والوظيفية التي تحدث في أعضاء الجسم أو أجزائه. (المعد).

(65) الفسيولوجي physiology، هو علم دراسة وظائف الأعضاء والأجهزة الحيوية ويتضمّن ذلك كيف تقوم الأجهزة العضويّة، والخلايا، والخلايا، والخلايا بالعمليات الكيميائية والفيزيائية في الكائنات الحيّة. (المعد).

و استأنف «هومييه»، وهو يتتسم ابتسامة الرضا عن نفسه قائلاً:

- وفي هذا ما يدلنا علي مدي الاضطراب في جهازنا العصبي. وأمّا عن السّيدة فإنني أترف أنّها قد لاحت لي دائماً مصابة بالحساسية. ولذلك لم أوصك قط أيها الصديق العزيز بأي من تلك العقاقير التي يدعون أنّها تصدم المزاج. لا.. لا عقاقير طفيلية.. مسكنات وملينات ومنعشات. ثمّ هل تظن أنّه ربما كان من الضروري إثارة خيالها؟

وقال «بوفاري»:

- بماذا؟ وكيف؟

فقال الصيدلي:

- آه.. هذا هو السؤال! نعم.. هذا هو السؤال.. أو كما قرأت أخيراً في أحدي الصحف.. هذه هي المشكلة.

ولكن «إيما» صاحت وهي تستيقظ:

- والخطاب؟ والخطاب؟

وظلنا أنّها تهذي، وفعلاً أُصيبت بالهذيان ابتداء من نصف الليل، وظهرت عليها أعراض حُمّي مخية.

ولم يغادرها زوجها خلال ثلاثة وأربعين يوماً، فتخلي عن جميع مرضاه ولم يعد يرقد، بل كان يجلس نبضها باستمرار، ويضع لها اللبخات ومكمدات الماء البارد، وكان يرسل «جوستان» حتي «نيوشاتل» ليحضر الثلج الذي كان يذوب في الطريق فيرسلوه ثانية. واستدعي السّيد «كانيفيه» ليستشيرده،

واستحضر الدكتور «لاريفير» أستاذه القديم من «روان» ، إذ كان اليأس أخذ يساوره. وكان انهيار «إيما» هو الذي يخيفه بنوع خاص، وذلك لأنها لم تكن تتكلم أو تسمع شيئاً، بل ولاح أنها لا تتألم، وكأن جسمها وروحها قد استراحا معاً من كل اضطراب .

وحوالي منتصف أكتوبر (تشرين الأول) استطاعت «إيما» أن تجلس في الفراش ومن خلفها الوسائد. وبكى «شارل» عندما رآها تأكل أول قطعة من الخبز المغطى بالمربي . وعادت إليها قواها. فكانت تنهض لبضع ساعات بعد الظهر. وشعرت يوماً بتحسن فحاول أن يحملها علي أن تقوم بنزهة في الحديقة مستندة إلي ذراعه. وكان رمل ممرات الحديقة قد أخفي تحت الأوراق الميتة، فسارت خطوة خطوة وهي تجر خفيها وتستند بكتفها إلي «شارل» وهي مازالت تبسم .

وسارا علي هذا النحو حتي نهاية الحديقة بالقرب من الشرفة، فمدّت قامتها ببطء وظللت عينيها بيدها لكي تنظر. ونظرت إلي بُعدٍ سحيق، ولكن لم يكن ثمة شيء حتي الأفق غير نيران مستعرة تشتعل في الأعشاب وترسل الدخان فوق التلال .

فقال «شارل»:

- إنك ستتعين نفسك يا حبيبتي..

ودفعها برفقٍ لكي تدخل تحت العريشة، وقال :

- اجلسي علي هذا المقعد لكي تستريحي.

فقال بصوتٍ متهافت:



- آوه . لا . لا أريد أن أجلس هنا، ليس هنا.

و أُصيّبت بدوار . ومنذ المساء عاد إليها المرض بأعراض غامضة، وإن لم تكن في الواقع أكثر تعقيداً. فهي أحياناً تشكو القلب ثُمَّ الصدر والمنخ والأطراف، كما كانت تُصاب بقيء، لمح فيه «شارل» أول أعراض السرطان. وفوق كُلّ ذلك كان الزوج التعس يحس بقلقٍ من الناحية الماديّة .





التوق إلي القداسة!!

The longing for holiness!!

ها هو بداية لا يعرف ماذا يفعل لكي يعوض السيّد «هوميه» عن كلّ تلك الأدوية التي أخذها من صيدليته، وإنه وإن كان يستطيع كطبيب ألا يدفع ثمنها، إلا أنه مع ذلك كان يحمر خجلاً من هذا الدين المشترك. ثم أن نفقات المنزل قد أصبحت باهظة بعد أن صارت الطاهية سيّدة المنزل. فالفواتير تتوالي، والمتعهدون يتممون، والسيّد «ليريه» بنوع خاص أخذ يلاحقه. والواقع أن هذا الأخير قد انتهز الفرصة عند اشتداد المرض بالزوجة لكي يشحن الفاتورة، فأحضر المعطف وحقيبة الليل، وحقيتي سفر كبيرتين بدلاً من واحدة، وعدة أشياء أخرى. وعبثاً كان «شارل» يُردّد أنه لا حاجة به إلي كلّ هذه الأشياء، فقد رد التاجر - في غطرسة - بأنها قد طلبتها منه وأنه لن يستردها، فضلاً عما في ذلك من مضايقة للسيّدة في أثناء نقاهتها، فعلي السيّد أن يُفكّر وأن يتدبر. وعموماً كان مصمماً علي أن يرفع الأمر إلي القضاء للمحافظة علي حقوقه بدلاً من أن يسترد بضاعه.

وبعد ذلك بوقت قصير أمر «شارل» بأن ترد إلي دكانه، ولكن «فيليسيثيه» نسيت إذا كان لديها مشاغل أخرى، ولم يُفكّر أحد يعد ذلك في ردها. فعاد السيّد «ليريه» مطالباً وهو يهدد، وظلّ يحاول ويداور حتي اضطر «بوفاري»



أن يضحي بكتابة كميالة تستحق بعد ستة أشهر. ولكنّه لم يكذ يوقع الكميالة حتي خطرت له فكرة جريئة وهي أن يقترض ألف فرنك من السيّد «ليريه»، فسأله في ارتباكٍ عمّا إذا كان من الممكن الحصول عليها، مضيفاً أنّها ستكون لمدة سنة وبالأرباح التي يريدّها التاجر. فجري «ليريه» إلي مكانه وعاد بالنقود، وأملي كميالة أخرى تعهد «بوفاري» بمقتضاها أن يدفع في أوّل سبتمبر (أيلول) المقبل مبلغ ألف وسبعين فرانكاً، تُضاف إلي المئة وثمانين فرنكاً المتفق عليها من قبل، فيصبح المبلغ ألف ومئتين وخمسين. وهكذا أقرض بستة في المئة مُضافاً إليها الربع مُقابل عمولة، وذلك فضلاً عن أن البضاعة قد جني منها ربحاً يساوي الثلث علي الأقلّ بحيث يخرج من الصفقة بربح قدره مئة وثلاثون فرنكاً في اثني عشر شهراً، بل وكان يأمل ألاّ تقف العملية عند هذا الحدّ، فلا يستطيع سداد المبلغ ويُجدّد الكميالة فتزداد نقوده عند الطبيب وكأنّها في دار علاج، فتعود إليه يوماً وقد اكتنزت وتضخمت حتي ليتمزق منها الكيس.

والواقع أنّه كان ناجحاً في كلّ شيء. فقد رسا عليه مزاد توريد عصير التفاح لمستشفى «نيوشاتل»، ووعدّه السيّد «جيومان» بعددٍ من الأسهم في مناجم تراب النفط في «جرومينيل»، وكان يحلم بأن ينظم خط مواصلات بالعربات بين «أرجي»، و«روان»، ولن يطول الزمن عندئذ في شل عربية «الأسد الذهبي» وستكون عرباته الأسرع والأقلّ أجراً والأكبر حمولة كفيّلة بأن تضع كلّ تجارة «أبونفيل» بين يديه.

وتساءل «شارل» مرّات عديدة بأيّة وسيلة يستطيع في العام المقبل أن يُسدد كلّ هذا الدين.

وأخذ يبحث ويتخيل الوسائل، كأن يرجع إلي والده، أو أن يبيع شيئاً. ولكن والده سيصم دونه أذنيه، وهو ليس لديه شيء يبيعه. وعندئذ أحس من الحرج والارتباك ما دفعه إلي أن يبعد عن تفكيره موضوعاً مؤلماً كهذا. ولام نفسه إذ أنساه هذا الموضوع «إيما» وكأن كل تفكيره رهن تلك المرأة، وكأنه يسلبها شيئاً إذا لم يُفكر فيها باستمرار.

وكان الشتاء قاسياً وطالت بالسيدة النقاهة .

ولكن عندما كان يصحو الجوّ كانوا يدفعونها في المقعد إلي جوار المدفأة التي تطل علي الميدان، وذلك لأنها أصبحت تبغض الحديدية. وظلت النافذة المطلة عليها مغلقة باستمرار. ورغبت لو باعوا الحصان الذي كانت تُحبّه فيما مضى والذي أصبحت تبغضه الآن. ولاح بأن جميع أفكارها قد اقتصرت علي العناية بنفسها، فكانت تطلّ في الفراش حيث تتناول وجبات خفيفة، وتدقّ الجرس لكي تسأل الخادمة عن الشراب الذي تعده، أو لكي تتحدّث معها.

ومع ذلك أخذ الجليد يعكس من فوق سقف السوق في الغرفة شعاعاً أبيض ساكناً. ثمّ جاء المطر الذي أخذ يتساقط. وكانت «إيما» تنتظر في لهفة كلّ يوم تكرر تلك الأحداث الصّغيرة المحتمومة التي لم تكن مع ذلك تهمها في شيء. وكان أهم تلك الأحداث هو وصول «العصفورة» في المساء .

ومع وصول «العصفورة» كانت صاحبة الفندق تأخذ في الصباح وتجاوبها أصوات أخرى، بينما يبحث «هيوليت» عن الحقائق فوق غطاء العربة وفي يده مصباحه الكبير وكأنه نجمة وسط الظلام. وعند الظهر كان «شارل» يعود إلي المنزل ثمّ يخرج ثمّ يتناول طبقاً من الحساء. وحوالي السّاعة الخامسة



عند الغروب كان الأطفال يعودون من المدارس وهم يجرون أحذيتهم فوق الرصيف ويضربون الواحد بعد الآخر مدقات المنازل بمساطرهم .

وتلك كانت السَّاعة التي يأتي فيها السَّيِّد «بورفيزيان» لرؤيتها. وكان يسأل عن صحتِّها ويحمل إليها الأخبار، ويدعوها إلي الدين في ثرثرة صغيرة ناعمة لم تكن تخلو من طرافة . وكان منظر مسوَّحه نفسه يشد من عزمها .

وفي يومٍ اشتد بها المرض حتي ظنت أنها تحتضر، فطلبت أن تتناول القربان، وبينما كانوا يعدون العدة بالغرفة لهذا التناول ويضعون المائدة المزدحمة بأنواع العقاقير لتستخدم كمذبح، و«فيليسيته» تنثر الأرض بأزهار الداليا⁽⁶⁶⁾، إذ بـ«إيما» تحس بشيء قوي فوقها فيخلصها من آلامها ومن إدراكها وإحساسها، ويُريح جسمها من عبء الفكر، وابتدأت حياة أخرى ولاح لها أن كيانها الصاعد نحو الله سيفني في ذلك الحُبِّ، كالبخور المشتعل الذي يُتبدد بخارًا .

رشوا الماء المقدس فوق ملاءات السرير، وأخذ القسيس القربان الأبيض من المزود المقدس، وانهارت من النشوة الإلهية وهي تمدد شفتيها لكي تتناول اسم المسيح الذي تقدَّم إليها، وانتفخت ستائر مخدعها حولها في ليونة وكأنَّها سحب، والشمعتان تلتهبان فوق المائدة فتلوحان لها هالتي مجد يغشي الأبصار. عندئذ تركت رأسها يسقط، وقد خُيِّل إليها أنَّها تسمع في فضاء السماوات أغنية الملائكة علي نغمات الأعواد، وأنَّها تري زرقعة

(66) داليا أو أضاليا Dahlia، هي جنس نباتي يتبع فصيلة النجمية. وهي صنف شائع من الأزهار، موطنه الأصلي المكسيك ومنه أشكال عديدة، وهو يصلح للزراعة في كلِّ مناطق العالم المعتدلة. (المعد).

السماء. وظلت هذه الرؤية الرائعة في ذاكرتها كأجمل شيء يمكن أن تحلم به، حتي إنَّها لتجاهد الآن لكي تسترد الإحساس بها، ورغم أنَّ الإحساس لا يزال مستمرًا، ولكنَّ علي نحو أقلَّ استحوادًا، وإن يكن بالعدوِّية العميقة نفسها.

فروحها التي هدتها الكبرياء تستريح أخيرًا في خشوع، وتذوق لذة الإحساس بضعفها. وأخذت تتأمل في ذاتها تحطُّم إرادتها التي أخذت تفتح الباب واسعًا لفيض من رحمة الله.

وهكذا أحست بأنَّه بدلًا من السَّعادة توجد مسرات أعظم، كما يوجد حُبُّ فوق كُلِّ أنواع الحُبِّ الأخرى، حُبٌّ لا ينقطع ولا ينتهي، بل يزداد علي نحو دائم. ولمحت بين رؤى آمالها حالة من الطهارة تسبح فوق الأرض وتختلط بالسماء، هفت إليها روحها، فودت أن لو أصبحت قديسة وفاشترت مسابح وحملت مائثم، وتمنت أن تجد في غرفتها - عند مرقدِها - أيقونة مرصعة بالزمرد لكي تُقبَّلها كُلُّ مساء.

وقد دهش القسيس لهذا الاستعداد الذي أبدته، وإن رأى دين «إيما» يمكن أن ينتهي بالاقتراب من الانحراف أو الإسراف لفرط ما فيه من لهفة، ولكنَّه لما لم يكن متبحرًا في هذه الأمور إذا تجاوزت حدًّا مُعيَّنًا، فإنَّه كتب إلي السيِّد «بولار» أمين مكتبة «مونسينيور» لكي يرسل إليه كتابًا قيمًا لشخص من الجنس اللطيف، مليء بالذكاء، فشحن إليه الأمين خليطًا من كُلِّ ما كان شائعًا عندئذ في تجارة الكتب المقدسة - شحنها في غير مبالاة - وكأنَّه يشحن كمية من الخردوات للزنوج.



وكانت كتيبات صغيرة مكوَّنة من أسئلة وأجوبة، ونشرات ذات نغمة خشنة، كتلك التي كتبه السيّد «ديميستر»، وروايات وردية الغلاف ذات أسلوب معسول لفقها قسس متجولون، أو راهبات نادمات من بينها كتيبات «فكر في هذا جيداً»، و«رجل المجتمع عند أقدام مريم»، لمؤلفه السيّد «دي.....» الذي يحمل عدة نياشين، و«ضلالات فولتير» موضحة للشبان...

ولم يكن ذهن مدام «بوفاري» قد صفاً بعد علي نحوٍ تستطيع معه أن تقرأ أي شيء قراءة جدية، فكانت تقرأ في سرعةٍ مسرفةٍ، فثارت ضد طقوس الدين، كما أنَّ غطرسة الكتب الجدلية نفرتها لَمَّا فيها من تكالب علي مطاردة أناس لم تكن تعرفهم من قبل، والقصص الدنيوية المطفمة بالدين كانت تلوح لها صادرة عن جهل بالحياة، ينحيا علي نحوٍ غير محسوس عن الحقائق التي كانت تنتظر دليلاً يؤيدها. ومع ذلك واطبت علي القراءة. وعندما كان يسقط من يدها مجلد كانت تظن نفسها مأخوذة بذلك الأسى الكاثوليكي الرفيق الذي تستطيع أن تحسه روح أثيرية .

وأما ذكرى «رودولف» فإنَّها كانت قد نزلت بها إلي أعماق قلبها، حيث بقيت في حالة أكثر جموداً وسكوناً من مومياء ملك في تابوت. وكانت تنبعث من هذا الحب الكبير المَحْنَط رائحة تخترق كُلَّ شيء، وتعطر بالحنان جوَّ الطهارة الذي أرادت أن تعيش فيه. وعندما كانت تركع علي ركبتيها فوق المصلي الغوطي كانت توجه إلي الرَّبِّ العبارات العذبة نفسها التي كانت تهمس بها قديماً لعاشقها وسط ابتهالات الحب المحرم .

واستسلمت عندئذ لأعمال البر المسرفة، فكانت تحوك الملابس للفقراء، وترسل الحطب إلي الوالدات. وذات يوم وجد «شارل» عند عودته إلي المنزل ثلاثة صعاليك يتناولون الحساء علي مائدة في المطبخ. لقد استرجعت إلي المنزل ابنتها الصَّغيرة التي كان زوجها قد أرسلها إلي الممرضة في أثناء مرض زوجته، وأرادت أن تعلِّمها القراءة، ولم تعد أعصابها تثور مهما بكَّت ابنتها .

وقد وطلت نفسها علي الاستسلام، والتسامح الشامل. وأصبحت لغتها إزاء كُلِّ شيء مليئةً بالعبارات المثالية. فكانت تقول لطفلتها: «هل زال مغصك يا ملاكي؟» .

ولم تجد مدام «بوفاري» الأمَّ ما تعيبه إلَّا إذا كان الولع المسرف بصنع قمصان للأيتام من الصوف بدلاً من أن تصلح خرق مطبخها. ولكنَّ هذه السيِّدة الطيبة التي أضنتها الخلافات المنزلية راقها أن تعيش في هذا المنزل الهادئ، بل واستمرت فيه حتي إلي ما بعد عيد القيامة لكي تتجنَّب استهتار الأب «بوفاري» الذي لم يكن يفوته في كُلِّ يوم من أيام الجمعة المقدسة أن يشتري السُّجق .

وفضلاً عن صحبة أمِّ زوجها، التي كانت تقوي إيمانها قليلاً بفضل استقامة آرائها ووقار حركاتها، كانت «إيما» تحظي كُلَّ يوم بصحبة أخريات مثل: مدام «لنجلوا»، ومام «كارون»، ومام «ديوي»، ومام «تيفاش»، والسيِّدة الممتازة مدام «هوميه» التي لم ترد قط أن تصدق شيئاً من الشائعات التي انتشرت عن جارتها، فكانت تصاحبها بانتظام بين السَّاعة الثانية والخامسة. وكان أطفال «هوميه» يأتون أيضاً لرؤيتها في صحبة «جوستان» الذي كان



يصعد معهم إلي الغرفة، حيث يقف إلي جوار الباب ساكنًا صامتًا. بل وكثيرًا ما كانت مدام «بوفاري» تغفل عن وجوده فتأخذ في إعداد زيتنها وتبدأ بسحب مشطها وهي تهز رأسها بحركةٍ عنيفةٍ. وعندما رأي لأول مرة كل هذا الشعر الذي ينزل حتي ركبتها في حلقاتٍ سوداء كان هذا المنظر بالنسبة إلي الفتى المسكين بمثابة دخول مفاجئ في شيءٍ خارقٍ جديد أخافته روعته.

ولا شك أن «إيما» لم تلاحظ تلطفاته الصامتة ولا تهيبه، ولم يخطر ببالها قط أن الحبّ - الذي اختفي من حياتها - ينض هنا إلي جوارها تحت هذا القميص المصنوع من القماش السميك، وداخل هذا القلب اليافع المتفتح لنداءات جمالها. فقد أصبحت الآن تغلف كل شيء بغلاف سميك من عدم المبالاة، فعباراتها مليئة بالعاطفة، ونظراتها بالترفع، وحركاتها بالتفاوت، حتي لم يعد من الممكن تمييز الأثرة عن محبة الغير، والفساد عن الفضيلة. فذات مساءً مثلاً غضبت من خادمتها التي طلبت منها أن تسمح لها بالخروج وأخذت تتمتم باحثة عن عذر.

وفجأة قالت:

- أنت تحببني إذا؟! -

ودون أن تنتظر جوابًا من «فيليسييتيه» - التي احمرت خجلًا - أضافت في نغمةٍ حزينةٍ:

- هيا انطلقني .. تمتعي.

وفي أوائل الربيع قلبت «إيما» الحديقة رأسًا علي عقب بالرغم من ملاحظات «بوفاري». ومع ذلك فإنّ هذا الأخير كان سعيدًا بأن يراها تبدي إرادةً ما. وأخذت هذه الإرادة تزداد كلُّما تقدّمت في استعادة عافيتها.

فابتدأت بأن وجدت وسيلة لطرد الأم «روليه» المرضعة التي كانت قد اعتادت في أثناء نقاهتها أن تتردد كثيرًا علي المطبخ ومعها رضيعها وربيبها. والذي كانت أسنانه أحد من أسنان أكلبي لحوم البشر، ثم تخلصت من أسرة «هوميه»، كما أخذت تتخلص من جميع الزيارات الأخرى، بل إنها أخذت تخفف من مواظبتها علي الكنيسة، ما حظي بموافقة الصيدلي المطلقة، إذ قال لها في نعمة ودية:

— إنكِ مخدوعة قليلًا بالمسوح!

والواقع أنَّ الصيدلي نصح «شارل» بأن يذهب بامرأته إلي المسرح في «روان» لكي يرفه عنها بسماع المغني الشهير «لاجاردي»، وقال له:

— صدقني، خذ السيِّدة إلي المسرح، ولو لم يكن في ذلك إلا إثارتك مرة في حياتك لأحد هؤلاء الغربان القساوسة. والله، لو أستطاع أحد أن يحل محلي، لنصحبكما بنفسي. أسرعان «لاجاردي» لن يغني غير ليلة واحدة، وقد ارتبط في إنجلترا بأجور ضخمة، فهو فيما يقولون «نمس» ماهر! يتقلب فوق الذهب، أو هو يصطحب معه ثلاث عشيقات وطاهية! إنَّ هؤلاء الفنانين الكبار يحرقون الشمعة من طرفيها، وهم في حاجة إلي حياة متهتكة لكي يثيروا خيالهم قليلًا، ولكنهم يموتون في المستشفى، وذلك لأنهم لم يفتنوا في شبابهم إلي أن يدخروا شيئًا! هيا! هنيئًا! وإلي الغدا!

وهكذا لم تلبث فكرة المسرح أن رسخت بسرعة في رأس «بوفاري»، فقد بادر فأخبر بها امرأته التي رفضت في أول الأمر متعللة بالنعيب والمشقة والتكاليف، ولكن «شارل» علي غير عادته لم يرضخ، وذلك لشدة إيمانه بأن هذا الترويح سيفيدها كثيرًا. ولم يكن هناك أي عائق، فقد أرسلت إليهما أمه ثلاثمائة فرنك لم يكونا يتوقعانها، والديون الجارية لم تكن جسيمة، وموعد استحقاق كمبيالتي «ليريه» لا يزال بعيدًا، بحيث أنه لم يكن هناك مجال



للتفكير فيها! ولَمَّا كان «شارل» يظن أنَّ امرأته غير متحرّجة، فقد أخذ يزداد إلحاحًا، حتي انتهى الأمر بأن وافقت تحت تأثير إلحاحه. وفي اليوم التَّالي سافر في السَّاعة الثامنة في «العصفورة» .

وتنهّد الصيدلي الذي لم يكن هناك ما يستوجب بقاءه في «أيونفيل»، ولكنّه اعتقد مع ذلك أنّه مضطرّ إلي عدم مغادرتها، وقال وهو يراهما مسافرين:

- هيا.. رحلة سعيدة! يا لكما من محظوظين!

ثمّ وجه الحديث إلي «إيما» التي كانت تلبس ثوبًا من الحرير الأزرق بمراوح أربع، قائلاً:

- إنَّني أراكِ جميلة كآلهة الحبّ ولسوف يشرق ضياؤك في «روان» .

وتوقفت «العصفورة» عند فندق «الصليب الأحمر» في ميدان «بوفوازين»، وكان من تلك الفنادق التي توجد في قري الريف، وبها حظائر واسعة، وغرف نوم ضيقة. وفي فنائها يشاهد الدجاج وهو يلتقط الشوفان تحت عربات المندوبين التجاريين المملّخة بالأوحال ..

وأخذ «شارل» يعمل فورًا.. فذهب إلي المسرح وكان يخلط بين الصالة والمقصورات، وبين البناوير واللوجات، وطلب إيضاحات ولكنّه لم يفهمها، فأرسله المراقب إلي المدير. وعاد إلي الفندق ثمّ ارتد إلي المكتب، وهكذا جاب المدينة من أقصاها إلي أدناها عدة مرّات من دار المسرح إلي الطريق العام .

واشترت السيّدة قُبعةً وقفارًا وبقاعة زهور. وأمّا السيّد فقد كان يخشي كثيرًا أن يتأخر عن بدء المسرحية، فلذلك لم يجد الوقت الكافي لكي يحتسي حساءه ووصل الاثنان أمام أبواب المسرح التي كانت لا تزال مغلقة.



في المسرح in the theater

كان الجوّ صحوًا حارًا، والعرق يتصبب من الوجوه، والمناديل المنشورة تجفف الجباه الحمراء، وأحيانًا تهب ريح فاجرة من النهر فتَهْز في رفقٍ حافة مظلات القماش المُعلّق فوق أبواب المقاهي. ومع ذلك فعلي مسافة قريبة كان يسري تيار منعش من الريح الثلجية تفوح منه رائحة الشحم والجلد والزيت، وتلك كانت رائحة شارع العربات المليء بحوانيت كبيرة يدحرجون فيها البراميل .

وأرادت «إيما» أن يتمشيا قليلاً علي رصيف الميناء للنزهة وتمضية الوقت، حتي لا يلوحان مضحكين وهما ينتظران أمام أبواب المسرح التي لا تزال مغلقة. وأمسك «شارل» علي سبيل الاحتياط بالتذكريتين في يده داخل جيب سرواله الذي ضمه إلي بطنه .



وخفق قلبها منذ دلفت إلي الردهة، وابتسمت ابتسامة غير إرادية من الغرور عندما رأت

الجمهور يتدافع علي اليمين في . «إيما» ، و«شارل» في طريقهما إلي المسرح . الممشاة الأخرى، بينما صعدت هي سلالمة الدرجة الأولى. وكانت تجد سرورًا كسرور الأطفال عندما تدفع بأصابعها الأبواب الواسعة المبطنة



باللباد، وكانت تستنشق بملء رئتيها رائحة النعال المعبأة بالغبار، وعندما جلست في مقصورتها شددت جسمها في غطسة المركيزة.

راحت الصالة تمتلئ، واستلت هي النظارة من جرابها، وأخذ المشاهدون يلح بعضهم بعضاً عن بُعد ويتبادلون التحية، وقد أتوا ليتلهوا بالفنون الجميلة عن قلق التجارة، ولكنهم لم ينسوا الأعمال قط، فكانوا لا يزالون يتحدثون عن القطن والخمور.. وكانت تري رؤوس العجائز المسالمة الخالية من كلّ تعبير وكأنها ميداليات من الفضة أطفأ بريقها بخار الرصاص، وكانت مدام «بوفاري» معجبة ببعض الشبان، عندما رأتهم من أعلي وهم يقبضون بقفازاتهم الصفراء علي كرات عصيهم المذهبة.

وأثيرت مصابيح الأوركسترا، وتدلّت الثريا من السقف فانساب من بلورها نور، ناشراً بهجةً مفاجئةً في الصالة، ثمّ دخل الموسيقيون بعضهم خلف بعض، وسمع أولاً صراخ الكمان، ثمّ ضجة البوق، ونوح الناي والمزمار. ولكن لم تلبث أن سمعت ثلاث دقات علي المسرح، وأخذت الطبول تدق، وعزفت الآلات النحاسية بعض الأنغام، وعندما ارتفعت الستارة كشفت عن منظر طبيعي.

كان ملتقي طرق في غابةٍ وعلي اليسار نافورة ماء تظلّلها شجرة بلوط، وفلاحون، ونبلاء يحملون معاطفهم فوق أكتافهم، وقد أحوا يغنون جميعاً أغنيات الصيد. ثمّ ظهر ضابط وأخذ يتهلل إلي ملاك الشرّ رافعاً ذراعيه إلي السماء، فظهر شخص آخر ثمّ اختفيا، وأستأنف الصيادون غنائهم.

وأحست «إيما» بنفسها من بين قراءات الشّباب وسط قصص ولتر سكوت»، وحُيِّلَ إليها أنّها تسمع من خلال الضباب صوت القرب



الاسكتلندية، وهو يتردد بين الأعشاب الملتفة. والواقع أنَّ ذكريات القصة سهلت لها فهم الأوبريت فتابعت القصة عبارة بعد عبارة، وذلك بينما كانت الخواطر الخفية التي تعود إليها لا تلبث أن تتبدد تحت أمواج الموسيقى؛ وأخذت تترنج مع هدهدة الأنغام، وأحست بكيانها كُلَّه يهتز وكأن قوس الكمان يمرُّ فوق أعصابها، ولم تكفها عيناها لكي تتأقّل الملابس والديكور والأشخاص والأشجار الملونة التي كانت تهتز عندما يسير الممثلون فوق المسرح، والمعاطف وملابس الممثل والجرب وكلّ هذه الرؤى التي كانت تتحرّك في انسجام الموسيقى وكأنّها في جوٍّ من عالم آخر.

ولكنَّ امرأةً شابةً تقدّمت وهي تقذف بكيسٍ من النقود إلي فارس أحضر الثياب وبقيت وحدها، وعند ذلك سمع الثاني يحدث نغمًا كأنّه خرير نافورة أو زقزقة عصفورة، وغنت «لوسي» مذهبًا في نغمةٍ جادة، كانت تشكو الغرام وتتمني جناحين، وكذلك «إيما» كانت تود أن تهرب من الحياة لتطير في عناق، وفجأةً ظهر «إدجار لا جاردي».

كان في شحوب رائع يوحي بعظمة الرخاء التي تبدو علي تلك الأجناس المارة من سكان الجنوب، وكان صدره القوي مشدودًا في صديري بُني اللؤلؤ، وخنجر صغير منقوش يصطك بفخذه الأيسر وهو يُقلّب نظرات ولهانة ويكشف عن أسنانه البيضاء.

ويحكون أنَّ أميرة بولندية سمعته ذات مساء وهو يغني علي شاطئ «بيارتز»⁽⁶⁷⁾ حيث كان يعمل في القوارب، فأغرمت به وفقدت ثروتها بسببه،

(67) بيارتز: هي مدينة فرنسية تقع على خليج سكاى على ساحل المحيط الأطلسي. وتُعد من المدن الساحلية الرائعة والتي تحظى بشعبية كبيرة من قِبل السياح. (المُعد).



ثُمَّ تخلي عنها بسبب نساء أخريات. وقد ساهمت هذه الشهرة الغرامية في شهرته بل وكان هذا المثل الخبيث يحرص دائماً علي أن يزج في إعلاناته عبارة شفوية عمّا في شخصه من سحرٍ وفي روحه من حساسية. وبحنجرية قويّة وجرأة ثابتة، وحرارة أكثر من ذكاء ومبالغة أكثر من عاطفة شعرية، استطاع هذا المهرّج أن يرفع من طبيعته التي كان فيها شيء من طبيعة الحلاق ومصارع الثيران.

وقد أثار الحماسة منذ الشهر الأوّل وهو يضم «لوسي» بين ذراعيه ويتركها ثُمَّ يعود إليها وقد لاح عليه أنّه بائس. كانت تنطق منه انفجارات الغضب وحسرة الأنين في حنانٍ لا حد له.

والنغمات تنطلق من عنقه العاري مليئة بالتنهدات والقبّلات، وكانت «إيما» تنحني لكي تراه وهي تחדش بأظافرها مخمل المقصورة، وأخذت تملأ قلبها بالنحيب المنغم الذي استرسل مع صوت «الكونترباص»⁽⁶⁸⁾، وكأنّه صيحات غرقى في ضجيج العاصفة. ووجدت فيه صدي لكلّ ذلك الثمل واللهفة للذين أوشكا أن يقتلاها، وكان صوت المغنية يلوح لها ترحيباً لمكنون نفسها، بل ولاحت لها كلّ هذه الرؤية جزءاً أصيلاً من حياتها.

ولكن أحداً في الدنيا لم يُحبّها مثل هذا الحُبّ، فهو لم يبك كـ«إدجار» في العشية الأخيرة عندما تبادلا عبارة: «إلي الغد.. إلي الغد»!

(68) كونترباص: هي آلة وترية من عائلة الكمان ولكنها الأضخم حجماً، ولها أربعة أوتار وصوتها غليظ ويمكن العزف عليها بواسطة القوس أو بالقر وغالباً يعزف عليها العازف وهو واقف. ويبلغ طولها 180 سم. وقد نشأ الكونترباص في أوروبا في بدايات القرن السابع عشر. وتستخدم هذه الآلة في فرق الأوركسترا أو ضمن موسيقى الجاز كما تستخدم ضمن مجموعة الوترية، وهي: الكمان، والفيولا، والتشيللو، والكونترباص. (المعد).

واهتزت القاعة بعبارات الاستحسان، واستعيدت الخاتمة كُلُّها،
وتحدَّث العشيقان عن أزهار قبرهما، وعن العهد والفراق والقدر والآمال.
وعندما نطقا بالوداع الأخير، أطلقت «إيما» صيحة حادة اختلطت برنين آخر
النغمات الموسيقية.

وتساءل «بوفاري» :

لماذا يضطهدها هذا النبيل بهذه الطريقة؟

فأجابت «إيما» :

.. لا.. إنه عشيقها.

فقال «شارل» :

.. ومع ذلك يقسم بأنه سينتقم من أسرتها، بينما الآخر الذي ظهر من هنيهة
كان يقول: «إني أُحبّ «لوسي» وأظن أنّها تحبني»، كما أنّه انصرف مع أبيها
وكُلّ منهما يتأبط ذراع الآخر، لأنّه أبوها، أليس كذلك؟ ذلك الرّجل القصير
القبّيح الذي يضع ريش ديك في قبّعته؟

وبالرغم من تفسيرات «إيما» منذ بدء الحوار الذي عرض فيه «جيلبير»
حيله الأثمة علي سيّدة «أشتون»، فإنّ «شارل» عندما رأى خاتم الخطوبة
الكاذبة التي انخدعت به «لوسي» اعتقد أنّها كانت تذكر حُبّ مرسل من
«إدجار»، وإن يكن قد اعترف بأنّه لم يفهم القصّة بسبب الموسيقى التي
أساءت كثيراً إلي الحوار.

وقالت «إيما» :



- فليكن . اسكت .

فقال، وهو ينحني فوق كتفها:

- إنني فقط أحب أن أفهم كما تعلمين .

فقالت، وقد نقد صبرها:

- اسكت.. اسكت .

وكانت «لوسي» تتقدم ونساؤها يسندنها نصف إسناد، وفي شعرها تاج من أغصان البرتقال، ووجهها أكثر شحوبًا من حرير ثوبها الأبيض، فأخذت «إيما» تحلم بيوم زواجها وقد تصوّرت نفسها هناك وسط حقول القمح علي الطريق الصّغيرة، عندما كانوا يسرون نحو الكنيسة. فلماذا إذا لم تقاوم كهذه ولم تتضرّع مثلها؟

لقد كانت علي العكس من ذلك فرحة لا تري الهاوية التي تتردي فيها. آه.. يا ليتها وهي في نضرة الجمال وقبل التلوث بالزواج وضلال الخيانة الزوجية قد علقت حياتها بقلب كبير صلب، وعندئذ كانت الفضيلة والحنان والشهوة والواجب تختلط معًا بحيث لا تسقط قط من قمة تلك السعادة .

ولكن هذه السعادة كانت بلا ريب أكذوبة متخيلة لكي تنزل اليأس بكلّ رغبة. فهي الآن تعرف ضآلة الإحساسات التي يُبالغ فيها الفنّ. وهكذا حاولت «إيما» أن تصرف تفكيرها لكي لا تري في تمثيل آلامها علي المسرح إلّا خيالًا مجسمًا يصلح لتسليّة العيون، بل وأخذت تبسم ابتسامًا داخليًا في إشفاق مترفع. وذلك عندما ظهر في أقصى المسرح، تحت باب المخمل رجل يرتدي عباءة سوداء .

وسقطت قبعته الإسبانيّة عندما قام بحركة، وبعد ذلك مباشرة ابتدأت الآلات والمغنون في القطعة السداسية، وغطى «إدجار» الهائج الغضب علي جميع الآخرين، بصوته الأكثر صفاء، وقد أخذ «أشتون» يوجه إليه بنغماتٍ عميقة تحدياته القتالة، كما أخذت «لوسي» تطلق شكواها الحادة، بينما أخذ «آرثير» ينغم جانباً بعض الأنغام المتوسطة، و«الباريتون»⁽⁶⁹⁾ الأوّل يدوي كالأرغون، وأصوات النساء تُعيد عباراته علي هيئة جوقة ممتعة. وكانوا يقفون في صفٍّ واحدٍ، وكان الغضب والانتقام والغيرة والرُّعب والدهشة تنطلق معاً من أفواههم المنفرجة، فالعاشق المهتاج يُشهر سيفه المسلول، وياقة الدانتيل ترتفع وتنخفض تبعاً لحركات صدره، وهو يذهب يمينه ويسرة بخطي واسعة، ويقعقع علي خشبة المسرح بمهمازه القرمزي المركب في حذائه الطري الذي ينفرج عند ساقه. وخطر لها أنّه يحمل بلا ريب حُبّاً لا ينفد حتي يستطيع أن يصبّ فيه علي الجمهور كلّ هذا الفيض الكبير، واختفت كافة نزاعات النقد من نفسها تحت تأثير شاعرية الدور التي أخذت تغدوها، وانجذبت نحو الرّجل بوهم التمثيل، فحاولت أن تصوّر حياته، تلك الحياة الصاخبة الفريدة الرائعة، والتي كانت تستطيع مع ذلك أن تحيّاها لو سمح الحظ فتعرّف أحدهما بالآخر وأحبه. وكانت تستطيع أن تجوب معه أوروبا عاصمة عاصمة، وأن تشاركه متاعبه ومواضع فخاره، وأن تلتقط الأزهار التي ترمي إليه، وأن تطرز بنفسها ملابسها، وفي كلّ مساء تلتقي مشدوهة، وهي جالسة في أحد المقصورات خلف الحاجز ذي القضبان الذهبية، انفجارات عواطف تلك الروح التي لن تغني عندئذٍ إلّا لها وحدها،

(69) الباريتون: هي آلةٌ موسيقيةٌ وتريةٌ حظيت بشعبيةٍ واسعةٍ خلال القرن الثامن عشر الميلادي. وهي تتألف من عتَب (أو صفحة أصابع كأصابع العود) وستة أوتار. (المعد).



وهو ينظر إليها من فوق المسرح في أثناء قيامه بدوره. ثُمَّ استولي عليها الخجل.. أن ينظر إليها لا شك في ذلك وثارت بها الرّغبة في أن تلقي بنفسها بين ذراعيه لكي تحتمي ببقوّته، وكأنّه قد أصبح الحُبّ مجسّمًا، وأن تقول له بل وتصيح: «اخطفني.. خذني.. فلنرحل.. فلك، لك وحدك كلّ أشواقني وكلّ أحلامي».

ونزلت الستارة.

واختلطت رائحة الغاز بالأنفاس، وزاد هواء المراوح الجوّ اختناقًا. وأرادت «إيما» أن تخرج. وكان الجمهور يملأ الممرات فارتمت في مقعدها مختنقة بدقات قلبها. وخشي «شارل» أن تُصاب بالإغماء، فجري لكي يحضر لها كوبًا من نقيع الشعير. ووجد مشقة كبيرة في أن يعود إلي مقعده، وأخيرًا وصل إلي جوار زوجته، وقال وهو يلهث:

- لقد ظننت أنّي لم أصل فهناك زحام.. زحام..

ثُمَّ أضاف:

- خمني من قابلت هناك؟.. السيّد ليون.. ليون!

- ليون!؟

- هو نفسه.. وسيحضر ليُقدّم إليك تحياته.







الفصل الأول



هل تبدأ قصة حب جديدة؟

Do you start a new love story?

دخل المقصورة كاتب «أيونفيل» القديم. ومديده في غير تكلف، وكأنه من الطبقة العليا المهذبة، ومدّت مدام «بوفاري» يدها ألياً وهي تستجيب بلا ريب إلي جاذبية إرادة أقوى. ولم تكن قد مست تلك اليد منذ أمسية الربيع التي كان ينهمر فيها المطر فوق الأوراق الخضراء، عندما ودع أحدهما الآخر وهي واقفة عند حافة النافذة. ولكنها تذكرت في سرعة ما يقتضيه الموقف من لياقة، فنفضت في جهد ما في ذكرياتها من خمول، وأخذت تتمتم في عبارات سريعة:

- آه.. طاب وقتك.. كيف حالك؟

- أنت هنا؟

وصاح صوت من الصالة، إذ كان الفصل الثالث قد ابتدأ: «سكوت».

- أنت إذاً في «روان»؟

- نعم.

- ومنذ متى؟



والتفتت إليهما الأنظار فسكتا.



ولكنّها منذ تلك اللّحظة لم تعد تنصت إلي جوقة الممثلين ومشهد «أشتون»، وخادمه، وهو ذيالوج غنائي كبير، كلّ هذا مرّ بالنسبة إليها قصيّا، وكأنّ الآلات قد أصبحت أقلّ رنينًا والشخصيات

أقلّ بُعدًا. وأخذت تتذكّر لعب الورق عند الصيدلي، والنزهة عند المرضعة، والقراءات عند العريشة، والخلوات إلي جوار المدفأة، وكلّ هذا الحُبّ المستكين الهادي الطويل المتحفظ الحنون، الذي كانت مع ذلك قد نسيته. فلماذا يعود إذًا؟ كيف تأمرت المصادفات لكي تعود إلي حياتها؟ وظلّ واقفًا خلفها مستندًا بكتفه إلي حاجز المقصورة، وبين وقت وآخر كانت تحس برعشة من تأثير الأنفاس الدافئة المنبعثة من أنفه إلي شعرها.

وقال وهو ينحني فوقها عن قرب حتي مس طرف شاربه خدها:

- هل هذا يروقك؟

فأجابت في غير اهتمام:

- أوه! في الحق.. لا! لا يروقي كثيرًا!

وعندئذ اقترح أن يخرجوا من المسرح ليتناولوا المثلجات في جهة ما.

فقال «بوفاري»:

- لا ليس الآن؛ فلنتنظر، إنَّ شعرها منفوش، ما يدل علي أنَّ المشهد سيكون عنيفًا.

ولكنَّ مشهد الجنون لم يثر اهتمام «إيما»، ولاح لها تمثيل المغنية مُبالغا فيه، وقالت إنها تصيح بصوت أكثر ارتفاعًا ممَّا يجب .

والتفتت إلي «شارل»، وهي تقول هذه العبارة، بينما كان هو منصتا. فأجاب وهو يتأرجح بين حيرته الواضحة والاحترام الذي يحمله لأراء زوجته:

- نعم.. ربما.. قليلا!

وقال «ليون» وهو يتنهد:

- يا له من جوِّ حار!

- هذا لا يُحتمل بالفعل!

وسأل «بوفاري» :

- هل أنتِ منزعجة؟

- نعم.. إني أختنق.. فلنخرج.

ووضع السيّد «ليون» في رفقٍ فوق شالها الطويل المصنوع من الدانتيل، وهبَّ الثلاثة لكي يجلسوا عند الميناء في الهواء الطلق أمام واجهة أحد المقاهي .

وجري الحديث أولاً عن مرضها وإن تكن «إيما» قد قاطعت «شارل» من وقتٍ إلي آخر زاعمة أنَّها تخشي أن يكون في هذا الحديث ما يضايق السيّد



«ليون». وأخبرهم هذا الأخير بأنه قد أتى إلي «روان» لكي يمضي ستين في مكتب كبير يتمرس فيه بالأعمال التي تختلف في «نورمانديا» عنها في باريس. ثُمَّ سأل عن «بيرت»، وأسرة «هوميه»، والأُم «لو فرانسوا». ولمَّا لم يكن لديهما شيء آخر يقولانه في حضور الزوج فإن الحديث لم يلبث إلَّا أن توقف.

وكان النَّاس الخارجون من المسرح يمرحون علي الرصيف وهم يدندنون أو ينهقون بملء حناجرهم: «أيها الملاك الجميل»، أي (لوسي).

وعندئذ أخذ «ليون» يتفلسف ويتحدَّث عن الموسيقى. فهو قد رأى الكثير من الموسيقيين فصلًا عن «لاجاردي» الذي لا يساوي شيئًا رغم صرخاته العالية.

وقاطعه «شارل»، وهو يرتشف في جرعاتٍ صغيرةٍ شرابه الممزوج «بالروم»:

- ومع ذلك فإنَّهم يقولون إنَّه رائع كُلُّ الروعة في الفصل الأخير وإنِّي لنادم لخروجي قبل النهاية، وذلك لأنَّه كان قد أخذ يروقني.
فقال الكاتب:

- ومع ذلك فإنَّهم سيعرضون عمَّا قريب رواية أخرى.

ولكن «شارل» أجاب بأنَّهما سيرحلان في الغد.

وأضاف وهو يلتفت نحو زوجته:

- هذا ما لم تريدي أن تبقي وحدكِ يا قطتي الصَّغيرة.

وانتهز الشاب هذه الفرصة غير المتوقعة التي سنحت له، فغيّر من مناورته وأخذ يمتدح «لاجاردي» في مقطوعته الختامية قائلاً:

- لونه شيء مميز جليل!

وعندئذ ألح «شارل»، قائلاً:

- ستعودين يوم الأحد... هيا.. قرري.. إنك مخطئة في تردّدك إذا كنت تحسّين أن هذا قد يُفيدك أقل فائدة.

وفي أثناء ذلك أخذت الموائد تخلو من حولهم، وجاء خادم ووقف إلي جوارهم في تأدّب. وفهم «شارل» فسحب كيسه، فمنعه الكاتب بذراعه، بل ولم ينس أن يترك، فضلاً عن الثمن، قطعتين من العملة الفضية رنهما علي الرخام.

وتمتم «بوفاري» قائلاً:

- إنني في الواقع غير مرتاح للنقود التي..

وبدت من «ليون» حركة حفاوة مرتفعة، ثمّ قال وهو يتناول قبعته:

- اتفقنا.. أليس كذلك.. إلي الغد في الساعة السادسة.

وصاح «شارل» مرّة أخرى أنّه لا يستطيع أن يتعيّب أكثر من هذا، ولكن شيئاً لم يمنع «إيما».

وتمتمت «إيما»، مع ابتسامة فريدة:

- ذلك أنني لا أدري..

فقال «شارل»:



- وعلي آية حال فستفكرين، وأمامنا الليل كله..

ثم قال لـ «ليون»، الذي كان يصاحبهما:

- والآن، مادمت في مقاطعتنا فإنني أمل أن تأتي من وقتٍ إلي آخر لتتناول معنا الغداء. فأكد الكاتب أنه لم يتخلف عن ذلك، كما أن لديه حاجة للذهاب إلي «أيونفيل» بسبب أمر يتعلق بمكتبه.

وافترقوا أمام ممر «سان بلان»، عندما كانت الكاتدرائية تدق الحادية عشرة والنصف.

كان «ليون»، مع دراسته للقانون، يتردد علي مقهى «الشومير»، بل وأحرز فيها بعض انتصارات مع الغانيات اللاتي كن يجدنه أنيق المظهر.

وكان أكثر الطلبة احتشامًا، فهو لا يرسل شعره مسرف الطول، ولا يُبالغ في قصّه قصيرًا، ولا يصرف في أول يوم في الشهر نقود الأشهر الثلاثة القادمة، وهو يحافظ علي علاقة طيبة مع أساتذته.

وعندما كان يجلس ليقراً في غرفته أو تحت أشجار الزيزفون⁽⁷⁰⁾ بحديقة لكسمبورغ في المساء، كثيرًا ما كان يترك مجموعة من القوانين تسقط من يده علي الأرض، وتعود إليه ذكرى «إيما». ولكن هذا الشعور أخذ يضعف شيئًا فشيئًا، وتجمعت فوقه أطماع أخرى، وإن يكن قد ظلّ موجودًا خلال هذه

(70) شجرة الزيزفون: شجرة معمرة ساقها خشبية ذات قشرة ملساء كثيرة. وهي شجرة كبيرة يصل ارتفاعها إلى حوالي 30 مترًا، يغطي سوقها لحاء ذو لون رمادي أملس وأوراق قلبية الشكل وعناقيد من الأزهار الصفراء الباهتة، تسقط أوراقها في فصل الخريف. وتعتبر أوروبا الموطن الأصلي للنبات وينمو برّيًا، لكنّه يُزرع في الحدائق وعلى الطرقات. (المُعد).

الأطماع، وذلك لأنَّ «ليون» لم يفقد كُلَّ أمل. وكان هناك بالنسبة إليه وعد غامض يتأرجح في المستقبل كالثمرة الذهبية المعلقة بغصن خيالي موهوم. فلمَّا عاد إلي رؤيتها بعد غيبة ثلاث سنوات، استيقظت عاطفته، وخُيِّلَ إليه أنَّه لا بدَّ من أن يُقرَّر في النهاية الاستسلام إلي رغبته في تملكها، فإنَّ حيائه قد تضاعف بحكم مخالطاته الماجنة، وقد عاد إلي الريف وهو يحتقر كُلَّ مَنْ لم يحظ بحذاءٍ لامع وهو في إسفلت باريس. ولا شكَّ أن «ليون» المسكين كان يرتعد بلا ريبٍ كأنَّه طفل أمام باريسية مُغطاة بالدانتيل في صالون طبيب شهير ذي شخصية وألقاب وعربة خاصَّة، ولكن هنا في «روان»، وعلي الميناء، وأمام هذا الطبيب، كان لا يشعر بأي حرج، متأكدًا مقدَّمًا من أنَّه سيتألَّق. والعجأة تتوقف علي الأوساط التي يوجد المرء فيها، فالإنسان لا يتحدَّث في الدور الأرضي كما يتحدَّث في الدور الرابع.. والمرأة الغنية تبدو كأنَّها مُحاطة بكُلِّ هذه الأوراق من «البنكنوت» لحماية فضيلتها، وكأنَّها درع في بطانة صدرها.

وعندما ترك «ليون» في مساء اليوم السَّابق السَّيِّد والسَّيِّدة «بوفاري»، أخذ يتبعهما عن بُعد في الشارع، وعندما رآهما واقفين عند فندق «الصلب الأحمر» دار علي عقبيه، وأمضي اللَّيل بطوله في تدبير خطة. وفي اليوم التَّالي، دخل ردهة الفندق حوالي السَّاعة الخامسة مختنق الأنفاس شاحب الوجنتين، وقد انعقد منه عزم الجبناء الذين لا يقف في سبيلهم شيء.

رد خادم قائلاً:

- إنَّ السَّيِّد ليس هنا.



فلاح له هذا الرد فأل خير، وصعد، ولم تضطرب لمقدمه، وعلي العكس
قدّمت إليه الاعتذارات لأنّهما نسيا أن يخبراه عن الفندق الذي ينزلان فيه.

فقال «ليون» :

... أوه لقد توقّعتة .

... كيف؟

فرغم أنّه قد استسلم لغريزته فقادته نحوه، وأسرع إلي إصلاح سخافته،
فقصّ عليها أنّه قد أنفق صباحه كلّهُ في البحث عنها في فنادق المدينة،
الواحد بعد الآخر .

وأضاف قائلاً:

... لقد قرّرت أن تبقي إذا .

... نعم، ولقد أخطأت، فلا يجوز أن يعتاد الإنسان مسرات ليس في طوقه
ممارستها، عندما يكون الإنسان محاطاً بألاف من الالتزامات .

... آه يُخيّل إليّ ..

... إيه، لا، فأنت لست امرأة!

... ولكنّ للرجال أيضًا أحزانهم ..

وبدأت المناقشة ببعض الأفكار الفلسفية، وأفاضت «إيما» في الحديث
عن بؤس العواطف الأرضيّة، والوحدة الدائمة التي يزرع فيها القلب .

ولكي يمنح نفسه أهميته، أو من باب المحاكاة الساخرة لتلك السوداوية
التي أثارت سوداويته، أعلن الشاب أنّه قد أصابه سأم شديد طوال مدة دراسته،



فعلّم المرافعات يهيج أعصابه، ومهن أخرى تستمليه، وأُمّه لا تمسك عن تعذيبه في كلّ خطاب. ولأنّهما كانا يُحدّدان شيئاً فشيئاً بواعث ألمهما، أخذ كلّ منهما يستعذب هذه الثقة المتزايدة خلال الحديث، ولكنّهما كانا يتوقفان أحياناً دون الكشف الكامل لأفكارهما، ويحاولان عندئذ تصوّر عبارة يمكن أن تترجم مع ذلك، فهي لم تعترف بحُبّها لشخصٍ آخر، وهو لم يقل إنّّه كان قد نسيها.

فهو ربما لم يذكر وجبات العشاء التي كان يتناولها بعد الرقص مع الغانيات، وهي لم تعد تذكر بلا ريب مقابلات العهد الماضي، عندما كانت تجري في الصباح وسط الأعشاب نحو قصر عشيقها! وكان ضوءاء المدينة لا يكاد يصل إليهما، ولاح أنّ الغرفة صغيرة عن عمد لكي تزيدهما قرباً في خلوتهما. وكانت «إيما» تسند عقصة شعرها إلي ظهر المقعد القديم، وقد ارتدت معطفاً من القطن المطرز، وكان ورق الحائط الأصفر يتلوّن من خلفها بأرضية مذهبة، وقد ظهرت في المرأة صورة رأسها، بالخط الأبيض الذي يغرق شعرها، وطرفاً أذنيها يبرزان من تحت خصلاته.

قالت:

- ولكن معذرةً..إني مخطئة!..فأنا أصيبك بالسّام بشكاياتي التي لا تنتهي!

- كلا! أبداً! أبداً!

فقالت، وهي ترفع إلي السقف عينيها الجميلتين اللتين تترقق فيهما دمعتان:





- ليتك تعلم كل ما كنت أحلم به!

- وأنا أيضًا؟!.. أوه! لقد قاسيت

كثيرًا.. وكثيرًا ما كنت أخرج

وأسير وأتسكع علي طول شواطئ

«ليون» ييوح بحبه لـ «إيما».

«السين»⁽⁷¹⁾، وأذهل نفسي بضجيج الجمهور، دون أن أستطيع التخلّص

من الخيال الذي يلاحقني. وفي أحد الشوارع الكبيرة توجد عند أحد تجار

اللوحات صورة إيطالية تمثل إحدى ربّات الفنّ وهي تلفت بقميص وتنظر

إلي القمر، وفوق شعرها المرسل زهرة، وكان شيء يدفعني دائمًا إلي هناك

حيث أظل ساعات كاملة..

ثم أضاف بصوت مرتعش:

- إنها تشبهك قليلًا!

وأدارت مدام «بوفاري» رأسها لكي لا يري علي شفيتها تلك الالبسامة

التي شرعت فيها ولم تستطع كبثها.

واستمر يقول:

- كثيرًا ما كنت أكتب لك خطابات، ثم أمرقها بعد ذلك!

ولم تجب، واستمر يقول:

(71) السين Siene، هو نهر رئيس في شمال فرنسا، وأحد طرق النقل المائية التجارية. كما

أنّه مصدر جذب سياحي، وبالدلت في مدينة باريس التي يمر عبرها. طول النهر 777

كيلومترًا. (المعد).

- لقد كنت أتحيل أحياناً أن مصادفة ستأتي بك، وكنت أعتقد أنني أراك عند منعطفات الطرق، وكنت أعدو خلف كل عربة يتطاير من بابها شال أو وشاح يشبه وشاحك!

ولاح أنها مصممة علي أن تتركه يتكلم دون أن تقاطعه، وقد شبكت ذراعيها، وحتت رأسها وأخذت تنظر إلي كرات خفها، ومن وقت إلي آخر تحركها حركات صغيرة بأصابع قدمها. ثم تنهدت قائلة:

- إنه لَمَّا يُشير أشد الأسي أن يحيا الإنسان حياة كحياتي لا فائدة فيها.. ولو أنه كان من الممكن أن يستفيد غيرنا من آلامنا لوجد الإنسان إذا عزاء في فكرة التضحية!

وأخذ يُشيد بالفضيلة والواجب والتضحيات الصامته، لأنه هو نفسه في حاجة ماسة - لا يستطيع إشباعها - إلي البذل والتضحية.
وقالت:

- كم أود لو كنت راهبة في المستشفى!

فأجاب:

- وا أسفاه! إنَّ الرِّجال لا يؤدون مثل هذه الرسائل المقدسة، ولست أري في أية جهة أية مهنة.. إلَّا أن تكون مهنة الطبيب..

وبهزة خفيفة من كتفها قاطعته لكي تشكو من مرضها الذي أوشك أن يقتلها، وبأليته فعل! إذا لَمَّا عادت الآن إلي التألم! وعلي الفور تمنى «ليون» هدوء القبر، بل كان قد كتب وصيته ذات مساء موصياً بأن يكفن بذلك الغطاء المحلي بالقطيفة، الذي كان يحتفظ به منها. ذلك لأنَّ هذا هو الوضع الذي



كانا يودان أن يكونا عليه!! وقد حدّد كُلّ منهما مثله الأعلى، الذي يريد أن لو
طابق الآن بينه وبين حياته الماضية؛ والواقع أن الكلام يشحذ المشاعر دائماً!
وقالت عندما سمعت حكاية الغطاء:

- ولكن لماذا؟

- لماذا؟

وتردّد قليلاً، ثُمَّ قال:

- لأنني أحببتك حُبّاً مجنوناً!

وهنا «ليون» نفسه هنا إذ تخطي العقبة، وأخذ يراقب ملامحها بزاوية
عينيه الزرقاوين مسحّة الأفكار الحزينة التي كانت تنشر عليهما الكآبة،
وتهلّل وجهها كُلّه بالإشراق .

وانتظر، فأجابت في النهاية قائلة:

- لقد خُيِّلَ إليّ ذلك دائماً.

وعندئذ أخذوا يقصان الأحداث الصّغيرة التي دفعتهما في تلك الحياة
البعيدة التي كانا قد لخصّا - في كلمةٍ واحدةٍ - لذاتها وأحزانها. فتذكّر عريشة
اللبلاب، والأثاث التي كانت تلبسها، وأثاث غرفتها، ومنزلها كُلّه.

فقال:

- وأين هو صبارنا المسكين؟

- لقد أماته البرد هذا الشتاء .



- آه ..كم فكّرت فيه! هل تعلمين أنّي كثيرًا ما تخيلته علي نحو ما كان عليه فيما مضى، عندما كانت الشمس تلقي بأشعتها صباح كلّ يوم من أيام الصيف علي خشب النافذة..وألّمح ذراعيك العاريتين تمران بين الأزهار!

فقلت وهي تمدّ إليه يدها:

- أيها العزيز المسكين!

فأسرع «ليون» إلي الصاق شفّتيه بها، ثمّ قال بعد أن استنشق جرعة كبيرة من الهواء:

- لقد كنتِ بالنسبة إليّ في ذلك الوقت قوّة غامضة لا أدرك كنهها، تأسر حياتي. ففي ذات مرّة، مثلاً، حضرت عندكم ولكنك لا تتذكّرين بلاريب ..
فقلت:

- أتذكّر، استمر!

- لقد كنتِ في الردهة في الطابق الأسفل علي أهبة الخروج..فوق آخر درجة..بل وأذكر أنّك كنتِ تريدين قبعة مُحلاة بزهورٍ صغيرةٍ زرقاء. ودون أيّة دعوة منك، وبالرغم مني صاحبتك، ومع ذلك كنتِ أزداد شعورًا من دقيقةٍ إلي أخرى بحماقتي! وواصلت السير بالقرب منك وأنا لا أحرّو علي أن أتبعك كما لا أريد أن أتركك. وعندما دخلتِ دكانًا بقيت في الشارع أنظر إليك من الزجاج، وأنتِ تخلعين قفازيكِ وتعدين النقود علي المكتب ثمّ دققت بعد ذلك علي الجرس، عند مدام «نيفاش»، الثقيل الذي أغلق دونك!

وكانت مدام «بوفاري» تدهش وهي تنصت إليه من أنّها قد أصبحت عجوزًا علي هذا النحو، فكُلّ هذه الأشياء التي تستعاد ذكرها الآن بدت أنّها



توسع من حياتها إذ تعطيها آفاقاً عاطفية شاسعة تعود إليها. وكانت تقول من وقتٍ إلى آخر في صوتٍ خفيض، وقد أسبلت جفونها: « نعم! هذا صحيح! .. هذا صحيح»!..

وسمعا السَّاعة الثامنة تدقها السَّاعات المختلفة في حي «بوفوازين»، المليء بدور الضيافة والكنائس والفنادق الكبيرة المهجورة، ولم يعودا يتحدثان، ولكنَّهما كانا يشعران - وهما ينظران أحدهما إلى الآخر - بدندنةٍ في رأسيهما، وكأنَّ شيئاً منغماً قد انطلق من عيني كُلٍّ منهما نحو الآخر، واشتبكت أيديهما، واختلط في عذوبة هذه النشوة الماضي والمستقبل والذكريات والأحلام، وأخذت ظلمة اللَّيل تتكاثف فوق الجدران، وأوشكت أن تختفي في الظلال ألوان لوحات تمثل أربعة مناظر، ومن خلال شجرة كانت تري زاوية من السماء السوداء من بين الأسقف المدببة .

ونهضت لكي تشعل شمعتين فوق الصوان، ثُمَّ عادت إلى الجلوس.

فقال «ليون» :

- ثُمَّ ماذا؟

وأجابت:

- ثُمَّ ماذا؟

وبينما هو يبحث عن وسيلة يستأنف بها الحوار، الذي انقطع، قالت له:

- كيف حدث أنَّ أحدًا لم يُعبِّر لي حتي اليوم عن مثل هذه المشاعر؟

فصاح الكاتب قائلاً:

- إِنَّ الطَّبَائِعَ الْمُثَالِيَةَ مِنَ الصَّعْبِ فَهَمُّهَا.

فهو قد أحبها من النظرة الأولى، وكان الألم يحز في نفسه عندما يُفكر في
السَّعادة التي كان من الممكن أن تغمرهما لو أنَّ القضاء ترفق فسمح بلقائهما
قبل ذلك وارتبط أحدهما بالآخر برباط لا ينقسم.

فقلت:

- لقد فكَّرت في ذلك أحياناً.

فانبري قائلاً:

- يا له من حُلم!

وأضاف وهو يداعب في رفقٍ الأهداب الزرقاء لحزامها الطويل:

- وما الذي يمنعنا إذاً من أن نبدأ من جديد؟

فأجابت:

- لا يا عزيزي.. إنَّني عجزت وأنت شاب.. إنَّني! ستحبُّك أخريات

.. وستحبهن!

فصاح:

- أنتِ غيرهن!

- يا لك من طفل! هيا.. فلنكن عاقلين! إنَّني أريد ذلك!

وأوضحت له أسباب استحالة حبهما، وأنَّ من الواجب أن يظلا كما كانا
من قبل في حدود الصداقة الأخوية .



فهل كانت جادة في حديثها هذا؟ لا شك أنَّ «إيما» نفسها لم تكن تعلم .
فقد كانت غارقة في سحر الإغراء وضرورة المقاومة . وكانت - وهي
تنظر إلي الشاب نظرة حنان - تدفع في رفق المداعبات الحية التي كانت تقوم
بها يدها المرتعشتان .

فقال، وهو يرتد إلي الخلف:

: آه.. معذرة!

وتولي «إيما» فزَعٌ غامضٌ من هذا الحياء، الذي كان أكثر خطراً عليها
من جراءة «رودولف» عندما كان يتقدَّم نحوها فاتحاً ذراعيه . ولاح لها أنَّها
لم ترق قط رجلاً في مثل هذا الجمال، لقد كانت الطهارة الممتعة تنبعث
من ملامحه . وأسدل أهدابه الطويلة الدقيقة المقوسة واحمرت بشرة خديه
النضرة، فرأت هذه الحمرة رغبته في شخصها، وأحست برغبة لا تدفع في
أن تحمل إلي هذين الخدين شفّتيها، ثُمَّ قالت وهي تنحني نحو الساعة كأنَّها
تستطلع الوقت:

- يا إلهي! لقد مرَّ بنا الوقت حتي تأخرنا ونحن في ثرثرتنا!

ففهم الإشارة وبحث عن قبعته..وأضافت:

- بل لقد نسيت المسرح! وقد تركني المسكين «بوفاري» من أجله
خصوصاً، وكان من المقدر أن يصطحبني إليه مع زوجة السَيِّد «لورموه»
المقيم في شارع الجسر الكبير .

وكانت الفرصة قد ضاعت لأنَّه كان من المقدر أن تسافر في اليوم التَّالي .

فقال «ليون»:

- أهذا صحيح؟

- نعم!

- ومع ذلك فلا بد أن أراك ثانية، فإن لدي ما أقوله لك...

- ماذا؟

- شيئًا خطيرًا.. جدًّا. آه! لا.. ثُمَّ إِنَّكَ لن تسافري.. فهذا مستحيل! إِنَّكَ لو علمت.. أنصتي إلي.. إِنَّكَ إِذَا لم تفهميني! إِنَّكَ لم تعرفي ما بنفسي! ...

فقالت «إيما»:

- ومع ذلك فأنت بالغ الفصاحة!

- آه! هذه النكات! كفي. كفي! ارحمني واقبلي أن أراك ثانية.. مرّة واحدة.. مرّة واحدة.

- ثُمَّ ماذا؟

وتوقفت ثُمَّ استأنفت وكأنّها تراجع نفسها:

- أوه! ليس هنا!

- في أي مكان تريد.

- هل تريد...

ولاح أنّها تُفكّر.. ثُمَّ قالت في نغمة موجزة:

- غدًا عند السّاعة الحادية عشرة بالكاتدرائية.



فصاح وهو يمسك بيديها اللتين استخلصتهما منه:

.. سأكون هناك!

وكان الاثنان واقفين، وهو من خلفها، وأحنت رأسها، فلم يلبث أن
انحني فوق رقبتها وقبّلها قبلة طويلة، فقالت وهي تضحك ضحكات صغيرة
رنانة بينما تتكرّر القبلات:

.. آه! إنك مجنون .. إنك مجنون!

وعندئذ أخذ يطل من فوق كتفيها، وكأنّه يبحث عن موافقة عينيها اللتين
سقطتا عليه مليّتين بعظمة باردة!

وارتد «ليون» ثلاث خطوات إلي الخلف لكي يخرج، ووقف علي العتبة،
ثمّ همس في صوتٍ مرتعدٍ:

.. إلي الغد!

فأجابت بإيماءٍ من رأسها، ثم اختفت كالعصفورة في الغرفة المجاورة!





من الكاتدرائية إلى العربية بلا توقف!

From the cathedral to the car nonstop!



في المساء كتبت «إيما» إلي الكاتب خطابًا لا ينتهي، تتحلل فيه من الموعد وتقول إنَّ كُلَّ شيء بينهما قد انتهى الآن، وإن سعادته تقتضي ألاَّ يعود إلي لقائهما. ولكنَّها عندما ختمت الخطاب أحست بارتباكٍ شديد، لأنَّها لم تكن تعرف عنوان «ليون».

وقالت لنفسها: «سأعطيه له بنفسي، فهو سيحضر غدًا».

وفي اليوم التالي فتح «ليون» النافذة ووقف يغني في الشرفة ويلمع حذاءه بنفسه عدة مرَّات، وقد لبس بنطلونًا أبيض وحلة خضراء، وسكب في منديله كُلَّ ما لديه من عطور، ثُمَّ جعَّد شعره، وعاد فأسبله، وذلك لكي يزيده رشاقة طبيعية!

ثُمَّ قال لنفسه وهو ينظر إلي ساعة الحلاق فيري أنَّها التاسعة: «إنَّ الوقت لا يزال مبكرًا جدًّا»!

وتصفَّح صحيفة قديمة عن الأزياء، وخرج ودخن سيجارًا، وقطع ثلاثة شوارع، ثُمَّ ظنَّ أنَّ الوقت قد حان فاتجه في يطفء نحو ساحة نوتردام.



واشتري الشاب باقة من الزهور، وكانت هذه أوّل مرّة يشتري فيها زهوراً لامرأة! وعندما كان يستنشق عبيرها كان صدره يتنفخ كبرياء، وكأنّ هذه التحية التي أعدّها لشخصٍ آخر قد ارتدت فتوجهت إليه!

وخشي أن يراه أحد، فدخل الكنيسة في عزم.

وراح «ليون» يتمشي بوقارٍ إلي جوار الجدران، ولم تلح له الحياة قط في مثل هذه العذوبة، فهي ستحضر بعد قليل ساحرة مضطربة، وقد ارتدت ثوبها ذا الياقات، ونظارتها الذهبية، وحذاءها الرفيع، وكلّ تلك الأناقة التي لم يسبق له أن رآها!

ولكنّها لم تحضر! وجلس فوق مقعد، والتقت عيناه بلوح من الزجاج الأزرق رسمت فوقه صورة بحارة يحملون سلالاً، فنظر إلي اللوح طويلاً في انتباه، وعد قشر السمك، وأزرار أقمص البحارة، بينما أخذت أفكاره تحوم باحثة عن «إيما».

وأخذ خادم القس يشمّر داخلًا من هذا الشخص الذي سمح لنفسه بأن يتأمل في إعجاب الكاتدرائية وحده! ولاح له سلوكه بشعاً، وكأنّه يسرق منه شيئاً، ويدنس شيئاً مقدساً!

ولكن ها هو يسمع حفيف ثوب من الحرير فوق البلاط، ويرى حافة قبعة وسترة سوداء.. إنّها هي! ونهض وعدا لكي يلتقاها!

كانت «إيما» شاحبة تسير بسرعة.

وقالت وهي تمدّ إليه ورقة:

- أقرأ! أو ... لا!

وأعادت يدها فجأة لكي تدخل في هيكل العذراء، حيث جثت علي ركبتيها فوق مقعد وأخذت تصلي! وثار الشاب من تلك النزوة الدينيّة. ثُمَّ شعر مع ذلك بشيء من اللذة أن يراها وسط موعد غرامها غارقة، علي هذا النحو، في الابتهاال كأنّها احدي مركيزات الأندلس! ولكنّه لم يلبس أن شعر بالسأم، لأنّها لم تنته من صلاتها!

كانت «إيما» تصلي، أو علي الأصح تحاول أن تصلي، علي أمل أن ينزل عليها من السماء قرار مفاجئ. وركعت قرب المذبح كي تستجلب العون الإلهي وتستشيق عطر الزهور البيضاء المفتحة في الزهيرات الكبيرة، وتلقي أذنها لَصُمّت الكنيسة الذي لم يكن له من أثر سوي أن يزيد في صخب قلبها. ونهضت وهَمّت بالخروج، وإذا بخادم الأسقف يقترب منها بسرعة، وهو يقول:

- إنَّ السَّيِّدة ليست من هنا بلا ريب، ولكنّها تريد أن تري طرائف الكنيسة.

فصاح الكاتب قائلاً:

- لا.

وقالت هي:

- ولم لا؟

وذلك لأنّها كانت - بفضيلتها المهتزة - تتعلّق بالعذراء والتماثيل والمقابر في جميع المناسبات. ولكي يسيرا في المشاهدة بنظام عاد بهما خادم الأسقف إلي المدخل بالقرب من الميدان، حيث أشار بعصاه إلي دائرة كبيرة من الأرض المرصوفة السوداء، خالية من النقوش والزخارف، ثُمَّ قال في عظمة:



- هذا هو محيط ناقوس أمبواز الجميل، الذي كان يزن أربعين ألف رطل، ولم يكن له مثيل في أوروبا كُلِّها، وقد مات العامل الذي صبه من الفرع ..
وقال «ليون»:

- فلننصرف!

واستأنف الرَّجل السير ثُمَّ عاد إلي هيكل العذراء، ومدَّ ذراعيه في حركةٍ قويَّةٍ اندلالية، وفي كبرياء يفوق كبرياء ملاك الريف، عندما يطلعونك علي عرائش حداقهم، قال:

- إنَّ هذه البلاطة البسيطة تغطي «بيير دي بريزيه»، سيِّد «لافارين»، وحاكم «نورمنديا» الذي مات في معركة «مونتييه» في يوليو (تموز) سنة 1465!
و أخذ «ليون» يتقرز وهو يعض شفثيه.

واستمر القواس في الشرح والتفصيل وأخذت مدام «بوفاري» نظارتها، و«ليون» ينظر إليها ساكناً دون أن يحاول أن يقول حتي كلمة واحدة، أو أن يقوم بحركة واحدة، وذلك لشدة ما أحس من يأس إزاء هذه المؤامرة المزدوجة من الشرثرة وعدم المبالاة .

واستمر الدليل الكنسي دون أن يتوقف، ومع استمراره في الكلام، دفع بهما إلي صومعة مكدسة بالحواجز التي أزاح بعضاً منها، وكشف عن كتلة من الحجر، ربما كانت فيما مضى تمثالاً رديء الصنع، وقال في أنةٍ طويلةٍ:

- إنَّه كان يزين فيما مضى قبر «ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا.

ولكنَّ «ليون» أخرج بحركةٍ عصبيةٍ قطعة بيضاء من جيبه، وأمسك «إيما» من ذراعها، فأخذت رجل الدين الدهشة، ولم يفهم قط هذا السخاء

المفاجيء، بينما ظلت أمام الزائر الغريب أشياء كثيرة تستحق أن تُرى، ولذلك ناداه قائلاً:

- أين أيها السيّد! السهم! السهم! ..

فقال «ليون» :

- شكرًا!

وقال خادم الكنيسة:

- إنّ السيّد مخطئ! إنّ طوله أربعمئة وأربعون قدمًا، أي تسعة أقدام أقل من هرم مصر الأكبر، وهو كلّ من الحديد الزهر، وهو...

وأخذ «ليون» في الهرب، إذ لاح له أنّ حُبّه الذي تجمّد في الكنيسة منذ ساعتين كالحجارة، سيأخذ الآن في التبخر كالدخان، من طريق تلك القصبة المثلومة الصاعدة من القفص المستطيل، وكأنّها مدخنة مثقوبة جاثمة بشكل مضحك علي الكاتدرائية.

وسألته «إيما» :

- إلي أين نحن ذاهبان؟

واستمر «ليون» في السير بخطي سريعة دون أن يُجيب. وكانت مدام «بوفاري» قد غمست بالفعل أصبعها في الماء المقدس، عندما سمعا خلفهما نفسًا كبيرًا لاهثًا يقطعه في انتظام وقع عصا، فالتفت «ليون» .

- سيدي!

- ماذا؟



ورأي أمامه خادم الأسقف حاملاً تحت ذراعه، ومستنداً إلي بطنه، حوالي
عشرين مجلداً كبيراً كانت عبارة عن الكتب التي تتحدث عن الكاتدرائية!
فتمتم «ليون» وهو ينطلق خارج الكنيسة :

.. يا له من مغفل!

ورأي طفلاً يلعب في السّاحة، فقال له:

.. أذهب واحضر عربة!

فانطلق الطفل كالسهم، في شارع «كاترفان» وعندئذ بقيا وحيدين لبضع
دقائق وجهًا لوجه في شيءٍ من الارتباك .

فقالت في دلال:

.. آه ليون! .. حقاً.. لست أدري .. إذا كان من الواجب ..

ثم أضافت بنعمةٍ جادة:

.. هذا غير لائق بتاتاً! .. ألا تري ذلك؟

فأجاب الكاتب:

.. ما وجه عدم لياقته؟ .. إنَّ هذا يحدث في باريس!

وجعلتها هذه العبارة تبت في الأمر كأنّها حجة لا تدفع .

ولكنَّ العربة لم تصل، وكان «ليون» يخشي أن تعود إلي الكنيسة! وأخيراً
ظهرت العربة!

وصاح بهما خادم الأسقف الذي كان لا يزال واقفاً:

- أخرجنا علي الأقلّ من الباب الشمالي لتشهدا البعث ويوم الحساب والجنة، و«الملك داوود»، و«المعذبين في نار جهنم» .

وسأل الحوذي:

-إلي أين يذهب السيّد؟

فقال «ليون»، وهو يدفع «إيما» في العربة:

-إلي حيث تشاء!

وانطلقت المركبة الصّغيرة في الطريق .

قال صوت منبعث من داخلها:

- استمر!

فاستأنفت العربة السير. وبمجرّد أن غادرت ميدان «لافايت» انسأقت في الانحدار حتي أوشكت أن تدخل وهي تعدو محطة سكة الحديد.

فصاح الصّوت نفسه:

- لا!.. استمر إلي الأمام!

وخرجت العربة من السور الحديدي، وبمجرّد أن وصلت إلي السّاحة أخذت تخب في رفق وسط أشجار الدردار الضخمة، فجفف الحوذي جبينه، ووضع قبعته الجلدية بين فخذيه، ودفع العربة خارج الطريق المعبد علي حافة الماء، إلي جوار الحشائش .

وسارت العربة في محاذاة النهر علي طريق مرسى السفن المرصوف بالإسفلت الجاف إلي مسافةٍ طويلة. ثُمَّ وقفت وقفّتها الثالثة أمام حديقة النباتات .



وصاح الصوت في عنف أشد:

- استمر في السير!

ومن وقتٍ إلي آخر كان الحوذي يلقي من فوق مقعده بنظراتٍ بائسةٍ
إلي الحانات، إذ لم يفهم هذا الولع بالحركة الذي يدفع هذين الشخصين
إلي حد لا يريدان معه الوقوف!! ولقد حاول أن يقف أحياناً، ولكنه كان
يسمع فوراً صيحات الغضب تنطلق من خلفه! وعندئذ كان ينهال بالسوط
علي الحصانين الهزيلين المتصبين عرقاً، دون أن يلقي بالاً إلي اهتزازات
العربة وهي تميل هنا وهناك وقد احتل مزاجه، وأوشك أن يبكي من العطش
والتعب والحزن!

وعند الميناء وسط عربات النقل والبراميل، وفي الشوارع، وعند
المنعطفات، كان الناس يحملقون بعيونهم دهشة من هذا المنظر الفريد في
الريف: منظر عربة ذات ستائر مسدلة، وقد لاحت باستمرار أكثر إغلاقاً من
قبر وهي تهتز كالسفينة .

وذات مرّة، في منتصف النّهار، وفي قلب الحقول، وفي الوقت الذي
كانت ترسل فيه الشمس أقوى أشعتها فوق المصاييح العتيقة فضية اللّون،
مرّت يدّ عارية من تحت الستائر الصّغيرة الصفراء، وألقت بقصاصات من
الورق انتشرت مع الريح، وتساقطت عن بعد قريب كفرشات بيضاء فوق
حقل من البرسيم الأحمر المزدهر!

ثمّ وقفت العربة حوالي السّاعة السّادسة في زقاقٍ بحّي «بوفوازين»
ونزلت منها امرأة أخذت تسير مسدلة الخمار دون أن تلتفت إلي الورااء!





الفصل الثالث

غضب الصيدلي، ودهاء التاجر Wrath of the pharmacist and the merchant's savvy

عندما وصلت مدام «بوفاري» إلى الفندق أدهشها ألا تري «العصفورة» فإن «هيفير» يعد أن انتظرها ثلاثاً وخمسين دقيقة كان قد رحل .

ومع ذلك فإن شيئاً لم يكن يضطرها إلى الرحيل، إلا أنها كانت قد وعدت بأن تعود في المساء نفسه، وكان «شارل» ينتظرها، كما أنها كانت قد أخذت تشعر في قلبها بذلك الخضوع الجبان الذي يُعتبر بالنسبة إلي الكثيرات من النساء بمثابة العقاب، لتكفر عن الخيانة الزوجية في وقت واحد .

وبسرعة أعدت حقيبتها ودفعت الحساب، وأخذت عربة من السّاحة، وحشت الحوذي وشجعته، وهي تسأل في كلّ دقيقة عن السّاعة، وعن الكيلومترات التي قطعتها، حتي تمكنت من اللحاق بـ«العصفورة» عند مشارف قرية «كوينكانبو»!

وبمُجرد أن جلست في مقعدها أغلقت عينيها ولم تفتحهما إلا أسفل الهضبة، حيث لمحت «فيليسيته» عن بُعد، والتي كانت تقف في مكان بارز أمام منزل البيطار. وشدّ «هيفير» عنان الخيل، واندفعت الطاهية حتي مقبض باب العربة، ثمّ قالت في توجس:



- يجب أن تذهبي يا سيّدتني فورًا عند السيّد «هوميه» من أجل شيء لا
يحتمل الإبطاء.

كانت القرية صامته كعادتها، وفي أركان الشوارع كراسي صغيرة ووردية
يتصاعد منها البخار في الهواء.

ودخلت، حيث رأت المقعد الكبير مقلوبًا، حتي إنّ صحيفة «فانا دي
روان» كانت ملقاة علي الأرض. ودفعت باب الصالة فرأت وسط المطبخ،
بين القدور الداكنة المليئة بالعنب المنفرط، والسكر المدقوق، وسكر
القبالب، والموازين الموضوعة علي المائدة، والأحواض التي علي النّار،
رأت عائلة «هوميه» كبارًا وصغارًا وقد ارتدوا مرايل، وفي أيديهم المغارف،
و«جوستان» واقف منحني الرأس، والصيدلي يصيح :

- مَنْ الذي قال لك أن تذهب لتبحث عنه في المخزن؟

- ماذا تعني؟ وما الأمر؟

فأجاب الصيدلي:

- ماذا أعني؟ إنّنا نصنع المربي، ولكنّها أوشكت، وها هي علي النّار، أن
تفيض بسبب الغليان الشديد. وقد طلبت حوضًا آخر، وإذا به - بسبب الكسل
- يذهب ليأخذ مفتاح المخزن من المسمار المعلق في معلمي.

وهذا هو الاسم الذي كان الصيدلي يطلقه علي حجرة تحت السقف
ملئية بالأواني والسلع اللازمة لمهنته .

لقد لاح له عمل «جوستان» بشعًا، بما يدل عليه من نقص في الاحترام،
وهو يُردّد قائلاً:

- نعم! مفتاح المخزن! المفتاح، الذي يغلق الباب علي الأحماض والقلويات الكاوية! ثُمَّ يذهب ليأخذ حوضًا احتياطيًا! حوضًا ذا غطاء، حوضًا ربما لا استخدمه قط. وكلّ شيء له أهميته في العمليات الدقيقة التي نزاولها في فننا. ولكن!.. يجب إقامة الحدود بحيث لا نستخدم في مهمات تكاد تكون منزلية ما هو معد لمهمات الصيدلية، وإلا كنا كمَن يقطع دجاجة بمشرط..

وقالت مدام «هوميه»:

- ألاً فلتهدئ من روعك!

وشدته ابنته «أتالي» من سترته، وهي تقول:

- بابا! بابا..

فقال الصيدلي :

- لا. اتركوني!.. اتركوني! يا للخيبة!.. إنه لمن الأفضل إذا أن أفتح محل بقاله.. بشرفي! هيا.. اذهب!.. لا تحترم شيئًا! كسر! حطم! أحرق الأعشاب المليئة! واخلل الخيار في زجاجات الدواء، ومزق الضمادات!

وقالت «إيما»:

- ومع ذلك فإن لديك..

- هل تعرف لأي شيء تعرّضت منذ لحظة؟.. ألم تر شيئًا في الركن إلي اليسار علي المنضدة الثالثة الصغيرة؟ تكلم! أجب! أنطق بشيء!

فتمتم الغلام قائلاً:



-إِنِّي.. لا أعرف.

- آه.. أنت لا تعرف، ولكنني أنا أعرف! لقد رأيت زجاجة زرقاء مغلقة
بالشمع الأبيض تحتوي علي مسحوق أبيض، وقد كتب عليها.. (خطر)!
وهل تعرف ماذا كان بها؟ «زرنix»!

وقالت مدام «هوميه» وقد ضمت يديها:

- «زرنix»!! لقد كان من الممكن أن تصيبنا جميعا بالتسمم!

وأخذ الأطفال يطلقون الصيحات، وكانهم قد أخذوا يشعرون في
معائهم بالآلم مبرحة .

واستمر الصيدلي بقوله:

- لقد أردت إذا أيها الأحق أن أذهب إلي مقعد المجرمين في محكمة
الجنايات! وأن تراني أضعد إلي المشنقة.. وهل تجهل الحرص الذي أراعيه
في تناول تلك المواد بالرغم من خبرتي الطويلة؟ وكثيراً ما يأخذني أنا نفسي
الفرح عندما أفكر في مسؤوليتي، وذلك لأنَّ الحكومة تطاردنا، والقانون
الأحق الذي نخضع له مُسلط علي رؤوسنا كأَنه سيف .

ولم تعد «إيما» تُفكر في أن تسأل عمّا يُراد منها!

واستمر الصيدلي يقول في عباراتٍ لاهثة :

- هكذا تقدركُ كلَّ الحسنات التي نسديها إليك! هكذا تكافئ العناية الأبوية
التي أغمرك بها! لقد ابتدأت أندم ندماً شديداً لعنايتي بشخصك، وقد كان
من الأفضل أن أتركك في الماضي قابلاً في بؤسك، وفي الفذارة التي ولدت



فيها! فما كنت لتصلح قط لأن تكون حارسًا طيبًا للماشية ذات القرون!!
وأنت خال من كُلِّ استعداد للعلوم. وكُلُّ ما نستطيع لا يعدو لصق البطاقات!
وها أنت تعيش عندي هنا كالقسيس أو كديك من معجون، تلهو وتلعب!

ولكن «إيما» قالت، وهي تلتفت نحو مدام «هوميه»:

- لقد استدعيتموني..

فقاطعتها السيِّدة الطيبة قائلةً في صوتٍ حزين:

- آه! يا إلهي.. ماذا أقول لك؟.. إنها كارثة!

ولم تكمل حديثها فقد انفجر الصيدلي:

- أفرغه! نظفه! أرجعه إلي مكانه! أسرع!

وهز «جوستان» قبة سترته فسقط من جيبه كتاب!

وانحنى الفتى، ولكنَّ «هوميه» كان أسرع منه فالتقط الكتاب وأخذ يتأمل فيه، محدقًا بعينه، فاغترًا فاه، وقال، وهو يفصل الكلمتين! إحداهما من الأخرى في بطء:

- الحُب.. الزوجي!.. آه! حسن جدًا! حسن جدًا! شيء جميل! وصور!

آه! هذا شيء فظيع!

وتقدّمت مدام «هوميه».

فقال الصيدلي:

- لا... لا تمسيه!



وأراد الأطفال أن يروا الصور، فقال في عنفٍ:

- اخرجوا!

وخرجوا!

ومشي أولاً طويلاً وعرضاً بخطواتٍ واسعةٍ، محتفظاً بالكتاب مفتوحاً بين أصابعه، وعيناه تدوران، وقد اختنقت أنفاسه وتورّم وجهه، كأنما قد أصيب بالصّرع! ثمّ جاء رأساً إليّ تلميذه، حتي انتصب أمامه، وقد ربع ذراعيه، ثمّ قال:

- إنّ لديك إذا أيها الشقي جميع الرذائل! إنّك علي المنحدر!.. إنّك لم تفتن إلي أن هذا الكتاب الحقيق كان يمكن أن يقع بين يدي أولادي، وأن يضرّم النّار في عقولهم، فيلوّث طهارة «أتالي»، ويفسدنا بـ«ليون»، وقد بلغ فعلاً طور الرجولة! وهل أنت متأكد علي الأقلّ من أنّه لم يقرأه؟ هل تستطيع أن تدلّ لي...؟

وقالت «إيما»:

- ولكنك يا سيّدي تريد أن تقول لي شيئاً..؟

فقال:

- هذا صحيح يا سيّدي.. إنّ حماك قد توفي!

والحقيقة أنّ السيّد «بوفاري» الأب قد توفي منذ يومين فجأةً نتيجة ذبحة صدرية عند نهوضه من أمام المائدة، وزيادة في الحيلة ومراعاة لحساسية



«إيما» كان «شارل» قد رجا السيّد «هوميه» أن ينقل إليها الخبر المزيج في ترفق .

وكان «هوميه» قد فكّر في العبارة، وهذب فيها، وشذب منها، وأحكم إيقاعها، حتي أصبحت مثلاً أعلي في الحيلة والتدرج والترفق والرفقة، ولكن الغضب أطاح بالبلاغة والبيان!

وعدلت «إيما» عن أن تطلب أية تفصيلات، ثم تركت الصيدلية لأن السيّد «هوميه» كان قد استأنف هياجه. ولكنّه مع ذلك عاد إلي الهدوء وأخذ يتمتم في نعمة أبوية وهو يروح عن نفسه بقلنسوته الإغريقية قائلاً:

- ليس ذلك لأنني أعيب الكتاب كلّهُ، فالمؤلف كان طيباً، وفي الكتاب بعض النواحي العلمية التي لا بأس من أن يُلم بها الإنسان، بل إنني لأجرؤ علي القول بأن من واجب المرء أن يعلم، ولكنّ في وقت متأخر عن هذا.. نعم في وقت متأخر! ولتتظر علي الأقل حتي تصبح أنت نفسك رجلاً، وحتي يتكوّن مزاجك!

وعندما دقت «إيما» الباب، تقدّم «شارل»، الذي كان ينتظرها مفتوح الذراعين، وقال والدموع في صوته:

- آه يا عزيزتي ...

وانحني في رفقٍ لكي يُقبّلها، ولكنّها عندما أحست بشفتيه لم تلبث أن استعادت ذكرى «ليون»، ومرّت بيدها فوق وجهها وهي ترتعش!

وأجابت قائلة:

- نعم، إنني أعرف .. إنني أعرف!



وأطلعها علي الخطاب الذي تقصّ فيه أمّه الحادث دون أية مداراة عاطفية، وإن تكن قد أبدت أسفها لأنّ زوجها لم يتلق العون الديني، لأنّه توفي في «دورفيل» في الشارع علي مدخل مقهى، وبعد وجبة شعبية مع ثلة من قدامي الموظفين!

ردت «إيما» الخطاب إليه، ثمّ تصنعت عند العشاء - علي سبيل اللباقة - شيئاً من التعفّف . ولكنّها إزاء إلحاحه أخذت في الأكل بعزم، بينما ظل «شارل» جامداً في مواجهتها في وضع مثقل بالأحزان .

ومن وقتٍ إلي آخر كان يرفع رأسه ويرسل إليها نظرة مليئة بالحزن . وتنهد مرّة قائلاً :

- لقد كنت أود لو أراه مرّة أخرى!

ولزمت الصّمت، ولكنّها أدركت أنّه لا بدّ من الكلام، فقالت :

- في أي سن كان والدك؟

- في الثامنة والخمسين .

- آه!

وكان هذا كلّ ما قالته .

وبعد ذلك برع ساعة أضاف :

- وأمي المسكينة؟ .. ما مصيرها الآن؟

فقامت بحركة تفيد بأنّها لا تعرف!



وعندما رآها «شارل» في هذا الصَّمت، ظنَّ أنَّها حزينة، وأخذ نفسه بأن لا يقول شيئاً لكي لا يثير هذا الألم الذي يُحرِّك شفقتَه. ومع ذلك فقد نقض حزنه ليسأل:

- هل طابت لكِ التسرية أمس؟

- نعم .

وعندما رُفعت المائدة لم ينهض السيّد «بوفاري»، وكذلك «إيما». وكانت كُلُّما نظرت في وجهه كُلُّما أخذ اطراد المنظر ينحني عن قلبها - شيئاً فشيئاً - كان شعور بالرتاء. وقد لاح لها هزياً ضعيفاً تافهاً، وعموماً رجلاً مسكيناً من جميع النواحي! فكيف السبيل إلى التخلُّص منه؟! يا لها من أمسية لا تنتهي! وقد أخذت شيء مُخدِّر كبخار الأفيون يُخدِّر أعصابها .

وسمع في الصالة وقع عصا علي البلاط، وإذا به «هيبوليت» جاء حاملاً حقائب السيِّدة، التي اضطر لكي يضعها علي الأرض إلي أن يرسم بعكازه ربع دائرة .

قالت وهي تنظر إلي هذا الشقي، الذي كان شعره الأحمر الكثيف يتصبَّب عرقاً:

- إنَّه لم يعد يُفكِّر في مصيبتَه!

وفتش «بوفاري» عن قطعة نقد في قاع كيسه، ودون أن يلوح عليه أنَّه فهم شيئاً من الإهانة التي يحملها مُجرَّد حضور هذا الرَّجل الذي يقف أمامه كشاهد مجسم علي خيبته، قال:



.. خذ!

ثم قال مخاطبًا زوجته وهو ينظر فوق المدفأة إلي باقة بنفسج «ليون» :

.. إنَّ لديك باقة جميلة!

فقلت «إيما» في غير اكتراث:

.. نعم! إنها باقة اشتريتها منذ هنيهة من متسولة .

وتناول «شارل» البنفسج، واستنشق عبيره في رقة، لكنَّها انتزعته من يده وحملته لكي تضعه في كوب ماء .

وفي اليوم التَّالي، وصلت مدام «بوفاري» الأمُّ، وبكت كثيرًا هي وابنها، بينما اختفت «إيما» بحجة إصدار أوامر للخدم .

وفي اليوم التَّالي كان لابد من أن ينظروا معًا في أمور الحِداد. فذهبت المرأتان ومعهما صناديق الخياطة وجلستا علي شاطئ الماء تحت العريشة.

كان «شارل» يُفكِّر في أبيه، وتأخذه الدهشة من أن يشعر بكلِّ هذا الحُبِّ نحو هذا الرَّجل الذي كان يعتقد من قبل أنَّه لا يُحبُّه، إلَّا حُبًّا ضئيلاً! وكانت مدام «بوفاري» الأمُّ تُفكِّر في زوجها، ولاحت لها أتعس الأيَّام القديمة أيَّامًا تتلَهَّف إليها! وقد اختفي كلُّ شيء تحت تأثير ذاك الندم الغريزي الذي شعرت به نحو عادة طال بها كلُّ هذا الزمن! ومن وقتٍ إلي آخر، وفي أثناء دفعها للإبرة، كانت تسقط دمعة كبيرة علي طول أنفها، وتظل معلقة لوقتٍ ما .

وكانت «إيما» تُفكر في أنه لم يمض ثمان وأربعون ساعة علي وجودها مع «ليون» بعيدين عن العالم في نشوة، وعيناها لا تكادان تكفيان ليتأمل كل منهما الآخر! وكانت تحاول أن تستعيد أصغر تفاصيل ذلك اليوم الذي انقضي، ولكن حضور حماتها وزوجها كان يضايقها. وكانت تود ألا تسمع شيئاً وألا تري شيئاً، حتي لا تُقلق استجمام حُبها الذي كان آخذاً في التلاشي مهما عملت، تحت تأثيرات الإحساسات الخارجية!

وفجأة رأوا السيّد «ليريه» تاجر الأقمشة يدخل عبر سياج الحديقة .
لقد جاء يعرض خدماته مراعاة لظرف الحِداد، ولكن «إيما» أجابت بأنّها تعتقد أن تستغني عن هذه الخدمات، ولكنّ التاجر لم يسلم بالهزيمة .
فقال :

- أَلف معذرة، لقد أردت أن أحظي بحديث خاص.

وفي صوتٍ خفيض قال:

- وإنّه خاص بذلك الموضوع .. هل تذكرين؟

واحمر «شارل» حتي أذنيه، وقال:

- آه! .. نعم! .. هذا حق!

ثمّ التفت نحو امرأته وهو مضطرب، وقال:

- هل تستطيعين .. يا عزيزتي.

ولاح أنّها تفهمه، ذلك لأنّها نهضت. وقال «شارل» لأُمّه:

- ليس هذا بشيء .. إنه بلا ريب أمر تافه من أمور المنزل.



لم يكن يريد أن تعرف شيئاً عن قصّة الكمبيالتين خوفاً من ملاحظتها!
وبمجرد أن انفردا معاً أخذ السيّد «ليريه» يهنئ «إيما» في ألفاظ واضحة
بالميراث، ثمّ تحدّث في أمور تافهة كعرائش الشجر والمحصول وصحّة
التي تتخطّط في سيرها بين بين، لأنّه - في الواقع - كان يُرهق نفسه في العمل
والسعي، وإن لم تتجاوز ثروته - بالرغم من أقاويل النَّاس - ما يكفي لديمومة
خبزه!

وتركته «إيما» يتكلّم، وكانت قد أخذت تشعر بأم شديد!

فاستمر يقول:

- وها أنتِ قد استعدتِ صحّتكِ كاملة! وفي الحق لقد رأيت زوجك
المسكين في حالات مؤلمة، إنّه رجل طيب وإن تكن قد نشأت بيننا
صعوبات!

فسألته عن تلك الصعوبات، لأنّ «شارل» كان قد أخفي عنها كلّ شيء.

فقال «ليريه»:



- إنك تعرفين الموضوع جيّداً، فقد
كان بسبب رغباتك، أعني صناديق
السفر!

وكان يبتسم وقد أنزل قبعته فوق . «ليريه» التاجر يغري «إيما» من جدي د.
عينيه، ووضع يديه خلف ظهره، وفي صوته صغير، وأخذ ينظر إليها مواجهة
في هيئة لا تحتمل. فهل كان يفترض شيئاً؟ لقد ظلت سادرة في جميع أنواع
المخاوف.

ومع ذلك فإنّه في النهاية استأنف قائلاً:

.. لقد استأنفنا علاقتنا، بل لقد أتيت لكي أعرض عليكِ تسوية .

وكانت هذه التسوية عبارة عن تجديد الكمبيالتين الموقع عليهما من «بوفاري» . وفضلاً عن ذلك، فإنَّ السَّيِّد «بوفاري» يستطيع أن يتصرَّف وفق هواه، وما ينبغي أن يعني نفسه .. وخصوصاً الآن .. وهو مقبل علي الكثير من الارتباكات .. بل إن من الخير له أن يتخلي عن هذا الموضوع إلي شخص آخر، وليكن لكِ أنْتِ مثلاً، وبتوكيل يسهل الأمور، وعندئذ ستم بيننا بعض العمليات البسيطة!

ولم تفهم «إيما» شيئاً، فسكت، ثُمَّ انصرف إلي حانوته وهو يفترض أنَّ السَّيِّدة لا تستطيع أن تستغني عن أن تأخذ منه شيئاً، وأنَّه سيرسل إليها قطعة من القماش الخفيف الأسود طولها اثنا عشر مترًا لتخيط منها ثوباً، مُردِّداً:

.. إنَّ هذا الثوب الذي ترتدينه يصلح للمنزل، ولكنَّ لا بدَّ لكِ من ثوب آخر للزيارات، وقد لمحت أنا ذلك لأوَّل نظرة عند دخولي، فلديَّ عين أمريكية!! ولم يرسل القماش بل أحضره بنفسه، ثُمَّ عاد بسبب المقاس، كما عاد لتعلُّلات أخرى، محاولاً في كُلِّ مرَّة أن يبدو ودوداً خدوماً متسللاً علي نحو ما يقول «هوميه»، مسدياً دائماً إلي «إيما» نصيحة ما عن التوكيل . ولم يكن يتكلم عن الكمبيالتين، كما أنَّها هي الأخرى لم تكن تُفكر فيهما.

وكان «شارل» قد قصَّ عليها شيئاً في بدء نقاشتها، ولكنَّ رأسها كان قد مرَّ به من الاضطرابات ما جعلها لا تذكر شيئاً .. وفضلاً عن ذلك فإنَّها كانت حريصة علي ألا تفتح آية مناقشة في المسائل المادية. وقد اندهشت الأُم «بوفاري» لهذه الحالة، وعزت تغير مزاجها إلي المشاغل الدينية، التي استولت عليها في أثناء مرضها!

ولكنَّ ما أن رحلت الأُم حتي أخذت «إيما» تدهش زوجها بحسها العملي، فكانت تذهب لتحصل علي المعلومات، ولتتحقّق من الرهونات،



ولتبحث عمّا إذا كان هناك محل لتصحيح إجراء أو عمل تصفية. وكانت تستعمل عبارات فنية كيفما اتفق متفوهة بألفاظ كبيرة ; كالنظام والمستقبل والتبصّر، كما كانت تبالغ دائماً في ارتباكات الشركة، حتي أطلعتة يوماً علي نموذج لتصريح عام بإدارة أعماله، بما فيها عقد القروض وتوقيع الكمبيالات وتظهيرها ودفع المبالغ .. وغير ذلك.. فقد كانت استفادت من دروس «ليريه»!

وسألها «شارل» في سذاجةٍ من أين أتيت بهذه الورقة.

فأجابت:

- من السيّد «جيومان».

وأضافت في برودٍ شديد:

- إنني لا أثق به كثيراً، والموثقون لهم شهرة بالغة السوء، وربما كان من الواجب أن نستشير .. إننا لا نعرف غير .. أوه! لا أحد!

فأجاب «شارل» الذي كان يُفكّر:

- وذلك ما لم يكن «ليون» ..

وكان من الصّعب التفاهم بالمراسلة، ولذلك عرضت «إيما» أن تقوم بالسفر، فشكرها. وألحت فكانت ثورة من الإشفاق، وأخيراً صاحت في نغمة عناد مصطنعه قائلة:

- لا - أرجوك - سأذهب.

فقال وهو يُقبلها في جبهتها:

- كم أنت طيبة!

وصباح اليوم التّالي تربعت في «العصفورة» لكي تذهب إلي «روان» لتستشير السيّد «ليون» .. وهناك بقيت ثلاثة أيام!!





الفصل نزوة جديدة!

A new whim!



وكانت ثلاثة أيام طويلة لذينة رائعة، بل كانت شهر عسل حقيقي!
نزلا في فندق «بولون» علي الميناء، وعاشا هناك والنوافذ مغلقة،
والأبواب موصدة، وفوق الأرض ورود، والمشروبات السكرية المثلجة
تحمل إليهما مع كُلِّ صباح!

وقبل المساء كانا يستأجران زورقًا مغطي ويذهبان إلي إحدى الجزر
لتناول العشاء! وكانا ينزلان وسط الزوارق الراسية التي تمس حبالها
المنحرفة مسًا خفيفًا أعلي الزورق.

وكان ضوضاء المدينة يبتعد علي نحو غير محسوس، بما في ذلك ضجيج
العربات والأصوات ونباح الكلاب فوق متون السفن، وكانت تحمل عقدة
قبعتهما وينزلان إلي جزيرتهما.

وفي الصالة المنخفضة بأحدي البارات، كانا يجلسان ويأكلان السمك
المقلي والكريمة والكريز، ويضطجعان فوق العشب ويتبادلان القُبْل تحت
أشجار الحور. وكانا يودان لو عاشا إلي الأبد في هذا المكان الصغير مثل



«روبينسن كروزو»⁽⁷²⁾، وقد لاح لهما هذا المكان وسط سعادتهما أروع مكان في الأرض. ولم تكن هذه أوّل مرّة يريان فيها أشجار وسما زرقاء وحشائش، كما لم تكن أوّل مرّة يسمعان فيها خرير الماء وهبوب النسيم بين الأغصان، ولكنهما لم يكونا قط قد أعجبا بكلّ هذا، وكأنّ الطبيعة لم تكن موجودة قبل ذلك، أو كأنّهما لم تبدّ جمالها إلّا منذ أن أشبعا رغباتهما!

وفي اللّيل كانا يرحلان والزورق يتابع شواطئ الجزر، وقد قعبا فيه معًا، مخفيين في الظلال، دون أن يتكلما، والمجاديف المربعة تصطك في حلقاتها الحديدية، فيشبه اصطكاكها - وسط الصّمت - دقات السّاعة.

وذات مرّة ظهر القمر فلم يفتهما أن يصفاه بعباراتٍ عذبةٍ إذ وجدا الكوكب حزينًا موحّيًا بالشعر، بل أخذت «إيما» تغني: «ذات مساء، هل تذكرين، ونحن نجدف» .. .

وكان صوتهما الرخيم العذب يتلاشي فوق الموج، وكانت الريح تحمل الترجيعات التي كان «ليون» يسمعها، وهي تمرّ كحفيف أجنحة من حوله! وكانت تقف في مواجهته مستندة إلي حافة الزورق، حيث كان القمر يدخل من أحد المصاريح المفتوحة. وكان ثوبها الأسود الذي يتنفخ قماشه في هيئة مروحة، يظهرها نحيفة، وأكثر طولًا، وقد رفعت رأسها وضمت

(72) روبنسون كروزو، هي قصّة كتبها الكاتب الإنجليزي «دانيال ديفو» Daniel Defoe (1660-1731)، نُشرت للمرّة الأولى في عام 1719. هذه الرواية هي سيرة ذاتية تخيلية وهي تحكي عن شاب انعزل في جزيرة ما، وحيدًا لمدة طويلة دون أن يقابل أحد من البشر، ثمّ بعد عدة سنوات يقابل أحد المتوحشين وعلمه بعض ما وصل إليه الإنسان المتحضر من تقدم فكري وجعله خادمه. وفي نهاية القصة عاد روبنسون كروزو ومعه خادمه إلى أوروبا حيث العالم المتحضر. (المُعَد).

يديها واتجهت بعينيها نحو السماء. وأحياناً كان ظل الصفصاف يخفيها كُلَّهَا، ثُمَّ تعود إلي الظهور فجأةً كالرؤية في ضوء القمر.

وعثر «ليون» تحت يدها، وهو إلي جوارها علي الأرض، بشريطٍ من الحرير المخمل. وفحصه صاحب الزورق ثُمَّ انتهى بأن قال :

- آه! إنَّه كان لجماعةٍ صحبتهم في نزهةٍ منذ أيام، وقد أتوا كفريقٍ من المهرجين رجالاً ونساءً، ومعهم فطائر وشمبانيا وآلات عزف، و«العدة» كُلَّهَا! وكان بينهم بنوعٍ خاص رجل طويل جميل بشوارب قصيرة، وكان مسلياً علي نحوٍ مدهش، وكانوا يقولون هكذا: «هيا! قصّ علينا شيئاً».. «أدولف».. «أدولف».. علي ما أظن!

ارتعشت «إيما، وقال «ليون»، وهو يقترب منها:

- هل تشعرين بألم؟

و أضاف الرَّجل العجوز في رفقٍ، وهو يظنُّ أنَّه يُقدِّم للغريبين تسليّة:

- وأظنُّ فوق ذلك أنَّ النساء لا تعوزه.

ثُمَّ بصق في يديه واستأنف الضرب بالمجذافين!

ومع ذلك لم يكن بد من الافتراق! وكان الوداع حزيناً، وقد اتفقا علي أن يرسل الخطابات عند الأم «روليه». وزودته هي بتوصيات دقيقة خاصّة بالغلاف المزدوج، حتي لقد أعجب كثيراً بهذه الحيلة الغرامية.

وقالت مع القُبلة الأخيرة:

- وهكذا تؤكِّد لي أنَّ كُلَّ شيءٍ علي ما يرام.

فأجاب:

- نعم. بِكُلِّ تأكيد!

وأخذ يُفكِّر، وهو عائد وحده:

- ولكن لماذا تحرصُ كُلُّ هذا الحرص علي هذا التوكيل؟





دروس الموسيقى في المدينة

Music lessons in the city

بعد أيام قلائل اتخذ «ليون» أمام زملائه هيئة استعلاء، وامتنع عن مصاحبتهم، وأهمل عمله إهمالاً تاماً!

كان ينتظر خطابتها ويُعيد قراتها ويكتب إليها، كما كان يستحضرها أمام خياله بكل ما في رغبته وما في ذكرياته من قوّة. وأخذت الرّغبة في رؤيتها مرّة أخرى تزداد بدلاً من أن تنقص بغيابها، حتي هرب من مكتبه صبيحة يوم سبت. وعندما لمح من أعلي الهضبة في الوادي برج الكنيسة وعلمها المرفوع فوق عمود من الحديد الأبيض - وهو يدور مع الريح - أحس بتلك اللذّة الممزوجة بالغرور المنتصر، وبالحنان الأناني الذي كثيراً ما يحس به أصحاب الملايين عندما يعودون لزيارة قريتهم!

وهبط ليحوم حول منزلها، ولمع ضوء في المطبخ، وأخذ يترقب ظلها خلف الستائر، ولكنّ أحد لم يظهر!

وعندما لمحته الأم «لو فرانسوا» أطلقت صيحات تعجب كبيرة، ووجدت أنّه قد ازداد طويلاً كما ازداد نحافةً، بينما وجدت «أرتميز» أنّه علي العكس قد ازداد قوّة واسمراً.



وتناول العشاء في الصَّالة الصَّغيرة كما كان يفعل في الماضي، ولكنَّه تناوله وحيداً هذه المَرَّة دون المُحَصِّل، وذلك لأنَّ «بينيه» كان قد تعب من انتظار «العصفورة» فعجل موعد عشاءه بمقدار ساعة، وأصبح يتناوله في السَّاعة الخامسة تماماً، بل وكثيراً ما كان يدعي أنَّ السَّاعة القديمة الخربة تؤخِّر!

ومع ذلك فقد عقد «ليون» عزمه وذهب ليطرق باب الطيب. وكانت السيِّدة «بوفاري» في غرفتها التي لم تنزل منها إلَّا بعد ربع ساعة. وظهر السيِّد «بوفاري» مبتهجاً لرؤيته من جديد، ولكنَّه لم يتحرَّك طوال المساء ولا اليوم التَّالي.

لقد رآها وحيدة في المساء في وقتٍ متأخر خلف الحديقة في الرقاق، كما كانت تفعل مع الآخر! وكان الجوّ عاصفًا، وأخذًا يتحدثان تحت مظلة علي ضوء البرق.

لقد أصبح فراقهما شيء لا يُطاق!

وقالت «إيما»:

- إنَّ الموت أفضل!

وكانت تتلوي فوق ذراعه والدموع تتصبَّب من عينيها.

وقال:

- الوداع!.. الوداع!.. متي سأراك ثانية؟



وعاد أدراجهما لكي يتبادلا القُبَلات مرّة أخرى، وعندئذ وعدته بأن تجد قريباً، بأية وسيلة، فرصة تسمح بأن يلتقيا في حُرِّيّة، مرّة واحدة علي الأقلّ كُلّ أسبوع. ولم تكن «إيما» تشك في ذلك بل كانت مليئة بالأمل، وعمّا قريب سيأتيها المال.

وهكذا اشترت لغرفتها زوج من الستائر الصفراء ذات الخطوط العريضة، وكان التاجر «ليريه» قد مدح لها رخصتها. وحلمت بسجادةٍ وأكّد «ليريه» أنّ ثمنها قد يكون باهظاً، وتعهّد في أدبٍ بأن يأتيها بواحدةٍ وقد أصبحت لا تستطيع أن تستغني عن خدماته! ففي اليّوم الواحد كانت ترسل في استدعائه عشرين مرّة، فيترك أعماله من غير تملّص. كما أنّ أحداً لم يفهم لماذا أخذت الأمّ «رولييه» تتناول عندها الغداء كُلّ يوم، بل وأخذت تزورها زيارات خاصّة..

وفي تلك الفترة، أي في بداية فصل الشتاء ظهر أنّها قد أخذت بحماسة كبيرة للموسيقى.

وذات مساء بينما كان «شارل» ينصت إليها، ابتدأت أربع مرّات متوالية المقطوعة نفسها دون أن ترضي قط بعزفها، وذلك بينما أخذ «شارل» يصيح، دون أن يلاحظ الفارق قائلاً:

- برفاؤ!.. حسن جدّاً!.. إنّك مخطئة في ظنك! استمري إذا!
فردت قائلةً:

- إيه! لا! هذا شيء قبيح.. إنّ أصابعي قد أصابها النصد!
وفي اليّوم التّالي رجاها أن تعزف له شيئاً مرّة أخرى، فقالت:

- فليكن.. إرضاءً لك!

واعترف «شارل» بأنّها قد نسيت قليلاً.. وكانت قد أخطأت في الجملة الموسيقية، وتخبطت ثمّ توقفت، وقالت:

- آه! كفي! يجب أن أتلقن دروسًا، ولكن..

وعضت علي شفتيها ثمّ، أضافت:

- عشرون فرنكًا لساعة الدرس.. هذا كثير!

وقال «شارل» في بلبه:

- نعم. هذا صحيح.. إليّ حدّ ما! ومع ذلك يلوح لي أنّه ربما كان من الممكن تلقي هذه الدروس بأجر أقل، وذلك لأنّ هناك فنانين بلا شهرة، ومع ذلك، كثيرًا ما يتساوون مع ذوي الشهرة العريضة!

فقالت «إيما»:

- ابحث عنهم إذا!

وفي اليوم التّالي أخذ «شارل» ينظر إليها عند دخوله بنظرة ناكرة، وفي النهاية لم يستطع أن يمسك عن أن يفوه بهذه العبارة:

- يا لك من عنيدة أحيانًا! لقد كنت في «بارفيسير» اليوم، وقد أكّدت لي مدام «لييجار» أنّ أنساتها الثلاث الملحقات بالملجأ يأخذون دروسًا مقابل خمسين سنتًا لكلّ جلسة من مُدرّسة شهيرة!

فرفعت كتفيها، ولم تلمس بعد ذلك ألتها الموسيقية قط!

ولكنّها عندما كانت تمرّ إليّ جواره، ويكون «بوفاري» حاضراً كانت تتنهد قائلة:



.. آه ..ألتي المسكينة!

وعندما كان أحد يأتي لزيارتها لم تكن تغفل أن تخبره أنها قد هجرت الموسيقى، ولم تعد الآن تستطيع العودة إليها لأسبابٍ قهرية. وعندئذ كانوا يرثون لها ويرون في هذا الهجر خسارة، وذلك بسبب موهبتها الفذة! بل ولم يكن أحد يتحدث إلي «بوفاري»، لأنَّ في ذلك ما يخجله، وخصوصًا الصيدلي، الذي قال له:

- إنَّك مخطئ! فلا ينبغي أن يترك الإنسان الملكات الطبيعيَّة معطلة! وفوق ذلك عليك أن تقدر يا عزيزي أنَّك عندما تدفع السيِّدة نحو الدرس، فإنَّك تقتصد بالنسبة إلي المستقبل فيما يختص بالتربية الموسيقيَّة الواجبة لطفلتك، وفي رأيي أنَّ الأمَّهات يجب أن يقمن بأنفسهن بتعليم أطفالهن، وهذه فكرة أخذتها من «روسو»، وربما كانت لا تزال حديثة، ولكنني متأكد من أنَّها سوف تنتصر كما انتصرت فكرة رضاعة الأم وفكرة الختان!

وعاد «شارل»، فقال :

- إذا أردتِ، من وقتٍ إلي آخر، درسا، فلا مانع!

فأجابت قائلة:

- ولكن الدروس لا تثمر إلَّا إذا كانت متتابعة!

وهكذا استطاعت أن تحصل من زوجها علي تصريح بأن تذهب إلي المدينة مرَّة كلَّ أسبوع لتري عشيقها، بل وقد لوحظ بعد شهر أنَّها قد أحرزت تقدُّمًا كبيرًا!

الفصل السادس



لقاءات الخميس الغرامية

Thursday's romantic encounters

في يوم خميس استيقظت «إيما» وارتدت ملابسها في صمت كي لا توقظ «شارل» خشية أن يبدي ملاحظات حول رحيها الباكر جداً. ثُمَّ أخذت تمشي طويلاً وعرضاً، وتقف أمام النوافذ وتنظر إلى الميدان .

وأخذ ضوء الفجر ينبعث من بين أعمدة السوق وبين بيت الصيدلي الذي كان مغلق النوافذ. وكانت الحروف الكبيرة بلافتته تظهر بفضل لون الفجر الشاحب .

وعندما دقت الساعة السابعة والربع، اتجهت إلى فندق «الأسد الذهبي» الذي كانت «أرتميز» فتحت بابَه وهي تتشاءب. ونبشت الخادمة - من أجل السيّدة - قطع الفحم المدفونة في الرماد، ثُمَّ ظلت «إيما» وحدها في المطبخ. ومن وقتٍ إلى آخر كانت تخرج. وكان «هيفير» يشدّ الخيل إلى العربة في تراخ، وهو يستمع في الوقت نفسه إلى الأمّ «لو فرانسوا» التي كانت أخرجت رأسها المُعطي بقلنسوة قطنية من كوة، وأخذت تكلفه بمهمات، وتُقدّم إليه



تفسيرات خليقة بأن تنزل الاضطراب برأس رجل من طراز آخر! بينما «إيما»
تدق بنعل حذائها علي بلاط الفناء .



وأخيرًا، وبعد تناول حساءه، وارتداء
معطفه، ثُمَّ إشعال غليونه، قبض علي
سوطه، واستقر في هدوء فوق مقعده !

وانطلقت «العصفورة» في سير بطيء
وخلال الطريق كانت تقف، من مكان
إلي آخر، لتلتقط المسافرين، الذين كانوا

يترقبونها وقوفًا علي حافة الطريق أمام «إيما» في طريقها إلي عشيقها «ليون» .
سياج الأفنية، وكانت تنتظر أولئك الذين اتفقوا معها علي موعد، بل وكان
بعضهم لا يزال في فراشه بالمنزل. وكان «هيفير» يُنادي ويصيح ويشتم، ثُمَّ
ينزل من مقعده، ويذهب ويدق علي الأبواب دقات قويّة.

ومع ذلك امتلأت المقاعد الأربعة، وانطلقت العربة، وتتابع أشجار
التفاح، وأخذ الطريق المحصور بين خندقين مليئين بالماء الأصفر يضيق
باستمرار عند حدود الأفق .

كانت «إيما» تعرف هذا الطريق من طرف إلي طرف، وتعرف أن بعد
الأعشاب عمودًا، ثُمَّ شجرة دردار، ثُمَّ مخزنًا أو كوخ خفي، بل وأحيانًا،
كانت تغلق عينيها لكي تهيج لنفسها المفاجآت، ولكنها لم تفقد قط إحساسها
الدقيق بالمسافة التي لابدّ من اجتيازها .

وأخيرًا قربت المنازل المبنية من الحجر، وأخذت الأرض ترن تحت
العجلات، وانسابت «العصفورة» بين الحداثق التي كانت تري بداخلها من

خلال الرحلات بعض التماثيل، أو عريشة عنب، أو شجر السرو المشذب،
أو أرجوحة...

ثمَّ ظهرت المدينة في لمحة بصر!

كانت المدينة النورماندية القديمة تمتد أمام عينيها كعاصمة ضخمة
وكأنَّها تدخل «بابل»! وارتكزت بيديها فوق الشُراعة وهي تستنشق النسيم،
والخيل الثلاثة تعدو في الوحل، والعربة تهتز، و«هيفير» يصيح بالعربات
الصَّغيرة علي الطريق، بينما أهل المدينة الذين قضوا اللَّيل في غابة «جيوم»
ينزلون عن الهضبة في سكون فوق عرباتهم العائلية الصَّغيرة.

ووقفوا عند السياج، وخلعت «إيما» الخفين اللذين تلبسهما فوق
الحذاء، ولبست قفازين آخرين، وأصلحت من وضع شالها. وعلي بعد
عشرين خطوة من هناك خرجت من «العصفورة».

كانت المدينة عندئذ آخذة في الاستيقاظ، والخدم في «قَلْنَسَوَاتهم»
الإغريقية آخذون في مسح واجهات الدكاكين، والنساء يطلقن من نواحي
الشوارع صيحات مجلجلة، وهن حاملات السلال فوق صدورهن،
وسارت «إيما» منكسة البصر إلي جوار الجدران، مبتسمة من السرور تحت
وشاحها الأسود المسدل!

وخوفا من أن تُري، لم تكن تسلك عادة أقرب الطرق، بل كانت تندس في
الأزقة المظلمة.. وصلت وهي تتصبَّب عرقًا عند نهاية شارع «الناسيونال»
إلي جوار النافورة القائمة هناك، وهو حي المسرح والصالات وبنات
الهوى. وكثيرًا ما كانت تمرُّ إلي جوارها إحدى العربات وهي محملة بمناظر



المسرح التي تهتز فوقها، وغلما ن في مرايل يسكبون الرمال علي البلاط بين الشجيرات الخضراء .. وكانت تفوح رائحة الخمر والسيجار والقواقع .

وانعطفت في شارع ... وعرفته من شعره المُجَعَّد المطل من قبعته!
واستمر «ليون» يسير علي الرصيف وهي تتبعه حتي الفندق، ثُمَّ صعد وفتح الباب ودخل.. وكان عناق!

ثُمَّ انهالت العبارات بعد الثُّبُلات! وكانا يتبادلان الحديث عن أشجان الأسبوع، والمخاوف، والقلق علي الخطابات. ولكنَّ كُلَّ شيء قد نُسي الآن، وها هما وجهًا لوجه مع ضحكات اللذة، ونداءات الحنان .

كان السرير سريرًا كبيرًا في شكل زورق، وكانت الستائر المصنوعة من الحرير الأحمر تنزل من السقف وتتجمّع في أسفل بالقرب من الوسادة حيث تنفج. ولم يكن في العالم شيء في جمال رأسها ذي الشعر، وجلدها الأبيض يبرز فوق هذا اللون القرمزي، كان الحياء يدفعها إلي أن تضم ذراعيها العاريتين وهي تخفي وجهها في يديها.

وكم كانا يُحبّان هذه الغرفة الطيبة المليئة بالمرح، بالرغم من فخامتها التي ذبلت قليلًا! وكانا يجدان دائمًا الأثاث في مكانه، بل ودبابيس الشعر التي كانت نسيتهما يوم الخميس الماضي تحت قاعدة السّاعة. وكانا يتناولان الغداء إلي جوار النّار فوق مائدة مستديرة مطعمة بخشب الأبنوس. وكانت «إيما» تقطع اللحم وتضع القطع في طبقه وهي تسرد جميع أنواع المداعبات، وكانت تضحك ضحكات رنانة خليعة عندما يفيض زبد الشمبانيا من الكأس الخفيف فوق خواتم أصابعها. وكانا غارقين غرقًا كاملاً في امتلاك ذاتيهما، حتي لكأنّهما يعتقدان أنّهما في بيتهما الخاصّ، وأنّهما سيعيشان فيه حتي

الموت كزوجين خالدين! وكانا يقولان «غرفتنا»، و«سجادتنا»، و«كراسينا»، بل وكانت تقول «خفي» الذي كان هدية من «ليون» استجابة لإحدى نزواتها، وكان خفًا من الستان الوردي، محلاة حافته بالبجع! وعندما كانت تجلس فوق ركبتيه، كان ساقها القصير يتدلي في الهواء، وكان الخف الجميل الذي لا عقب له يمسك بأطراف أصابعه قدمها العارية فقط .

لقد تذوق «ليون» لأول مرة تلك الرقة المرهفة المنبعثة من الأناقة النسائية، ولم يكن قد صادف قط هذه الرشاقة وهذه اللُغة وهذه الألوان من الثياب المشكلة وهذه الأوضاع الشبيهة بأوضاع الحمامة الغافية. وكان يُعجب بحرارة روحها ودانتيللا ردائها! ولم لا؟ أليست هي احدي نساء الطبقة الراقية، وامرأة متزوجة! وبالجملة، أليست عشيقة حقيقية؟!

ويتلوّن مزاجها المتقل طورًا بعد طور، من الإحساس الصوفي إلي المسرح، ومن الثثرة إلي الصّمت، ومن العنف إلي عدم المبالاة - كانت تثير في نفسه مئات الرغبات والغرائز والذكريات - لقد كانت المغرمة التي تتحدّث عنها الروايات، والبطلة التي تتحدّث عنها المسرحيات، و«هي» الغامضة التي تتحدّث عنها دواوين الشعر! وكان يجد علي كتفها اللون العنبري، كما يجد القد الطويل الخاص بربات قصور الإقطاع، ولكنها فوق كلّ هذا كانت بالنسبة إليه ملاكًا!

وعندما كان ينظر إليها، كثيرًا ما كان يُخيّل إليه أن روحه قد هربت إليها، وانسابت كموجة فوق حدود رأسها، ثمّ انحدرت كالسيل في بياض صدرها!



وكان يلقي بنفسه علي الأرض أمامها، ويتكى بمرفقيه فوق ركبتيه ثم يأخذ في تأملها مبتسمًا مشدود الجبهة وكانت تنحني نحوه وتتمتم، وكأنها مختنقة من النشوة، وتقول:

- آوه! لا تتحرك! لا تتكلم! أنظر إلي! إن عينيك ينبعث منها شيء عذب تستريح إليه نفسي.

وكانت تسميه طفلاً .

- أيها الطفل! هل تحبني؟

ولم تكن تسمع جوابًا مع سرعة شفثيه اللتين كانتا تصعدان إلي الفم. وكان فوق الساعة الدقاقة تمثال صغير من البرونز لإله الحب، مبتسمًا، وقد حنا ذراعيه تحت باقة مذهبة. وكثيرًا ما كانا يضحكان منه. ولكن كل شيء كان يبدو جادًا عندما يحين موعد الفراق .

كان كلُّ منهما يُكرّر للآخر وهما واقفين صامتتين ساكنين: «إلي يوم الخميس! .. إلي يوم الخميس!».

وفجأة كانت تأخذ رأسه بين يديها وتقبله مسرعة في جبهته وهي تصيح: «الوداع».. ثم تنطلق من السلم .

كانت تنصرف! وتصعد الشوارع حتي تصل إلي فندق «الصليب الأحمر». وكانت تأخذ خفها الذي أخفته في الصباح تحت المقاعد، وتجلس صامته في مكانها بين المسافرين نافدي الصبر. وكان بعضهم ينزل عند أسفل الهضبة فتبقي وحدها بالعربة .



وعند كُلِّ منحني كانت تريد رؤية أضواء المدينة، التي تتجمّع كموجة واسعةٍ من البخار المضيء فوق المنازل المختلفة. فكانت تركع علي ركبتيها فوق المساند، وتطل بعينيهما في هذا الوهج الخافت، وكانت تنتحب وتناجي «ليون»، وترسل إليه ألفاظاً رقيقة، وقُبَلات تضل في الهواء .

وكان علي الطريق المرتفع متشرد يائس يمسك عصا وسط العربات وعليه كومة من الأسمال تغطي كتفيه، وفَلَنُشُوة مهذمة مستديرة كالتاساة تخبي وجهه، وكان يُغني أغنية قصيرة وهو يتبع العربات يقول مطلعها: «كم تدفع حرارة يوم صحو البنت الصَّغيرة إلي أن تحلم بالحُب»!

وكان ركاب «العصفورة» ينتهي بهم الأمر في الطريق إلي النّوم، بعضهم وهو فاغر فاه، والبعض الآخر وقد حتي ذقنه واستند علي كتف جاره، أو أدخل ذراعه في المقبض الجلدي، وأخذ يهتز هزات منتظمة علي وقع العربة.

وشاع المصباح الذي يهتز في الخارج فوق أشجار الليمون يتسلل إلي الداخل من خلال الستائر الصفراء الداكنة، فيلقي ظلالاً قريبةً من لون الدماء علي كُلِّ أولئك الأشخاص الساكنين. وكانت «إيما» الثملة بالحزن ترتعد تحت ملابسها وتزداد إحساسًا بالبرد في قدميها.

وفي المنزل كان «شارل» ينتظرها. وقد اعتادت «العصفورة» أن تصل متأخرة يوم الخميس. وأخيرًا وصلت السيِّدة فلا تكاد تقبل علي تقبيل طفلتها. وكان العشاء لم يُعد فلم تهتم بالأمر والتمست العذر للطاهية، فكلَّ شيء أصبح الآن مسموحًا به لهذه الفتاة!!

وكثيرًا ما كان زوجها يلاحظ شحوبها فيسألها عمّا إذا كانت مريضة .



وكانت «إيما» تجيب قائلةً:

- لا!

فيقول:

- ولكنك لست علي ما يرام هذا المساء!

- لا تقلق! ليس هناك شيء!

بل وفي بعض الأيام كانت لا تكاد تدخل حتي تصعد إلي غرفتها، حيث كان «جوستان» يروح ويجيء بخطي صامته مبادرًا إلي أفضل من أية وصيفة، فكان يضع أعواد الثقاب، والشمعدان، وكتابًا في تناول يدها ويرتب قميصها ويقلب الملاءات!

وكانت تقول له:

- هيا! هذا حسن! اذهب!

ذلك لأنها كانت تظل واقفة مدلاة اليدين مفتوحة العينين، وكأنها مشدودة بخيوط ساكنة من حلم مفاجئ!

وكان اليوم التالي مزعجًا، والأيام الأخرى أشد إزعاجًا، بسبب صبر «إيما» النافذ في استرجاع سعادتها. فكان الشوق المتأجج المتكالب الملهب بصور الذكريات يتفجر في اليوم السابع فينطلق في أحضان «ليون»! أمّا مشاعره هو فقد كانت تختفي تحت فورات تعجب وعرفان بالجميل، وكانت «إيما» تتذوق هذا الحب علي نحو خفي مستغرق، وكانت تتعهد به بجميع حيل الحنان، وترتعد قليلاً خشية ضياعه بعد ذلك!

وكثيرًا ما كانت تقول له في صوتٍ عذبٍ حزين:

- آه سوف تتركني أنت! .. سوف تتزوج! .. ستكون كالآخرين!

وكان يسأل:

- مَنْ تعنين؟

وكانت تجيب:

- أعني الرجال!

ثُمَّ تضيف وهي تدفعه بحركةٍ ولهانة:

- إنَّكم جميعًا أنذال!

وبينما كانا يتحدَّثان يومًا حديثًا فلسفيًا عن أوهام الحياة الدنيا، انسأقت «إيما» رغبةً في اختبار غيرته أو بدافع قوي نحو الانطلاق - انسأقت إلي القول بأنَّها كانت قد أحبَّت قبله في الماضي رجلًا - ثُمَّ أضافت أنَّه لم يكن يشبهه، وأقسمت بحياة ابنتها أنَّه لم يحدث بينهما شيء!

وصدقها الشَّاب، ولكنَّه مع ذلك استجوبها لكي يعرف ماذا كان يفعل .

فقالت:

- كان قائد سفينة يا عزيزي!

وكان في هذه الإجابة ما يقطع الطريق علي كُلِّ بحث، كما كان فيها أيضًا ما يرفع من قدرها بسبب ذلك السحر، الذي انصبَّ منها علي رجل لا بدَّ أنَّه كان ذا طبيعة مقاتلة، معتاد علي تلقي الاهتمام .



وأحسن الكاتب عندئذ بوضاعة مركزة، وود أن لو كانت له نجوم وتيجان
والنقاب، فإنَّ كُلَّ هذا كان جدير بأن يروقهها، وقد ظنَّ بها ذلك لما رآه من
اعتيادها الإسراف .

ومع ذلك فإنَّ «إيما» كانت تكبح عددًا من نزواتها المسرفة، كرجبتها
في أن تمتلك عربة فخمة زرقاء يشدها حصان إنجليزي، ويقودها سائس
في حذاء طويل مثني لكي تحملها إلي «روان». وكان «جوستان» هو الذي
أوحى إليها بهذه النزوة، وهو يضرع إليها أن تأخذه عندها كخادم عربة. وهذا
الحرمان لم يكن يضعف من سرورها بكُلِّ لقاء، وإن كان يزيد بلا ريب من
مرارة العودة .

وعندما كانا يتحدَّثان عن باريس كثيرًا ما كانت تنتهي بأن تتمم قائلة :

— آه .. كم نكون سعداء لو عشنا هناك!

وكان الشاب يجيب في رفقٍ، وهو يمرّ بيده فوق جدائل شعرها:

— ألسنا سعداء؟

فتقول:

— نعم . هذا صحيح .. إنَّني مجنونة .. قبلني!





الفصل السابع



فخ الديون!

The Debt Trap

أصبحت «إيما» بالنسبة إلي زوجها أكثر سحرًا من أي وقت مضى، فهي تصنع له الكريمة بالفستق، وتعزف الفالس بعد العشاء. وهكذا وجد نفسه أسعد البشر! وعاشت «إيما» دون قلق. حتي كان مساء قال فيه «شارل» فجأة:

- إنَّ الأتسة «لميرو» هي التي تعطيك الدروس أليس كذلك؟

- نعم!

فاستأنف «شارل» قائلاً:

- ولكنني قابلتها منذ هنيهة عند مدام «لييجار» وقد تحدّثت إليها عنك، ولكنّها لا تعرفك!

وكان وقع هذه العبارات كالصاعقة، ولكنّها مع ذلك ردت في نعمة طبيعية:

- آه.. إنّها بلا شك قد نسيت اسمي!

وقال الطبيب:



- ولكنَّ ربما كان في روان «عدة أنسات يحملن الاسم «لميرور» ويدرسن البيانو!

- هذا ممكن!

ثمَّ قالت في حدة:

- ومع ذلك فإنَّ لديَّ الإيصالات! .. انظر!

وذهبت إلى الصوان حيث أخذت تفتش في الأدراج وتُقلب الأوراق، وانتهت بأن أصابها الدوار، حتي أنَّ «شارل» دعاها في قوَّة ألا تتعب نفسها كُلَّ هذا التعب من أجل إيصالات تافهة!

قالت:

- أوه! .. سوف أجدها!

وبالفعل في يوم الجمعة التَّالي بينما كان «شارل» يتعلَّ أحد أحذيته في الغرفة المظلمة التي تحوي ملابسه، أحس بورقة بين الجلد وجوربه، فأخذها وقراء: (وصل لدروس ثلاثة أشهر وتوريدات مختلفة بمبلغ خمس وستين فرنكاً.. فيليسيته لميرور- مُدرِّسة موسيقي).

وقال «شارل»:

- ولكن كيف وصلت هذه الورقة إليَّ حذائي؟

فأجابت:

- إنَّها بلا ريب سقطت من ملف الإيصالات الموضوع علي حافة الرف .



ومنذ تلك اللَّحظة لم تعد حياتها غير سلسلة من الأكاذيب التي كانت تلف فيها حُبَّها - وكأنَّها أوشحة - لكي تخفيه .

وأضحى الكذب بالنسبة إليها حاجةً وولعاً ولذَّةً، إلي درجة أنَّها كانت إذا قالت إنَّها قد مرَّت بالأمس من الناحية اليميني لأحد الشوارع، كان من الواجب أن نعتقد حكماً أنَّها مرَّت من الناحية اليسرى !

وفي صباح يوم سقط الجليد فجأةً بعد أن كانت قد سافرت بملابس خفيفة كعادتها. وبينما كان «شارل» ينظر إلي الجوَّ من النافذة، رأي السيِّد «بورنسيان» في عربة السير «تيفاش» وهو يقودها إلي «روان»، وعندئذ نزل لكي يعطي القس شالاً سميكاً ليحمله إلي السيِّدة بمُجرَّد أن يصل إلي فندق «الصليب الأحمر» .

وبمُجرَّد أن وصل «بورنسيان» إلي الفندق سأل عن زوجة طيب «أيونفيل»، فأجابت صاحبة الفندق بأنَّها لا تتردد علي فندقها إلَّا لماماً، ولذلك عندما رأي القس مدام «بوفاري» في المساء في «العصفورة» قصَّ عليها حيرته وارتبাকে دون أن يبدو عليه أنَّه يعلق اهتماماً علي الموضوع، وذلك لأنَّه ابتدأ الحديث عن موضوع آخر، وهو ثناؤه علي واعظ أخذ يشير الإعجاب في الكاتدرائية، بحيث تتسابق السيِّدات إلي سماع عظته !

ولكنَّ إذا لم يكن القس قد اهتم بأن يطلب إيضاحات، فإنَّ غيره قد يكون فيما بعد أكثر فضولاً، ولذلك رأَت من المفيد أن تنزل كُلَّ مرَّة في فندق «الصليب الأحمر» بحيث أنَّ أهل قريتها الذين يرونها في السلازم لا يشكون في شيءٍ .

ومع ذلك فقد رآها السيّد «ليري» وهي تخرج من الفندق متأبطة ذراع «ليون». وتملكها الخوف، متصورة أنّه قد يأخذ في الثرثرة، وخصوصاً أنّه ليس مغفلاً .

ولكنّه بعد ثلاثة أيام دخل غرفتها وأغلق الباب، وقال لها:

- إنني قد أحتاج إلي المال!

وأعلنت أنّها لا تستطيع أن تعطيه شيئاً. فأخذ يئن. ويذكرها بكلّ ما قدّمه لها من خدمات .

والواقع أنّ «إيما» لم تكن قد دفعت حتي تلك اللحظة غير قيمة واحدة من الكمبيالتين اللتين وقعهما «شارل»، أمّا الثانية فقد قبل التاجر - بناء علي رجائها - أن يستبدلها بكمبيالتين، بل وجددهما لمواعيد طويلة، ثمّ استل من جيبه قائمة بالتوريدات التي لم يحاسب علي ثمنها، وهي الستائر والسجادة وقماش المقاعد وعدة أثواب وأدوات متنوعة للزينة، يرتفع ثمنها ليصل إلي مبلغ ألفي فرنك تقريباً!

وطأطأت رأسها، فاستأنف يقول:

- ولكن إذا لم تكن لديكم نقود سائلة فلديكم عقارات!

وحدد لها بيتاً حقيراً يقع في «بارنفيل» إلي جوار «أومال»، وهو لا يدر دخلاً كبيراً، وكان فيما مضى ملحقاً بمزرعة صغيرة ابتاعها السيّد «بوفاري» الأب، وذلك لأنّ «ليري» كان يعرف كلّ شيء، حتي مقدار الأفدنة واسم الجيران!

وقال:

- لو أنني كنت في مكانكم لتخلصت من الدين، وبقي لي الفائض بعد ذلك.

واعترضت «إيما» لصعوبة العثور علي مشترٍ. فأعطاهما الأمل بأن يجد مشترًا. ولكنها تساءلت عمّا يلزم لكي تستطيع أن تبيع .

فأجاب:

- أليس لديك التوكيل؟

فوصلت إليها هذه العبارة كهبة هواء رطب .

وقالت:

- اترك لي القائمة.

فأجاب:

- أوه! .. لا داعي لهذا!

وعاد في الأسبوع التالي فخورًا بأنه قد استطاع بعد مساع مضنية أن يكتشف الشاري المدعو «لأنجوا»، الذي كان يتطلع إلي البيت دون أن يفصح عن الثمن!

ولمّا كانت لا تستطيع القيام بالسفر لاستطلاع المكان، فقد عرض أن يذهب هو إلي المكان، لكي يتفاوض مع «لأنجوا»، وبمجرد عودته أعلن أن المشتري قد اقترح أربعة آلاف .

وتهللت «إيما» لهذا الخبر .

وأضاف:



- بصراحة هذا ثمن جيد!

وقبضت نصف المبلغ فوراً. وعندما أخذ التاجر يصفي حسابه قال:

- أقسم أنه ليؤلمني أن أراك تدفعين مثل هذا المبلغ المحترم مرّة واحدة!

وعندئذ نظرت إلي الأوراق النقدية وهي تحلم بعدد المواعيد التي لا حصر لها والتي يمثلها هذان الألفان من الفرنكات .

وتمتت قائلة:

- كيف؟!.. كيف؟!!

فأجاب وهو يضحك في مظهر وديع:

- أوه .. إنَّ الإنسان يضع كُلَّ شيءٍ علي الحساب ..

وأخذ يحدق فيها وهو ممسك في يده قائمتين طويلتين يتحسسهما بين أصابعه، وأخيراً فتح حافظته ونشر علي المائدة كمبيالات كُلِّ منها بألف فرنك، وقال:

- وقعي لي هذه، واحتفظي بالكُلِّ!

واستنكرت قوله مشمئزة .

ولكنّه أجاب في وقاحة:

- ولكنّني أعطيكِ الفائض .. أليس في ذلك خدمة لكِ أنتِ؟!!

ثمَّ أخذ قلمًا وكتب في أسفل قائمة الحساب: «وصل من مدام «بوفاري» أربعة آلاف فرنك»، وأضاف قائلاً:



- ماذا يُقْلِقُكَ ما دمت ستسلمين بعد ستة أشهر متأخر ثمن منزلك، وما دمت قد حدّدت ميعاد آخر كمبيالة لما بعد الدفع؟

وارتبتك «إيما» قليلاً في هذه الحسابات، وأخذت أذناها تطنان، كأن قطعة من الذهب قد شقت أكياسها وأخذت ترن حولها علي الأرض. وأخيراً أوضح لها «ليريه» أنّ له صديقاً اسمه «فانسار» صاحب بنك في «روان»، وأنّه سيخصم هذه الكمبيالات الأربع، ثمّ أنّه سيدفع بنفسه إلي السيّدة ما يفيض عن الدين الحقيقي .

ولكنّ بدلاً من ألفي فرنك لم تفز إلا بألف وثمانمائة، وذلك لأنّ الصديق «فانسار» اخذ مئتين كمصاريف عمولة أجرة خصم ثمّ طلب متظاهراً بعدم الاكتراث أن تكتب له، وهو يقول:

- أنت تعرفين.. في التجارة.. أحياناً.. ومع التاريخ من فضلك.. التاريخ.. وانفتح عندئذ أمام «إيما» أفق للنزوات ممكنة التحقيق، وكان لديها من الحزم ما دفعها إلي أن تضع ألف فرنك من الاحتياطي، وبوساطتها استطاعت أن تدفع قيمة الكمبيالات الثلاث الأوّلي عندما حل موعدها. ولكنّ الرابعة سقطت في المنزل مصادفة يوم خميس، وانتظر «شارل» مضطرباً في صبر عودة امرأته ليطلب إيضاحات .

وإذا كانت زوجته لم تخبره بهذه الكمبيالة، فإنما كان ذلك لكي تجنبه الهموم المنزلية! وجلست فوق ركبتيه وداعبته وناغته، وأخذت تعد قائمة طويلة من الأشياء الضرورية التي أخذتها علي الحساب .

وأضافت قائلة:

- ولا شك أنك تُقدّر أن هذا الثمن ليس مرتفعًا بالنسبة إلي هذه الأشياء
الكثيرة!

وعاد «شارل» إلي «ليريه» بعد أن استنفد كل أفكاره، وأقسم التاجر أن
يسوّي الأمور إذا وقع السيّد له كمبيالتين، إحداهما بسبعمئة فرنك تدفع بعد
ثلاثة أشهر. ولكي يغطي الموقف كتب إلي أمّه خطابًا مؤثرًا، ولكنها بدلاً
من أن ترد حضرت بنفسها. وعندما أرادت «إيما» أن تعرف ما إذا كان قد
استخلص منها شيئًا أجاب قائلاً:

- نعم! ولكنها طلبت أن تطلع علي الحساب .

وفي صباح اليوم التالي أسرع «إيما» عند بزوغ الشمس إلي السيّد
«ليريه» لكي ترجوه أن يُعد قائمة حساب أخري لا تتجاوز الألف فرنك،
وذلك لأنّه لكي تظهر كمبيالة الأربعة آلاف كان لابد أن تقول إنّها دفعت
الثلثين، وأن تعترف تبعًا لذلك ببيع العقار الذي أحسن التاجر المساومة
عليه، والذي لم تعلم بيعه فعلاً إلا بعد ذلك .

وبالرغم من رخص ثمن كل سلعة، فإنّ مدام «بوفاري» الأمّ لم يفتها أن
تلاحظ المبالغة في المصروف .

وأضافت قائلة:

- ألم يكن من الممكن الاستغناء عن سجادة؟ وما الداعي إلي تجديد
قماش المقاعد؟ في أيامنا لم يكن في المنزل غير مقعد واحد للمسنيين، أو
علي الأقلّ كان هذا هو الحال عند أمي التي كانت سيّدة راقية. أوكدّ لكم
أنّ كل إنسان لا يستطيع أن يكون غنيًا! إنّ أيّة ثروة لا تستطيع أن تثبت مع

الإسراف! إنَّه ليخجلني أن أدلل نفسي كما تفعلون! ومع ذلك فأنا عجوز
وفي حاجةٍ إلي العناية. ما هذه الأبهة والفخفة: حرير للبطانة بفرنكين بينما
يوجد قماش بنصف فرنك بل وربع فرنك يؤدي الغرض نفسه!

وأجابت «إيما» في هدوء مطلق وهي منطرحة علي المقعد:

- آيه يا سيّدتى.. كفى.. كفى..

واستمرت الأخرى تعظها وتنبأ بأنَّهما سيتهيان إلي المستشفى! كما أنَّ
الخطأ يعود إلي «بوفاري»، وإنَّه لمن حسن الحظ أنَّه وعد بأن يلغي التوكيل.

- كيف؟

- آه، لقد أقسم لي بذلك .

وفتحت «إيما» النافذة ونادت «شارل». واضطر المسكين إلي أن يعترف
بالوعد الذي انتزعت منه أمَّه .

واختفت «إيما» ثُمَّ عادت مسرعة وهي تمدُّ إليه في عظمة ورقة كبيرة .

فقالَت السَّيِّدة العجوز:

- أشكرك!

ورمت التوكيل في النَّار!

وأخذت «إيما» تضحك ضحكًا صارخًا صاخبًا مستمرًا، إذ إنَّها قد
أصيبت بأزمةٍ عَصَبِيَّة. وصاح «شارل» قائلاً:

- آه.. يا إلهي.. إنَّكَ أَنْتِ الأخرى مخطئة.. لقد أتيت لتشني عليها حربًا!!



وهزت أمّه كنفها وادعت أنّ كلّ هذا ليس إلّا تمثيلاً .

ولكنّ «شارل» - الذي ثار لأوّل مرّة - أخذ جانب الدفاع عن امرأته، حتي إنّ مدام «بوفاري» الأمّ أرادت أن ترحل .

وفي اليوم التّالي رحلت بالفعل، وعندما أراد «شارل» أن يشيها عن الرّحيل وهي واقفة علي العتبة أجابت قائلةً:

- لا.. لا.. إنّك تُحبّها أكثر مني! سوف تري.. أتمني لك العافية.. وذلك لأنني لست مستعدة لأن أشن عليها معارك كما تقول!

ومع ذلك لم يكن «شارل» أقلّ ارتباكاً إزاء «إيما». وكان لابدّ من ضراعات مُتكرّرة قبل أن توافق علي استرداد توكيلها، بل واصططحبها عند السيّد «جيومان» لكي يُحرّر لها توكيلاً ثانياً مشابهاً للأوّل تماماً .

وقال الموثق:

- إنّني افهم ذلك، فرجل العلم لا يستطيع أن يشغل نفسه بتفاصيل الحياة العملية .

وأحس «شارل» بالراحة عندما سمع هذه العبارات الماكرة التي تضيفي علي الضعف مظاهر خداعة من الاهتمام بأمور أكثر سموّاً!





لهفة الزوج المخدوع!!

The husband's flustered frown!!

يا لها من انفعالات تلك التي شهدتا غرفة الفندق في الخميس التالي مع «ليون»! لقد ضحكت «إيما» وبكت وغنت ورقصت وطلبت مثلجات من عصير الفاكهة الممزوج بالخمر، وأرادت أن تدخن السجائر، ويدت له مسرفة ولكن ساحرة رائعة. ولم يدر أي تفاعل في شخصها كان ذلك الذي يدفعها - أكثر من ذي قبل - إلي التهالك علي لذات الحياة. وقد أصبحت عصبيّة، نهمة، شهوانية. وأخذت تنزهه معه في الشوارع رافعة الرأس، ودون خوف - فيما تقول - من الفضيحة. ومع ذلك فإنّها كانت ترتعد أحيانًا عندما تمرّ برأسها فجأة فكرة الالتقاء بـ «رودولف»، وذلك لأنّه كان يلوح لها أنّها لم تتحرّر تحرّرًا مطلقًا من التعلّق به، بالرغم من أنّهما قد افترقا إلي الأبد.

وفي مساء يوم لم تعد إلي «أيونفيل»، فطار صواب «شارل»، ولم ترد الصّغيرة «بيرت» أن تنام دون أمّها، فأخذت تبكي بكاءً كاد يصدع صدرها. وانطلق «جوستان» علي الطريق دون هدف، وترك السيّد «هوميه» صيدليته بسبب هذا الغياب.

وأخيرًا، في السّاعة العاشرة، نفذ صبر «شارل»، فأعد عريته وقفز فيها وساط الدابة، ووصل حوالي السّاعة الثانية صباحًا إلي فندق «الصليب



الأحمر»، ولكنّه لم يجدها. وظنَّ أنَّ الكاتب قد رآها، ولكنَّ أين يقيم هذا الكاتب؟ ومن حسن الحظ تذكّر «شارل» عنوان رئيسه، فأسرع إلي هناك.

كان الفجر أخذ يظهر، ورأي لافتة علي باب فندق، وصاح شخص من الداخل دون أن يفتح، مُقدِّماً المعلومات التي طلبها، وهو يسب أولئك الذين يقلقون النَّاس في اللَّيل.

وكان المنزل الذي يقطنه الكاتب دون جرس ولا مدقة ولا أبواب، فأخذ «شارل» يضرب بقبضة يده ضربات قويّة علي خشب النوافذ. ومرّ شرطي فتملكه الخوف، وانصرف وهو يُحدِّث نفسه قائلاً: «إنني مجنون.. إنَّهم بلا ريب قد استبقوها عند السيّد» لورمو «لتناول العشاء».

ولم تكن أسرة «لورمو» تُقيم بعد في «روان». فحدّث نفسه ثانية، وهو يقول: «إنَّها قد تخلّفت للعناية بمدام «دي بروي». آه! إنَّ مدام «دي بروي» قد ماتت منذ ستة أشهر.. أين هي إذًا؟».

وخطرت له فكرة، فطلب من مقهى دليل الهاتف، وبحث في سرعة عن رقم هاتف الأنسة «ليمورو» التي تُقيم في شارع «وينيل دي ماروكيني» رقم 74.

وبينما هو يدخل هذا الشارع إذ بزوجه تظهر هي نفسها عند الطرف الآخر، فرمي نفسه عليها في تهالك أكثر من عناق، وهو يصيح:

- ما الذي استبقاكِ أمس؟

- لقد كنت مريضة.

- بأي مرض؟.. أين؟.. كيف؟..



ومرّت بيدها فوق جبهتها ثمّ أجابت :

.. عند الأنسة «لميرور» .

.. لقد كنت متأكدًا من هذا، وكنت ذاهبًا إلي هناك.

فقالت «إيما» :

.. أوه! لا داعي لذلك، فقد خرجت منذ هنيهة.. ولكن في المستقبل اطمئن! فأنا.. كما تقدر.. لن أكون حُرّة إذا كنت أعلم أن أقل تأخير يزعجك علي هذا النحو.

وكان هذا بمثابة تعهد أعطته لنفسها بالألا تبعد في شطحاتها. وعندما كانت تحس برغبة في رؤية «ليون» بعد ذلك كانت تذهب لتستحضره من مكتبه. وقد وجد سعادة كبيرة في الأيام الأولى، ولكن بعد قليل لم يعد يخفي الحقيقة، وهي أنّ رئيسه قد أخذ يشكو من هذا الاضطراب في العمل. وكانت تقول:

.. آه.. آوه.. تعال إذا..

وكان يطيع.

وكان من الواجب عليه أن يقصّ عليها كلّ مرّة سلوكه كلّ منذ اللقاء الأخير. وكانت تطلب أشعارًا.. أشعارًا من أجلها.. قصيدة غرام تمجدها! ولكنّه لم يصل قط إلي أن يقع علي قافية البيت الثاني، وانتهى بأن نسخ مقطوعة من مجموعة أشعار!!





الفصل التاسع



ضيف ثقيل.. وعشيقة يائسة!

**A heavy guest .. and a
desperate mistress!**

اعتاد «ليون»، في الرحلات التي كان يقوم بها لرؤيتها، أن يتناول طعامه عند الصيدلي، ولذلك رأى نفسه مضطراً بحكم اللياقة إلي أن يدعوه هو الآخر إلي الطعام.

فأجاب السيّد «هوميه» :

- بكُلّ ارتياح! وذلك فضلاً عن حاجتي إلي التجديد قليلاً لأنني قد أخذت أصداً هنا. وسوف نذهب إلي المسرح، والمطعم، ونأتي ما نشاء من مرح.

وتمتعت مدام «هوميه» في حنانٍ، وقد أزعجتها الأخطار الغامضة التي قد يتعرّض لها:

- آه يا عزيزي!

فقال الصيدلي:

- ثمّ ماذا؟ هل ترين أنني لا أدُمّر صحتي التدمير الكافي بالحياة وسط هذه الروائح المنبعثة باستمرار من الصيدلية؟ ولكن هذا هو طبع النساء! إنهن غيورات من العلم، ومع ذلك يأتين أن يتمتّع الإنسان بأيّة تسرية مشروعة،



ولكن ثقني، علي أي حال، بأنني سوف أسقط يومًا علي «روان» وأنا سنطرح
سويًا بالنقود!

كان الصيدلي فيما مضى يحذر مثل هذه العبارة، ولكنه أخذ الآن يظهر
بالمظهر الباريسي المستخف الذي رآه ملائمًا للذوق الرفيع، وأخذ يسأل
- كجارتة مدام «بوفاري» - الكاتب في نهيم عن عادات وأخلاق سكان
العاصمة، بل وأخذ يتحدث بلهجتها الخاصة لكي يدهش مَنْ حوله من
البرجوازيين فيقول: «يسخن الطاسة»، و«يسلطن»، و«يتجلي».. إلي بقية
التعابير.

وهكذا فوجئت «إيما» في يوم الخميس بأن تلقي في مطبخ «الأسد
الذهبي» السيّد «هوميه» في حلة السفر، أي مغطي بمعطف قديم لم يكن
معروفًا أنّه يمتلكه. ولم يخبر أحدًا بمشروعه خوفًا من أن يقلق الزبائن لغيابه!
كانت تثيره فكرة رؤية الأماكن التي قضي فيها شبابه من جديد، ولذلك لم
يتوقف عن الكلام طوال الطريق. وبمجرد أن وصل قفز من العربة في سرعة،
واخذ يبحث عن «ليون»، الذي حاول عبثًا أن يتخلص منه، فإن «هوميه» قد
جره إلي مقهى «نورماندي الكبير» الذي دخله في عظمة دون أن يخلع قبعته،
مقدارًا أنّ خلعه في مكان عام دليل قوي علي الرقبة!

وانتظرت «إيما» عشيقها «ليون» ثلاثة أرباع الساعة، وأخيرًا أسرع إلي
مكتبه، وقد تاهت في الافتراضات، فاتهمته بعدم المبالاة، كما اتهمت نفسها
بالضعف، وأمضت بعد الظهر ملصقة الجبين بزجاج النافذة.

كانا في الساعة الثانية لا يزالان متربعين علي المائدة، أحدهما أمام
الآخر، وقد أخذت الصالة الكبرى تخلو من الناس. كان «هوميه» متشيا،
ولو أنّه كان ثملًا بالبذخ أكثر منه بجودة الطعام، وإن يكن نبيل «بومار» قد
أثار قليلًا من ملكاته. وعندما ظهرت العجة بالروم أخذ يعرض عن النساء

نظريات لا أخلاقية. كان أهم ما يجذبه هو الأناقة، فهو يعيش زينة أنيقة في جناح حسن الأثاث.

وكان «ليون» يرقب الساعة الدقاقة في يأس، بينما الصيدلي يشرب ويأكل ويتكلم!

وقال فجأة:

- لا بد أنك محروم في «روان»، وإن يكن أحبابك لا يقيمون بعيداً من هنا!

وعندما أخذت الحُمرة تعلو وجه الآخر، أضاف قائلاً:

- هيا! فلنكن صرحاء! هل تنكر أنك في «أيونفيل»...؟

فتمتم الشاب، وأضاف الصيدلي:

- عند مدام «بوفاري» ألا.. تداعب..؟

- مَنْ؟

- الخادمة!

لم يكن الرَّجل يمزح، ولكنَّ الغرور تغلَّب عند «ليون» - رغم أنفه - علي الحذر، فاستنكر ما سمع! ثُمَّ إِنَّه لم يكن يحب غير السمراوات.

وقال الصيدلي:

- إنني أؤيدك، فإنَّهن أكثر حرارة!

ومال علي أذن صديقه وأخذ يوضح الأمارات التي تُعرف بها المرأة حارة المزاج! ثُمَّ انطلق في استطرادٍ عن علم الأجناس، فالألمانيَّة خيالية، والفرنسيَّة إباحية، والإيطاليَّة انفعالية!

وسأل الكاتب:



- والزنجيات؟

فقال «هوميه» :

- هذا ذوق الفنان!

ثم نادى النادل وطلب كأسين.

فقال «ليون»، وقد نفذ صبره في النهاية:

- هل ننصرف؟

فأجاب الصيدلي بالإنجليزية:

- نعم!

ولكنه أراد قبل أن ينصرف أن يري صاحب المطعم، وأن يُقدّم إليه بعض التهاني!

وعندئذ ادعى الشاب أن لديه بعض المهام، وذلك لكي يخلو بنفسه.

فقال «هوميه» :

- آه! سأصطحبك!

وبينما هو ينحدر معه في الشوارع أخذ يتكلم عن زوجته، وأولاده، ومستقبلهم، وصيدليته، ويقصّ ما كانت عليه من تدهور فيما مضى، ودرجة الكمال التي وصل إليها!

وعندما وصلا إلي فندق «بولون» تركه «ليون» فجأة، وتسلق السلم، ووجد عشيقته في انفعال شديد.

وعندما سمعت اسم الصيدلي أخذها الغضب، ولكنه أخذ يُعدّد الأعذار، فالخطأ لم يكن خطأه، وهل هي تجهل السيّد «هوميه»؟! وهل يمكن أن

تعتقد أنه يفضل صحبته؟ ولكنّها دارت علي عقيبها، فأمسك بها وجثا علي ركبتيه، ولف ذراعيه حول خصرها في وضع مليء بالشهوة والضراعة.

كانت واقفة، وعيناها الكبيرتان الملتهبتان تنظران إليه في جد، بل وفي هيئة تكاد تكون مخيفة، ثم غامت عيناها بالدموع، وأسدلت جفونها الوردية، وارتجت يداها فحملها «ليون»، وعندما ظهر خادم يخبر السيّد أن هناك أحدًا يطلبه.

فقالت:

- ستعود؟

- نعم!

- ولكن؟

- فورًا!

وقال الصيدلي عندما لمح «ليون»:

- إنّها حيلة أردت بها أن أقطع هذه الزيارة التي لاح لي أنّها تضايقك! هيا! فلنذهب إلي بار «بريدو» لتتناول شربًا!

فاقسم «ليون» بأنّه مضطر إلي أن يعود إلي المكتب! وعندئذ أخذ الصيدلي يرسل النكات عن الملفات والمستندات القانونية والإجراءات القضائية!

وقال:

- فلتترك قليلًا فقهاءك! ومن الذي يمنعك؟ كن شجاعًا! هيا بنا.

وعندما ظل الكاتب مُصرًا علي الامتناع عن الذهاب، قال «هوميه»:

- سأذهب إلي هناك أنا أيضًا، وسوف أقرأ إحدى الصحف في انتظارك،
أو أقلب صفحات مجموعة قوانين!

وظلَّ «ليون» حائرًا ورأسه يدور من غضب «إيما» وثرثرة السيّد «هوميه»،
بل وربما من ثقل الطعام! وكان الصيدلي قد أخذ يُغريه وهو يُردّد:
- هيا إلي محل «بريدو»! إنَّه علي مسافة خطوتين!

وعندئذ استسلم منساقًا إلي محل «بريدو» عن جبن أو غفلة، أو عن
ذلك الشعور الغامض الذي يسوقنا نحو الأشياء التي نبغضها أشد البغض.
ووجدنا «بريدو» في الفناء الصَّغير، حيث كان يلاحظ ثلاثة غلمان يلهثون
وهم يديرون عجلة كبيرة لآلة ضخمة تصنع المياه الغازية، فأعطاهم «هوميه»
بعض النصائح، وأراد «ليون» عشرين مرَّة أن ينصرف، ولكنَّ الآخر كان
يمسكه من ذراعه قائلاً:

- بعد هنيهة! سأخرج وسنذهب إلي جريدة «فنال دي روان» لنري أولئك
السَّادة، وسوف أقدمك إلي «توماسان»!

ومع ذلك تخلص منه وجري وثبًا حتي الفندق، ولكنَّ «إيما» كانت قد
غادرته!

كانت قد رحلت غاضبة وقد أصبحت الآن تبغضه، ولاح لها إخلاله
بالموعد إهانة، كما بحثت عن أسباب أخرى لتنفصل عنه، فهو غير قادر علي
البطولة، ضعيف مبتذل، أكثر رخاوة من امرأة، فضلًا عن أنَّه بخيل منعدم
النخوة!

ثمَّ أخذت تكتشف، عندما هدأت، أنَّها قد اغتابته بلا ريب، ولكنَّ انتقامنا
لمنَّ نُحبَّ لا بدَّ أن يقصينا عنهم قليلًا، فالأصنام المعبودة لا يجب أن تمس،
وإلاَّ فقدت طلاءها الذهبي الذي يلتصق عندئذ بأيدينا.



• «ليون» وبصحبته «إيما» •

ثُمَّ أصبحا يتحدثان بعد ذلك اليوم عن أشياء بعيدة عن حُبَّهما، وفي الخطابات التي كانت ترسلها إليه «إيما» كان يجري الحديث عن الزهور والأشعار والقمر والنجوم، وكُلَّها رسائل بدائية لغرام أصابه الضَّعف، وأخذ يحاول أن ينتعش بالمساعدات الخارجية! وكانت تعد نفسها بسعادة عميقة في كُلِّ رحلة مقبلة، ثُمَّ كانت تعترف بأنَّها لم تحس بشيء خارق للعادة. ولكنَّ هذه الخيبة كانت تمحي

تحت تأثير أمل جديد، فتعود «إيما» إليه أكثر اشتعلاً ونهماً، فكانت تتعري في عنفٍ، وتتنزع شريط الصديري الرفيع الذي يدور حول رديفها كما يتسلل الثعبان. وكانت تذهب علي أطراف أصابعها العارية لكي تتأكَّد مرَّةً أخرى من أن الباب مغلق، ثُمَّ تسقط ملابسها كُلَّها بحركة واحدة، وتتهالك علي صدره في رعدة طويلة، شاحبة صامتة جادة!

ومع ذلك فقد كان فوق جبينها المُغطي بقطرات العرق الباردة، وفوق شفثيها الممتلئين، وفي حدقتيها الضالتين، وفي ضمة ذراعيها، إسراف غامض مقبض، يلوح لـ«ليون» أنَّه ينساب بينهما في تسلُّلٍ وكأنَّه يود أن يفصل بينهما!

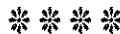
لم يجرؤ أن يلقي عليها أسئلة. ولكنَّه لمَّا كان يدرك أنَّها ذات خبرة، فقد قال لنفسه إنَّها لابدَّ قد مرَّت بمختلف تجارب الألم واللذة. وما كان يسحره فيما مضى أصبح الآن يُخيفه قليلاً. وفوق ذلك فإنَّه أخذ يشور علي امتصاصه لشخصيته امتصاصاً يتزايد يوماً بعد يوم، حتي لقد أخذ يحقد عليها هذا



الانتصار الأبدي! بل وحاول ألا يهتم بها، ولكنّه بمجرّد سماعه وقع أقدامها
كان يحس نفسه جباناً، كمدمني الخمر عندما يرون شراً قوياً!

ومع ذلك فإنّها في الحق لم تتخل عن أن تحيطه بأنواع من الرعاية، فمن
طيبات المائدة، إلي أناقة الملبس، إلي هيام النظرة. وكانت تستحضر من
«أيونفيل» الورد في صدرها لكي تلقيه في وجهه، كما كانت تُظهر القلق علي
صحّته وتقدم له النصائح عن سلوكه. ولكي تستبقه مدة أطول - وقد رجّت
أن تساعد العناية الإلهية علي ذلك - طوقت عنقه بنوطٍ للعذراء. وكانت
تسأله - كأم فاضلة - عن رفاهه، وتقول له: «لا تراهم.. لا تخرج.. لا تفكر إلّا
فينا.. أحبيني!». .

وعلي أيّة حال، فإنّها لم تكن سعيدة قط! ومن أين يأتي إذا هذا النقص في
الحياة، وهذا التعفن السريع الذي يصيب كلّ ما تتكئ عليه؟.. ولكنّ إذا كان
في مكانٍ ما شخص قوي جميل ذو طبيعة ممتازة، مليء بالحماسة والرهافة
معاً، قلب شاعر في مظهر ملاك، عود ذو أوتار من نحاسٍ ترتفع للسماء
نغماته وهو يعزف أناشيد الزفاف العاطفيّة، فلماذا لا تلقاه مصادفة؟ أوه! يا له
من مستحيل!! وفوق ذلك، فلا شيء يستحق عناء البحث، وكلّ شيء خادع.





الفصل العاشر



فواتير مرهونة للسداد!!

Billed bills for payment!!

كانت «إيما» تعيش مشغولة بنزواتها انشغالا تاما، دون أن تعني نفسها بمسألة المال. ومع ذلك حدث مرة أن دخل عليها رجل هزيل المظهر، ضارب إلي الحُمرة، أصلع، معلنا أنه مُرسل من السَيِّد «فانسار» المُقيم في «روان»، ثُمَّ مَدَّ يده في تأدب ورقة!

كانت كمبيالة بسبعمئة فرنك مُقيدة عليها، وكان «ليريه» قد حوَّلها لأمر «فانسار» بالرغم من معارضتها القويّة .

وأرسلت خادمتها إلي منزله، ولكنّه لم يستطع أن يحضر.

وعندئذ أخذ الرَّجل المجهول الذي ظلّ واقفاً يتطلّع يمنة ويسرة بنظراتٍ مستطلعة، يخفيها حاجباه الشقراوان السميكان، أخذ يسأل في مظهرٍ ساذج:

- أي جواب أحمل للسَيِّد «فانسار» ؟

وأجابت «إيما» :

- حسنٌ، قل له.. إنّه ليس لديّ.. وسيكون عندي في الأسبوع المقبل..

فليتظر.. نعم الأسبوع المقبل!

وانصرف الرَّجل دون أن ينبس بكلمة.



ولكنّها تسلمت في اليوم التّالي عند الظّهر إنذارًا. وقد أفرعها فزعًا شديدًا
منظر ورقة الدّفعة، وقد انتشر فوقها في عدّة مواضع، وبأحرفٍ كبيرة «الأستاذ
هران - محضر بوشيه» حتّى إنّها انطلقت مسرعةً إليّ منزل بائع القماش!
وجدته في دكانه مشغولًا يحزم لفّة.

فقال:

- خادمك! أنا تحت أمرك!

ومع ذلك استمر في عمله، تعاونه بنت صغيرة في الثالثة عشرة من عُمرها
تقريبًا، محدودبة الظّهر قليلًا، وهو يستخدمها كساعٍ وطاهيةٍ في الوقت نفسه.
نُفّ دقّ بحذائه فوق خشب أرضية الدكان، وصعد أمام السيّدة إليّ
الدور الأوّل. وأدخلها في غرفة مكتب ضيقة، حيث كان مكتب سميّك من
خشب الأنقاض، فوق بعض السجّلات، التي يضمّها ضمًا أفقيًا عمود من
الحديد مثبت بقفل. وإليّ جوار الحائط تحت قصاصات من القماش كانت
تظهر خزّانة، ولكنّها في حجم يدليّ عليّ أنّها كانت تحتوي شيئًا آخر غير
الكمبيالات والنقود. والواقع أنّ السيّد «ليريه» كان يقرض عليّ رهونات!

وفي هذه الخزّانة كان قد وضع سلسلة مدام «بوفاري» الذهبيّة، مع أقراط
الأب «تيليه» المسكين الذي اضطر إليّ أن يبيعها، واشتري بقالة هزيلة مات
فيها من الربو، وسط شمعداناته التي كانت أقلّ اصفرارًا من وجهه!

وجلس «ليريه» في كرسيه الضخم المصنوع من القش، وهو يقول:

- ماذا جدّ؟

فأطلعته عليّ الورقة، وهي تقول:

- خذ!

- ولكنّ ماذا أستطيع؟!

فثارت غاضبة وهي تُذكره بوعده بالأل يدفع كمبيالاتها إلى التداول، فأمن علي هذا القول. فقال لها:

- ولكنني كنت مضطراً أنا نفسي إذ كان السيف مسلطاً علي عنقي!
فقالت:

- وما الذي يحدث الآن؟
قال:

سأه! الحكاية بسيطة: حكم من المحكمة ثم حجز.. أمر تافه!
وكظمت «إيما» غيظها حتي لا تضربه! وسألته في رفقٍ عمّا إذا كانت هناك وسيلة لتهدئة السيّد «فانسار».
فقال:

- حسن!.. نعم!.. تهدئة «فانسار»! إنك لا تعرفينه! إنه أكثر وحشية من وحش ضار!

ومع ذلك كان لابد من أن يتدخل السيّد «ليريه» في الأمر.
فقال:

- أنصتي إليّ، إذا! يلوح لي أنني حتي الآن كنت طيباً معكِ إلي حد بعيد!
ثم فتح أحد سجلاته وقال:
- أنظري..

وأخذ يصعد في الصفحة بأصبعه، وهو يقول:

- أنظري.. أنظري.. في 3.. مئتا فرنك.. و17.. مئة وخمسون.. 23.. ستة وأربعون.. وفي أبريل (نيسان)..
وتوقف كأنما يخشي أن يرتكب حماقة!



ثُمَّ أضاف:

- وأنا لا أقول شيئاً عن الكمبيالات المُقيدة علي حساب السَّيِّد «بوفاري»:
واحدةٌ بسبعمئة فرنك، وأخري بثلاثمئة. وأمّا عن قروضكِ الصَّغيرة، وعن
الفوائد، فهذا أمر لا ينتهي، وإن الإنسان ليتوه فيه! ولن أتدخل فيه بعد الآن!
وأخذت تبكي، بل ورجته بقولها:

- يا سيّدي الطيب «ليريه»!

ولكنّه كان يلقي التبعة دائماً علي هذا الكلب «فانسار»! وفوق ذلك فإنّه
ليس لديه مليماً واحداً! ولا أحد يدفع له الآن! بل إنهم ليأكلون الصوف من
فوق ظهره! وصاحب دكان فقير مثله لا يستطيع أن يقرض!

وصممت «إيما»، فأخذ القلق يساور «ليريه» الذي أخذ يعض ريشة
الكتابة. ثُمَّ استأنف قائلاً:

- لو أنّه أصبح لي يوماً شيء من الدخل.. لاستطعت إذاً..

وقالت:

- علي أيّة حال فمتأخر «بارنفيل» عندما..

- كيف؟

وعندما علم أنّ «لانسوا» لم يكن قد دفع بعد، لاحت عليه الدهشة، ثُمَّ
قال بصوتٍ معسول:

- ونفق كما تقولين..؟

- أوه ... نفق كما تشاء!

وعندئذ أغلق عينيه لكي يُفكّر، وكتب عدة أرقام، وأعلن أنّ في الأمر
مشقة كبيرة وأنّه أمر شائك، وأنّه ينزف ماله، وأملي أربع كمبيالات كلّ منها

بمئتين وخمسين فرنكًا بتواريخ استحقاق متدرجة بين كل تاريخ وآخر فترة شهر.

وأضاف قائلاً:

- كل هذا علي أن يستمع لي «فانسار». وفضلاً عن ذلك فأنا لا أمارل.
وقد اتفقنا! وأنا رجل مستقيم كحد السيف!

ثم أطلعها في غير اكتراث علي عدة سلع جديدة وإن لم تكن أي منها -
في نظره - جديدة بالسيدة!

وأضاف قائلاً:

- عندما أري ثوبًا كهذا بثلاث فرنك المتر ومضمون الصبغة!.. ومع ذلك
يصدقون هذا! والواقع أنهم لا يذكرون لهم الحقيقة..

وقد أراد بهذا التصريح الماكر، عن الآخرين، أن يقنعها إقناعًا تامًا بنزاهته!
ثم دعاها لكي يُطلعها علي ثلاثة أذرع من الحرير كان قد عثر عليها أخيرًا
في إحدى التصفيات.

وقال «ليريه»:

- أليس جميلًا؟.. إنه يُستخدم الآن كثيرًا لتغطية ظهور المقاعد.. وهذه
هي «الموضة».

وفي خفة أسرع من خفة الحاوي، لف الحرير في ورق أزرق ووضع بين
يدي «إيما»!

فقالت:

- دعني علي الأقل أعلم..

فقال، وقد أدار لها ظهره:

- آه!.. فيما بعد!





امرأة علي وشك الضياع!

A woman is about to be lost

منذ المساء أخذت «إيما» تستحث زوجها ليكتب إلي أمّه كي ترسل إليهما بسرعة متأخر التركة.

وردت حماتها بأنه لم يعد لديها شيء، فالتصفيه قد انتهت، وقد بقي لهم -فضلاً عن «بارنفيل» ستمئة فرنك كدخل سنوي سوف ترسلها إليهما كاملة بانتظام.

ولكي تحصل علي نقود أخذت تبيع قفازاتها وقبعاتها القديمة، وكثيراً من الأشياء المهملة، وكانت تساوم في شدة، وكان دمها الريفي يدفعها إلي الكسب. وفي أثناء رحلاتها إلي المدينة كانت تتسوق بعض التوافه التي لا شك أنّ «ليريه» سيأخذها منها إذا لم تجد غيره. فكانت تشتري ريش نعام، وخزفاً صينيّاً، وكانت تقترض من «فيليسيّته»، ومن مدام «لو فرانسوا»، ومن صاحبة فندق «الصليب الأحمر»، ومن جميع الناس في أي مكان. وأخيراً دفعت بالنقود التي استلمتها من «بارنفيل» قيمة كمبالاتين، وبددت الألف وخمسمئة فرنك الأخرى، ووقعت كمبالات من جديد، واستمرت علي هذا المنوال.



ومع ذلك فإنها حاولت أحياناً أن تدون حسابات، ولكنها اكتشفت أشياء مرهقة إلي درجة لم تستطع تصديقها. وعندئذ ابتدأت ترتبك بسرعة فتخلت عن كل شيء، ولم تعد تُفكر في شيء!

وأصبح البيت في هذه الفترة بالغ الكآبة. وكان الباعة يشاهدون وهم خارجون منه بأوجه مكفهرة، وكانت المناديل مطروحة فوق المدفأة، «بيرت» الصَّغيرة تلبس جوارب مثقوبة ما يشير إشمئزاز مدام «هوميه». وتجرأ «شارل» في جبن علي تقديم ملاحظة إليها، فردت في عنفٍ بأنها ليست هي المخطئة!

ولكن لماذا كل هذه الثورات العصبية؟ لقد أخذ يُفسر كل شيء بمرضها العصبي القديم، كما أخذ يلوم نفسه أنه يحاسبها علي أمراضها كنقائص. وأخذ يتهم نفسه بالأنانية، ويشعر بالرغبة في أن يجري ليقبلها.

وجاء الخريف وأخذت الأوراق تسقط علي نحو ما حدث منذ عامين عندما كانت مريضة! قمتي ينتهي إذاً كل هذا؟

كانت السيِّدة في غرفتها، ولم يكن أحد يصعد إليها، كانت تستلقي هناك طول النَّهار، متصلبة شبه عارية، ومن وقتٍ إلي آخر كانت تحرق بعض البخور الذي اشتريته من «روان»، ولكي لا تشعر في اللَّيل لحم الرَّجل الذي ينام متمدداً إلي جوارها لصق جسمها، أخذت تتجهَّم حتي انتهت بأن نفته إلي الطابق الثاني. وكانت تقرا حتي الصباح كتباً مثيرة مليئة باللوحات الداعرة والحوادث الدامية. وكثيراً ما كان يأخذها الرُّعب فتطلق صيحة، ويهرول «شارل»، فتقول:

- آه.. اذهب عني!

وأحياناً أخرى كانت تحترق في شدة، بذلك اللهب الداخلي الذي يضرمه الفجور، وتنفعل وتلهث، وتستيقظ رغبتها، فتفتح النافذة وتستششق الهواء البارد، وتشر في الرياح شعرها الكثيف، وتنظر إلي النجوم، وتتمني غراميات أمير!!

وكانت تُفكر فيه.. في «ليون».. وكانت مستعدة لأن تعطي كل شيء مقابل موعد من تلك المواعيد التي كانت تشبع نهما!

كانت تلك المواعيد هي أيام بهجتها. وكانت تود أن تكون أياماً بهيجة. وعندما كان «ليون» لا يستطيع أن يتحمل وحده النفقات، كانت تكمل العجز في سخاء، وكان هذا يحدث كل مرة تقريباً، وحاول أن يقنعها بأنهما سيجدان المتعة نفسها في مكان آخر - في فندق أكثر تواضعاً - ولكنه كان يلقي اعتراضات. وفي أحد الأيام أخرجت من حقيبتها ست ملاعق من العقيق كانت هدية الزواج التي قدّمها لها الأب «دوو»، ورجت «ليون» أن يذهب بها فوراً - من أجلها - إلي بنك الرهونات. فأطاع، بالرغم من أن هذا الإجراء لم يرقه، وكان يخشي أن يتورط!

ثمّ هداه التفكير إلي أن يلاحظ أن عشيقته تنصرف تصرفات غريبة، وأنهم ليسوا مخطئين عندما يحاولون فصله عنها.

والواقع أن مجهولاً كان قد أرسل إلي أمه خطاباً طويلاً خالياً من التوقيع يخبرها فيه بأنه قد ضاع مع امرأة متزوجة. فكتبت إلي الأستاذ «ديفوكاج» الذي يعمل عنده ابنها. وكان هذا الأستاذ أميناً في هذا الموضوع، إذ أنه أوقف «ليون» أمامه ثلاثة أرباع الساعة، محاولاً أن يفتح عينيه وأن يحذره من الهاوية وأن مثل هذه المغامرة لابد أن تضر فيما بعد بكل محاولة يقوم



بها للزواج والاستقرار، ورجاه أن يقطع العلاقة، وإذا لم يكن يريد أن يقوم بهذه التضحية في سبيل مصلحته الخاصة، فلا أقلّ من أن يقوم بها من أجله هو، أي من أجل الأستاذ «ديفوكاج» .

وأخيراً أقسم «ليون» ألا يعود إلي رؤية «إيما» . ولام نفسه بأنه لم يحترم هذا القسم، مقدراً كلّ ما يمكن أن تسببه له هذه المرأة من ارتباكٍ وأقاريل، فضلاً عن نكات زملائه التي كانوا يرسلونها في الصباح حول المدفأة . وفضلاً عن ذلك فإنه كان علي وشك أن يصبح كاتباً أوّل، وهذه هي اللحظة التي يجب أن يكون فيها مستقيماً .

لقد أصبح الآن يشعر بالضجر كلّما انتحبت «إيما» فجأةً فوق صدره، وأصبح قلبه - كأولئك الناس الذين لا يستطيعون أن يحتملوا غير قدر محدود من الموسيقى - أصبح يغفو من عدم المبالاة، بضجة حُبّ لم يعد يميز لطائفه . لقد طالت معرفة أحدهما بالآخر حتي أصبح لا يحس بنشوة التملك التي كانت تضاعف من اللذة، وأصبحت تشمئز منه بقدر ما أصبح متعباً منها .

وقد أخذت «إيما» تجد في الزني كلّ ما في الحياة الزوجية من رتابة مملّة . ولكن كيف الخلاص؟ .. ثُمَّ إنها بالرغم من إحساسها بوضاعة مثل هذه السعادة، فإنها كانت متعلقة بها بحكم العادة، أو بحكم الانحلال . وفي كلّ يوم كانت تتهم «ليون» بخيبة آمالها وكأنّه قد خانها، بل وتمنت لو وقعت كارثة تؤدي إلي افتراقهما ما دامت لا تجد الشجاعة لتقرير ذلك .

ومع ذلك استمرت تكتب له الخطابات الغرامية، نزولاً علي تلك الفكرة التي تقول بأنّ علي المرأة أن تكتب دائماً إلي عشيقها!

لقد أصبحت الآن تشعر بتكسر دائم في جسمها كُلِّه، بل وكثيرًا ما كانت تتسلم إنذارات وأوراقًا مدفوعة لا تكاد تنظر فيها. وكانت تود ألا تظل حية، أو أن تنام علي الدوام!

وفي أحد أيام الأعياد لم تعد إلي «أيونفيل»، وذهبت في المساء إلي حفلة رقص تنكرية، وارتدت بنطلونًا من القطيفة وجوارب حمراء، وشعرًا مستعارًا مربوطًا بشريط، ومصباحًا صغيرًا فوق الأذن. وأخذت تقفز طوال الليل علي صوت النغير المهتاج، فالتفت حولها النَّاس في حلقة. وفي الصباح وجدت نفسها في شرفة المسرح بين خمسة أو ستة أقنعة لعاملات وبحارة من رفاق «ليون».

وانسحبت فجأةً وتخلصت من ملابسها التنكرية، وقالت لـ «ليون» إنه لا بدَّ لها من العودة. وأخيرًا بقيت وحدها في فندق «بولون». وكان كُلُّ شيء بالنسبة إليها غير محتمل حتي شخصها. وودت لو هربت كعصفور إلي حيث تسترد شبابها في جهةٍ ما، في الفضاء الناصع غير الملوث!

وخرجت وعبرت ضاحية المدينة حتي وصلت إلي شارع مكشوف يطل علي الحدائق، وأخذت تسير بسرعةٍ فهدأها الهواء الطلق. وشيئًا فشيئًا أخذت أوجه الجمهور والأقنعة ورباعيات الرقص والثريات، أخذ كُلُّ هذا يختفي كضبابٍ تبدد.

ثمَّ عادت إلي فندق «الصليب الأحمر» وألقت بنفسها فوق السرير في الغرفة الصَّغيرة بالطابق الثاني. وفي السَّاعة الرابعة مساءً أيقظها «هيفير».

وعند عودتها إلي منزلها أطلععتها «فيليسيتيه» خلف السَّاعة الدقاقة علي ورقة رمادية قرأت فيها: «بناءً علي الصيغة التنفيذية لحكم...»





أي حكم؟.. والواقع أنَّهم كانوا قد حملوا إلي منزلها في اليوم السَّابق ورقة أخرى لم تدر بها، ولذلك أخذها الذهول من هذه الكلمات: «أمر باسم الملك والقانون والقضاء إلي مدام

«يوفاري»...». ثُمَّ قفزت عدة «ليما» في محاولة فاشلة لإغراء «ليريه» التاجر. أسطر لكي تقرأ: «في ظرف أربع وعشرين ساعة وهو آخر مهلة..». ما هذا؟ .. «يدفع مبلغ ثمانية آلاف فرنك..»، بل قرأت بعد ذلك بقليل «وسوف ترغب بجميع الطرق القانونيّة، وخصوصًا بالحجز التنفيذي علي أثاثها وممتلكاتها..».

ما العمل؟.. في ظرف أربع وعشرين ساعة، أي غدًا!.. وظنت أنَّ «ليريه» قد أراد بلا ريب أن يخيفها مرّة أخرى.

ودخلت عنده في هيئة منطلقة، وقالت:

- هل تعلم ما حدث لي؟.. إنَّه مزاح دون شك!

١٧-

- كيف ذلك؟!

فالتفت نحوها بلا اكتراث، وقال:

- هل تظنين يا سيّدتِي الصّغيرة أنَّني سأستمر حتي فناء الزمن في أن أكون متعهدك، ومصرفك، حُبًّا في الله؟! يجب أن أشرّد أموالي..كوني عادلة! ونازعه في مبلغ الدين فقال:

- آه! فليكن! لقد اعترفت به المحكمة! هناك حكم! لقد أعلمناك به!
وفضلاً عن ذلك فهو ليس لي.. إنَّه لـ «فانسار»!

- ألا تستطيع ..؟

- أوه.. لا أستطيع شيئاً علي الإطلاق!

- ولكنَّ.. مع ذلك.. فلنفكر.

وأخذت تبحث عن مخرج، قائلة أنَّها لم تكن قد علمت شيئاً، لقد كانت
مفاجأة!

وقال «ليري» منحنياً في تهكم:

- ومنَ المخطئ؟.. بينما أنا أكدح كالعبد إذ بكِ تقضين أوقاتاً طيبةً!

- آه! لا أريد وعظاً!

فأجاب:

- إنَّه لا يضر مطلقاً!

وكانت جبانة، فتضرعت إليه، بل وأسندت يدها الجميلة الطويلة البيضاء
فوق ركبتَي التاجر.

فقال:

- اتركنيني إذا! لكأنَّك تريدان أن تغريني!

فصاحت:

- إنَّك رجل تعس!



فصاح ضاحكًا:

- أوه!.. أوه! ما هذه؟!!

- سأفصح أمرك! سأقول لزوجي!

- وأنا سأطلع زوجك علي شيء ما!

وأخرج «ليريه» من خزانته إيصالاً بألف وثمانمئة فرنك كانت قد أعطته
إياها عند الخصم الخاص بـ«فانسار» .

وأضاف:

- هل تعتقدن أنه لا يفهم سرقتك الصغيرة، هذا الرجل المسكين!!

فانهارت، وقد ترنحت أكثر ممّا لو كانت قد تلقت ضربة مطرقة. وأخذ
يتمشي من النافذة إلي المكتب، وهو يُردّد:

- آه! سأظهر له جيدًا.. سأظهر له جيدًا..

ثم اقترب منها، وبصوتٍ عذب قال:

- إنه أمر لا يسر.. أنا أعلم هذا! ومع ذلك فإنه لم يُسبب الموت لأحد.
وما دامت هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تبقت لك كي تردي إليّ نقودي
ومالي..

وقالت «إيما»، وهي تلوي ذراعيها:

- ولكن أين أجد المال؟

- آه.. يا..! عندما يكون للإنسان أصدقاء مثلما لك.

ونظر إليها نظرة نافذة مخيفة ارتعدت منها حتي الأحشاء، وقالت:

- إنني أعدك.. سأوقع!

- لقد شبت من توقعاتك!

- سأبيع أيضاً..

فقال، وهو يهز كتفيه:

- تبيعين؟!.. لم يعد لديك شيء!

وصاح من الكوة التي تطل من الحانوت:

- «آيت!»! لا تنسي القصاصات الثلاث رقم 14!

وظهرت الخادمة، وفهمت «إيما»، وسألت عمّا يلزم من مالٍ لإيقاف جميع الإجراءات.

- لقد فات الأوان!

- ولكنَّ إذا حملت إليك عدة آلاف من الفرنكات.. ربع المبلغ.. الثلث..
كُلّه تقريباً؟

- آيه!.. لا.. لا فائدة!

ودفعها في رفقٍ نحو السُّلم!

- إنني أنضرع إليك يا سيّد «ليريه».. بضعة أيامٍ أخرى!..

وأخذت تتسحب.

- هيا!.. ماذا!.. دموع؟!!

- إنك تدفع بي إليّ اليأس!

وقال، وهو يغلق الباب:

- هذا لا يهمني في شيء!





تستحق الرثاء.. ولكنها ليست للبيع!!

Well worth it ... but it's not for sale

في اليوم التالي كانت «إيما» هادئة مثجدة عندما تقدّم منها المُحضر الأستاذ «هاران» وأخّرا لكي يُحرّروا محضراً بالحجز.

لقد ابتدءوا بمكتب «بوفاري»، ولم يقيدوا الرأس التشريحية التي اعتبرت من أدوات المهنة، ولكنهم قيدوا في المطبخ الأطباق والقذور والكراسي، وفي غرفة نومها كُلّ الأشياء الموجودة علي الرف، وفحصوا أثوابها وملابسها الداخليّة، وغرفة الزينة، وكُلّ متاع حياتها، حتي الأركان الخاصّة بأشدّ الأشياء اتصالاً بذاتها، وكأنّهم يقومون بعملية مساحة لأرض زراعية! فانتشرت حياتها انتشاراً كاملاً أمام أنظار هؤلاء الرّجال الثلاثة .

كان الأستاذ «هاران» في حلة سوداء مشدودة الأزوار ورباط رقبة بيضاء، وفي قدميه خفان تحت حذائه مشدودان في عنقب، وقد أخذ يُردّد من وقتٍ إلي آخر: «هل تسمعين يا سيّدي؟.. هل تسمعين؟». وكثيراً ما كان يطلق صيحات إعجاب: «ساحر! جميل جدّاً!». ثمّ يعود إلي الكتابة ويغمس سن القلم في المحبرة التي يحملها بيده اليسرى!

وبعد أن انتهوا من المسكن صعدوا إلي مخزن الحبوب



وهناك كانت تحتفظ بخطابات «رودولف» في درجٍ خاص. وكان لابد
من فتحه.

وقال الأستاذ «هاران» في ابتسامةٍ حيية:

.. آه! مراسلات!.. ولكنَّ.. اسمحي لي! لأنَّه من الواجب أن أتحقَّق من
أنَّ الصندوق لا يحتوي شيئاً آخر!

وحرك الأوراق قليلاً، وكأنما يتوقع أن تسقط الجنيهات الذهبية! وعندئذ
أخذها الاشمزاز من أن تري هذه اليد الغليظة ذات الأصابع الحمراء الرخوة
كالسحالي، تمس هذه الصفحات التي خفق لها قلبها!
ولاح لها «شارل» في العشية مهموماً، وأخذت ترقبه بعين مليئة بالقلق،
معتقدة أنَّها تري اتهامات في تجاعيد وجهه.

وعندما كانت عيناها تتحوَّلان إلي المدفأة المغطاة بالخزف، وإلي
الستائر العريضة والمقاعد، وبالجملة كُلِّ تلك الأشياء التي كانت قد خففت
من مرارة حياتها، كأنها تحس بالندم، أو علي الأصح بالأسف الشديد الذي
يشير العاطفة، بدلاً من أن يقتلها. وكان «شارل» يُقلِّب الجمرات في هدوء
وقدماه فوق المجرمة. وحان وقت تمللمل فيه الحارس بلا ريب في مخبئه،
فأحدث ضوضاء خفيفاً. وعندئذ قال «شارل»:

.. أسمع وقع أقدام في الأسفل!

فقلت:

.. لا! إنها كرة تركت مفتوحة فهزتها الريح.



وفي اليوم التالي - وكان يوم أحد - سافرت إلي «روان»، لكي تلتقي جميع أصحاب البنوك الذين كانت تعرف أسماءهم. وكانوا في رحلة بالريف، ولكنها لم تتراجع، وطلبت نقودًا ممن التقت بهم، مدعية أنها في حاجة إليها، وأنها ستردها، فضحك بعضهم في وجهها، ورفض الجميع! وفي الساعة الثانية أسرع عت إلي «ليون»، ودقت بابه فلم يفتح، وأخيرًا ظهر!

- ما الذي أتى بك؟!

- هل هذا يزعجك؟

- لا.. ولكن..!

وصارحها بأن صاحب المنزل لا يحب أن يستقبل النساء في داره.

فقلت:

- إن لدي شيئًا أريد أن أقوله لك.

وعندئذ أمسك المفتاح فمنعته قائلة:

- أوه! لا.. هناك.. عندنا!

وذهبا إلي غرفتهما في فندق «بولون». وشربت عند وصولها كوبًا كبيرًا من الماء، وكانت شديدة الشحوب، وقالت له:

- «ليون»! يجب أن تؤدي لي خدمة!

وأضافت وهي تهزده بيديها اللتين شدت قبضتيهما:



- اسمع!.. إنني في حاجةٍ إلي ثماني آلاف فرنك!

- أمجنونة أنت؟!

- لا.. لم أجن بعد!

ولم تلبث أن قصّصت عليه حكاية الحجز، وعرضت عليه مأزقها، وذلك لأنّ «شارل» كان يجهل كلّ شيء، وحماتها تبغضها، والأب «روو» لا يستطيع شيئاً، ولكنّه هو «ليون» سيجوب الأفاق لكي يعثر علي هذا المبلغ الضروري!!

- كيف تريد أن..؟

فصاحت:

- يالك من جبان!

وعند ذلك قال مهوَّناً عليها:

- إنَّك تبالغين في المأساة، فلربما هدأ هذا الرّجل بألف فرنك!

وكان هناك سبب آخر لمحاولة عمل شيء ما، فلم يكن من الممكن ألاّ يعثر الإنسان علي ثلاثة آلاف فرنك، وفضلاً عن ذلك فإن «ليون» يستطيع أن يضمن القرض بدلاً منها!

فقالت:

- هيا! حاول! هذا واجب! اجر!.. أوه! حاول! حاول! سأحبّك جداً!!

وخرج وعاد بعد ساعة، وقال بوجهٍ جاد:



- لقد ذهبت إلي ثلاثة أشخاص.. ولكن عبثاً!

تُهم قعبا جالسين أحدهما في وجه الآخر عند ركني المدفأة جامدين لا يتحدثان. و«إيما» ترفع كتفها وهي تزمجر، وسمعتها تتمتم قائلة:

- لو أنني كنت في مكانك.. أنا لوجدت النقود!

- أين؟!

- في مكتبك!

ونظرت إليه.

وكانت جراً جهنمية تنبعث من حدقتها الملتهبتين. وتدانت أجفانها علي نحو شهواني مشجع، حتي إنَّ الشَّابَّ أحس بالضعف تحت تأثير الإرادة الصامتة لهذه المرأة التي تطلب إليه اقتراف جريمة! وعندئذ تملكه الخوف، ولكي يتجنَّب كُلَّ إيضاح ضرب جبهته وهو يصيح قائلاً:

- إنَّ «موريل» سيعود هذه الليلة! وسوف لا يردني خائباً، فيما أمل (وكان هذا صديقاً له، وابناً لتاجر وافر الثراء) وسأحمل إليك هذا غداً!

ولم يظهر علي «إيما» أنَّها قد تلقت هذا الأمل بمثل ما تصوّر من فرح وتهليل، فهل كانت تشك في كلامه؟!

واستأنف وهو محمر الوجه:

- ومع ذلك، فإذا لم تريني في السَّاعة الثالثة فلا تنتظريني أكثر من ذلك يا عزيزتي!.. لا بدَّ لي من الذهاب!.. معذرة!.. الوداع!



وشدَّ علي يدها، ولكنَّه وجدها مرتخية، فهي لم تعد قادرة علي أي إحساس.

ودقت السَّاعة الرابعة، ونهضت لكي تعود إلي «أيونفيل» .
استمرت في السير وهي تبكي تحت وشاحها، ذاهلة مترنحة علي وشك الإغماء.

وشُمع صوت خارج من بوابةٍ تفتح: الحذر!
ووقفت لكي تفسح في الطريق لحصان أسود يضرب الأرض بحوافره وهو مشدود إلي عربة فخمة يقودها أحد النبلاء مرتدياً فراءً غالياً! فَمَنْ يكون هذا الرَّجل؟ إنَّها تعرفه.. وانطلقت العربة واختفت!

لقد كان هو الفيوكنْت! والتفتت إلي الخلف، فكان الشارع خالياً، وقد أحست بنفسها مثقلة حزينة إلي حدِّ أنَّها استندت إلي جدار لكي لا تسقط.

ثُمَّ ظنت أنَّها قد أخطأت، وعلي آية حال فإنَّها لم تكن تعلم عنه شيئاً. وقد أخذ كلُّ شيء في داخلها وخارجها يتخلى عنها. وأخذت تحس أنَّها ضائعة تتسكع علي غير هدي في مهاوي لا حد لها، وقد كادت تشعر بالفرح عندما لمحت - عند وصولها إلي فندق «الصليب الأحمر» - السيِّد «هوميه»، الذي كان يشرف علي شحن صندوق كبير من سلع الصيدلية فوق «العصفورة»، وكان يمسك في يده - داخل صرة - ستة أرغفة من نوعٍ خاص من الخبز لزوجته.

قال وهو يُقدِّم يده إلي الأمام لكي يعينها علي الصعود إلي «العصفورة» :
- إنَّني سعيد برؤيتك.

وأخذ منظر الأشياء المعروفة التي تتابع أمام عينيها يصرفها شيئاً فشيئاً عن ألمها الحاضر، وأثقلها تعب لا يُحتمل، حتي وصلت إلي بيتها ذاهلة محطمة الروح، شبه نائمة تقريباً.

وقالت لنفسها: «فليكن ما يكون! ثم من يدري؟ ولماذا لا يظهر من وقتٍ إلي آخر حدث خارق؟! فـ«ليريه» نفسه يمكن أن يموت»! .

واستيقظت في السّاعة التاسعة صباحاً علي رنين صوت في الميدان حيث كان النّاس متجمعين حول السوق لكي يقرءوا إعلاناً كبيراً ملصوقاً علي أحد الأعمدة، ورأت «جوستان» وهو يصعد فوق حجر ويمزق الإعلان، ولكنّ الخفير أمسك بتلابيبه في تلك اللّحظة.

وصاحت «فيليسيّته» وهي داخلة:

- يا سيّدي! إنها الكارثة!

ومدّت الفتاة المسكينة إليها، بانفعالٍ، ورقة صفراء كانت قد انتزعتها من فوق الباب. وقرأت «إيما» في لمحة البصر أنّ أثاثها كلّهُ معروض للبيع! وعندئذ أخذتا تنظران إحداهما إلي الأخرى في صمتٍ، وذلك لأنّهما - الخادمة والسّيّدة - لم يكن لإحداهما سر بالنسبة إلي الأخرى. وأخيراً تنهدت «فيليسيّته» قائلةً:

- لو أنّي كنت مكانك يا سيّدي لذهبت إلي السيّد «جيومان» .

- هل تظنين ذلك؟

وكان هذا السؤال يعني:



- أنتِ التي تعرفين المنزل من طريق الخادم، هل يمكن أن يكون السيّد «جيومان» قد تحدّث عني أحياناً؟» .

- نعم! اذهبي إلي هناك، فإنّك تحسنين صنعاً!

وارتدت ثيابها، فلبست ثوباً اسود، ذا طرطور مُحلّي بحباتٍ من الكهرمان الأسود. ولكي لا يراها أحد، إذ كان الميدان لا يزال مليئاً بالنّاس، سارت خارج القرية في الطريق المار علي حافة الماء.

ووصلت لاهثة أمام منزل موثق العقود، وكانت السماء داكنة، وقليل من الجليد يتساقط.

عند سماع الجرس ظهر «يودور» عند الشرفة في صديري أحمر، وقد أتى لكي يفتح في غير كلفة، وكأنّه يفتح لأحد المعارف، وأدخلها غرفة الطعام. وفكّرت «إيما» قائلة: «هذه غرفة طعام؟! كم أنا في حاجةٍ إلي واحدة مثلها!». .

ودخل موثق العقود وهو يضم إلي جسمه - بذراعه اليسرى - معطفه المنزلي ذي الأوشحة، بينما يخلع ويلبس في سرعةٍ باليد الأخرى طاقيته المصنوعة من القطيفة البنية، وقد وضعها في زهو فوق الناحية اليمنى، حيث كانت تنسدل أطراف ثلاثة خصل شقراء، أخذت من مؤخر رأسه ثمّ دارت حول جمجمته الصلعاء!

وبعد أن قدّم لها مقعداً، جلس ليتناول الغداء، وهو يعتذر كثيراً عن سوء أدبه.

قالت:



- يا سيّدي! إنني أود أن.. أرجوك..

- لماذا؟ ها أنا أنصت إليك!

وأخذت تعرض عليه حالتها.

كان الأستاذ «جيومان» يعرفها، بحكم الاتصال سرّاً بتاجر القماش الذي كان يجد لديه دائماً أموالاً للرهونات التي كان يطلب إليه أن يعقدها، ولذلك كان يعرف أكثر منها القصّة الطويلة الخاصّة بهذه الكمبيالات، التي كانت صغيرة في أوّل الأمر، ثمّ ظهّرتها أسماء مختلفة، وامتدت مواعيد استحقاقها إلى فترات طويلة، ومُجدّدت باستمرار، حتي كان يومٌ جمع فيه التاجر جميع إنذارات الدفع، وكلف صديقه «فانسار» بأن يتخذ باسمه الخاص الإجراءات اللازمة، وذلك لأنّه لم يرد أن يظهر بمظهر المتنمر بين أهل بلده!

وكانت تمزج بقصّتها ما تأخذه علي «ليريّه» من مآخذ، وكان موثق العقود يرد عليها من وقتٍ إلى آخر بعبارة تافهة. وبينما كان يأكل ويشرب النيذ، كان يحني ذقنه فوق رباط رقبته الأزرق زُرقة السماء، وكان يتسم ابتسامةً عجبيّةً فريدةً علي نحوٍ ناعم غامض. ولكنّ عندما لاحظ أن قدميها مبللتان قال:

- اقتربي من المدفأة.. إليّ أعلي! .. في مواجهة الخزف!

وكانت تخشى أن تصيب هذا الخزف بالقذارة، فاستأنف موثق العقود في شهامة قائلاً:

- إنّ الأشياء الجميلة لا تتلف شيئاً!

وعندئذ حاولت أن تحرّك قلبه، وقد جاشت أشجانها، وقصّت عليه ضيق عيشتها، ومصاعبها وحاجاتها. وكان يفهم هذا، فالمرأة الرشيقه..! وقرّر أن



يتوقف عن الأكل، التفت نحوها بكلية حتي مس حذاءها بركبته، وكان نعل الحذاء المبتل قد أخذ ينحني، والبخار يتصاعد منه وهو في مواجهة المدفأة. ولكنها عندما طلبت منه ألف فرنك، ضخم شفتيه، ثم أعلن أنه شديد الألم، لأنه لم يتول فيما مضى إدارة ثروته عندما كانت هناك عدة وسائل مربحة للاستثمار حتي بالنسبة إلي السيدات، إمّا في المناجم، أو في الأراضي حيث تدر المغامرة المأمونة نتائج مثمرة. وتركها تتلوي من الغيظ لفكرة الأموال الضخمة التي كان من الممكن أن تكسبها علي نحو مضمون! واستأنف، يقول:

- كيف لم تأتي إليّ؟

فقلت:

- لست أدري!

- لماذا؟ هل كنت أخيفك؟ إنني أنا الذي يجوز لي علي العكس أن أشكو! فإننا لا يكاد أحدنا يعرف الآخر، ومع ذلك فإنني مخلص لك كل الإخلاص، وأرجو ألا يكون لديك شك في ذلك!

ومدّ يده وأخذ يدها، وغطاها بقبلة نهمّة، ثم احتفظ بها فوق ركبته وأخذ يلعب في رفق بأصابعها، وهو يسرد عليها فيضاً من الداعبات الناعمة.

كان صوته الفاتر يثرثر كالنهر الذي ينساب، وانبتقت شرارة من حدقتيه من خلال زجاج نظارته، وامتدت يدها في كم «إيما» لكي يجس ذراعها، وأحست عند خدها هبة أنفاس لاهثة، وكان هذا الرجل يضايقها مضايقة شديدة!

فنهضت في وثبةٍ، وقالت له:

- يا سيّدي إنني أنتظر!

وقال، موثق العقود الذي علاه الشحوب الشديد فجأةً:

- ماذا تنتظرين؟

- النقود..

- ولكنّ...

ثمّ استسلم لانفجار رغبة شديدة العنف، وقال:

- هذا حق.. نعم!..

وأخذ يجر نفسه علي ركبتيه نحوها دون مراعاة لمعطفه المنزلي.

- من فضلك ابق مكانك!

وأمسكها من خصرها.

وصعد فيض من الحمرة سريعًا إلي وجهه مدام «بوفاري»، وارتدت إلي الخلف وهي تصرخ:

- إنك تستغل يا سيّدي حالة ضيقي في غير حيلة! إنني استحق الرثاء ولكنني لست للبيع!

وخرجت!





صلمة جديدة فيمن أحبت!!

A new shock to whom she loved!!

أخذت تقول «إيما» لنفسها وهي هاربة يخطي عصبية تحت أشجار الحور القائمة في الطريق: «يا له من حقير! يا له من وغد!». وقد ضاعفت لحظات الفشل من ثورتها لعفتها المتهانة، وخُيِّلَ إليها أنَّ القضاء يصير علي ملاحقتها، وانتفخت كبرياء، حتي خُيِّلَ إليها أنَّها لم تشعر قط بمثل هذا الاحترام لنفسها والاحتقار للآخرين. واحتدمت بها نزعة إلي القتال، فودت أن لو ضربت الرجال وبصقت في وجوههم، وسحقتهم جميعًا. واستمرت تسير مسرعة، شاحبة، منتفضة، هائجة، ترمق بعين دامعة الأفق الخاوي وكأنَّها تتلذذ بالضغينة التي تخنقها.

وعطفت في طريقها يمنة كأنَّما تريد أن تولي وجهها شطر المقبرة.

ولكنَّها ما لبثت أن عرجت علي دار المرضعة التي أَرْضَعَتْ طفلتها، فلم تكذبُلُها حتي صاحبت بها:

- يا أمُّ روليه، إنَّني أختنق، هلمي إليّ، فكي أزرار ثيابي ..

وراحت تتهالك علي الفراش باكية ناشجة، فجاءت المرأة بقميص فلفتها فيه ووقفت بجانبها.



ولمّا وجدتْها قد سكّنت ولم تعد تتكلّم أو تتحرّك غادرتها وتناولت مغزّلها فراحت تغزل.

وسمعت صوت «إيما» وهي تقول لها:

- أوّه.. أرجوك أن تكفي عن غزلك! اذهبي عني قليلاً..

فجعلت الممرضة تسأل نفسها:

- تري ماذا حدث لها؟ ولماذا جاءت إلي هنا؟

و ظلت «إيما» مستلقية شاردة العينين لا تبصر شيئاً، وإن حاولت تحديقاً، أن تنظر ملياً إلي الطلاء الزائل عن الجدران، وإلي جذوتين من النَّار متأججتين في الموقد، وعنكبوت كبير فوق رأسها.

وما لبثت أن أخذت تستجمع شوارد فكرها وشتات خواطرها، فتذكرت علي الفور «ليون». وقالت في نفسها والألم يعتصرها: «أوّه.. ما أبعد العهد الذي انقضي..!». .

وكانت الشمس تسطع علي صفحة النهر، وكان الهواء عليلاً، والجوّ رائقاً صحواً، ثم حملتها الذكريات كما تحمل العاصفة الجائحة كلّ شيء في طريقها علي استعادة ذكرى ما وقع لها في اليوم السابق .

والتفتت إلي ربّة البيت فقالت:

- كم السّاعة الآن؟

فخرجت الأمّ «روليه» إلي الفضاء فظللت عينيها يمينها وراحت تتطلع إلي الشمس. ثم رجعت فقالت لها إنّها توشك أن تؤذن بالثالثة.



فأجابتها «إيما» قائلةً:

.. شكرًا لك.. شكرًا.

وإنَّه لا ريب سيجيء بعد قليل، هذا شيء مؤكد، ولعله قد وجد المبلغ ولكن لا يعرف أين هي.. ولن يخطر بباله أنَّها الآن في دار المرضعة. ولذلك طلبت إليها أن تذهب في الحال إلي بيتها فتخبره بأنَّها عندها وتجيء به علي عجل.

وعجبت لنفسها كيف لم تذكره إلاَّ اللَّحظة ولم تفكر فيه من قبل، فقد وعدها أمس بشرفه، ولن يخلف وعده.

ومضت في إثر هذا الخاطر تتمثل نفسها وهي ملقية بالمال علي منصدة «ليريه» هادئة مطمئنة، ولكنَّها ستكون مضطرة إلي اختلاق قصَّة محبوبة الأطراف لتشرح بها كُل شيء لزوجها.. ماذا تراها إذاً قائلة له؟

وملت انتظار المرضعة.. مالها قد غابت طويلاً هكذا؟

ولم يكن في البيت ساعة جدار ولا ساعة جيب، فعادت «إيما» تتخيل أنَّها قد بالغت في ظنَّها، وأنَّ المرضعة لم تغب كما توهمت، وأنَّ مسافة الطريق تقتضي أكثر من ذلك وقتًا.

فانتظرت.. ولكنَّ الانتظار أمضها وأقلق بالها. فبدأت تساورها شكوك من الزمان.. أم لحظة يسيرة منه؟

وسمعت صرير المفتاح في قفل الباب فأجفلت، ولكنَّها قبل أن تستطيع الكلام ابتدرتها الأم «روليه» قائلةً:



- لا أحد في البيت.

قالت خائفة مروعة:

- ماذا تقولين؟

فأجابتها المرضعة بقولها:

- لم أجد أحداً، وإنَّما رأيت زوجكِ الطيب يبكي لغيابكِ حزناً وهو يناديك نداءً طويلاً. والقوم يبحثون عنكِ في كُلِّ مكان.

فلم تعط «إيما» جواباً، وأخذت أنفاسها تتصاعد سراعاً وعيناها تختلجان، حتي لقد أشفقت المرضعة المسكينة من مشهدها فتراجعت بدافع الغريزة مجفلة خائفة، وكأنَّما قد حسبتها جنت أو فقدت شعورها.

ولكنَّ «إيما» لم تلبث أن صرخت صرخة مدوية وضربت جبينها بكفها متذكِّرة، لأنَّها في مثل وميض البرق الخاطف تذكَّرت «رودولف» فقد كان كريماً حانياً..

وانطلقت تريد مزرعة «لاهاشيت» .. وهي لا تُفكِّر ولا تدري بأنَّها في ذهابها إليه إنَّما تريد أن تعرض نفسها علي ذلك الرَّجل الذي تنكَّر لها وغدر بها من قبل، وأنَّ ماضيها علي تلك الصورة لم يكن في الحق سوي البغاء المبتذل، والعرض الممتهن.



وفي الطريق جعلت تُفكر فيما ينبغي أن تقوله له، وكيف تدخل بالموضوع عليه، وجعلت كُلّما سارت تذكر الأشجار التي طالما شهدتها في زيارتها له، ولم تلبث أن شعرت بعاطفتها القديمة نحوه تعاودها.

واتخذت إلى القصر طريقها التي اعتادت الذهاب منها إليه، وهي طريق البوابة الخلفية للحديقة.

ثمّ مشّت إلى السّاحة، وكانت بعض الفروع من الأشجار تحف بها، والأغصان الفارعة تترنح وتزفر زفير العاشق الولهان، وتتنهد تنهّد المغرم الظمّان.

وأخذت الكلاب المربوطة بسلاسلها، في مزاجها تنبح لمرآها، ولكنها لم تشهد أحدًا تقدّم علي النباح ليري من القادم، فتقدّمت تصعد السلم.

وكانت حجرة «رودولف» في أقصى البهو، فلم تكد تبلغ الباب وتضع يدها علي مقبضه حتي خانتها قوّاها، وتخاذلت، إذ خشيت ألا يكون هناك، بل لقد تمنّت علي ألا يكون في حجرته علي حين أنّه كان أملها الأوحد ورجاءها الباقي .

ووقفت لحظة لتستجمع قوّاها المتهاوية، محاولة تشجيع نفسها لتفكر في مأساتها، وتذكر ضوائقها.

ودخلت الحجرة.

فإذا هو جالس قبالة الموقد يستدفي غليونه في فمه يرسل منه ذوائب الدخان الدائرية.

فلم يكذبها داخلة عليه حتي قام مسرعًا، وهو يقول:



- يا الله.. أهذه أنتِ؟ أهذه أنتِ؟

قالت:

- نعم! أنا.. وقد جئتُك يا «رودولف» أطلب نصيحتك.

قال:

- أراكِ لم تتغيري مطلقاً! وأجديكِ حسناء فاتنة كأخر عهدي بكِ.

قالت بحزن ومرارة:

- أواه يا عزيزي، إنَّها الفتنة التي سخرت منها ولم ترع حرمتها، ولم تعمل علي الاحتفاظ بحقها.

فحاول أن يشرح لها سبب مسلكه معتذراً اعتذاراً مضطرباً، متشفعاً بذرائع غامضة مبهمة سخيفة، لأنَّه لم يجد ما يقوله، ولم يسعفه خياله في هذه المباغطة علي اختلاق أعذار مقبولة.

ولكنَّها تركت نفسها تتأثر وتستسلم لكلماته وأعذاره علي علاتها. وقد استكانت لصوته، وتأثرت بمشهدده، وتظاهرت بأنَّها اعتقدت صحَّة عذره، وأخذت تنظر إليه نظرات منكسرة حزينة، وهي تقول:

- لقد تعذبت من صدك كثيراً.. وحزنت علي ذهابك طويلاً.. لقد كان عذابي أليماً حقاً..

ثمَّ قالت:

- علي كُلِّ حال أرجو أن يكون حظك أنت من بعد فراقنا أسعد وأهنأ..

قال:

- لم يكن في الواقع كذلك.

قالت:

- لقد كان خيرًا لنا لو لم نفترق.. مَنْ يدري؟

قال:

- نعم .

قالت، وهي تدنو منه وتتنهد من الأعماق:

- أظن ذلك.. أوه يا «رودولف». لو كنت تدري. لقد كنت أُحبُّك الحبَّ الكبير.

وتناولت يده، وجلسا لحظات كمجلسهما يوم المعرض الزراعي، ورأته صامتًا يجاهد نفسه ليستعيد حُبَّه القديم.

فتهاكت عليه.. وارتمت علي صدره، قائلةً:

- كيف سولت لك النفس أيها القاسي أن تظن أنني استغيت عنك، إنَّ المرأة لا يستطيع أن ينسي سعادة ولت. لقد كنت في يأس شديد.. بينما ذهب أنت عني ونسيتني.

وكان ذلك حقًا.. فقد فعل ذلك ثلاث سنين طويلة.

وهزت «إيما» الساحرة رأسها هزات عجيبة، وقالت:

- أنت مغرم بنساءٍ أخريات. نعم، قل الحق ولا تخفِ شيئًا.. أنا أعرفك وأفهمك. ولا تخفي عليَّ خافيتك. وأنا أعذرهن في حُبِّك.. لأنك أضللتهن



وأغويتهم كثيرًا. ولكننا سنعود إلي ما كنا فيه. وسنبداً الحب من جديد.
انظر.. هاأنذا ضاحكة راغدة وفرحة.. ألا حدثني بعذب أحاديثك؟

وكانت تبدو فاتنة تأخذ بالعقل، والدموع تترقرق وتضطرب في عينيها
أشبه بقطرات الندى الحيري علي ساق زهرة زرقاء. فأدناها إلي ركبتيه..
وراح يلعب شعرها بكفه، وكانت أشعة الشمس في المغيب تتساقط علي
جدائلها في تلك اللحظة.

ونكست رأسها.. وأخيرًا أخذ يُقبلها في عينيها بطرف شفتيه.

قال:

- ولكنك تبكين.. فيم بكائك؟

فأخذت تجهش وتتنحب مليًا.. فظن «رودولف» أن دموعها تلك رمز
حُبها. ولكنه لما رآها مطيلة السكوت علل ذلك بأنه مجاهدة منها للحياة.

فانطلق يقول:

- أواه.. سامحيني يا «إيما» واغفري ما فرط من ذنبي.. أنتِ المرأة الوحيدة
التي أُحبها.. لقد كنت قاسيًا لست أنكر.. إنني أُحبك.. وسأظل الدهر علي
حُبك. خبريني ما القصة.. نبئيني ماذا هنالك!

وجاء يجثو بجانبها.

قالت:

- لك الحق أقول يا «رودولف».. لقد أوشكت أن افتضح.. فهل لك أن
تقرضني ثلاثة آلاف فرنك؟

قال مرتبكا وهو ينهض شيئاً فشيئاً من جثوته:

- ولكن.. في الحقيقة.. إنني..

ولم يتم عبارته.

فاسترسلت هي في عجلة واضطراب، تقول:

- إن زوجي قد أودع ماله كله في يد أحد المحامين، وقد فرّ ذلك المحامي هارباً، فاضطربنا إلي الاستدانة، وأضحى الزبائن والمرضي لا يدفعون وكسدت الصناعة.. ولم تنته من تصفية تركة أبيه، ولكننا قريباً سنصيب مآلاً كثيراً منها، وإنما نحن مطالبان في هذه اللحظة بثلاثة آلاف من الفرنكات، فإذا لم ندفعها حالاً أنفذوا في هذا النهار هذا الحجز علي أثاث بيتنا وعرضوه للبيع..

واصفر «رودولف» واضطرب وجعل يقول لنفسه: «آه.. ألهذا السبب إذا جاءت؟»!

ولما أتمت كلمتها انثني يقول بكل هدوء:

- ولكنني لا أملك هذا المبلغ يا عزيزتي.

وكان بلا شك يقول حقاً.. وكان ذلك الواقع تماماً..

هذا هو ما اعتذر به، بل لقد أنشأ يخبرها بأنه لو كان معه لمّا تأخر عن دفعه إليها..

ونظرت «إيما» إليه لحظة طويلة وهي صامتة.

وانطلقت أخيراً تقول له:

..أتقول أنك لا تملك هذا المبلغ!! لقد كان أجدر بي أن أنأي بنفسى عن
هذا الموقف المخجل..أنت لم تحبني يومًا فى حياتك..وأنت وغد خائن
ككُلِّ مَنْ حملت الأرض من الرِّجال.

ولكنَّ «رودولف» قاطعها قائلاً: إنَّه هو أيضًا مستدين غارق فى الدين.

فاستضحكت واثنت تقول متهكمة ساخرة:

.. ما أشد أسفى لك..مسكين..أمدىن أنت؟

وخرجت من عنده ذاهلة يُخَيَّل إليها أنَّ الأرض تميد بها وكان الظلام
يوشك أن يعم الكون.





هكذا.. كان قرارها الأخير!!

So .. her last decision!!

لمحت «إيما» الأتوار في الدور والبيوت فتولتها حاسة جديدة، حاسة
أمريء مستخف بكل شيء، فراحت تسرع الخطي نحو حانوت الصيدلي،
ودخلت متسللة فوجدت الغلام «جوستان» أمامها فبادرته قائلة:

- عليّ بمفتاح الغرفة العليا حيث..

فبهت «جوستان» من مشهد وجهها الشاحب، فتوجس شراً ولم يجب،
فعدت تقول بصوت رفيع ضارع:

- جئني بالمفتاح.

وسمعا من خلال الحاجز الفاصل بين الحانوت والبيت قعقة الملاعق
والشوك في قاعة الطعام، فادعت أنها تريد المفتاح لكي تجد دواء يقتل
الفئران الكثيرة في بيتها.

قال:

- ولكن ينبغي أن أخبر السيّد «هوميه» -

قالت:



- لا ضرورة لإزعاجه.

فتقدّمها إلي باب الغرفة، ومشّت هي إلي الرّف الثاني من رفوفها، وتناولت زجاجة زرقاء كانت تعرفها من لونها، فتناولت قدرًا من مسحوق أبيض وذهبت بتبلعه، فحاول إمساكها ولكنّها ثنته عنها فحار في أمرها.

وهم بأن يستغيث ولكنّها منعتة، وتركته عائدة إلي البيت.

وقد زال عنها ما بها كأنما أدت واجبها.

ولمّا عاد زوجها إلي البيت، قبل وصولها، وعرف أنّ هناك حجزًا في بيته، ذهب يبحث عنها مضطربًا باكئًا، وبعث بالخادمة إلي منازل الجيران تتفقدّها بينما لبث هو يندب ويتحب.

وطال غيابها فمضي في القرية هائمًا علي وجهه يبحث عنها، ولكنّه لم يجدها، فقفّل راجعًا إلي البيت فوجدها قد عادت في غيابه.

فبادرها سائلًا:

- ما الخطب يا عزيزتي؟

وكانت جالسة إلي منصبتها تختم غلاف كتاب كانت قد فرغت من كتابته، فأجابته:

- اقرأ هذا غدًا... أمّا اليوم لا تسألني أيّة أسئلة.

- ولكنّ..

ثمّ صاحت به محتدة تقول:

- أرجوك... دعني وحدي..

وارتمت علي فراشها ممددة تستقدم طيف النوم.

ولكنّها لم تلبث أن تنبهت من إغفائها علي مرارةٍ في حلقتها وطعم كربه في فمها.

غير أنّها لم تكد تفتح عينيها وتبصر زوجها أمامها، حتي أغمضتهما ثانية، وأخذت تراقب حركة أمعائها لكي تري هل من ألم هناك في عضو من أعضائها، مناجية نفسها: «مالي أري الموت هيئاً.. وكنت أحسبه من قبل مخيفاً! كُلّ ما هنالك أني أذهب في سبات عميق، فتمضي الحياة ويحل الموت، وتنتهي المأساة علي أهون سبيل» .

وشربت شربة من الماء وتولت بوجهها إلي الجدار لتنام، ولكنّ طعم المرارة الكريه في فمها ظل يشتد ويزداد، وغمغمت تقول:

- أوآه.. أشعر بظماً شديداً.. جيئوني بشربة ماء.

فقال «شارل» وهو يمدّ إليها يده بما طلبت:

- ماذا جري لكِ؟! ألا تقولين لي ماذا أصابكِ!

قالت:

- لا شيء.. افتح النافذة.. إنني أختنق.

وطفق يسألها ماذا أصابكِ، وهي لا تجيب علي أسئلته مستلقية في فراشها لا حراك بها، حتي أحست أخيراً برودة كالثلج أخذت تتصاعد من قدميها إلي قلبها.

فغمغمت تقول:





- أواه.. لقد ابتداءً..

وقال زوجها مبهورًا:

- ماذا تقولين؟ وأي شيء هذا

الذي ابتداءً؟

• «إيما» علي فراش الموت •

فحرَّكت رأسها ببطءٍ كَمَنْ هو

في عذاب شديد، وظلت فارغةً فكيفها كأنَّ شيئًا ثقیلاً حط علي لسانها.

وفي المساء عاود الغثيان، ولاحظ «شارل» رواسب بيضاء قد لصقت
بجدار الآنية الخزفية، فظل يردد قوله:

- هذا شيء عجيب! شيء غير مألوف!

ولكنَّها انفجرت فيه قائلةً:

- كلا.. أنت مخطئ.. لا شيء مطلقًا.

وأخذت تئن وهي تكبت أنينها، ثم ما لبثت كتفاها أن ارتعشتا. وتزايد
شحوب وجهها حتي أضحي في مثل بياض الغطاء الذي التحفت به، وهبط
نبضها فلم يعد من خفوقه محسوسًا، وأخذ العرق يتفصَّد من جبينها ويتساقط
قطرات علي وجهها. وقد أخذ هذا الوجه الجميل البديع يميل إلي الزُرقة
رويدًا رويدًا، وأسنانها تصطك بعضها ببعض، وعيناها تشردان.

وألقي زوجها بنفسه علي فراشها، وقال:

- أخبريني ماذا تناولت؟ نبشني الحقيقة ناشدتك الرحمة.

وكانت عيناه تختلجان شفقةً وحزنًا ورأفةً وحبًا.

فغمغمت بصوتٍ متحشرج متقطع:

.. هناك.. هناك.. اقرأ..

فهرع إلي المنضدة وتناول الكتاب وفض غلافه، وأخذ يقرأ بصوتٍ مرتفع هذه الكلمات: (لا تتهموا بموتي أحدًا..)

وأمسك.. ورفع يديه إلي عينيهِ فمسح بها ناظريه، وعاد يقرأ ما تلا.. ولم يلبث أن صرخ قائلاً:

- ماذا أري؟! النجدة.. النجدة..

ولم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئاً أكثر من ترديده كلمة: (مسمومة.. مسمومة)

وأخذ يهرول في الحجرة باكيًا شارد العقل، متعثراً يصطدم بالمقاعد، ويرتطم بالكراسي وأجزاء الأثاث، ويجتث شعره.

وجاء الصيدلي «هوميه» مسرعاً، يقول:

- ما أقبح هذه الليلة! لم أر في حياتي أشد منها هولاً ولا أنكر، ولم أبصر يوماً مشهداً أكثر رهبة من هذا المشهد.

وبادر بالرجوع إلي بيته ليكتب إلي السيّد «كانيفيه»، والدكتور «لاريفير».

ولكنّه من فرط اضطرابه لم يعرف كيف يكتب، فطفق يُغيّر الكتاب مرّات ومرّات.

وعمد «شارل» إلي معجّمه الطبي فأكب عليه يستشيرهُ، ولكنّه لم يهتد إلي شيء لأنّه لم يبصر شيئاً، فقد زاغ بصره ورقصت السطور أمام عينيهِ.



وأقبل الصيدلي عليه فقال:

- يجذب أن تهدئ أعصابك. حاول ذلك يا صديقي ما استطعت.. فإنَّ الشيء الوحيد الذي ينبغي عمله في هذه الحالة هو إعطاؤها دواءً مقيئًا. ما نوع السُّم الذي تعاطته؟

فأراه «شارل» الكتاب.. فإذا هو الزرنيخ. قال:

- إذا.. يجب أن نجري تحليلًا له.

وكان الصيدلي يعرف أنَّ لا بدَّ من التحليل في جميع حالات التسمُّم.



وكان «شارل» أجهل النَّاس بذلك، فجعل يقول له أفعل ذلك إذا في الحال! وعاد إليها فجثا علي الأرض، وألقي رأسه علي حافة السرير، وأسلم نفسه للبكاء والنحيب.

• «شارل» يبكي ويتنحب •

قالت:

- لا تبك.. إنَّني سأريحك من عذابي. نعم لن تتعذب من أجلي بعد اليوم.

قال:

- لماذا فعلت ذلك لماذا؟! وما الذي دفعك إليه؟

قالت:

- لقد كنت مضطرة إليه يا عزيزي.

قال:

- ألم تكوني سعيدة في حياتك؟ أكان ذلك خطئي؟! لقد فعلت كل ما في وسعي أن أفعله لإسعادك.. أفكنت المعلوم؟

قالت:

- كلا.. لقد كنت كريمًا حنونًا.

وراحت تلمس شعره بكفها، فزاده ذلك حزنًا علي حزن، وشعر بأن حياته كلها قد تداعت وتحطمت.. أمّا هي فلم تعد تكره أحدًا أو تحقد علي أحد. ولم تعد تسمع من أصوات الدنيا وضوضاء الأرض غير نحيب فؤادها المسكين وعويل قلبها الخافت وقد بدا إذ ذاك من خفوته أشبه شيء يرجع صدي لحن بعيد متبدّد في الفضاء.

وتحاملت قائلة:

- جيئوني بطفلتي .

قال:

- أتشعرين بألمٍ آخر؟

قالت:

- كلا.. كلا.

وجيء بالطفلة وقد حملتها مرضعتها، والصغيرة في منامتها وهي عابسة مقطبة لا تزال تحت تأثير النّوم وسلطان النعاس.. تتساءل أين أمّها.. ولمّا رأتها قالت لها:

- ما أشد اتساع حدقتك يا أمّاه وما أشدّ شحوب وجهك!



فقال أبوها:

.. أبعدوها.. أبعدوها.. وكان واقفًا يتتجب.

وسكتت «إيما» قليلًا وهذأت، فكان «شارل» كُلِّمَا رآها تتكلم أو تتنفس بهدوء يحمد الله. ويرجوا خيرًا.

ولمَّا جاء الطبيب «كانيفيه» ودخل الحجرة ترامي علي صدره ناشجًا باكيا وهو يصيح قائلاً:

.. أهذا أنت؟ شكرًا لك. إنَّها اللَّحظة أفضل حالًا. أنظر إليها.

ولكن زميله لم يكن يشاركه هذا الرأي مطلقًا، وراح يصف لها مقيئًا. وأخذت تنفث دمًا.. وتقلصت شفتاها.. وتشنجت أطرافها.. وظهرت بقع سوداء طافحة علي بدنِها.. وأخذ نبضها يدق أشبه شيء بوتر يوشك أن ينقطع. وبينما هي كذلك إذا بهم يسمعون حركة سوط يلوح به في الهواء وصوت عجلات، وكان القادم الطبيب «لاريفيير» ولو أنَّ ملاكًا من السماء جاء في تلك اللَّحظة لمَّا كان لمجيئه ذلك التأثير الذي أحدثه.

ولمَّا رأى «لاريفيير» وجه «إيما» وهي مستلقية علي ظهرها فاغرة فمها، وضع أصبعه تحت أنفه وجعل يهز كتفيه قليلًا ودار ليذهب.

فصاح به «شارل» قائلاً:

.. أذهب أنت؟

قال:

.. سأعود بعد لحظة.



• لقد كنت كريمًا حنونًا •

وأخذ «كانيفيه» معه كأثما
يريد أن يسمعه أمراء، وهو في
الواقع يطلب قراءًا. وكان هذا
الأخير كذلك لا يريد أن يشهد
احتضارها، أو يمكث لتحل
اللحظة الأخيرة وهو لا يزال في البيت.

وما لبث القس «بورنسيان» أن لاح علي الطريق قادمًا، واقبل فأدي
فريضته الدينية في مثل هذه الحال. وما كاد أن ينتهي من شعائره حتي تولت
«إيما» هزة أخري، ثم سكنت، ولمّا تقدموا منها ليروا ماذا ألم بها. وجدوها
جثة هامدة.





ومن الحزن ما قتل!! It is grief what is killed

والحق أنه عقب الوفاة كان يسود النَّاس شيء من الدهول، إذ يصعب علي الحي الواقف علي مشهد الميث الذي فارق العالم أن يدرك حقيقة ما جري أو يسلم خاطره إلي اعتقاد ما كان.

أمّا «شارل» فإنه لم يكذب يراها قد جمدت ولم تعد تتحرَّك حتي ارتمي عليها وهو يعول ويصيح قائلاً:

- الوداع..! الوداع..!

ولكنَّ «كانيفيه»، و«هوميه» أمسكا به فأخرجاه من الحجرة وجعلا يعزيانه ويشجعانه وينصحان له ألاَّ يستسلم لحزنه، فمشي بينهما وهو يحاول الفكاك منهما..

وأخذ يبكي ملياً.

وانثني «هوميه» إليه فقال:

- أبك ما شئت، فإنَّ البكاء يفيدك ويخفِّف وقع المصائب عليك. إنَّ للطبيعة سبيلها، فدع لها فيضها تسكن وتهدأ.



ولم يلبث «هوميه» أن انصرف إلي بيته، إذ كان مضطراً إلي أن يرسل كتابين إلي الصيدلية، أو صفتين، لكي يبتكر أكذوبة لإخفاء حقيقة الوفاة وسببها، ويعلن في الناس أنها لم تكن تقصد إلي الانتحار.

وما كاد ينبئ أهل القرية أنها تناولت الزرنوخ الذي كانت تحسبه سكرًا، ويتبين أن الإشاعة التي اصطنعها قد سرت في القرية وذاعت، حتي عاد إلي صديقه «بوفاري» فوجده وحيدًا جالسًا قبالة النافذة وهو شارد البصر كمن فقد عقله.

فقال له:

- ينبغي أن تُعيّن موعد التشيع..

فقال مذهولًا:

- أي تشيع؟

ولكنّه ما لبث أن تذكر فقال بصوتٍ متردّد مضطرب متهدج:

- آه.. التشيع.. ولكنني لن أشيعها.. سأبقيها معي هنا.. لن أضعها تُحمل من بيتنا.

ولم يجرؤ «هوميه» علي فتح موضوع الجنازة فأغري القس بأن يتولي هو ذلك، فمضي هذا يكلم «شارل» ويقنعه أن ذلك أمر لا مفر منه.

ظلّ «شارل» في ذهول يصعد وينزل، ويتنقل في أرجاء البيت مشدوها لا يعي شيئًا، ودخل في تلك الهنيهة فوقف بجانب سريرها ليراها عن قرب، وهو في ذهول ينظر شارد البصر ولا يقول شيئًا، ولا يعي ما حوله.

وحضرت مدام «بوفاري» العجوز في بكرة التّهار فلم يكد «شارل» يلقاها حتي انفجرت دموعه وارتفع صياحه وعويله.

وأما الصّغيرة «بيرت» فذهبوا بها إلي دار «هوميه» لتلعب مع الأولاد، وبقيت «فيليسيتيه» في الطابق الثاني مع مدام «لو فرانسوا».

وفي المساء جاء بعض المعزين فنهض «شارل» لاستقبالهم، وجعل يصافحهم وهو صامت لا يقول شيئاً، ثمّ عاد إلي مجلسه بجانب الموقد مع الزوار وقد أحاطوا بالتّار المشبوبة في المدفأة مطرقي الرؤوس، متنهدين بين لحظة ولحظة، وقد ملوا جميعاً هذه الجلسة الطويلة الساكنة الثقيلة، ولكن لم يشأ أحدهم أن يكون أوّل منصرف.

ولم يلبث «هوميه» أن غرق في النّوم، وبعد أن قلبّ القس صفحات كتاب أدعيته وصلواته أن هذا حذوه.

ولمّا دخل عليهما «شارل» لم يشأ أن يوقظهما، بل كان غرضه من الدخول أن يلقي علي «إيما» النظرة الأخيرة.

ووقف طويلاً يُفكّر في هنائه الضائع، وسعادته المولية، ويتذكّر حركاتها وسكناتها وصوتها ونغماتها.

وأخيراً انتابته نوازع الفضول، فمدّ يده ورفع ببطء النّقاب عن وجهها بأطراف أنامله.

وإذ ذاك صرخ صرخة الأسى والرّعب، فاستيقظ النائمان علي صياحه وقاما إليه فأخرجاه من الحجرة.

وتحمّل «شارل» عذاب الصبر ساعتين، وهو يسمع صوت المطارق لإعداد النعش والصناديق التي وصي بصنعها، ولَمَّا تم ذلك حملوها في نعشها إلي الخارج، فتقاطر سكان القرية واحتشدوا لتشيع الجنازة. ولما وصل الشيخ «روو» أبوها أغمي عليه إذ رآهم خارجين بالنعش إلي مقره الأبدى.



لم يكن الشيخ «روو» قد تلقى النعي إلَّا بعد مضي ست وثلاثين ساعة علي الوفاة، وكان «هوميه» هو الذي كتب إليه. وقد حرص في كتابه علي أن يجعل الكلام مبهمًا، فلم يفهم الشيخ حقيقة الأمر من خلال سطره، فجاه إلي ابنته وهو يحسب أنها مريضة في خطر، ولكنّه لَمَّا وصل وشهد ذلك المنظر، خرّ صاعقًا كَمَنْ أُصِيبَ بِصَرَعٍ.

وأخذت النواقيس تدق، وبدأت الجنازة والشعائر المُقرَّرة.

وجعل «شارل» يتخيّل أنّها قد ذهبت في سفرٍ بعيد، ومضت إلي رحلةٍ نائيةٍ هي علي الأيام منها آتية، ولكنّه عاد يتذكّر أنّها هنالك في ذلك النعش المغلق المسمر، وأنّ كلّ شيء انتهى، وكلّ أمر انقضي، وأنّهم سائرون بها إلي الموضع الأبدى، والمثوى الأخير، فأخذته نوبة بأس.

ودقت النواقيس ثانية.. وحُمِلَ النعش وخرجوا به من الكنيسة.

ومشي «شارل» في مقدمة الجنازة.. وجعل يحني رأسه لكلِّ مَنْ رآه واقفًا علي جانب الطريق.

وحمل النعش ستة رجال .. ثلاثة منهم علي كُلِّ جانب. وساروا به في
بطءٍ .. ثقال الخطي. يلهثون قليلاً. والقس وشمامسته يرتلون في أثره.

ومشت النساء حاملات شموعاً مضاءةً مستطيلةً.

وهبَّ النسيم فجعل بين لحظة وأخرى يرفع الحجب السود عن الوجوه
وقد بللتها دموع ييُض كاللُّجَيْنُ (الفضة).

وسقط «شارل» بجانب القبر جاثياً، وجعل يأخذ التراب ويهيله صائحاً
باكياً:

- الوداع ..

وهو يزحف كأنما يُريد أن يلقي بنفسه في إثر زوجته.

ومشوا به منصرفين .. فلم يلبث أن هدأ وسكن. وكأنه قد شعر كما شعر
المشيوعون جميعاً بشيءٍ من الرَّاحة والرضي بأن الأمر قضي .. والمهمة قد
انتهت.

ولمَّا عادوا من الجنازة جلس الشيخ «روو» يدخن غليونَه ساكناً هادئ
الروح.

وفي صباح اليَوْمِ التَّالِي أُرسل «شارل» في طلب ابنته، ولمَّا جاءت
وسألت عن أمِّها قال لها أنَّها سافرت .. وستعود إليها بلُعب ودُميٍّ جميلة.

وجعلت «بيرت» الصَّغيرة تتكلم عن أمِّها مرَّات .. ومرَّات .. ثُمَّ لم تلبث
أن كفت عن ذلك ولم تعد تذكرها.



ورأي «شارل» الطفلة في مرحها ولعبها في البيت فزاده ذلك حزناً علي
حزنه.

وما حلت مسألة ديونه عليه حتي شغلته، فاضطر أن يتحمل أفدح الديون،
وأن يأخذ علي نفسه أبهظ المبالغ، مفضلاً أن يغرق في الدين علي أن يسمح
بأنفه شيء من نفائسها ومخلفاتها، أو يرضي أن تباع في الأسواق.

ورأت أمه ذلك منه فغضبت واستاءت لتصرفه، ولكنّه كان أشدّ غضباً
منها، فعجبت لهذا التغيّر الذي طرأ عليه، ويشت من صلاح أمره فسافرت
أخيراً وتركته يفعل ما يشاء.

وبدأ الناس يستغلون ضيقه لبيتروا منه ما استطاعوا، فطالبته مُدرّسة
الموسيقى بأجرة دروس ستة أشهر علي رغم أنّ «إيما» لم تتلق عندها درساً
واحداً وإن كانت قد أرته الإيصال، ولكنّها كانت قد اتفقت سرّاً معها علي
مطالبته.

وبعث صاحب المكتبة إليه يطالب باشتراك سنة كاملة، فقد كان كلّما دفع
دينًا ظنّ أنّه سوف يكون الأخير، فإذا ديون أخرى تتراكم وتتفاقم.

وذهب وهو يطالب مرضاه بحساب قديم، فكانوا يقدمون إليه كتباً من
زوجته وإيصالات بخطها، فكان يعتذر إليهم بخجل.

وأخذت «فيليسيتيه» بعض ثياب سيّدتها فارتدتها، واحتفظ هو بما تبقي
منها وجعل يتلّسّسها في أدراجها باكيًا مترحمًا.

ولكنّ لم تلبث «فيليسيتيه» أن فرت ببقية الثياب مع عشيق لها.

وفي تلك الفترة الحزينة تلقي من والدة «ليون» بطاقة تُعلن فيها زواج ابنتها، فكتب إليهما مهتئًا وختم كتابه بقوله: «لو كانت الفقيدة حيّة لسعدت بهذا الخبر وطربت له» .

وفي يوم، بينما كان يفتش في أرجاء البيت بغير قصد عثر علي ورق مطوي، ففضّه وإذا به كتاب «رودولف» كان قد سقط بين الصناديق فبقي حيث سقط ..

ووقف شاحب الوجه يملي البصر في الكتاب فإذا به يلمح حرف «ر» في أسفل الصفحة الثانية من صفحاته، فتذكّر كيف كان «رودولف» يتلطف إليها وكيف اختفي فجأة عنها.

ولكن رزاة أسلوب الكتابة خدعته فجعل يقول لنفسه: «لعلها كانت علاقة حُب بريء بينهما» .

إذ لم يكن من أولئك الأزواج الذين يتعمقون في بحث الأشياء، بل كانت الغيرة عنده متلاشية في عمق حُبّه.

وحمله الوفاء بالديون المحيطة به إلي بيع أكثر أثاث بيته، إلّا مخدعها، فقد حرص عليه إذ كان يصعد إليه في كُل مساء ليقرب مقعدها من الموقد ويجعل مجلسه قبالته ويجلس ابنته «بيرت» بجانبه.

وتخلي النَّاس جميعًا عنه، فلم يعد أحد يزوره، وقلت زيارات الصيدلي له حين رقت حاله وأدبرت الدنيا عنه.

ولم يكن قد فتح صوان كتبها ورسائلها بعد.



ولكنّه في ذات يوم أدار المفتاح في القفل فانفتح، وطالعه إذ ذاك كتب «ليون» جميعاً، فلم يعد في هذه المرّة يخالجه شك أو يساوره ريب، وجعل يفتش في كُل ركن ويبحث في كُل زاوية باكيًا مزمجراً فاقد الرشد.. واكتشف أخيراً صندوقاً تهشم بركلة من قدمه فانفتح عن صورة «رودولف» وكتب غرامية.

ودهش النَّاس أن رأوه محتبساً في بيته لا يري أحداً ولا يداوي مريضاً، حتي ظنَّ القوم أنّه قد اعتكف لينكب علي الشراب.

ولكنَّ بعض النَّاس هاج الفضول بهم فذهبوا يطلون من فوق سياج الحديقة، وما كان أشد دهشتهم إذ رأوا حيالهم رجلاً مهلهل الثياب مستطيل اللحية متقد النظرات هائماً منتحباً.

وفي لبالي الصيف جعل يخرج مع ابنته الصَّغيرة إلي المقبرة، فلم يكونا يرجعان إلي البيت حتي يغمر الكون الظلام، وتسود الحلكة ساحة القرية.

وفي صباح يوم مضي إلي سوق «أرجي» لبيع حصانه وكان كُل ما بقي لديه من حطام الدنيا.. فلقي هناك «رودولف»، فلم يكد أحدهما يلمح الآخر حتي أصفر واضطرب.. وارتبك.

ولم يكن «رودولف» قد حضر المأتم.. أو مشي في الجنازة، وإنّما اكتفي بإرسال تعزية في ورق مكتوب.. فوقف يغمغم بضع كلمات اعتذار غير واضحة ولا مسموعة، ولكنّه لم يلبث أن تشجع وزال ما عراه لأوّل وهلة من الارتباك.

وفي الحانة جلسا متقابلين، «رودولف» يدخن سيجارة ويتحدّث إلي جلسيه، بينما جلس الآخر واجماً غارقاً في تأمّلاته، فقد تمثّل «إيما» في تلك اللحظة، وخيّل إليه أنّه قد راح يري شيئاً في ذلك الوجه الذي كانت تُحبّه.. يا للعجب.. لقد كاد يود لو أنّه كان ذلك الرّجل.

أمّا هذا فقد جعل يتكلم في شؤون مختلفة، في الزراعة، ولكنّ «شارل» لم يكن يستمع إليه إذ كان شارد الذهن، ذاهب الخاطر مع الخيال. وقد جعل بين لحظةٍ وأخرى يحدّجه بنظرةٍ غاضبةٍ قاسيةٍ .

ولا حظ «رودولف» ذلك منه فوقف عن الكلام، وأمسك عن حديثه.

ولكنّ «شارل» لم يلبث أن بدا واجمًا، قال:

- لست أحمل لك في قلبي أي حقد.

فلم يجد «رودولف» ما يقوله.. بينما مضى «شارل» يسند رأسه بيديه ويقول، بصوت خافت لا يكاد يسمع وبلهجة استسلام لحزن فاجع لا حد له:

- نعم، لم يعد في نفسي عليك أي حقد.

ثمّ سكّت لحظة وعاد يُردّد هذه العبارة الجليّة العظيمة، ولعلها العبارة الوحيدة الرزينة التي فاه بها:

- لقد كان كلّ ذلك من أغلاط القدر!

وفي اليوم التّالي ذهب «شارل» إلى الخميّة القائمة في بستان بيته، حيث كانت خيوط الضياء تنفذ إليه من خلال اللبلاب الموشي عليها، وأغصان الكروم وفروعه ترسل ظلالها على الحصى المتناثر، وكان الهواء عليلاً معطر بشذى الزهر، والسما صافية، وعياسيب النحل (ملكات النحل) تطن وترف على الرزبق الفياح والسوسن.

فلم يلبث أن أحسّ وكأنّه قد عاد فتى في ميعة الشباب تسكره فتنة الطبيعة وتكاد تخنقه مشاعر الهوى المنبعثة من أعماق فؤاده الجريح الحزين.

ولمّا أذنت السّابعة مساء جاءت «بيرت» الصّغيرة لتناديه إلى العشاء، ولم تكن رآته طوال ذلك الأصيل. فلمّا بلغت مجلسه ألقت رأسه مستندًا

إلي جدار الخميّلة وهو مغمض العينين فاغر الفم ممسكاً في يديه بخصلة
مستطيرة من شعر فاحم، فبادرته صائحة فيه:

- أبتاه هيا بنا.

ولمّا لم تسمع جواباً ظنته يلهو معها، فدفعته برفقٍ فإذا هو يسقط جثة
هامدة.



وبعد ست وثلاثين ساعة، أقبل السيّد «كانيفيه» - برّجاء من الصيدلي -
فقام بتشريح الجثة، ولم يجد شيئاً.

وعندما بيع كلّ شيء، تبقي اثنا عشر فرنكاً، استخدمت في دفع نفقات
الآنسة «بوفاري» إلي جدتها. ثمّ ماتت الجدّة العجوز في نفس السنة.

وكان الأب «روو» - والد «إيما» - قد أُصيب بالشلل، فكفلت الفتاة عمّة
لأمّها، كانت فقيرة، فأرسلتها لتكسب عيشها في مصنع لنسيج القطن.

ومنذ وفاة «بوفاري» تتابع علي «أيونفيل» ثلاثة أطباء، واحداً بعد واحد،
دون أن يوفقوا، فقد كان «هوميه» يحمل عليهم كلّ عنف، كان عدد عملائه
قد تضخم، وأغمضت السلطات أعينها عنه، وتكفل الرأي العام بحمايته.

وقد حصل لتوه علي وسام «الليجيون دونير» (جوقة الشرف).



مُعد ومُقدم الرواية

• وفيق صفوت مختار

- حاصل على ليسانس الآداب والتربية، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.
- حاصل على الدبلومة الخاصة في التربية وعلم النفس، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.
- عمل مُحرِّرًا صحافيًا بمجلة «هو وهي»، ومجلة «دُبي الثقافية».
- فاز بجائزة الشيخ «عبد المبارك الصباح» للإبداع العلمي عن نتاجه - «المُخدرات وأثرها المُدمِّر»، عن دار «سعاد الصباح» بدولة الكويت.
- سجل للتلفزيون المصري العديد من الحلقات في عدة برامج.
- تناولت جريدة الأهرام القاهرية كتابات المؤلِّف بالعرض والتحليل في باب «المرأة والطفل».
- تُرجمت بعض مقالاته إلى اللغة الإنجليزية.
- الكتب التي صدرت للمؤلِّف:
- 1 - مشكلات الأطفال السلوكية، القاهرة: دار العلم والثقافة، 1999 م.
- 2 - أبنائنا وصحتهم النفسية، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2001 م.
- 3 - المدرسة والمجتمع والتوافق النفسي للطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2003 م.
- 4 - سيكولوجية الأطفال ضعاف العقول، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005 م.
- 5 - سيكولوجية الأطفال الموهوبين، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005 م.
- 6 - الأسرة وأساليب تربية الطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005 م.
- 7 - مشكلة تعاطي المواد النفسية المخدرة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005 م.
- 8 - سيكولوجية الطفولة، القاهرة: دار غريب، 2005 م.
- 9 - بستان المعرفة، القاهرة: دار مونايزا، 2007 م.
- 10 - كتب ومكتبات الأطفال وتنمية الميول القرائية، القاهرة: دار الطلائع، 2009 م.
- 11 - فن رعاية الطفل في البيت والمدرسة، القاهرة: دار الطلائع، 2009 م.
- 12 - سيكولوجية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، القاهرة: دار غريب، 2010 م.
- 13 - وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال والشباب، القاهرة: دار غريب، 2010 م.
- 14 - تأخر الكلام عند الأطفال، القاهرة: دار البطوسي، 2010 م.
- 15 - النمو الحركي للطفل وأهم الأنشطة الترويحية والمدرسية، القاهرة: دار الطلائع، 2011 م.
- 16 - الصِّحة النفسية وأساليب تنشئة الطفل... أسريًا، وتربويًا، ومجتمعيًا، القاهرة: دار الطلائع، 2012 م.



- 17 - الموسوعة الأدبية الكبرى: أشهر المبدعات في التاريخ العالمي، القاهرة: دار الطلائع، 2013م.
- 18- الطفل الموهوب، طرق اكتشافه، وأساليب رعايته، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.
- 19- إشباع الحاجات الأساسية للأطفال: الجسميَّة، والعقليَّة، والنفسية، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.
- 20- الاكتئاب مرض العصر: كشف أسرارهِ، ومعرفة أسبابهِ، وإستراتيجيات الوقاية والعلاج، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.
- 21- كيف تتخلص من القلق وتبدأ الحياة من جديد، القاهرة، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.
- 22- أحذب نوتردام رواية للأديب «فيكتور هوجو»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 23- أنا كارنينا رواية للأديب «ليو تولستوي»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 24- ذهب مع الريح رواية للأديبة «مارجريت ميتشل»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 25 - كوخ العم توم رواية للأديبة «هاريت بيتشر ستو»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 26- الآمال العظيمة رواية للأديب «تشارلز ديكنز»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 27- 1984 رواية للأديب «جورج أورويل»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 28 - ابنة الحظ رواية للأديبة «إيزابيل النيندي»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 29- أحذب نوتردام رواية للأديب «فيكتور هوجو»، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدى، 2017م.
- 30- أنا كارنينا رواية للأديب «ليو تولستوي»، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدى، 2017م.
- 31 - الآمال العظيمة رواية للأديب «تشارلز ديكنز»، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدى، 2017م.
- 32 - محبوبة رواية للأديبة «توني موريسون»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2018م.
- 33 - نساء صغيرات رواية للأديبة «لويزا ماي ألكوت»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 34 - مدام بوفاري رواية للأديب «جوستاف فلوبير»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 35- مدام بوفاري رواية للأديب «جوستاف فلوبير»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- للتواصل مع المؤلِّف:

هاتف منزل: 093 /4774608

هاتف محمول: 01063549339

E-mail: wafeek. safwat2016@gmail. com

الفهرس

٢	الموضوع	مسلسل
3		المقدمة
5		تمهيد
41	القسم الأول :	
43	التلميذ الجديد	الفصل الأول:
53	الطيب وزوجته الأرملة	الفصل الثاني:
59	الزيارة المفاجئة	الفصل الثالث:
56	رغم كل شيء.. كانت تحبه	الفصل الرابع:
71	ماذا لو تزوجت؟	الفصل الخامس:
75	نافذة الخبر السار	الفصل السادس:
79	وليمة حفل الزفاف	الفصل السابع:
58	طعم السعادة يهب من جديد	الفصل الثامن:
91	في دير الراهبات	الفصل التاسع:
101	حب بلا أحاسيس	الفصل العاشر:
107	حدث غير عادي	الفصل الحادي عشر:
111	في قصر الماركيز	الفصل الثاني عشر:
125	أحلام باريس	الفصل الثالث عشر:
131	في انتظار ما لا يجيء!!	الفصل الرابع عشر:
137	الشقاء، والمرض.. والرحيل	الفصل الخامس عشر:



م	الموضوع	مسلسل
141	القسم الثاني :	
143	ملامح القرية الجديدة	الفصل الأول:
155	حديث جانبي.. في فندق الأسد الذهبي	الفصل الثاني:
165	ميلاد الطفلة «بيرت»	الفصل الثالث:
171	رغبة مستحيلة	الفصل الرابع:
179	عاصفة الحب التي تجرف القلب	الفصل الخامس:
158	وقد بدا لها فاتناً	الفصل السادس:
188	هل كانت امرأة فاضلة حقاً؟	الفصل السابع:
196	كانت تريد أن تعترف	الفصل الثامن:
203	الوداع الحزين	الفصل التاسع:
211	الحياة في الحي اللاتيني	الفصل العاشر:
215	نزوات وأحزان	الفصل الحادي عشر:
219	العاشق الجديد.. هل ينالها؟	الفصل الثاني عشر:
225	لقاء المعرض الزراعي	الفصل الثالث عشر:
237	مشقة البحث عن السعادة	الفصل الرابع عشر:
243	كانت تريد أن تتطلق كالليمامة	الفصل الخامس عشر:
253	رحلة الاستسلام الهادئة	الفصل السادس عشر:
536	مغامرات مجنونة	الفصل السابع عشر:
270	الورطة!	الفصل الثامن عشر:
275	غواية الحب	الفصل التاسع عشر:
279	موجة حنان طارئة	الفصل العشرون:
382	هل خسر الطبيب مهنته وزوجته؟	الفصل الحادي والعشرون:

م	الموضوع	مسلسل
299	امراة تتماذي في طيشها	الفصل الثاني والعشرون:
309	الاستعداد للرحيل	الفصل الثالث والعشرون:
322	رسالة الفراق	الفصل الرابع والعشرون:
323	الانهيار العظيم	الفصل الخامس والعشرون:
333	التوق إلي القداسة	الفصل السادس والعشرون:
343	في المسرح	الفصل السابع والعشرون:
351	التقسيم الثالث :	
353	هل تبدأ قصة حب جديدة؟	الفصل الأول:
371	من الكاتدرائية إلي العربية بلا توقف	الفصل الثاني:
379	غضب الصيدلي، ودهاء التاجر	الفصل الثالث:
393	نزوة جديدة	الفصل الرابع:
396	دروس الموسيقى في المدينة	الفصل الخامس:
401	لقاءات الخميس الغرامية	الفصل السادس:
411	فتح الديون	الفصل السابع:
421	لهفة الزوج المخدوع	الفصل الثامن:
425	ضيف ثقيل.. وعشيقه بائسة	الفصل التاسع:
433	فواتير مرهونة للسداد	الفصل العاشر:
439	امراة علي وشك الضياع	الفصل الحادي عشر:
449	تستحق الرثاء.. ولكنها ليست للبيع	الفصل الثاني عشر:
461	صدمة جديدة فيمن أحبت	الفصل الثالث عشر:
471	هكذا.. كان قرارها الأخير	الفصل الرابع عشر:
481	ومن الحزن ما قتل	الفصل الخامس عشر:
491		مُعد ومُقدم الرواية



